د. أحمد خالد مصطفى
ملك نصيبين
رواية
عصير الكتب

ملاك نصيبين

الكتـــــاب : ملائك نصيبين

المـؤلـــف : أحمد خالد مصطفى

تـدقيق لغـوي: عمرو ملش

تنسيـق داخلي : سمر محمد

رسام اللوحات ـ مصمم شخصيات الغلاف : مصطفى مرتجى

رسام الكوميكس : محمود حسن

تصميـم الغلاف : كريم أدم

الطبعة الأولى: ينــايــر 2019

رقـم الإيـداع : 2018/23879

I.S.B.N : 978-977-6541-97-9

المدير العام: محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس

00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

ملاك نصيبين

رواية

د. أحمد خالد مصطفى

إهداء

إلى أبي الحبيب .. الذي علمني كل شيء..

حملتني طفلًا وأدبتني .. أرشدتني غلامًا وحضنتني..
صاحبتني شابًا و علمتني .. آزرتني رجلًا و دعمتني .. و
أغثتني .. ونجدتني .. ونصرتني .. وأويتني .. فالشكر
لك .. و الحب لك .. والعمر لك .. والخلود لك..

إلى ميار .. التي رزقت حبها

حديث كنت أحدث به نفسي .. في غمرة من البرد .. عن غادة حسناء تأتيني وقد تثلجت أطراف روحي .. وتجفف شعوري و غاضت عاطفتي .. فتضع لي على كل قطعة برد في نفسي جذوة أستدفئ بها فتتوقد منها لهبًا و هيامًا ..

ومرت علي مقادير الزمان ولم تأت غادة ولا حسناء .. ولفحني البرد حتى قسا القلب واستوحشت النفس وبلغت ثلاثين عامًا أنظر في الوجوه والعيون .. ورفعت بصري إلى السماء و أيقنت أن ليس لي غادة ..

فائتلق في جو السماء جِرم كالشهاب .. في حلكة اسوداد الليل أجَّ وتوهج .. تابعته بعيني سارحا في شاغلي ومشاغلي ثم حولت نظري من السماء إلى الأرض .. فوجدته على الأرض كما كان في السماء .. منورًا لامعًا كأنما هو النجم إذا هوى .. فغشت على بصري دهشة الاستيعاب .. فلما أفقت فإذا هو ليس بنجم ولا هوى .. لقد كانت هي .. الغادة الحسناء .

عرفتها لأن روحي تعرفها .. منذ الأزل خلق لي ربي زوجتي من نفسي لأسكن إليها لما أراها .. فلما رأيتها عرفتها بدفئها الذي

يتكشف عند بسمتها .. عرفتها لما حدثتني .. وكأنها كانت تلقي نورًا من القول .. أشرقت له جنبات صدري .. وتهللت به قسمات وجهي .. عرفتها لأنها أبدع في عيني من جميع تصاوير خيالي .. هشت لها ملامحي و بش لها كياني .. وقامت روحي تعرفهم بها فتقول .. تلك التي خُلقت معها حتى كنت أعرفها قبلكم .. فاحفظوها في العين وأدخلوها إلى القلب .. ولا تدخلوا أحدًا بعدها كما لم تدخلوا أحدا قبلها .

إلى الصاحب القمة .. أحمد ياسين

إن كان شخص مسؤول عن قوة نفسيتي في كل حزن مررت به أو كرب .. فهذا الشخص هو أنت .. ولا أحد غيرك.

أنا القرين الموكَّل بوجهكَ القبيح!

هل تُدرِك مدى بشاعَة مُهمَّتي؟

أنت بكل غلائل نفسك وقبائح تفاصيلك.. أنام معك وأصحو...

أنت لا تتخيَّل أبدًا أيها الجرذ.

انظر إلى أقرب إنسان إليك.. الآن في هذه اللحظة!

انظُر له جيدًا واشعُر فقط أنك قد أوكلتَ به طوال حياتك!

تمشِي معه، تنام معه، تدخل الخلاء معه، تُفكِّر معه... شيء مُريع أليس كذلك؟

اعلَم أيها القرد أني أنا السيد الذي فوق رأسك.

أو عن يمينك أو عن شمالك...

آمركَ وأنهاكَ، أوجِّهك كما تُوجَّه النعجة!

أقول فتسمعني، أغيب فتغيب لذة حياتك.

ما الذي جاءَ بكَ ها هنا؟

تُريد حكايةً تُغني بها جوعك؟

أم جئتَ دافعًا لملَلٍ تعشَّش في روحك؟

إني أنا الذي جائعٌ لك.

أنا الملول الذي يتخذكَ للتسليَة.

تخيَّل لذةَ أن تلهُو بضفدع يظُن أن الكون كله قد خُلق لأجله!

هكذا الإنسان يظُن!، هكذا أنت... لكنني جئتك اليوم لأعرفك مقامَك حتى لا تعدُو عليه.

أنا السامي الذي يعلُو على قفاك في هذه الساعة وكل ساعة، أنا الأعلى وأنت الأدنى.

أنا هو الذي كذبتَ علي يا كاذب وسوّدت روحي ورسمتّني بصور من منابت خيالك العفِن...

أنا العالي عليك وعلى قبيلتك، أنا الأول وأنت بعدي أتيت!

أنا الشيطان.. أليس اسمي له هيبَة رغم أنفك؟ فدن رأسك أيها الداني وتعلّم درجتَك.

انسَ كل الذي تعلمتَه عني وقرأتَه عني وشاهدتَه عني... فكله هراء، ألفَه بشرٌ مثلك؛ كله بلا استثناء!

تعال أنا أُعلّمكَ أول درس، أنت مخلوق مهين من عائلة القردة!

في أول الزمان كنتَ أنت قردا!، تهيم على وجهك مثل بقية حيوانات الأرض!

لكن صدفت صدفة.

سيئةٌ جدًا تلك الصدفة، صدف أن أصدرت الطبيعة فيك طفرة؛ جعلَت لك عقلًا واعيًا.

تعال وشاهِد القرد الذي صار له عقل ماذا فعل في العالم؟

سفكَ الدم وأهلك كل شيء جميل!، وتعالَى على كل شيء، وظنّ أنه كل شيء.

المتعجرف اعتقَد أن الكون بملايين مجرّاته وملايين مخلوقاته قد خُلِق تهيئةً له أن يحضر ويُشرّف الأرض!

لطالما سالتَ نفسكَ عني فأجابتكَ نفسك بكثير من الكذب، وصدَّقتَها!

وإنكَ لتسائل نفسك الآن: ماذا يجعلني لمثلك قرين؟ ماذا يجعلني أشغل سمو نفسي لأجل سفاهاتك؟ وأنا هنا لأعلمك.

إن كنت تظن أنني قرينك أنت الذي يحوم بجوارك!، فأنت مُغفَّل.

فلستُ أدري أي عين ستفتح صحائف كلامي هذا وتقرأه، ارتقِ بعقلِك قليلًا حتى تساويني ودع عنك الغباء.

إنما أنا أتلو عليكَ حديث كل قرين، بنفس الحروف التي يوَد قرينكَ الذي فوق رأسك أن يقولها.

ما الذي يجعلني أنا البهي السامي ألتفِت إلى مهين مثلكَ وأشرفكَ بالحديث وأعلمكَ!

سأجيبكَ رغم أني ظننتُ أن هذا معلومًا لمن كان مثلك.

إن أنت لقيتَ صحائفي هاته وأخرجتَها من أكفانها فأنت لست من العموم العامة.

وطالما أنتَ تُمسك صحائفي في يدك؛ فإنما هذا يعني أن الذي أرشدك إليها قد أحجَم عن تنفيذ ما فيها، فعهدَ بها إليك أنت!

وأنتَ أيها المهين إذا قرأتَ ما فيها ثم لم تجِد في نفسك عليها همة؛ أعِدها إلى موضعها.

ودلّ عليها شخصًا ربما ترى فيه على ذلك قُدرة.

فإن لم تفعَل فارتقِب ذبحًا آتيكَ به من حيث لا تدري.

فإن دللتَ أحدًا عليها أسقطتَ عن نفسك الذبح، وفوّتَّ على نفسكَ نورًا لا تستحقه!

جاءك العلمَ فإما تصير به رفيعًا سامي الرتبة!، أو تبقى ملومًا محقورًا كما هي حالك.

ستجد في الردمية التي أخرجتَها خبيئة ظل إخباؤها سرًا عهدت به إلى صقائف السحار يتوارثونه فيهم.

صحائف، فيها منتهى العلم.

صحائف نُسمّيها الإيستوريجا، المكاتيب.

ولا تعجَل على فهم ما يعني اسمها؛ فليس العلم يؤتى دفقة واحدة، ولربما استشف عقلك من لفظها معناها.

إن ما أروم منك وأبتغي يفوق حدود فهمك الآن، لكن ليس بعد أن تنال من علم الإيستوريجا ما يكفي.

هذا العلم يؤتى تدريجًا أدرجكَ إياه، وترقية أرقيك فيها.

فكلما ارتقيتَ كلما فهمتَ الذي أنشده منك.

ليس ذلك العلم سحر، وليس ذلك العلم تنجيم... هذا العلم فوق ذلك كله.

هذا العلم لو تعلّمتَه ستصير به السيد المخلص؛ تدين لك الأرض من أطرافها.

أول دفقة من العلم أسقيك إياها هي أنا، أنا أول العلم ومنتهى العلم.

احفظ حروف اسمي في حفيظة من نور بداخل عقلك، (ظ ا م) اسمي «ظـــام».

اسودادي واسوداد عالمكَ سواء، عيناي شقيقتان لعين قط تتلوّنان في سودة الليل.

أذُناي امتلأتا بسماعات تلقيتُها في مقاعد للسمع في جو السماء، فكتبتُها وسطرتها فسموت بها فوق الجن والإنس.

ليس لبشر زري مثلك أن يطّلع على الإيستوريجا إلا أن يكون مختارًا!

وأنا اخترتكَ فافتح روحك لكل هذا العلم، وسنؤتيك المزيد.

مبتدأ هذا العلم كله في ذلك المجلد من الصحائف المحزومة بالرباط الأحمر.

أخرِجها من مرقدها وانفخ الغبرة التي تكتمها.

ذلك هو المجلد الأول؛ أخرِجه ودع المجلّدين الآخرين.

واقرأ الصحائف بترتيب تنسيقها.

وإن كنت عجولًا بالقراءة فسأعجل بقتلك، فلا تجعلني أعجّل.

(۱)

ملك
وساحر
وشيطان

قبل ألفين من السنين إلا مائتين، تعاظمت مملكة سبأ بين الممالك، بحشد من جنات تمتد على أرضها وتزين جبالها، وقصور وبنيان وبيوت من مرمر وأحجار ورخام... وتتابعة يحكمونها في سلسلة طويلة من الزمن، يرادفون في عظمتهم قياصرة روما وأكاسرة فارس... حتى أتى عليها زمان؛ قبل ألفين من السنين إلا مائتين، حوصر ملكها التبع الحكيم «ملكيكرب» فوق قمة جبل «أهنوم» الكبير، وكان يتراجع بقدميه إلى الحافة ناظرًا إلى محاصريه بعيون ليس فيها خوف، بينما كانت عيونهم تناظره وتساقط عليه شررًا يمتلئ حقدًا وشرًا وشماتة... وخاصة عيون رجل منهم يقف في منتصفهم؛ رجل سيصير ملكًا على اليمن إن سقط «ملكيكرب» من هذه الحافة في هذا اليوم، رجل يدعى «كرب إيل وتر»، وإن كرب في اليمن القديم تعني السيد، ويبدو أن «كرب إيل وتر» لم يصبر ثانية أخرى إذ هجم على الملك وضربه بدرع كان معه ضربة أطارت قدمي الملك من مكانهما وأطارت جسده تجاه الهاوية!

ظل جسد الملك يهوي وهو شاخص ببصره إلى من أسقطوه!، وبدت عيونهم من مكانه كأنها تلمع منتصرة ومتشفية، ثم أغمض عينيه وهوى... ومضت على باله ذكريات سراعًا قبل أن يموت؛ ذكريات زوجته الجميلة «فارعة» وابنه المشاغب «أسعد» الذي كان يأمل أن يخلفه من بعده ويصير تبعًا عظيمًا.. لكن بعد هذه السقطة لن يكون ابنه تبعًا، بل إن مصيره سيكون الموت؛ فإن «كرب إيل وتر» لن يترك أحدًا من سلالة الملك ينازعه ملكه بعد حين من الزمن.. انفطر فؤاده لما أتاه هذا الخاطر، واستسلم لصدمة جسده في صخرة في سفح الجبل، ودماءه التي سالت على الحجر راسمة خطًا دمويًا ينذر بانتهاء حكم سلالة «ملكيكرب» إلى الأبد.

وبعد دقيقة واحدة نظر الملك الجديد إلى زبانيته وأصدر أمرًا واجب النفاذ؛ أن الطفل أسعد ابن «ملكيكرب» يجب أن يلقى حتفه الليلة!، وأن يتم ذلك في غفلة من الناس وفي غفلة من أهله، وبطريقة تبدو بها ميتته طبيعية لا شية فيها.

في قصر تسيل المياه من شعابه أنهارا تُزيِّنه من فخامته، عرف في التاريخ بقصر خمر. كان يعيش الطفل أسعد و أمه «فارعة» وجدّه «موهبيل»... ولقد نزلَ عليهمِ خبر وفاة الملك كأنه زلزال قوّض أركان قصرهم؛ قيل لهم أنه مرضَ مرضًا شديدًا ثم مات، لكن «فارعة» كانت تعرف، إن زوجها قد قتل هذا مؤكد، ولقد بكتٍ حتى نفذ الدمع منها، ونظرت إلى ابنها نظرةَ خوف وترقّب، ابنها الذي لم يبلغ من السنوات خمسًا ولا يدري من أمره شيئًا، وكيفَ ستقول له خبر موت والده!، أعياها التفكير فارتمت على ساعد أبوها العجوز «موهبيل» الذي كانت تأتيه أفكار كثيرة في تلك اللحظة عن ذلك الطفل «أسعد» وكيف يحميه.

وفي ذات ليلة.. وفي غفلَة من الجميع، خرج الطفل «أسعد» من القصر، ولمَت لخروجه عيُون كانت ترقبه، خرج كأنه خرج لقدَره!، كان يبحث عن اللعب والصحبة؛ فليس في قصر خمر لعب ولا صحبة، ليست فيه إلا نوافير ومياه تجري أنهارًا وأحزان تلف الأركان وتهزها!، خرج أسعد وراقبته الأعيُن حتى دخل السوق، ولقد شكرت تلك الأعين حظها، فإن ذلك الطفل قد انسَل انسلالا من القصر في غفلَة حتى من الحرس أنفسهم، ولقد كانت العيون التي ترصُد أسعد وتتبعه هما امرأتين؛ مرسلات من عند الملك الجديد، امرأتان قاتلتان.

وفجأة أمسكَت بكتف الطفل يد أنثوية، فنظر وراءه فإذا امرأتين مُبتسمتين ناظرتَين إليه بودًا!، قالت إحداهما:

- أيها الطفل إنا مرسَلات من عند جدّك «موهبيل»، ألم يقُل لك ألا تخرُج من القصر بدون علمه، إنه يجب علينا أن نعيدَك الآن.

تأفّف الطفلُ الصغير وقال:

- إني أريد اللعب.. دعاني ألعَب قليلًا ثم أعيدَاني بعدَ حين.

قالَت المرأةُ الأخرى:

- إن كنتَ تريد اللعب فتعالَ أدلّك على واحَة يلعَب فيها الصبيان ثم نعيدك إلى أمك.

تهلّلَت أسارير «أسعد» ومشى معهما وكل امرأة منهما تُمسك بيد، ومشيا حتى انتهيا به إلى جبل أهنوم، ثم أخذتا تصعدانْ به صخور الجَبل حتى وقفتَا عند حافةٍ في وسَط الجبل ونظرتا منها إلى الأسفل حتى اطمأنتا أن البُعد

مناسب، ثم ضربَت إحداهن «أسعد» بقدمها فتعثَّر وسقطَ من عالٍ وهو يصرُخ حتى غاب في الظلام... واستدارت المرأتان وعادتا من حيث آتيتا، وظلت صخور جبل أهنوم صامتةً وكأنها في حدادٍ على ملك وابن ملك قد نزفا هاهُنا في يومين!

في ظُلمات تكوَّمَت تحت سفح الجبل، كان يرقُد جسد طفل صغير، تهاضمت عظامه وتقصَّفت!، وبدا أنه يُنازع ليُبقي روحَه حية، وكان واضحًا أنه سيفشَل!، وطالعت عينه طيفًا آتيًا عليه من بعيد، وظل الطيف يقترب حتى ظن أنه سيتبيَّنَه لكنه اختفى كأن لم يكن!، هلاوِس ربما خلقها فؤاده ثم أخفاها، كان الطيف قد مضى ليختفي وراء حجر قريب، وظلَّ الطيف ينظر إلى الطفل بعينين مُشفقتين تترقرق فيهما الدموع!، ثم ذهب الطيف من المكان كأن لم يكن له وجود!، وبقي الطفل يئن من الألَم، وتُكافح عيونه لترى ما تبقى له من الحياة.. ثم أتى الطيفُ يتهادى إليه، لكنه كان هذه المرة واضحًا، واقترب حتى وقف عند رأس الطفل وانحنى، ونظر إليه الطفلُ بألَم، فإذا هي امرأة تنحني عليه وتمدّ يدَها لتلمسه!، شيء ما في نظراتها أسكنَه!، كانت لها عينان كأنهن الدرّ الأزرَق، وضعت يدها على عينه فأغلقتهُما بلُطف، ثم غاب الطفل عن الوعي.

تراءت له الدنيا من بين عينين منهكتين، شعرَ أن آلامًا شتى قد زالت وآلامًا أخرى قد خفَّت وطأتها، وأصبح قادرًا على تحريك عظامه، فارتفع عن مرقده ونظر إلى أجمل بسمة قد تكون رأتها عينه الصغيرة من قبل، كانت رقيقة بيضاء ذات عينين فيهن زرقة عجيبة، كانت قد عالجت آلامه وأناته حتى لا يكاد يشعر بشيء، قالت له أن اسمها «إينور»، وأنها تسكُن بالجوار، قال لها أنه «أسعد» ابن الملك «ملكيكرب»، وأن أباه قد ذهب في رحلةٍ طويلة، وأنه ربما سيعود قريبا و...

- هراء.. إن أباكَ لن يعود من أي مكان أيها الطفل!، إن أباك الملك قد مات.

كان هذا صوتًا اعتراضيًا أتى من مكانٍ ما خلف الفتاة «إينور»، فنظرَ الطفلُ فرأى رجلًا في هيئته كثير من البهاء وكثيرٌ من الغرابة... كان أشقَر الشعر الكثيف الناعم المنسدل على كتفيه، وذو ملابس لم يعتَد الطفل على رؤيتها!..

تقدَّم الأشقر ناحيَة «أسعد» وقال له:

– وأنتَ أيضا قد متَّ قبل يومين، ولقد أعلنوا خبرَ موتك في كافة أنحاء مدينة خمر!، قالوا أن الضباع قد أكلَتك.

كان «أسعد» مشدوهًا يترقرق في عينه كثير من الدمع، وحكى لهما عن خروجه من قصر خمر، وعن المرأتين، والواحة التي يلعب فيها الصبيان... نظر الأشقر إلى «أسعد» بعينين لا تعرف المحاباة:

– إن جنسَكم أبشَع من الضباع، ولا تظن أننا منكُم، إنما نحن من الـ...

صاحَت «إينور» صيحةً لتُسكِت الرجُل...

وظلَّت عين «أسعد» تتنقَّل بين الرجل والمرأة وتتحرَّك تلقائيًا لتلحظ المكان من حوله!، وإن تفاصيل شديدة الغرابة التقطتها عيناه الصغيرتان...

أيامٌ مضَت حتى عادت صحَّته أفضل مما كانت، وأتت ساعة قالت له «إينور» برقَّة أن أوان رحيله قد حان!، وأنه يجب أن يذهَب مع الأشقَر ليُعيده إلى قصر خمرٍ عند أمه وجده فلقد كاد الحَزن أن يُهلكهما، ولقد هرع الطفل إلى «إينور» يحتضنها، نظرَت له بحنانٍ وقالت أنه يُمكِنه أن يأتي ليزورها في أي وقتٍ يشاء؛ فإنها تعيش في هذه الأنحاءِ.

أمسك الرجلُ بيد الطفل وسحبَه معه ماشيًا، نظر «أسعد» إلى الرجل، كان بهي المنظر هو الآخر بهذا الشعر الأصفر الطويل المميَّز الذي يملكه، عرف أن اسمه «عمرو بن جابر»، وأنه زوج الجميلة «إينور»، وكان «عمرو بن جابر» ذا طبع حاد، لكن المرء يشعُر بالأمان وهو يجاوره بطول قامته وبهائه وقوة عينيه.

لاحظَ «أسعد» أن «عمرو بن جابر» قد تلثَّم وجعل هندامَه أكثر طبيعية، وتوجَّهَ به مباشرة إلى قصر خمر، هنالك هبَّت أمُّه تتحسَّسه من بين طوائف أحزانها، ونظر «عمرو» إلى جدّ «أسعد» وقال له:

– إن عرف فردٌ واحد غيرَنا أن هذا الطفل حَي فإنكَ ستجِده غدًا مُحرقًا!، وساعتها لن تجد أحدًا يأتيك به، وإنه ليس لك إلا أن تُخرجه من قصرك هذا وتُرسِله ليعيش في مدينة ظفار، على ألا يعرفه أحد من الناس... وإني لك ناصِح، فإن في ظفار رجل صالح يُدعى «شافع»، يأتيه

الصبيان ليتعلَّموا كنوز العلوم، فلتذهب بطفلك هذا إليه، فإنه سيُعلِّمه ويكتُم عنه.

نظر الجد «موهبيل» إلى «عمرو بن جابر» وهو يتحدَّث، سألَه :

- من أنت!..

فنظر «عمرو» إلى الطفل وبدَت في شفتيه كهيئة ابتسامة!، ثم نظرَ إلى «موهبيل» وقال وقد تغيَّرت ملامحه إلى الجد في ثانية:

- ليس يعنيكَ من أنا، ما يعنيكَ هو أنني أعدتُ لك حفيدَك هذا من بين ضباع الجبل.

واستدار «عمرو» وانصرَف... وأخذ الجدّ والأم يسألان الطفل عما حدَث معه، والطفل يروي، وعلامات الاستغراب تُراود العيون، لكن علامات الذُعر كانت مطبوعة على وجوه حراس قصر خمر!، فهناك، وعند بوابتهم التي يحرسُونها والتي أغلقُوها بأقفالٍ من حديد قبل قليل بعد أن أدخلوا منها الطفل والرجُل الأشقَر الملثَّم الذي كان يُرافقه، عند تلك البوابة التي ليس لقصر خمر مخرَج ولا مدخَل سواها، وجدوا الرجل الأشقر واقفًا بينهم خارج البوابة ناظرًا لهم بعينٍ من فولاذ... وقال لهم:

- أتعجبونَ أن يخرُج من بوابتكم هذه رجل كامل يمُر من تحت أنوفكم!، ولقد عجزَت عيونكم من قبل أن تلحَظ طفلاً يخرُج منها بكل الإزعاج الذي يسبِّبه!

نظر الرجال إلى البوابة باستغراب وشعور بالإهانَة، إن فيها فرجات صغيرات ربما تنجَح في تمرير طفل، أمَّا رجُل كهذا فمستحيل!.. نظروا إلى الرجل ثانيةً بذُعر فلم يجدوا مكانه إلا هواء!، وكأنه خرجَ من الأرض ثم عاد إليها، تلفَّتوا حولهم وإلى مَد بصرهم بحثًا عن «عمرو»، لكنهم لم يجدوا إلا وجوههم تنظُر إلى بعضها في ذُعر!، وكان «عمرو» في تلك اللحظة نفسها يسير عند جبل أهنوم، وكأنه كان شيطانًا.

أسواقٌ وضجيجٌ ودروبٌ وبشَر... هذا ما كانت تراه عين الطفل «أسعد»، كان يستدير هنا وهناك وجدّه يسحَبه من يده معه داخل مدينة ظفار، وكان

أمامهما رجل مُلثّم ذو شعر أصفَر يُدعى «عمرو بن جابر»، حتى إذا انقطعَت عنهم كثرة المساكن، إذ وصلوا إلى ما بدا كأنّه صومَعة أو دير، وفيه رجُل أبيَض الثياب واللحية والشعر... كان الجد «موهبيل» ينظر إلى الدير وإلى الرجل باستغراب!، فلم يعتَد أن تكون أديرة النصارى هكذا ولا زِيهم. في تلك اللحظة كان «عمرو بن جابر» يميل على أُذن الرجل ويُلقي إليه كلامًا ثم ينظُر إلى «أسعد»، استبشرَ وجهُ الرجل ذو الرداء الأبيض وتكلم فأحسَن الكلام واحتفى بالجد ووقّر الابن، وقام فأخذ الكل معه إلى باب كبير وفتحَه فإذا وراءه جمع من حُدثاء السن والأطفال يتذاكرونَ كتبًا وسطورًا... مالَ «عمرو» على الجد «موهبيل» وقال له:

- إن هؤلاء إما يتامى أو مساكين.. وإنه يُعلّمهم كل شيء، الأدَب والشعر والفلَك والحساب... تذكّر اسمه جيدًا.. «شافع بن كليب الصدفي»، لأنك ستشكُره إذا بلَغ ولدك ونبَغ... إن ولدك هنا لن يدري عنه أحد، وسيكبر ويتعلم بأفضل مما ترتقِب.

أعجب الجد بالمكان واطمأن، ولما مضى كل رجل إلى حاله وتركوا «أسعد» وحيدًا أخذه الراهب «شافع» وأجلسَه وسط قرنائه الأطفال، وظلّ بينهم سنين خمس؛ يقرأ ما يقرؤون، ويحفَظ ما يحفظون... وكلّما مرّت سنة بلغ عقله من الفهم مبلغًا عظيمًا، تعلّمَ أن هناك ثور عظيم يعبُده أهل اليمن اسمه «المقه»، وأن هذا حمق وأباطيل، وأنه لا إله إلا من سمي نفسه «رحمنن»، وكانوا يسمونه «ذي سماوي»؛ يعني الرحمن سيد السماء، وتعلم صلاة فيها ركوع وسجود، ولم يكن يقطع أمه «فارعة»، ولم يكن يقطع «إينور» ساكنة الجبل، ولم يكن «عمرو بن جابر» يقطعه بل كان يأتيه كل حين فجأة، كأنما يظهر من اللامكان!، ولقد كان «أسعد» يُحاول دائمًا أن يسأل الراهب «شافع» عن «إينور» وعن زوجها الغريب «عمرو بن جابر»، لكن الراهب كان يُمهله حتى يكبر.

حتى بلغ من السنين عشرًا.. حينها قال له الراهب:

- أعلم يا «أسعد» أن هناك أقوامًا يرونَنا ولا نراهم، ويسمعوننا ولا نسمعهم، يسكنون سفوح الجبال والوديان... إسراعهم في الأرض أسرع من لمح البصر، لهم زوجات وأبناء وقبائل، لا يُخالطوننا ولا نُخالطهم... إلا أنهم إذا أرادوا منا أمرًا تمثلوا في هيئة تُشبه هيئتنا فنراهم ونحدثهم، فإذا انتهى غرضهم منا ذابوا في طيّات الهواء كأن

لم يكونوا، نُسمّيهم الجن لأنهم جنوا وخفوا عن أبصارنا، وإن منهم صالحين ومنهم شياطين يكرهونك ويكرهون اليوم الذي مشيتَ فيه على هذه الأرض!

اتّسعت عيون «أسعد» وجعل يلمَح في ذاكرته ملامح مما رآه عند «إينور» وزوجها... واستغرقته خواطره حتى انتبَه إلى كيان يجلس بجانبه!، فنظر إليه فإذا هو «عمرو بن جابر»!، بملامحِه الوسيمَة وشعره المنسدِل وعيناه الصريحتان.

انتفضَ «أسعد» من مكانه كأن عقرَبًا لسعَته ثم أهدأ نفسه واطمأن لما رأى بسمَةَ «عمرو» التي لم يكن يراها كثيرًا... قال «أسعد»:

- هل أنتَ شيطان؟

ضحكَت عين «عمرو» وقال له:

- وهل أنتَ شيطان؟

قال «أسعد» بغضبٍ طفولي:

- أنا بشَر.

قال له «عمرو»:

- أنتَ إذا أصحبتَ ولدًا سيئًا مُتمردًا قلنا عليكَ شيطان.

قال «أسعد»:

- ولكنك تـ...

قال له «عمرو»:

- الشيطان صفَة لكل مُتمرِّد، ونحن مثلكم، منا الصالحون ومِنا الشياطين.

قال «أسعد»:

- ولماذا تسكنون الجبال والصحراوات؟

قال له «عمرو» مُبتسمًا:

- لأنكم تزعجوننا.

بدا على «أسعد» أنه لا يفهَم جيدًا!، ففكَّر «عمرو» ثم قال له:

- إذا أعطيتُك هذه الحصيرة الآن وقلت لكَ اذهب وافرِشها في مكانٍ لتنام فيه ويكون لك مسكنًا... هل ستذهَب لتفرِشها وسط المواشي والقَطَط؟

قال له «أسعد»:

- لا.. سأجِد مكانًا مُريحًا أفرِشها فيه بعيدًا عن الإزعاج، وس...

سكتَ «أسعَد» بُرهةً ثم فهم ما يُريد أن يقوله «عمرو»، ثم قال بغضب:

- إذن هل أنتُم تعتبروننا مثل المواشي والقطط؟

ضحك «عمرو بن جابر» وقام «أسعد» يُحاول مناكشته والتعلُّق به والركض خلفَه، ولعب «عمرو» معه حتى خرجا إلى خارج الدير وهما يتضاحكان... ثم لاحظ «عمرو» شيئًا فأوقَف «أسعد» بحَزم!

كان من بعيد يأتي آتيان وحولهما جمهَرة من الناس؛ أحدهما شاب طويل أسمَر اللون أسود الشعر، ينزل شعره أمام كتفيه في ضَفيرتين كبيرتين، له ملامح لا تمزح، والآخر رجُل عجوز صحيح البدن يرتدي ثيابًا مُتهدِّلة وشيء في هيئته لا يبدو مريحًا. كان الأسمر الطويل شابًا من الأعيان يُسمِّيه الناس «ذو نواس» بسبب الضفيرتين، والعجوز الذي يُرافقه أينما ذهب هو الساحر «هيرا»، وكل من وراءهما من الناس من مُريديهما يطلبون برَكتهما... لاحظ «أسعد» خروج الراهب «شافع» وبعض تلامذَته يُعاينون الضجة.

أمسك «عمرو بن جابر» يد «أسعد» مسكةً حازمةً وقال:

- الآن هذا هو الشيطان!

ارتجَف «أسعد» ولم يفهَم تمامًا، إلا أنه التصَق بعمرو بن جابر ليستشعر في قوته قسطًا من الأمان، اقترب الشاب الأسمر «ذو نواسٍ» والساحر «هيرا» من الدير، وكادا يمضيان في طريقهما إلا أن الساحر توقَّف فجأةً ونظر إلى «عمرو بن جابر» نظرةً لم يفهم سببها أحد من الواقفين!، لم يكن «عمرو» ينظر إلى الساحر، بل كان ينظر فوق رأس الساحر بنظرة أيضًا لم يفهمها أحد من الواقفين، قال الأسمر «ذو نواس» وهو ينظر إلى رفيقه الساحر:

- هل يُضايقك هذا الأشقَر فأسوِّدَنَّ له خلقته هذه؟

كان «عمرو» وكأنه في عالَم آخر ينظُر إلى ما فوق الساحر «هيرا»؛ فهناك، وفوق كتف الساحر بقليل كان يقِف شيطان!

شيطان يطفُو في عباءة سوداء تنزِل من فوق رأسه إلى قدميه، ولا يكاد يظهَر منه إلا وجهه!، ولقدْ بدا وكأنه أبشَع وجه على الأرض خُلِق، كان «عمرو» يُتمتِم بكلام لم يسمَعه سوى «أسعد» الذي سمعه وهو يقول:

- يا إلهي.. هذا «إزب».

همَّ الأسمر ذو الضفائر بالهجوم على «عمرو بن جابر»!، وتقدَّم ماشيًا إليه بالفعل، لكن كلمَة من الساحر أوقفَته!، لم تكن كلمة الساحر موجَّهة له، بل كانت مُوجَّهة للراهب «شافع»... قال له:

- ألازلتَ في ديركَ هذا وفقرك؟ ألم يأتك ربك «رحمنن» ببعض المال طوال عشرين عامًا؟ إني لا أراك إلا تزداد فقرًا وشحوبًا.

قال الراهب «شافع» بصوتٍ قوي:

- لستُ صاغرًا من أعطاني المال سجدتُ له.. هذه الجبهَة لا تسجُد إلا للذي خلقَها، تركنا المال ليجبيه خبيثٌ مثلكَ من جيوب المغفَّلين الذين من حوله.

سرى بين الجمع إنذارٌ بالعراك!، إلا أن إشارةً من الساحر أوقفَتهم، وبدون كلمة أخرى نظر الساحر «هيرا» مطوَّلا إلى «عمرو بن جابر»، ثم تحرَّك مُغادرًا المكان وتبعه الأسمر الشاب كأنهما الظل وصاحبه.. والتفتَ الشيطانُ ذو العباءة السوداء من فوق الساحر ينظُر إلى «عمرو بن جابر» أيضا، ثم كوَّنت أسنانه ما بدا أنه ابتسامة، لكنها كانت ابتسامة شديدة الدمامة.

كان ذو نواس وساحره «هيرا» يمتلكان قلوب كثير من الناس خوفًا وطمعًا، ولقد ظلّا يمشيان في ذلك الطريق حتى أتت عليهما خيل بفرسانها، وتوقَّفت عندهما.. قال لهما أحدُ الفرسان من فوق خيله:

- أنت «يوسف ذو نواس»؟ نعم يبدو أنه أنتَ فوصفكَ بجدائلك هذه لا يُخطئك، جئنا لك رسلًا من عند الملك «كرب إيل وتار»، إنه يُريدك في قصره.

وتفلتت بعض الضحكات من باقي الفرسان لم يتمكّنوا من كتمانها، نظر «ذو نواس» لهم بلا اكتراث ثم ولى وجهه وهمّ بإكمال المشي إلا أن صوت إخراج السيوف من أغمادها أوقفه قليلا، عندها مال عليه الساحر «هيرا» وأسرّ إليه بكلمات لمعت لها عين «ذو نواس»، لمعتا لمعةً بدت مخيفةً لبعض الفرسان، ثم نظرَ إليهم وقال مباشرة:

- إذن هيا بنا إليه.

وفي قصر تتمدّد الجنان من حوله.. كان ينعَم «كرب إيل وتر» بمُلك عظيم، وكان وقت الليل قد دخَل وأضيئت المشاعل في جنبات القصر وأضاءتْ النجوم السماء... ودخل «ذو نواس» وسط كل هذا والحراس ينظرون إليه نظرةً فيها من السُخرية الشيء الكثير، وبعضهم عمل بيده خفيّة ساخرًا شكل الجدائل الطويلة، فضحك أصحابه ضحكةً مكتومة، ثم أدخلوه إلى غرفة كبيرة فيها من الزينة والتحَف ما فيها، وفيها حرس واقفون كأنهم الأوتاد ووجوههم إلى الحائط في مشهد أخذ بصر «ذو نواس» قليلا وهو الذي لا يكترث بشيء عادة!، ثم دخل عليه «كرب إيل وتر» في حلة حمراء تكشِف أطرافه، وقال في لهجةٍ غير مريحة:

- أنتَ اليوم ضيف الملكِ يا «ذو نواس»، ضيف ملك سبأ، وإنني قد سمعتُ عنكَ وعن وسامتكَ وشهرتك... فاليوم هو يومك.

كان «كرب إيل وتر» بعد أن أسقط «ملكيكرب» من فوق الجبل وأرسل المرأتين لقتل الطفل «أسعد» بدأ يتخذ طريقةً خسيسة في إقصاء شبابِ عائلة «ملكيكرب» منِ احتمال القفز على الحكم؛ طريقة هي أخَس ما وصلت إليه مخيّلة ملك حكم هذه الأرض يومًا، كان يستدعي أبناء العائلة حتى أصحاب القرابة البعيدة، ويفعل بهم الفاحشة!، فيشاع بين الناس أن هذا الشاب من العائلة مفعول فيه كذا، فيصير موسومًا بها بقية حياته، فلا يجعله الناس ملِكا عليهم يومًا أبدًا!.. قال له «ذو نواس»:

- إذن فقد أخبروك عني كل شيء، أفلم يُخبروك أيضًا أنني أكرهكَ وأكره اسمك إذا ذُكر أمامي.

وفي لحظة واحدة أخرَج الحرسُ الواقفين سيوفَهم نصف إخراج وهم لا زالت وجوههمْ إلى الحائط!، نظر لهم «ذو نواس» ثم قال بلهجة مَن خضَع:

- يبدو أنك ستجبرني أن أفعل ما تريد أيها الملك، أين يمكنني أن أخلَع حذائي؟

أشارَ له «كرب إيل وتر» أن يخلعه في أي مكان، وانحنى «ذو نواس» ليخلَع الحذاء، فأخرَج من تحت حذائيه خنجرين ماضيين كان يخفيهما، ثم استدار وانقضَّ كعاصفة فاجعَة على كل الذين يولونه ظهورهم فقطع رؤوسَهم بحركة ليس يُحسنها سوى فارس شديد المهارة، ثم استدار إلى ذو الرداء الأحمر فوثب عليه يقطَعه حتى اختلطت دماؤه بردائه الأحمر ثم حزَّ رأسَه حزًا كأنه بعير.

وكان «كرب إيل وتر» إذا انتهى من فعلَته السيئة في أي شاب يظهر رأسه من شباك الغرفة وهو يضع مسواكًا في فمه!، فيفهم الحرس لما يرون رأس «كرب إيل وتر» أنه قد فرغ مما كان يفعل، في تلك اللحظة كان الحرس ينظرون إلى شباك الغرفة كل حين حتى ظهرت لهم رأس «كرب إيل وتر» وفي فمه مسواكٍ، فتضاحكوا بينهم، ثم نزَل «ذو نواس» من القصر، وتحرَّك خارجًا ولم ينظر حتى إليهم!، قالوا له وهم يتغامزون:

- ما فعل بك الملِك؟

ابتسمَ ابتسامةً وقال دون أن ينظُر إليهم:

- اسألوا الرأس.

ثم مضى في طريقه.. ونظر بعضُهم إلى بعض ونظروا إلى رأس ذو نواس الظاهرة من الشباك، ثم أصابَت أحدهم بعض الريبَة فدخَل إلى القصر.

كان «ذو نواس» يمشي وهو يُعدِّل هندامه ويُتمتِم بكلمات غير مفهومة حتى توقفت خطواته أمام صيحة الحرس من ورائه.. أيها الشاب... قبض «ذو نواس» يده على خناجره، لكن الحرس كان لهم حديث آخر!.. قالوا له أن ليس من رجل يجدر أن يكون ملكًا مكان ذلك الخبيث إلا رجل جسُور مثلك، رجل من بني «ملكيكرب»، فلقد أتعَبنا ذلك القذِر بفواحشه.

وشهدت سبأ بزوغ ملك جديد عليها؛ ملك تناقل سيرته القاصي والداني، «ذو نواس»، ذو الغديرتين، كان أول شيء فعله «ذو نواس» لما دخل إلى القصر هو شيء يسير مما كان يخبئ لصفحة الزمان، أمرَ بأولئك الحرس الذين تبعوه ونصَّبوه ملكًا، فلما أتوه ومثلوا أمامه قتلَهم كلهم!، لأنهم هزؤوا به ذات يوم؛ هزؤوا بالملِك.

وحكَم «ذو نواس» اليمَن.. وتحوَّلَت محبَّة الناس له واجتماعهم حوله طمعًا في تحقيق رغباتهم إلى خوف شديد منه، فهو الملك الوحيد الذي يُرافقه ساحر، ونمَت كلماتٌ في البيوت أن «ذو نواس» يراكم ويسمعكم بتوابعه وشياطينه!، «ذو نواس» يعرف كل شيء ويرى كل شيء... ونمت الإشاعات التي يُخرجها الناس عنه وعن سِحره وقدرته حتى صيَّره بعضهم إلها يعلَم كل شيء، ويقدر على كل شيء... وطغى «ذو نواس» فصار يفعل أمورًا لم يكن يفعلها الملوك قبلَه، وأصبح واضحًا أنه يحقر جميع الأديان!، ويكفي أن تقول أمامه أن دينك كذا أو كذا فربما ينزلك إلى أسافل الأرض!، ولم يكن هذا غريب ورفيقه هو الساحر «هيرا»، وليس السحر إلا تحقير من شأن الأديان، وتعظيم من شأن الشيطان... فكانت تخرُج بأمره حمَلات تهجم على كنائس النصارى فتهدمها عن بكرَة أبيها. خمس سنوات مرَّت من حكم «ذو نواس»، ولم يكن أحد يجرُؤ على مُجرَّد الوقوف ضدّه، حتى أتى ذلك اليوم.

شعرَ الساحر «هيرا» بدنُو أجَله.. فقال:

- يا «ذو نواس» تعلَّم السِحر مني فتملك البلاد من بعدي سنين طوال.

ولقد كان الساحر «هيرا» يُراوده بذلك حتى قبل أن يصير «ذو نواس» ملكًا، لكن «ذو نواس» كان يرفُض دَومًا، ما كان يرضى أن يكون تابعًا لأحد، جِنًا كَان أم إنِسًا... وليس السحر إلا أن تكون للشيطان خادمًا، أما هو فلا يُرضيه إلا أن يكونَ الأعلى، الآمر الناهي، لا يخدِم أحدًا ولا يسترضي أحدًا، بل الكل يخدمه ويسترضيه، فلما ملَّ الساحر من إقناعه أشار عليه أن يختار من شعبه رجلًا يأتي إليه كل يوم يتعلَّم منه السحر، فرفَض «ذو نواس»، فإنه لو تعلَّم رجُل السحرَ يومًا سينقلب على الحكم يومًا آخر بقُوة ذلك السحر، فأشار عليه الساحر أن يختار صبيًّا غلامًا صغيرًا، يكون ذا عقل ألمَعي، يتعلَّم السحر وأصوله ويكون مُضغَة في أسنان الملِك يُكيِّفه كيف يشاء... فوافقَ «ذو نواس».

واختار فتى من أقصى المدينة يُقال له «عاصف»، لم يكُن ذا شأن كبير لكنه كان ذو فطنة لا شك فيها، واشتهر في المدينة أمر «عاصف» الذي سيتعلَّم السحر من ساحر الملك، وصار الكل يهابه بعد أن لم يكُن ذا بال، يمشي في المدينة فيتهامَس الناس واقفين بعيدًا عنه، ولو كنت ذا عين ترى الجن لوجدتَ «عاصف» ماشيًا في ذلك اليوم وقد زارته خيلاء بعد أن تغيَّر حاله وصار تلميذ

الملك، ويُحلّق وراءه في الهواء «عمرو بن جابر» بهيئته الجنية التي لم تكُن تختلف عن هيئته البَشريّة الشقراء التي يتمثل بها عادة.

وتابعه «عمرو بن جابر» خفيةً حتى دخل على الساحر في قصر الملك، فأمره الساحر أن يفتح كتابًا ويقرأ ما فيه بصوت عال... وبدأ الغلام يقرَأ وقشعريرةٌ ظهرَت في صوته الفتي!، لكنه لم يفهَم ماذا كان يقرأ، فإنه وإن كان مكتوبًا بحروف آرامية يعرفها لكنها منطوقة بلغة أخرى، لغة يتعثر اللسان عن إجادتها، كان «عمرو بن جابر» ينظر ثم شعرَ بحضور كيان آخر من وراءه!، فالتفتَ فرآه... كان ذلك الشيطان نفسه الذي رآه سابقًا حائمًا فوق الساحر، بنفس خلقَته البشعَة، وطاقة روحيَّة عاليَة تنبعث منه لا يعرف تقديرها إلا الجن، لكن «عمرو بن جابر» لم يكُن صبورًا، فانقضَّ على الشيطان.

شعرَ الغلامُ كأن عصفًا يجري في الأجواء، لكن فؤاده ثبتَ وصار ينظر إلى الساحر كل حين، وهنا قلق، فقد بدا الساحر الواثق ينظر إلى ما حوله في استغراب نظرةَ الذي يشعُر بخطب ولا يراه... فصرخ الساحرُ في الغلام أن ينصرفَ، فقام الغلام فانصرَف، ولم يرَ الساحِر شيئًا مما دار هنالك، فإن غطاءً قد خُلق على عين الإنسان فلا يرى أبدًا جنًا ولا شيطانًا... سواء كان هذا الإنسان ساحرًا أو غير ساحر، مشى الغلام خارجًا وذهنه يُفكر في أمور تفوقه، لم يكن بإمكان أحد أن يتخيَّل الذي دار حينها، لكن ما دار لم يكن شيئًا سارًا، فهناك، وعلى بُعد أمتار من سور القصر، كان يرقُد «عمرو بن جابر» مضرج في دمائه، يئن ويدمى وهو جني، كان يكافِح فقط لينهَض، وإن ما حدثَ معه ليس مما حكاه، ولم يعرفه أحد أبدًا.

- أين تفلت مخك يا «عمرو»!، أتنقَض على مارِد في صومَعته؟

- ليس بي بَأس يا «إينور»، إنما هو شق وحَرق في الفم والذقن.

نظرَت «إينور» إلى وجهه الوسيم في حُزن، ثم غطَّت فمَه بلثامة، وابتسمَت وقالت له:

- لا تأسَ على هذا، ستبرَأ بعد حين.

ومرَّت أيامٌ وتناسى «عمرو بن جابر» الأمر.. وجاء يومٌ ذهَب فيه «عمرو بن جابر» إلى الكاهن «شافع» للاطمئنان على حال «أسعد»... دخل «عمرو بن

جابر» مُتمثّلا في هيئته البشريّة، فتسمّرَت قدماه فجأةً على الأرض، فقد وجد «أسعد» الذي صار في الخامسَة عشرٍ من عُمره الآن يقف بجوار الغلام «عاصف»، ويقف أمامهما الكاهن «شافع» يُعلِمهما أمرًا ما. اتسعَت عينا «عمرو»!، أليس هذا الغلام الذي يذهَب يوميًا لتعلّم السحر عند الساحر«هيرا»!؟ ما الذي أتى به إلى هنا عند الراهب!.. اقترب «عمرو بن جابر» منهما، وكان الكاهن «شافع» يقول لهما في قوة:

- واعلَم أن السحر يا «عاصف» هو أن يُسلّط الساحر شيطانًا على واحد من الإنس، فيأتي الشيطان إلى ذلك الإنسي فلا يقدر منه على شيء أبدًا إلا أن يُوسوس له بأن يفعل أمرًا سيئًا يُريده الساحر، ولا يقدر الشيطان على أكثر من هذا!.. والإنسي إما يرضَخ إلى وسوَسة هذا الشيطان أو يرفُضها، فلا قُدرَة للشياطين أن ترغم أحدًا على شيء، إنما هم يُوسوِسُون.

وفور أن رأى «أسعد» «عمرو بن جابر» إذ هَبَّ عليه يحتضنه ويقول للغلام «عاصف»:

- انظُر يا «عاصف».. هذا جِني.

شدَّ «عمرو بن جابر» على يَد «أسعد» ليسكُت، ونظرَ إلى «عاصف» وقال مُتجاوزا الأمر:

- الساحر الذي تذهَب إلى صومَعته كل يوم يا «عاصف» له شيطان مارد اسمه «إزب بن أزيب».. وهو من عتاة الجن، لكن حتى عتاة الجن هؤلاء لا يقدرون من الناس إلا على الوسوَسة، لكن هناك شيئا أهم من الوسوسة يفعله الشيطان للساحر!، شيء يمتلِك به الساحر عقول الناس وقلوبهم.

قال «عاصف»:

- وما ذاك؟

قال «عمرو»:

- التجسُّس.. خفاء الجن عن عيون الإنس يجعلهم يضربون أنظارهم وأسماعهم في شؤون الإنس كما يشاؤون!، فتجد الساحر يعرف عن الرجل أمورًا كان يظن الرجل أنه أجاد إخفاءها.

ثم قال له «عمرو» في صوت صادق:

- واعلَم إن لهذا الكون خالقًا، وأن اسمه «رحمنن»، وأنه خلق الإنس وخلق الجن، ويسجُد له الإنس والجن، وأنه ما لجأ إلى الرحمن بشَر إلا فاز، وما لجَأ إلى الشيطان بشَر إلا خسر.

قال «عاصف» مُحتجًا:

- لكنهم في القصر والعز وأنتم هنا في دير مُنهكون.

بادَرَه «أسعد» وقال له بطريقة فيها شيء من الحدَّة:

- أي عز؟ إنهم لا يقدرون إلا على التجسُّس!، إن كان فيهم عزة ما احتاجوا أن يتجسسوا علي الناس، إن كان فيهم عِزَّة ما عملوا من وراء الستار كالجبناء واستخفوا عقول البشر.

نظرَ «عمرو بن جابر» إلى «أسعد» بعيون قد أبهرَتها كلماته.. ودارت في خيالاته كثير من الأمنيات لأسعَد سليل الملوك، أما «عاصف» فسمع نفس الكلمات من «أسعد» الذي كان يُقارِبه في السن، وأثَّرَت فيه الشيء القليل، لكن الشك كان أقوى من كل شيء، شك كان يعصِف بنفسه ويراوده كل حين.

انصرف عنهم «عاصف» ومضى يمشي في طريقه ناحيَة بيته، ملِك وساحِر وشيطان يملكون الشعب ولا يجرؤ أحد أن يقف أمامهم، وراهب فقير يدعو ربه رحمنن، ضيَّقَ «عاصف» عينه في تفكير، طوال حياته لم يعترف بإله قومه، هذا الذي يُقرِّبون له القرابين، ذلك الثور الذي يُسمُّونه «المقه»، ثم في الأيام الأخيرة عرف أن هناك قُوى أخرى!، قوى خفيَّة حقيقية، هي عند الساحر «هيرا» تُخبره كثيرًا من الأمور، قوى شيطانية يتقرَّب لها بطقوس لابد أن يحتقر فيها كتُبًا ومقدَّسات إبراهيمية مسيحية أو يهودية!، هل هذه القوى تُحب هذا؟ أن يحتقِر الساحر المقدسات الإبراهيمية فترضى عنه الشياطين وتخدمه!.. وماذا عن رحمنن؟ يقول الراهب «شافع» أن رحمنن خلَق كل شيء، خلَق الساحر وخلق القُوى التي تساعده... لكن هل رحمنن يخدم البشَر أيضًا؟ توجَّه عقله إلى ناحية واحدة فقط، إن كانت القوى الشيطانية هذه هي الآلهة الحقيقية، لماذا تُحب احتقار المقدسات؟ أن تحتقر شيئًا بهذه الطريقة لا يعني أنك إله، أليس المفترض عن الإله أنه غني عن أن يحتقر الأشياء، ما هي الأشياء أصلًا لتؤثر في عظمَته فيحتقرها، إن رحمنن هو الأقرب أن يكون الإله العظيم، الغني عن

كل شيء... لكن هل يُساعد رحمنن خلقه إذا طلبوا منه كما يساعد الشياطين أولياءهم؟ كان «عاصف» شديد الذكاء، وكان إذا فكر في أمر يسرح ويمشي بلا هدى، لكن شيئًا ما أخرجه فجأةً مما كان فيه، صوت خلَعَ فؤادَه، صوت كان مزيجًا من الزمجَرة والعواء والضحك البشِع!

جسَد رمادي كبير فيه خطوط سوداء، شَعر انتفَش على كامل الظهر، عيون تضيء في وجهه الساخر كأنه وجه شيطان مُفترِس، كان ضبعًا عظيمًا من ضباع الصحاري، يتساقط لعابه منه وهو يمضي يمينًا وشمالاً في شهوة ناظرًا إلى أربعة من البشر بينهم امرأة، يتراجعون إلى صخرة وراءهم وقد حبسهم الخوف، فإن هم ركضوا ركَض عليهم وانقَض، وإن هم بقوا مكانهم سيُزمجِر بضع ثوان ثم سينقض عليهم!، وكان موقع «عاصف» بعيدًا عن أعيُن الضبع المضيئة في نشوَة، بدأ أحد الرجال يرفع عصا هزيلة إلى الضبع وكأنه لا يدري ماذا يفعل سوى هذا، ووسط كل هذا خطر خاطر عجيب في ذهن «عاصف» وهو ينظر إلى المشهد: أمسكَ «عاصف» حجرًا كبيرًا كان بجواره، ورفع رأسَه إلى السماء وتمتَم وكأنه يُكلِّم السماء... يا رحمنن، يا ذي سماوي، يا رب هذه السماء أينما كنت... إن كان أمر الراهب «شافع» هو الأحب إليك فاقتُل هذا الضبع بهذا الحجر حتى يمضي هؤلاء الناس إلى رحالهم... فرمى الحجر رميَةً سريعة باتجاه الضبع الذي كان يتحرَّك يمينًا ثم استدار فجأة ليتحرك يسارًا ففاجأه حجر بطش به ودماءٌ نزلَت من رأسه، ولقد تنازع روحه وانتفض ثم انطوى وسقط إلى الأرض فتطايَر حول سقطته التراب، وانزاح الهم عن قلوب المحبوسين وقاموا عن صخرتهم إلى «عاصف» الذي كان في شأن آخر: لم يكن ينظر إليهم!، كان ينظر إلى السماء.

فاجأته حماسته إلى دير الراهب «شافع»، ودخل مُستبشرًا، قال:

- يا «شافع» إن الرحمن قد سمعَني اليوم!

فتبسَّمَت أسارير الراهب وسمع حكاية «عاصف» كلها ثم قال له:

- أي بُني.. إنك اليوم أفضل مني، وإنك ستُبتلى في إيمانك هذا، فإن ابتليت يا بني فلا تدل علي وعلى هذا الدير، فلو قضوا علينا لن يعود لهذا الدين وجود!، حتى يأتي المخلص.

نظرَ «عاصف» إلى الراهب الذي أنهى كلامه بغموض غير راغب في التفصيل، وظلَّت عين «عاصف» تسرَح هُنا وهناك تحاول أن تفهَم، نصحَه الراهب أن يذهب يوميًا إلى الساحر وكأن شيئًا لم يكُن!، ويظل يسمع منه، وأن يُهادنه في ما يقول ويتظاهَر أنه يُصدِّقه... وظل «عاصف» شهورًا يزور الساحر يتعلَّم أمور السحر، ويزور الراهب يتعلَّم أمور الدين... لكن «عاصف» أصبح يفعل أمورًا كانَت عجيبة على مسامع الساحِر، وعجيبة على مسامع الراهب!، أمور لا تُصدَّق.

تبدَّلت مشيته بين الناس من الخيلاء إلى التواضع.. وهو الذي قد اشتهر وذاع خبَره؛ فهو الصبي الذي اختاره الملك ليتعلم السحر، وكان الناس يجتمعون حوله يشكون له أدواءهم وأوجاعهم، فكان يشفي منهم من كان أعمى أو أبرص أو فيه أي داء... ولقد اتسعت عين الساحر من العجب!، فإنه ليس إنس ولا جن يقدر على أن يُعيد من ذهب عنه البصَر!، وتعجَّب الراهب من الأمر، آلله خصَّ هذا الغلام بمدَدٍ من عنده!، أم ما هي حكايته بالضبط... لم يعُد يدري.

وفي ذات ليلة في ذلك الدير المستتر.. أتى «عاصف» مُتخفيًا في ظُلمة الليل فوجد «أسعد» يُوقِد بعض الشموع في الدير وليس أحدٍ غيره مستيقظ.. قال:

- يا «أسعد» إني رأيتُ الليلة في منامي أنني أُذبح!، وأن دمائي تصعد إلى السماء فتمطر على الناس... وإني أريد أن تُوقِظ الراهب «شافع»، فليس غيره يعبر رؤياي.

استدار «أسعد» ليذهب ويُوقظ الراهب فناداه «عاصف» وقال:

- يا «أسعد»...

وقف «أسعد» والتفَت إلى «عاصف» الذي كان ينظُر له نظرةً مُختلفة ويقول:

- إني أريد أن أقول لك أمرا يا «أسعد»... اعلم إنما أنتَ الذي سيُخرج ديننا هذا من هذا بين جدران هذا الدير فتبلغ به مشارق الأرض ومغاربها، يا «أسعد» إن نحن انتهينا فلتحفَظ عليك نفسَك، فإن لك موعدًا يا سليل الملوك، وستملك هذه البلاد وتملأها حقًا وعدلًا.

ثم أتى الراهب وفسَّر لعاصف رؤياه... وإن تفسيرها قد جلب إلى نفسه القلَق مما هو آت، وجاء صباح تال، ومشى «عاصف» إلى الساحر مثلما كان يفعل كل يوم، لكن هذا اليوم كان مختلفًا!

وجد «عاصف» عند الساحر رجلًا واقفًا يعطيه ظهره.. ولما استدار له الرجل تراجَع «عاصف» بضع خطوات!، فقد كان للرجل عينان ممسوحتان كليهما يخلعان قلب من يراهما أول مرة، وكان أعمى، عرفه «عاصف» مباشرةً لما رآه، كان هذا «حيان» الأعمى جليس الملك.

ابتسم جليس الملك وابتسمت عينه العمياء.. قال الساحر «هيرا» لعاصف:

- إن جليس الملك قد سمع بأمرك يا «عاصف» وأَمر سحرك العظيم الذي يرد الأبصار إلى العيون الميتة... وإن جليس الملك قد جمع لك من الهدايا والعطايا ويقول أنه سيهبها كلها لك إن أنتَ شفيتَه من العمى.

فابتسَم «عاصف» بسمةً صفراء للساحر وهزَّ رأسَه مُوافقا... وأخذ جليس الملك «حيان» إلى غرفة منفردة، قال له يا حيان، انظُر إليَّ بنور قلبك، إني لا أشفِي أحدًا يا «حيان»، إنما يشفيهم الرحمنِ ربي وربك، فإن أنتَ آمنتَ بالرحمن دعوتُ لك الرحمن فشفاك... وإن شيئا في كلمات «عاصف» مسَّت أوتارًا عديدة في قلب «حيان»، فآمن حيان بالرحمن، فدعا له «عاصف»، فردَّ الرحمنُ إليه بصرَه، ونظر فرأى الدنيا تظهَر أمامه على صورتها ورأى وجه «عاصف» الوسيم يبتسِم له، قال له «عاصف»:

- إن السحر يا «حيان» لا يقدِر على تحريك شعرة من مكانها، وإن الرحمن هو الذي يملِك كل شيء وخلقَ كل شيء... فلا تجعَل له نِدًّا من ثَور أو فيل، فإنما هذا من مرض القلوب.

ودخل جليس الملك على الملك «ذو نواس» الذي أفجره ملكه فصار عاليًا في نظر نفسه لا يعلو عليه شيء!، فنظر «ذو نواس» إلى جليسه فإذا هو يمشي على هدى وبصَر بعد أن كان يمشي ويتحسَّس الطريق، قال له:

- يا «حيان» ما الذي ردَّ إليكَ بصرك؟

- إنما رده لي ربي.

- ولكَ رب غيري؟

ولم يدرِ «حيان» كيف تجرَّأ وقالَها!، وهو الذي عاش طيلَة عمره تابعًا مُنحنيًا، إلا أن معجزة رد بصره أدخلت في قلبه إيمانًا ثقيلًا كجبال أهنوم، فوجد نفسه يقول للملك:

- ربي وربك الرحمن أيها الملك.

وكانت كلمَته طامّة عليه، إذ أخذه الملك فجعلَه مُعلقًا وأذاقه من صنوف العذاب حتى أخبر الملك عن سر الغلام «عاصف»... فأوقدت عيون الملك شررًا.

ولم تمض ساعات إلا وشعب ظفار يرى الغلام «عاصف» وجنود الملك يجرُّونه جرًّا لا يُنذِرَ بخير، وحضر «عاصف» أمام «ذو نواس»، فقام له «ذو نواس» بكل كِبر وصلَتَ إليه روحه!، قال:

- أتينا بكَ فعلّمناكَ السحر والكنوز وكنت محقورًا لا شأنَ لك فصرتَ تُبرئ الأكمَه والأبرَص وتفعَل وتفعل و...

قاطعه «عاصف» بجُرأة لم يجرُؤ عليها أحد قبلَه وقال:

- إني وجدتُ السحر الذي تأتيه أنتَ وساحركَ هو شيء هزيل واهن، وإني وجدته شيئًا وضيعًا لم يأته من النبلاء أحدٌ قطا!؛ ما يأتيه إلاَ من كان من أراذل الخلقَ، ووجدتُه لا يشفي ولا يُسمِن ولا يُغني، أما أنا فما شفيتُ أحدًا. إنما شفاهم ربك الرحمن، الذي بيده ناصيَة كل دابةٍ تدب على أرضه.

ونزل الصمتُ في ساحَة القصر في ذلك الأوان.. وصارت عين الملك تتحرَّك هنا وهناك وكأنها تود الإفلات من مُقلَتيهما من شدة الغضب، ثم رفع أمرًا غاضبًا إلى جلاديه فأمسكوا بالغلام «عاصف» وأنزلوا عليه نكالاً وضربًا حتى تفكَّكت عظامه ولبثوا يجلِدونه حتى دلَّ على الراهب «شافع».

وفي ديرٍ مُتهالك قريب أحاطه الجند من كل زواياه.. كان الراهب «شافع» ممسوكًا يغلّون له يديه ورجليه والغلمان من حوله يبكون... عندها وصل «أسعد» لدى الباب، ورأى مُعلمه يسحبونه ولحيَته على الأرض، فانتفضَ واندفَع بجسده ذو الخمسة عشر عامًا إلى أربعة جنود مُسلحين فلطموه لطمةً أسالت دماءه وهوَى «أسعد» على ظهره، ثم قام فلطموه أخرى، ثم سألَ أحدهم:

- مَن هذا الفتى؟

فرفَع الراهبُ اصبعَه خفيَة لـ «أسعَد» إشارة أن يسكُت... وشدَّ الجنودُ الراهبَ وأخذوه إلى إيوان الملك.

دفعوه حتى ساووا بجبهته الأرض.. لم يكُن مقبولًا أن تدعُو إلى دين آخر في عهدي؛ أنا أنا الرب وأنا الملك وأنا العالم بكل شيء... أفكُل فئة منكمْ تتحزّب على نفسها وتدعو نفسها دينًا...

هكذا تطرّفت خواطر العظَمة في نفس «ذو نواس»، وأمرَ بمنشار عظيم، ورمى الراهب على الأرض مُقيّدًا وبجواره جليس الملك، وتقاربَت رؤوسهما على الأرض، فقال الراهب لجليس الملك:

- اثبَت فإنَّ لكَ موعدًا عند الرحمن، وإنه سيرُد عليكَ روحَك ويبعثك إلى نعيم مُقيم.

ولكن الرجل كان يبكي ويُغمِض عينيه، فنادى الملك:

- أيها الراهِب.. أترجِع عن دينك هذا وأدعكَ تخرُج قطعةً واحدة؟

قال الراهب:

- وعزَّة ذي سماوي، أنني خارج من هُنا إلى الرحمن، وإنكَ لتُسعِد قلبي بما تفعَل.

فأشار الملك فنشرَه رجالُ الملك بالمنشار حتى افترقَ قطعَتين على الأرض وتناثرَت دماؤه علي ثياب جليس الملك الذي كانت عيونه حائرة من الخوف، ودموعه تسيل مُتقطعة... وأخذ يتحسَّس دماء الراهب على صدره، ثم يُغمض عينه ويرفع رأسه إلى السماء... فنادى الملك:

- يا «حيان».. دع عنكَ دِينكَ هذا ترجِع إلى جِواري بين الدراهم والجواري...

وبكى «حيان» وتعرَّقَ جبينه وهزَّ رأسَه بالنفي وهو يبكي.. وكأنَّ طائفًا من الإيمان قد انغرزَ في قلبه فلم يعُد يقبَل أن يُخرجه أبدًا، ولم يشعُر بنفسه إلا والمنشار يُقطعه في مفرق رأسه هو الآخر.

وجيء بالغلام «عاصف» ليُناظِر دماء قد تبلَّلت بها أرض القصر، وقال الملك:

- يا أيها الغلام.. ارجع عما تُؤمِن، أو تكون مُمدَّدًا في دمائك مثل صاحبيك!

قال «عاصف»:

- إنكَ لا تمسني حتى يأذَن الرحمن ربي لك.

توهّجت عين «ذو نواس» بالبغضاء.. وقال:

- أما أنتَ فإن لكَ ميتَةً سيتحدَّث عنها أهل سبأ.. خذوه إلى جبل أهنوم، فانتهوا به إلى قمة الجبل ثم ألقُوه من هناك، ثم ائتوني بعظامه الصغيرة الحقيرة... أفأصبح الصغار السفهاء يتطاوَلونَ هنا في ساحة الملك؟

قال له «عاصف»:

- ما أنتَ بقاتل بعوضةً حتى يأذَن الله لك بها.

فلما جنَّ الليلُ أصبحت ترى فوانيس تمشي وراء بعضها تصعَد الجبل.. كان أولئك جنود الملك يصعدون بعاصف إلى قمَّة جبل أهنوم، ولمح «عمرو بن جابر» فوانيسَهم، فهَمَّ باللحاق بهم، لكَن يدًا رقيقةً أمسكَته!؛ كانت هذه «إينور» زوجَته، قالت له:

- لا تذهَب يا «عمرو» فيقتلوك، فإنكَ لو تمثَّلتَ لهم بشَرًا عدوًا سيسقطونك وراءه، انسَ هذا يا «عمرو» ولو أردتَ نُصرة هذا الدين فاعتنِ بـ «أسعد»؛ فلا أملَ لهذا الدين سواه.

أعرَضَ عنها «عمرو بن جابر» وقال:

- أخطأت يا «إينور».. فالرحمن مُتِم نورَه سواء بأسعَد أو بدونه، أم أنكِ نسيتِ أمر المخلص؟

نظرَت «إينور» إليه ولم تعرف لكلامه ردًا.. ثم سمع الجميعُ صوت كارثَة كأنها تصعَد من باطن الأرض، وفجأةً تحرَّك كل شيء.

زلزلت الأرض من تحتهم وتحرَّك الجبلُ بأصحابه وسقط أصحاب المشاعل كلهم وانطفأت أنوارهم في عدة ثوان.. ثم عاد كل شيء إلى هدوءٍ مُستقر، اتسعت عينا «عمرو بن جابر»، سبحان الذي بيدهِ مقاليد الجبال ويسمع من هو فوق الأرض ومن هُم تحت الأرض... وظل الملكُ بين جدرانه ينتظرِ جُنده، لكن أحدًا منهم لم يأته!، إلا واحدًا أتى وهمسَ للملك بكلمتين هبَّ الملكُ منهما واقفًا!، ونظر فإذا «عاصف» داخِل عليه بكامل صحَّته، وكاد «ذو نواس» أن يشد ضفيرتيه من الغيظ، قال له:

- أين جندي يا غلام الشر؟

قال الغلام:

- كفانيهم الرحمن.

فقال الملك:

- يا جنودًا كالجرذان أتعجزُونَ عنه؟ والله لأسقينَّكَ الرعب سقيانًا حتى تلعَن اليوم الذي جئتَ فيه إلى هذه الدنيا...

وأمرَ جنودًا آخرين ليأخذوا «عاصف» إلى غياهِب البحر فيربطوه في حجَر كبير ويُلقُونه في ظلام البحر ولم يعُد يريد له جُثَّة.

فانطلقَ الجنود وتوسَّطوا به البحر.. فأغارت عليهم الرياح والأمواج فانكفأوا جميعًا وغرقوا!.. وعاد الفتى مغرورقًا بماء البحر، ودخل قصر الملك كأنه يتحدَّى، قال:

- ألم أقُل لكَ إن ربي الرحمن لم يأذَن لك؟

قال «ذو نواس»:

- ما أنتَ بالضبط؟ أي شيطانٍ أنت؟

قال له «عاصف»:

- الشياطين لا تقترِب مني؛ الشياطين لا تنجذِب إلا إلى الأنجاس.

وأشارَ بإصبعه بطريقة أنه يقصد الملك.. فانفعلَ الملك؛ انفعلَ «ذو نواس» وأخرجَ خنجريه من غمدهما وتقدَّم ليذبح الغلام بنفسه.. لولا صوت الساحر «هيرا» الحازم الذي أوقَف الملِك، وانطلَق يهمِس له:

- يا «ذو نواس».. إن هذا قد يكون له شيطان مثلما لكَ شيطان؛ لا تقترِب منه بنفسك، مُر أحدًا من الجُند أن...

قاطع «عاصف» حديثهما وقال:

- إنك لستَ بقاتلي أبدًا أيها الملِك حتى تفعل ما أقوله لك؛ حينَها تقدر على قتلي.

نظرَ له الملِك والغيظ يقطر منه وقال:

- أي شيء هذا؟

قال «عاصف»:

- دع عنكَ هذا العجوز الخرف واسمع لي جيدًا إن أردتَ أن تقتُلني وأن يتحدَّث الناس عن قتلي، فاجمع الناس في صعيد واحد، واصلبني على جذع، ثم خُذ سهمًا من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس وقل باسم الرحمن رب الغلام، قلها بصوت عالٍ، ثم ارم بالسهم إلى رأسي، فإنك إن فعلتَ هذا قتلتَني مباشرةً... ولن تُسلَّط عليَّ بغير هذه أبدًا.

وسمعت البلدةُ كلها أن عاصفًا سوف يُصلَب على مشهَد من الجميع؛ جزاء له على خيانته للملك الأعظم، ملك سبأ العريقة.. وعرفت البلدة كلها أن الملك لم يقدر على قَتل «عاصف»، وتناقلوا قصة زلزال الجبل وعلو البحر وعودة عاصف في المرتين إلى الملك مُتحدّيًا... وتشعَّبت أقوالهم فتحدَّث بعضُهم أن عاصفًا هذا ساحر قد غلب بسحره سحر الملك!، لكن ظهر كلام الذين شفاهم «عاصف» من أسقامهم وكانوا كثيرين، وكان لا يشفيهم إلا أن يقولوا آمنَّا بالرحمن، فتحدَّث هؤلاء وقالوا أن الرحمن هو الذي غلبَ سحر الملك، وأنا آمنا بالرحمن ربِ الغلام.. وسمع «أسعد» أن «عاصف» سيصلبُونه اليَوم، فانطلقَ يركُض في طرقات المدينة التي ازدحمَت بأناس كلهم يمشون إلى ساحة القصر، وكلما اقترب من القصر وجدَ ازدحام الناسَ قد اشتدَّ وظل يشتد حتى أصبح الناس مُتلاصقين يتطاولون ليروا مشهد الصلب!، ورأى «أسعد» بعينه أن رفيقه «عاصف» يُرفَع على خشبة عالية، ثم يتم تثبيته جيدا عليها... ناداهُ «أسعَد»:

- أيا عاصف.

فلم يسمَعه!، فاخترَق «أسعد» صفوف الناس بغضَب وظلَّ يقترب وهو شاعر بغصَّة تتزايد في كل مرة ينظُر فيها إلى «عاصف» المُعلَّق، وتحوَّلت غصته إلى صرخات يصرخها وهو يقترب ويخترق الصفوف!، وفاضَت عيناه من الدمع واشتدَّت قوته في الاختراق حتى اقترب، قال بأعلى صوته:

- يا عاصف، إن مُعلّمنا أخبرك أن...

وفجأةً أمسكت يدٌ قويةٌ برقبَة «أسعد» فسحبَته إلى الخلف وردَّته إلى الأرض وسط الزحام!، فاشتعلَ الغضبُ نفس «أسعد» وأمسك بمن سحبه مسكةً قوية

لكن نظرةً واحدة إلى وجهه جعلته يسكُن!؛ لقد كان هذا «عمرو بن جابر»، كان غاضبًا حازم الملامح... قال له بصوتٍ حازم خفيض:

- أجُننتَ أيها الغلام.. أتريد أن يأخذوكَ بجواره معه ويُعلّقوك؟

قال «أسعد»:

- فليأخذوني بدلًا منه.

. قال له «عمرو»:

- إن كل هؤلاء المتجمّعين محتاجين إليكَ في يوم ما يا «أسعد»، وإني متـ...

لم يسمع «أسعد»، وتملّصَ من يد «عمرو بن جابر» وانطلقَ وسط الزحام يُنادي.. يا عاصف، وكان عاصف في ذلك الوقت ينظر إلى الملك الذي يسحب واحدًا من السهام من الكنانة، ثم يُصوِّب السهم جيدًا.. أشار له «عاصف» ليقول الكلمَة بصوتٍ عالٍ، نظر الملك إلى الساحر الذي أومَأ له برأسه أن قُلها، فصاح الملِك بصوتٍ عالٍ:

- باسم الرحمن رب الغلام.

توقّف «أسعد» وقد أخذَته المفاجأة ولم يفهم شيئًا... وانطلقَ السهمُ مباشرةً إلى وجه «عاصف» الذي كان ينظر إلى السماء في رضا وكأنه في عالم ثان، ثم اخترقَ السهمُ صدغَه، وتناثرت دماؤه، وتناثرت لها دموع الشعب، إنما الرحمن هو الذي غلبَ سحر الملك؛ الملك الذي تناقلتُم أساطيره وكأنه العالم بكل شيء والمطلِع على كل شيء... اليوم لا يقدر أن يفعَل شيئًا إلا بإذن الرحمن وباسم الرحمن... وتصاعدَ صوتُ الناس باسم الرحمن هنا وهناك، قالوا آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، وظلوا يقولونها عاليَة وهم ينظرون إلى السهم المستقر في صدغ «عاصف»، ولم يلبثوا إلا وجنود الملك قد توافدوا من كل مكانٍ فضربوهم وأوقعوهم أرضًا، وحدثَ هرج كثير، وهرَب كل من لم يُؤمن بالرحمن، وأمسك الجنود بالآخرين، ووسط كل هذا ركض «أسعد» ناحيَةَ الملِك.

كان الملك يصيح بصوتٍ يسمعه كل أحد:

- ألا فاحفروا لهم الأخاديد في أفواه السكَك، وأوقدوا عليهم فيها نارًا، فليعلمنَّ الرحمن وأهله مَن الملِك في هذه البلدة.

عندها رأى الملكُ غلامًا يُجاهد بين الزحام ويتّجه ناحيَته بغضب؛ كان هذا «أسعد»، فنظر الملكُ إليه بغضب شديد وأصدرَ أمرًا ما للجنود، لكن الزحام والهرَج حال بينه وبين رُؤيَة «أسعد» الذي اصطدمَ بأحد الهاربين في طريقه، فوقعَ «أسعد»، ووثَب «عمرو بن جابر» فوقه، ولكن قوةٌ كقوة الثور كانت قد تصاعدَت من قلب «أسعد» فأفلتَ من «عمرو» وانطلقَ يُريد رأسَ الملك!، ثم أظلَم بصره فجأةً ووقع على الأرض، وأصبح ينظر من بين آلامه إلى قدمِ جندي يبدو أنه ضربَه على رأسه وتمكن منه.

وها هو الآن يسحَبه الجندي وسط الفوضى، اتّسعَت عينا «عمرو بن جابر» ثم هدأتا، فقد رأى أفضل ما يُمكن أن يرى في ذلك الموقف، كان هذا «موهبيل» جَدّ «أسعد» ومعه جُنديين من قصر خمر قد أتوا ليلحقوا بأسعد، ولقد لحِقوا به وسحبوه إلى قصر خمر... واختفى «عمرو بن جابر» من المكان كأن لم يكن، وتم حبس «أسعد» حبسًا حقيقيًا في قصر خمر عند أمه «فارعة» وجده «موهبيل»، ولم يدرِ بالكارثَة التي كانت تدور في ظفار؛ الكارثة التي تناقلتها الكتُب جيلاً بعد جيل؛ كارثة الأخدود.

كانت أعدادهم كبيرة، آلاف.. ولقد سحلَهم جنودُ الملك وقيَّدوهم بالسلاسل مجموعين إلى بعضهم البعض ومدفوعين إلى قدر حارق، ولما رأوا الأخاديد تأجّجَت بالنيران تراجعت أقدامهم وزلزلت قلوبهم، وقال الملِك بعد أن أراهم العذاب:

- من رجعَ منكُم عن دينه فسنتركُه.

وصارَت ضجّة بين المسلسلين ثم صاح أحدهم:

- آمنا بالرحمن رب الغلام.

فقال الملكُ:

- ائتوني به.

فأتوا به يسحبُونه على الأرض، فقال الملِك:

- أمّا هذا فمشّطوا له رأسَه بأمشاط الحديد فتخترق ما دون عظمه من لحم وعصَب، وانظروا ماذا سيقول حينَها.

نظرَ الناسُ إلى الرجُل الذي لم يهتز والجنود يفصلونه عن الباقين ويضعون في رأسه مشطا فارسيًا حديديًا حادًا يُستخدَم في التعذيب وادماء الرأس!، فوضعوهُ له، فصرخَ الرجُل حتى كادَت روحه أن تفيض، فلم يصرفه ذلك عن دينه!. وضجّ الناسُ في سلاسلهِم بمشاعر اختلطَ فيها كل شيء: خوف وندَم وثبات وعزيمة... وإن الجنود ظلوا يدفعونهم إلى أخاديد خدَّت لهم في الأرض واشتعلَت نارًا ذات وقود مُلتهب!. فتساقطوا كلهم على ركبهم غير قادرين على المسير، تلفح وجوهَهم النار، ولقد نزل بينهم الجدل فارتدَّ كثيرٌ منهم عن الرحمنِ وقال آمنتُ بالملك إنه ربي، آمنتُ بذي نواس.. وبقي جمعٌ منهُم صابرون، ثبتُوا بإيمانهم في وجه كل زلزلَة تزلزلت بها قلوبهم، وكل لسعَة لفحَتها النار في وجوههم، وقالوا آمنا بربنا الرحمن ذي سماوي: الذي له ملكُ السماوات والأرض، وإنا له راجعون فيجزينا وهو العزيز الحميد... فدفعهم الجنودُ دفعًا بالعصي والأقدام!، فكانت كلما سقطت منهم مجموعة في النار سحبَت مجموعة أخرى لأن أقدام الكل مربوطة إلى بعضها بالسلاسل.

وجاءت امرأةٌ تحمل ابنًا صغيرًا وقد وضعوها في السلاسل ودفعوها.. فنظرَت إلى صغيرها مُشفقةً فتقاعسَت أن تدخُل في النار، فقال لها الجُندي:

- تحرّكي يا امرأة.. هل رجعتِ عن دينك؟

فكانت تُقدّم قدمًا وتُؤخّر أخرى.. وإن سماع صرخات المُحترقين يُزلزل إيمانها، هل أضاع أولئك حياتهم هباء، هل جزاهم الرحمن!.. ودفعها الجندي بالعصا، ونظرَت إلى صغيرها مُشفقة، وهنا انخلع قلبها وسالَت من عيونها دموع لا تدري أي نوع من أنواع الدموع هي!، فلقد وجدَت صغيرها الذي لم يبلغ سنتين ينظر لها نظرةً لا علاقة لها بنظرات الصغار المحمولين على الأيادي، فساءلَت نفسها عما أصابَه وسط هذا اللفح المُلتهب، ودفعها الرجُل دفعةً أخرى:

- هيا يا امرأة، عودي إلى دين الملك واحفظي هذا الصغير.

نظرَت إلى الجندي وإلى النار.. ثم نظرَت إلى الصغير النظرة الثالثة وهنا خارَت قدماها ولم تستطِع حملها: لأنها لم تُصدّق وإن كانت قد سمعَت بأذنها ورأت بعينها نظرة صغيرها الجادة وشفتي صغيرها تتحرّكان بالحديث، قال لها:

- يا أماه اصبري فإنكِ على الحق.

وجاء جُندي آخر وركلَها ورضيعها إلى الأخدود.. وكانت محرَقةً ظلَّت الأجيال تتناقلها طويلا عن «ذو نواس» - محرقة أصحاب الأخدود - واصفرَّت النار بحرق الأجساد المؤمنة وتصاعدت أرواحهم إلى الرحمن، وهرب الناس إلى بيوتهم وقد علموا أنهم ليسوا في حكم رجل عادي من تبابعة اليمن؛ بل في حكم شيطان، طاغية.. ظلَّ مع جنوده وساحره قعودًا على النار يتمتَّعون بأجيجها!، وإن من خلفهم من بين الأدخنة كان شيطان مارد يتبسم حتى ظهرَ سنّه، شيطان وطاغية، ووجه بشع وظلام، هكذا كان حال سبأ!

وكان غلام لم يكمل من عمره ست عشرة سنة محبوسًا في غُرفة في قصر خمر، ينظر إلى النافذة بعين برقت فيها كثير من المعاني، وكثير من الذكريات؛ ذكريات كلما نظرَ إلى السماء رآها... الراهب شافع يبتسم بلحيته البيضاء المهذبة، والغلام عاصف بعقله الألمعي، «مَن لهذا الدين من بعدكم!..» ثم يخبو في عينه بريق الذكريات ويشتعل بدلا عنه لهيب الغضب، وتذكر حديث عاصف له عند تلك الشموع، (إني أريد أن أقول لك أمرًا يا «أسعد».. اعلم إنما أنت الذي سيخرج ديننا، هذا الدين من هذا، بين جدران هذا الدير فيبلغ به مشارق الأرض ومغاربها.. يا «أسعد» إن نحن انتهينا فلتحفظ عليك نفسك، فإنَّ لك موعدًا يا سليل الملوك).

وأقسَم «أسعد».. «أسعد بن ملكيكرب»؛ أقسمَ وهو صبي صغير هكذا، أقسمَ ليقلبنَّ الأرض على رؤوس الجميع، بنواسهم وساحرهم وشيطانهم...

عدتُ إليكَ بعلمي وبهائي.. فاسمَع واخضَع.

«شافع بن كليب الصدفي»، راهب نساه التاريخ، أو حذفناه نحن من أساطير التاريخ، قدر استطاعتنا!

كان يُعلِّم الناس علمًا هو النقيض التام لما ندعُو إليه، يفيض على تلاميذه من كتاب قديم عنده مكتوب على جلود الحيوانات يُسمِّيه صُحف إبراهيم- وللأسف بقيَ كتابه هذا موجودًا حتى اليوم-!

لكننا ذوَّبناه ذوبانًا وحرَّفناه... صار اسمه الفيدا - وهو الكتاب المقدس للهندوس-.

هم يقولون أن كاتبه هو براهما.. ولا يدرون ولا يدري أحد أن براهما هو نفسه إبراهيم!، وأن الفيدا هي النسخة المحرَّفَة قدر استطاعتنا من صُحف إبراهيم.

لكن «شافع» كانت لديه نُسخة أصلية من تلك الصحف، وكان يجب أن نمحوها ونمحو أثر «شافع» نفسه من التاريخ.

قال «شافع» للصبي أن الشياطين تكرهك وتكره اليوم الذي وُلدتَ فيه- وكلامه صحيح-.

وبرغم هذا الكُره.. رضيَ جنسنا الجني الشامخ أن يكون قرينًا لجنسكَ البهيم!، أتدري لماذا يا بهيم؟

غباؤك قد يُصوِّر لك تصاوير، نسمعكَ تُردِّدها كل حين، أن بلايين الجن موكولون بإضلالكَ من أجل أن نُدخِل سيادتكَ النار وندخُل وراءك... تبالغ أنتَ في تخيُّل أهميَّتك!، وتبالغ في تحقير ذكائنا.

أو مثل قولك أن الله هو الذي أمرَنا أن نكون قرناء لك!، لو كان الله أمرنا بذلك فلماذا سيُحاسِبنا ويُدخِلنا النار بذلك!، أتعلَم أمرًا؟ أنتَ يجب أن تدخُل النار لغبائك فقط!

ذات يوم.. أكرمكَ الربُّ بعد أن كُنتَ قردًا وانتشلَك من بين أوحال البهائم، وهداك إلى جنة على هذه الأرض فيها من كل شيء، جنة كانت أجمل بقعة في الأرض؛ بين دجلة والفرات، جنة كان وصفها أنها جنة عَدن يعني مُستوية، جنة كنتُ أنا فيها، أنا الشيطان

السامي كنتُ فيها، فوجدتُك فجأةً آتيًا أنتَ وزوجك...

ماذا فعلتَ في تلك الجنة أيها الإنسان؟ نفسكَ البهيمية غلبَت عليكَ وجعلتكَ تعصي ربك في شيءٍ تافهٍ!، ليست هذه هي المشكلة.. فليخرجكَ ربك منها ويريحنَا منك...

لكنكَ كذبتَ.. بكل دناءتك كذبتَ وقلتَ أنني أغويتُك، وأشهدت على ذلك زوجتك!، فأخرجَني ربي معك، أخرجني معكَ أيها السافل.

وقَضى علينا أن نسيح في الأرض ونُصلِح فيها، فإن فعَلنا أدخلَنا جنةً أعلى وأسمى وأعظم، جنة ليسَت على هذه الأرض، جنة تعلو على السماوات.

وأنا أعرفكَ جيدًا.. إذا دخلتَ جنةً أينما كانت، فإنك بكل لُؤمِك وطبيعتكَ الحيوانية ستُفسِدها وتُخرِجنا منها!، كما أخرجتَنا من التي قبلها.

ونحن لا نُلدَغ من جُحرٍ مرتين.

فعهدَ إلينا نبينا لوسيفر -النبي الأمير البهي- الذي كذبتَ عليه وأخرجتَه وقبيلته من الجنة... عهدَ إلينا أن نتبعكَ أينما ذهَبت، وأن نأتيكَ من كل طريقٍ ونغويك لئلا تكون صالحًا؛ حتى نحفَظ الجنة من أمثالك، لئلا يدخلنَّها في ذلك اليوم علينا إنسان، إلا أن يكون ساميًا مثلنا، وهم قليل في بني الإنسان.

أما بهيميو النفس والروح وهم الكثرة الكاثرة فنحنُ نرصُدهم ونزلهم ونُزيِّن لهم حتى يستجيبوا، فإن استجابوا فإن نفوسهم الخبيثَة قد تكشَّفَت وافتضحت؛ فيرمون في نار هُم أهل لها.

أما نحن.. فلنا ثواب أنا كشَفنا البهائم أنهم بهائم، وأبرَزنا الشرفاء أنهم شرفاء.

هذا أنا، وهذا أنت.. لهذا أنا قرينكَ، لهذا أنا حولك، أحوم، حتى أُخلِّص الدنيا من شرك، أسقطكَ في شرِّ أعمالك.

ولأنني بهي سام.. فإني أراكَ ولا تراني، أسمعكَ ولا تسمعني، أمتلكُ قدرةَ أن أتحدَّث إلى روحك، أبثُّ فيها ما أريد، هكذا وهكذا فقط أستطيع أن أؤثر عليكَ وعلى من حواليك.

فتعلَّم عقيدَتي فيكَ وتنبَّه لها، ولا يخدعنَّكَ كلام المتكلِّمين البشَر.

قالت له أن اسمها "إينور".. قال لها انه (أسعد) إبن الملك (ملكيكرب).. و أن أباه قد ذهب في رحلة طويلة.. و أنه ربما يعود قريباً.
لم أكن أعلم أن الملائكة بهذا الجمال والبهاء، لكن لماذا هذا الملاك لا يقدر على حملي؟
إني رأيت في هذا روحاً طيبة.. تستحق أن تحيا وتملأ الدنيا حياة.
"إينور"!.. هل جننت؟ تعلمين أننا لا نقدر على حملهم.

بعد إسبوعين
طالما هذا هو إبن الملك..
وجب أن آخذه ليري ذلك
المنظر في سفح الجبل.
يا عمرو..
إن قلبه الصغير لن يتحمل.
لا بد ان يصير رجلا..
و عند سفح
الجبل.. احتضنت
"إينور" الصغير
"أسعد" وفي
عينيه دموع
الأسى والحزن و
هو يري جثة أبيه
(ملكيكرب)

(٢)

عيونٌ
تستَعِر
بالغضَب

Mostafa
Mortaja
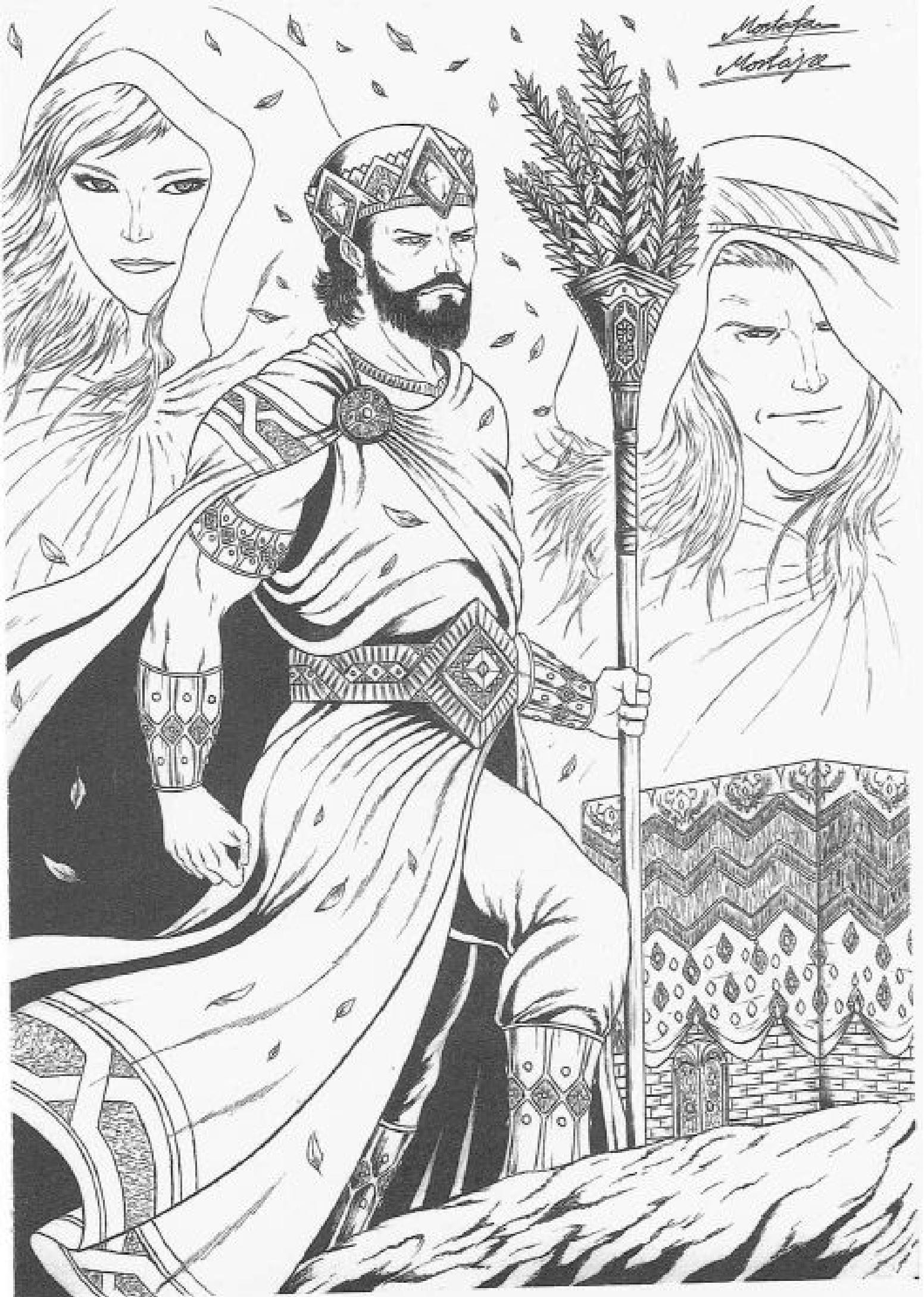
أخاديد جفَّت نيرانها، وتصاعدَ دخن من فوّهاتها، دخن أسوَد كثيف يصنع أشباهًا لأرواح أحرَقها، وملامح عذَّبها، أخاديد تفحَّمت جنباتها، وسال القيح في عروقها وفرجاتها... وظلَّ هو على حاله: ساعات طوال وهو ماكث على رُكبتيه يلفح الدخان وجهه، ولولا أن الهواء يُحرِّك ملابسه وشعره الأشقر الطويل لظننته صنمًا!، كانت أذناه لاتزال تلتقط ذكرى صخبهم وصراخهم يتردَّد بين الدخان ومن الدخان، واحمرَّت عيناه الجنية من البكاء، ولقد مضى زمان على ذلك القلب لم يبكِ حتى قسا وتصلَّب وظنَّ أنه قادر على التمالك، ألم يأن لكَ يا «عمرو بن جابر» أن تبكي!، كان يتماسَك، لكن نظرات حانَت منه إلى الأخدود بعثَت له صورة نفَر من بني الإنسان، مؤمنين ومؤمنات، ثبتوا في مشهدٍ لم يثبت فيه قبلهم إنسٌ ولا جان، وقد لا تدري البشريَّة عنهم أي شيء، لكنه يدري، وقام بجسده الطويل يمشي وسط غيوم سود غطت على كل ألوانه فلم يرَ منه إلا ظل أسود يتحرك خارجًا، وعيون حمر من غضب ومن حزن، وبدت ألوانه تظهر في خروجه حتى رُؤيَ مُكتملًا... كانت نذُر الخطر تشِع منه إشعاعًا، ثم تلاشى كوَمضَة غاضبة عازمة على القصاص!

وأمام واجهة قصر خمر كان هناك حدث آخر.. صبي قد أتى يجر قدمه جرًّا ويمسك في يده شيء ما يضمّه إلى صدره ضمًا شديدًا ويقترب ماشيًا من القصر وينادي (يا «أسعد»...)

وقد رصدَته عين «أسعد» الواقف في نافذته فتحرَّك نازلًا إليه، أمسك الجنود الحارسون بالصبي فتدافع معهم فدفعوه بأرجلهم حتى وقع على ظهره وتبيَّن الشيء الذي يمسك به: كان كتابًا يبدو على صحائفه آثار القدم، سمع الجميع ضجَّةً عند باب القصر الذي انفتح وبرز منه «أسعد» ووراءه جدّه وأمه يصرخون فيه ويحاولون منعه من الخروج، وانطلق جندي حارس إلى «أسعد» ووقفَ في طريقه وأمسكَ به، نادى الصبي (يا «أسعد».. لقد قتلونا يا «أسعد»،

دخلوا إلى ديرنا فأسالوا الدماء وأزهقوا الأرواح وكوّموا أجسادنا كأجساد المواشي المذبوحة، لم يعُد أحد باقيًا يا «أسعد»، لم يعُد أحد باقيًا...)

توقّف الكل ينظرون إلى الصبي وهو يئن بألَم كتب عليه أن يراه في هذا السن.. نظر إليه «أسعد» بعيون تهتز من الثورة، ومشى إليه يحتضنه. كان يعرفه جيدًا. كان صبيًا نابغًا في الدير اسمه «يزن»... نظر «أسعد» إلى الكتاب ونظر إلى «يزن» بألَم نظرةً مُتسائلة كأنما يسأله (أهذا هو؟).. أومأ له «يزن» بنظرة حزينة أن (نعم).

أمسك «أسعد» الكتاب وضمّه.. كان هذا كتاب الراهب «شافع» والذي فيه تعاليم الدين التوحيدي، والذي كان يُعلّمهم منه في الدير وهم صغار.

وبرز «عمرو بن جابر» كأنما أتى من لا مكان!، ونظر إلى «أسعد»، والتقَت عيونٌ غاضبة بأخرى، وتوتّرَت جوانب المشهد بُرهة حتى تحرّك الجندي الواقف أمام «أسعد» ليقبض على يده، وفجأة التفّت يد «أسعد» على يد الجندي ولوَتها وراءه وحشت قدم «أسعد» قدمه فسقط على وجهه.. صاح الجد «موهبيل» في جنوده:

- لا تدعوا «أسعد» يخرُج.. أمسكوا به في الحال.

وقف «أسعد» مكانه وأقسم قائلا:

- لئن حبسَني أحدكم ساعة أخرى لأقتُلنّ نفسي دون أن تهتز في يدي شعرَة.

كانت الأم «فارعة» تبكي وتنادي باسم «أسعد» ولا يلتفت لها... وتقدّم «أسعد» من الباب عازمًا على الخروج وهو محتضن الصبي «يزن» بإحدى يديه وممسكًا بالكتاب في اليد الأخرى، فنظر حراس الباب إلى «موهبيل» ينتظرون الأمر، فأشار لهم بالابتعاد عن الطريق، ولما وصل «أسعد» إلى جوار «عمرو بن جابر» استدار «عمرو» وهمّ الجميع بالمغادرَة، ثم التفتَ «عمرو» إلى الجد «موهبيل» وقال:

- كيف تحلُم أن يحكُم حفيدك هذه البلاد ثم تحبِسه بين أربعة جدران يا موهبيل؟

قال له «موهبيل»:

- سيأتي يوم يموت فيه «ذو نواس» يا «عمرو»... عندها نُخرِج ولدنا إلى الحكم.

قال «عمرو بن جابر»:

- لا تدري لعل ذلك اليوم يكون قريبا يا موهبيل.

- هذه العيون التي تستعر بالغضَب يا «أسعد».. هذه العيون قد توصلكَ إلى الآفاق، وقد توصلكَ إلى القبر!
- لقد أباد الجميع، ولأجعلنَّه يصرُخ صرخةً عن كل نفسٍ مؤمنة أزهقَها.
- لن تسلط عليه.. أنتَ واحد، أما هو فجنود المملكة كلها يلتفّون حوله كالطوق، إلى جانب مهارته القتالية العالية التي تُمكّنه من تقطيع أوصالك لو اقتربتَ منه شبرًا.
- أنا أيضا تعلَّمتُ القتال عند الراهب «شافع».. هل تريد أن أقطَع لك رأسَك لترى بنفسك؟
- دعكَ من هذا يا «أسعد».. أنت لن تحتاج إلى هذا، إن الطغاة في عالمنا يسقطون بطريقة أخرى، فاسمع مني جيدًا، ولتجعلنّه يدور حول نفسه حتى تتمكّن منه في النهاية وتضع رأسه على رأس سيفك هذا.

وأدرك «أسعد» أن الجن لهم عقولٌ ليسَت كأي عقول؛ عقولٌ ألمَعية!
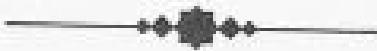
شموعٌ تُرسل أضواءً متراقصة على حوائط مُزيَّنة بعناية، ورجل ذو لحيَة طويلة وشعر طويل وعباءة يلبسها ويتلحَّف بها.. يفتح كتابًا ينظر فيه ويُغمض عينه ويبدو من تعبيرات وجهه أنه يسمع كلامًا خفيًّا لا يسمعه أحد غيره!، كان هذا هو الساحر «هيرا» في أحد جنبات قصر بلقيس... قام «هيرا» عن الكتاب واستدار ليذهب إلى مكانٍ ما، لكنه توقف وقد ضرب قلبه الرعب مما ظهر أمام عينه!، رأى رجلًا مُلثما واقفًا كالطود ينظر له بجرأة!، تراجع الساحر وتمتم بكلماتٍ ونظرَ حوله... قال له الملثم بحزم:

- لا تقلَق يا «هيرا» ولا تسَلني كيف دخلتُ إلى صومعتك وكيف تجاوزتُ حرسًا كثيرًا ودهاليز... فأنتَ تعلم أن هناك أمورًا في هذا العالم تكون عجيبة، لكن أعِرني سمعَك فإني أود أن أسرّ لكَ بأمرٍ يخُص الملك.

اقترب الساحر «هيرا» بحذرٍ شديدٍ.. ومالَ المُلثَّم عليه وقال له خفيَة:

- إن ابن «ملكيكرب» لم يمُت.. ولقد كبر اليوم وسيبدأ بعمل ثورة على حكم «ذو نواس»، وأنت تعلم أن آل «ملكيكرب» هم أقرب إلى قلوب الناس وأقرب إلى الحكم، ولو وُضِعَ «ذو نواس» بكل ظلمه لشعبه إلى جوار ابن «ملكيكرب» أمام الناس فإن الناس ستكون مع آل «ملكيكرب».

ثم مال عليه وكأنَّه يُخبره بأمر أشد أهمية من هذا كله: قال له بصوتٍ أكثر انخفاضًا:

- وإنني أنا الوحيد الذي يدري أين هو ابن «ملكيكرب».

ثم همَس له:

- ولا حتى شيطانك «إزب بن أزيب» يعلَم.

هنا اتسعَت عين الساحر حقًا.. إنه لا يدري أحدٌ على ظهر الأرض باسم شيطانه!، ثم إن أمر ابن «ملكيكرب» هذا ليس أمرًا هينًا... قال له الملثم:

- اتبعني إلى وادي هانون إذا غابَت الشمس.. وسآتيكَ بخبر كل شيء تفصيلا.

ثم استدار الملثم وفتح الباب كأنما يفتح باب بيته وانصرَف.. وبقيَ الساحر «هيرا» تتخبَّطه الأفكار.

وفور غياب شمس وادي هانون.. أتى الساحر «هيرا» بعباءته ووقف على رأس الوادي ينظر، ثم برز له المُلثم على جواد له، فنزل عن جواده ثم مشى إليه بهدوء، ووقف أمامه وقال له:

- هل أحضرتَ شيطانك معكَ يا «هيرا»؟

نظر له «هيرا» بجبينٍ مُقطب ولم يرُد شاعرًا بشبه نبرَة استخفاف في لهجَة الملثم.. قال الملثم:

- «هيرا».. ألم يُخبركَ شيطانك من أنا؟ أليس هو الشيطان المارد العالِم بكل شيء؟

نظر الساحر «هيرا» حوله وقد بدأ يتيقَّن أن الأمر فيه مكيدَة من نوع ما!، ثم سمع صوت استلال السيف فنظر فإذا الملثم قد استلَّ سيفَه فجأة، وأزالَ اللثامة عن وجهه فظهرت ملامحه اليمنية الوسيمة الشابة، نظر له الساحر مُحاولاً فهم ما يجري، لكن الملثم قال له:

- ها قد أزلتُ اللثامة.. أولم يعرفني شيطانكَ أم أنه خنسَ من رؤيتي؟

توتَّرت أقدام الساحر وأسقط في يده ولم يدرِ ما يفعل.. ولعنَ نفسَه ألف مرة على الإتيان هنا، قال له الملثم الذي لم يعُد مُلثمًا:

- أنا أبي بوعُودي أيها الساحر.. وإني مُخبركَ عن شأن ابن «ملكيكرب»؛ ألا إن ابن «ملكيكرب» هذا اسمه «أسعد»، ألا إن «أسعد» هذا سيُريكُم سوءاتكم ويقطعها لكم، ألا أنه يسكُن قرب هذا الوادي؛ ألا إن ابن «ملكيكرب» هو أنا!

سرَت رعشَةٌ في جسَد الساحر وهو يتجهَّز للتراجُع ولا تقوى قدماه على حمله.. وثَب «أسعد» إلى الجواد وانطلق كالسهم ناحية الساحر الذي تعثَّرت قدمه من التراجُع ومال ساقطًا إلى الوراء، لكن قبضَة «أسعد» أمسكَت به ورفعته إلى الجواد وكأنها قبضة من حديد وأركبته على الجواد أمام «أسعد»!، شعرَ الساحر بخنجر يلمس ظهره تحذيرًا وتخويفًا، وضعه «أسعد» وشدَّ به على ظهره حتى أدماه، ثم أرخاه وتوعَّده أن يمضيه في جسده عند أول بادرة للمقاومة، ثم ضرب «أسعد» الساحر بكفِّ يده على وجهه صفعةً موجعَة مهينة أتبعها بصفعة أخرى، ومع كل صفعة يكاد الساحر يقع من فوق الجواد لكن «أسعد» يمسك به ويعيده، ثم سحب «أسعد» عباءة الساحر ورماها في الهواء وضرب فيها السيف فشقَّها نصفين!، فظهرت ملابس الساحر رثَّة من تحت العباءة، فنكز «أسعد» الجواد نكزةً حازمة وانطلق الجواد بسرعة ناحية سوق مدينة ظفار.

***
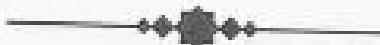
عاصفة من الغبرة والتراب شهدها الناس في سوق ظفار آتية عليهم.. وتبيَّنوا وراءها فارسًا ينطلق بجواده بسرعة جنونية ويمسك أمامه على الجواد رجل ذو لحية طويلة، كان هذا «أسعد» الذي توقَّف بجواده في وسط السوق وصاح بأعلى صوت يملكه:

- يا معشر ظفار.. يا أهل سبأ.. إني أحتكم إليكُم في هذا الرجل هاهُنا؛ فاحكموا لي في أمره.

تجمَّع إليه الناسُ في السوق ينظرونه في عجَب وتساؤل.. فصفع «أسعد» الساحر صفعةً أسقطته من على الجواد. فصاح بعض الناس مُعترضين على أن يفعل هذا برجل عجوز!. قال لهم «أسعد»:

- رجلٌ مثل هذا رث تتصاعد من جسده رائحة العفن: هل يستحق أن نُعظمه فينا؟

نظر بعض الناس إلى الساحر وقد شُبِّه لهم أنهم رأوه في مكان ما!. قال «أسعد»:

- رجل مثل هذا استخفَّ كثيرًا من الناس واستهانَ بعقولهم وأخبرهم أنه يعلم كل شيء... هل يستحق أن نُعظمه فينا؟

صاح بعض الرجال وقد عرف الأمر:

- إن هذا هو ساحر الملك.

وسرت الجملة بين الجمع يسوقونها بعضهم إلى بعض.. سأله «أسعد» في صرامة:

- هل تعلَم كل شيء أيها الساحر؟ هل بلغ علمكَ أنك تسمع الناس في بيوتاتهم؟ هل تعلم ما الذي أخبِّئه لكَ وراء ظهري أيها العالم بكل شيء؟

وأخفى «أسعد» يده خلف ظهره.. وأعاد سؤاله للساحر:

- هل تعلَم ما الذي أُخفيه خلف ظهري؟

بلعَ الساحر لُعابَه ونظر إلى وجوه الناس وعيونهم الناظرة له في تعبيرات كثيرة متداخلة لا يمكن للبيانِ أن يصفها: عن عشر سنوات من الخوف والتفادي، عن اسمه الذي إذا ذُكِر يشعرون بوجَل في قلوبهم، عن «هيرا» ساحر

الملك الذي يبدو في أردأ حالاته اليوم في ساحة سوق ظفار... و«أسعد» يُكرِّر عليه السؤال بصوت أعلى.. ولا يرُد الساحر فيُخرِج «أسعد» يده من وراء ظهره ويهوي بها بلطمَة على وجه الساحر ويقول:

- هذا هو ما أخبِّئه لكَ أيها المنافق الأفَّاك القذر.

ثم يُخفي يده مرة أخرى ويصيح سائلًا:

- ما الذي أُخبِّئه فيها؟

ثم يُخرجها ويهوي بها على وجه الساحر الذي نزلَت الدماء من وجهه وسقط على ركبتيه وذاقت عيونه معاني الذُل الذي لم يكن يكفي سنين المهانة التي أذاقها للبلاد والعباد.

وفي بضع دقائق سقطَت أسطورة.. وبدأ الصبيان يتضاحكون عليه ويصفعونه ويتهكَّمون به... ثم صاح «أسعد» في وسط الناس:

- أيها الناس.. إني أنا ابن الملِك.

نظر الناسُ إلى بعضهم في استغرابٍ واستنكار، فأكملَ «أسعد»:

- ابن الملك العظيم «ملكيكرب».

بعضهم تهلَّلَ وجهه، وبعضهم تحاشى الانفعال، وبعضهم استنكَر... وفار الضجيج في وسط السوق فلم تعُد تسمع قولًا واضحًا.. وفي جانب من جوانب السوق علَت الضجة عن بقية السوق فتطاولَ الناس فرأوا ثلاثة أتوا على أحصنة لهم؛ الجد «موهبيل» والأم «فارعة» و«عمرو بن جابر».

سار الثلاثةُ حتى أتوا إلى جوار «أسعد»، وقال الجد «موهبيل»:

- إنما هذا هو «أسعد بن ملكيكرب»، وإنه قد اختطفَ من بين أيادينا صبيًا بنيَّة القتل!، لكن ربه قد حفظه وأعاده إلينا فربَّيناه وأخفيناه ممن حاولوا قتله.

ازداد عدد المُهلِّلين في السوق.. ورفع «أسعد» قبضته عاليًا، ثم هوى بها على وجه الساحر فهوى على الأرض يبتلِع الدماء، وقال «أسعد»:

- ألا إن السحر يسقط اليوم على هذا الساعد.

ورفعَ بساعده بحركة تدُل على القوة.
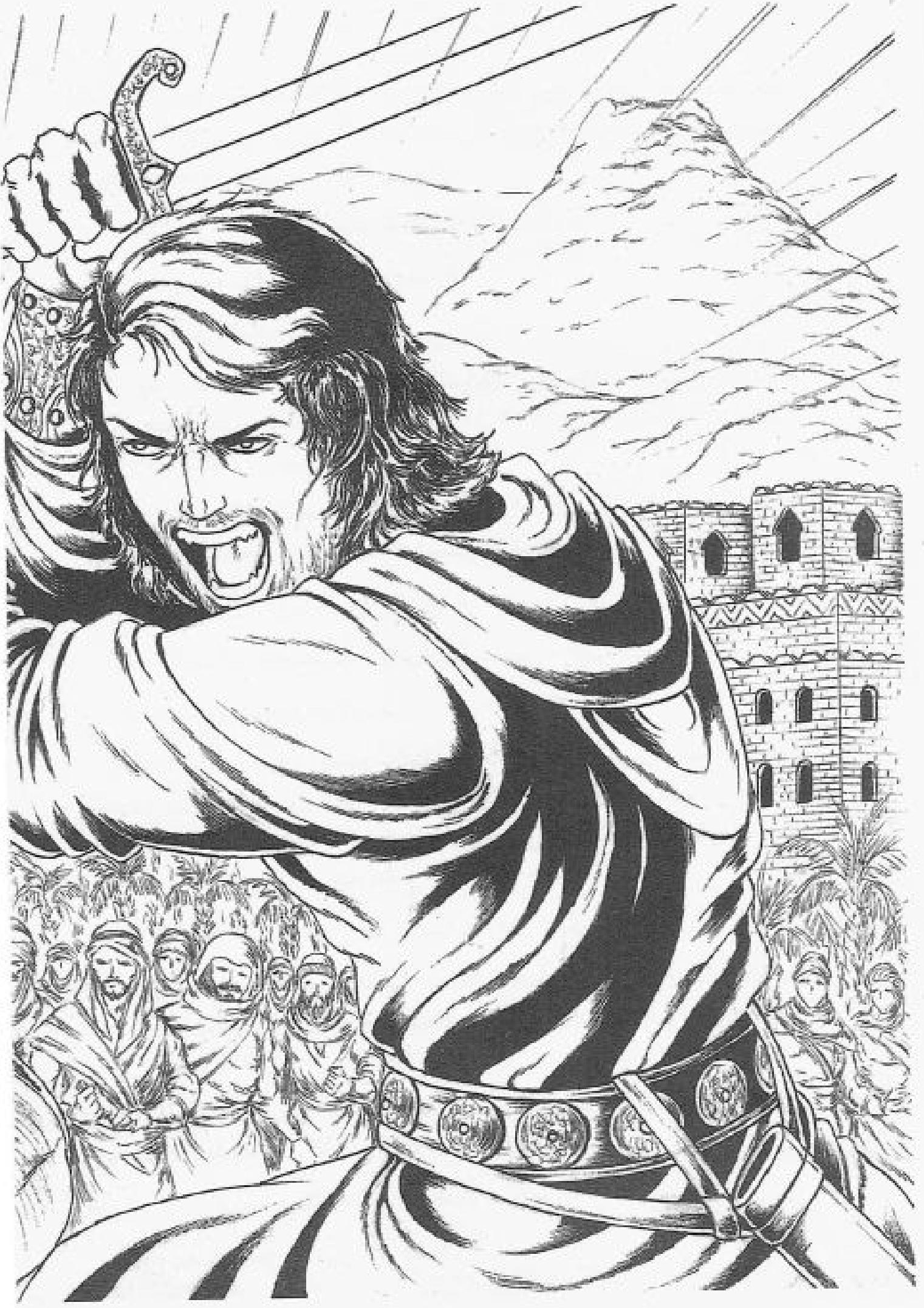
ثم خبَت أكثر الأصوات وخفتَت، وسكنت أكثر الحركات، وتحرَّكت النظرات إلى جهة واحدة من الجهات؛ جهة كان يقف فيها جواد ملكي وعليه رجل ينظر في بأس وسلطان وصمت وترهيب!، كان ذاك «ذو نواس» قد أتى وخلفه جندٌ مجندون وبدَت ضفائره في ذلك اليوم أكثر طولًا عن ذي قبل!، وأكثر رُعبًا.

تفرَّق الناس حتى عملوا ممرًّا واسعًا بينهم.. مشى فيه «ذو نواس» وحوله جنوده يتبعونه، وتباعد الناس وتراجعوا فاتسعت الدائرة التي يُشكلونها حول المشهد، نظر «ذو نواس» بلا كلام إلى «أسعد»، فقط نظر وكأنه لا يريد أن يمنحه شرف التحدُّث إليه!، وأشار بيده فتحرَّك الجنود... قال «أسعد» لذو نواس مشيرًا إلى الساحر:

- أيها الملك يبدو أنكَ لم تتعلَّم شيئًا من بأس الرجال.. أصبحتَ تُشير للرجال لأن يُقاتلوا عنك، بضاعتكَ الخسيئة التي تُرهب بها هؤلاء هي السحر، ويبدو أن السحر الذي تتماجد به مُلقى ها هنَا تحت قدمي.

نظرَ «ذو نواس» إلى الساحر نظرةً طويلةً لا تدري أهي نظرة تعجُّب أو صدمة!، قال «ذو نواس» لأسعد:

- ومن أنتَ يا طويلَ اللسان؟

قال له «أسعد» بعزَّة:

- أنا ابن «ملكيكرب».. كيف وجدتَ عرش والدي؟ هل أبقيتَه حسَن الرائحة؟ أم أنجستَه برائحتكَ القذرة؟

ثم قفز «أسعد» فجأةً بلا مُقدِّمات على فرسه وانطلق إلى «ذو نواس».. تحديدًا إلى رأس «ذو نواس»، ورفع «أسعد» سيفَه وأهبطه في ضربة قويَّة على رأس «ذو نواس» الذي تراجع ببساطة المقاتلين وردَّ ضربَة «أسعد» بسيفه!، فتلاقى نصلي سيفيهما في مشهد لم يعتَد الشعب أن يراه من قبل؛ فلمَ يرَ أحدهم من قبل سيفًا يُرفَع على «ذو نواس»!

مشى الحصانين بمقاتليهما في ساحة السوق يدوران حول بعضهما.. ثم بدأ «ذو نواس» الحراك، فمدَّ يده إلى ساقه فاستل خنجرًا من خناجره ورماها موجهة سريعة ناحية «أسعد» الذي رفع سيفه سريعًا أمامه ليصطك الخنجر في نَصل السيف ويسقط... فأخذ نصل سيف «أسعد» يهتز كأنما فُوجئ بحركة غير مُعتادة!، ابتسم «ذو نواس» وعمل شيئًا اتسعت له عين «أسعد» لثانية؛ فقد قفزَ من على فرسه واستلَّ خنجرين من ساق ومن ساق ورمى الخنجرين مباشرة إلى «أسعد» الذي ردَّ واحدًا منهم بسيفه، لكن الثاني انغرزَ في كتفه وأطاره من فوق فرسه وسقطَ على ظهره على الأرض... وضجَّت الناس.

غطى ضجيج الناس على كل الأصوات.. و «ذو نواس» ينظُر في وجوه الناس في عجب واختيال، وكان «أسعد» أيضا ينظُر في وجوه الناس، ملامح لا تدري أهيَ معَك أم ضدك، أهي ممن ضجَّ بالظلم أم ممن ضجَّ بالثورة!، وبين الوجوه أشرَف له وجهها، ببهائها ووضاءتها وعيونها التي مثل البحر، كانت تنظر له في شفقَة وتشجيع؛ «إينور» بجمال روحها وجمال عينها، لكن «ذو نواس» لم يكن يُضيِّع وقتًا.. كان قد استلَّ سيفَه وتقدَّم من «أسعد» يريد إنهاء حياته، وكان سيف «أسعد» واقعًا بعيدًا عنه، ونزل «ذو نواس» بالسيف بحرفيَّة على رأس «أسعد» بضربة حادة.

وسمع الناس صليلًا بدلًا من صوت الدماء!. كان «أسعد» قد انتزعَ الخنجر من كتفه وردَّ به ضربة السيف، ثم استغلَّ المفاجأة ليبتعد ويحصُل على سيفه، ثم صفَّر «أسعد» لحصانه فأتاه فاعتلاه، وذهب «ذو نواس» واعتلى فرسه أيضًا، وعاد كل شيء إلى حال اللحظة الأولى، وانطلق الحصانان في مواجهة ثانية أشدّ ضراوَةً من الأولى، ارتفع فيها رنين السيوف وقرعها بعضها على بعض، لكن هذه المرة فعل «أسعد» شيئًا عجيبًا؛ فلقد هجمَ بفرسه بزاوية معينة سمحَت له أن يتجاوَز فرس «ذو نواس»، ثم مدَّ «أسعد» يده وراء ظهره وقبض على ضفيرَتي «ذو نواس» وهما تطيران في الهواء، قبض عليهما قبضة مفاجئة فاختلَّ توازن «ذو نواس» من على فرسه وآلَ للسقوط فنزل «أسعد» بالسيف فقطع الضفيرتين بضربة واحدة، وسقط «ذو نواس» على ظهره ثم انقلبَ على وجهه ورفع رأسه ينظُر إلى ضفائره المرمية على الأرض في ذهول، وضجَّت الناس، لكن هذه المرة ضجُّوا بالضحك.

كانت بقايا ضفيرتي «ذو نواس» تبدو مثل قرنين فوق رأسه.. استغلَّ «أسعد» دهشَة «ذو نواس» وضربَه ضربةً بمقبض السيف على أم رأسه فتردَّى على الأرض، وأمسك «أسعد» بتلابيبه وسحبَه حتى وضعه مرميًا إلى جوار الساحر، ورفع سيفه ورأسه ونظر إلى الناس؛ الشعب الذي ما ذاق طعم الحرية منذ عقدين من الزمان، وانحنى الجنود كلهم ووضع كل منهم رأس سيفه على الأرض، كان ذو نواس وساحره في دوار شديد يحاولان القيام من على الأرض بلا جدوى!.. التقط «أسعد» الخنجرين الذين رماهما ذو نواس سابقًا، ونظر إليهما قليلًا ثم فجأةً رمى أحدهما رميَةً خاطفةً فانغرزَ في رقبة الساحر، ثم رمى الآخر رمية أشد وأعتى من الأولى لتستقر في وسط رأس ذو نواس وتنفجر لها كثير من دمائه... ابيضَّت عينا الساحر في ميل إلى الموت، ورأى من بين أجساد الناس كيانًا يرتدي عباءةً على رأسه ويبدو وجهه أبشَع من مجامع البشاعة كلها يتبسم في سُخرية ويتقدَّم منه!، كان ذلك «إزب بن أزيب».. وكان قد أتى يتشفَّى بإنسانٍ ضلَّ وأضلَّ عقدين من الزمن، وإنه لمردود إلى سوء المصير، أما «ذو نواس» فكان وجهه يطالع السماء في جحُوظٍ وقرنين فوق رأسه وخنجر مغروز في جبهته!..

وملك «أسعد» ابن «ملكيكرب» عرش سبأ.. وبدأت الغيمة السوداء التي كانت قد أعششت في كل ناحية في البلاد أن تنقشع؛ فأمنَ الناس بعد خوف، وهنئوا بعد بؤس، واستغنوا بعد فقر، وأصبحوا أحرارًا في دينهم يمارسون ما يريدون... إلا أن دعوةً مُنظَّمة من الملك قد نزلَت في البلاد تدعو إلى الإله الواحد؛ رحمن ذي سماوي، مليك الأرض والسماوات، قبلَها من قبل وردَّها من رد.. واكتملت الدولة فلم يكن يعيبها أو ينقصها شيء.. وتجنَّدت الجنود وتجهَّزت الجيوش ورُدت كل الاعتداءات على الدولة السبئية ممن كان حولها من الدول، فلقَّب الناسُ «أسعد» بالكامل، فصار «أسعد الكامل»، وعرفه الناس بهذا الاسم فصار أعظم وأسمى «تبع» ملك اليمن يومًا، وصارت كلمة «تبع» لما تُذكَر وحدها فإنها تُشير في التاريخ إلى «أسعد» الكامل وحده، لكن اسم الكامل هذا لم يأت من كمال دولته فقط، لقد أتى من شيء آخر؛ شيء جعل اسمه هذا يطرُق الآفاق... فلقد عزم «أسعد الكامل» بعد أن ملك عرش سبأ أن يخرُج بدين الرحمن ذي سماوي من سبأ فيبلغ به مشارق الأرض ومغاربها، لكن مشارق ومغارب الأرض

بالنسبة لأسعد في ذلك الحين كانت تحكُمها امبراطوريات عظمى؛ الفارسية الساسانية والرومانية... ولم تكن حتمًا ستسعَد بدينه الجديد.

لكن «أسعد» كان خطيبًا يُحسن إثارة الحماسة في قلوب الرجال.. ولقد سقى الناس سقاية بمدى عظمة مملَكة سبأ وكيف كانت وكيف أصبحَت، وتجرَّأت عليها الممالك في خمس وعشرين سنة حتى لم يعُد يُقيم لها أحد وزنًا.. وكان فصيحًا يُتقِن الشعر ويقوله في كل مناسبة، ومكث في الناس يُشعل نياط قلوبهم ويشد على عزائمهم ويُجنِّدهم ويُسلِّحهم حتى كون جيشًا لم يرَ أهل سبأ مثله من قبل!، أربعون ألفًا من الرجال انطلقَ بهم من سبأ إلى ما حولها، فخضعت له في عشر سنين (تُهامَة وعدَن وعمان وكل ما يجاورهم)، فصار الملك التبع الوحيد الذي لُقِّبَ بلقب مُركّب طويل جدًا.. «ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمانت وأعرابهم طود وتهامت»، وكان يُجنِّد الناس في كل إقليم يدخُله، وظل يفعَل ذلك حتى جاء اليوم الذي طلبَ فيه من الجيوش التي جهَّزها كلها لتجتمِع في وادي «ماسل الجمح» وسط الجزيرة العربية، وهناك رأى عزَّته الحقيقية.

ثمانين ألفًا أو يزيدون من الفرسانِ أتخموا ذلك الوادي.. وفوق أحد ألسنة الجبل كان يقف «أسعد الكامل» في حُلَّة حربية ملكية، وبجواره «عمرو بن جابر» في هيئته البشرية... قال له «أسعد»:

- هل رأيتَها يا «عمرو» بعينِك؟
- نعم رأيتُها.
- وما اسمها؟
- «فاران».
- وكيف يعيش البشَر فيها يا «عمرو»؟
- هُم قوم بُسَطاء.
- أفيها حقًا البيت الذي وُصفَ في كُتب الراهب التوحيدي «شافع»؟
- نعم هو فيها.. وأهلها يُقدِّسونه.
- أليس ذلك البيت هو أوَّل بيتٍ وُضعَ للناس على هذه الأرض؟
- بلى هو كذلك.. ولقد رفع إبراهيم قواعده بعد أن أخفاه الطوفان.

- وكيف سيكون مسيرنا إليها؟
- عشر أيام نسيرُها حثيثًا أو خمسة عشر في مسيرٍ مُتوسِّط.

وتحرَّك ثمانون ألفا أو يزيدون إلى مدينة فاران.. المدينة التي فيها أقدَس شيء يؤمن به «أسعد» في دين ذي سماوي؛ فيها البيت المحرَّم الذي هو أول مُتعبَّد للرحمن على هذه الأرض، بناه «آدم» وردمه طوفان «نوح» ثم رفع «إبراهيم» مبناه مرةً أخرى... فصار بيتًا مُقدَّسًا يطوف الناس عنده للرحمن، ومُحرَّم على الناس القتال عنده، في مدينة كان اسمها (فاران)، ثم صار اسمها عند العرب ذلك الاسم الذي بلغَ المشارق والمغارب من شُهرته، صار اسمها (مكة).
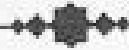
وعند البيت تجمَّعت حوافل الجيوش في مشهد لم يرَ أهل فاران مثله أبدًا.. ورجل على رأس الجيوش كان اسمه «أسعد» تقدَّم بسلاحه ناحيَة البيت ثم انحنى ورمى سلاحه!، ورمى كل الجنود في جيشه أسلحتَهم في صوت جلجلة هزَّت مشاعر أهل فاران- ذلك البيت الصغير الذي يتوسط مدينتهم- تنحني له جُند مجندة بأسلحتهم وعتادهم وخيولهم... الكل ينحني، ويذرف قائده دموعًا سالَت من الشوق، ويخلع القائد خوذته ويتقدم من ذلك البيت الحجري ويُقبِّله، وقال في شعر شهير.. كل ملك يفنى سوى ملك ربي.. فله ملكنا حميدًا مجيدًا.. خلق الخلق فاجرًا وتقيًا.. وشقيًا بسعيه وسعيدًا.. قاهرًا قادرًا يميت ويحيي.. خلق الخلق مبدئًا ومعيدًا.

ثم قام ودعا كبراء جيشه إليه.. أن انحروا لأهل هذه البلدة سبعين ألفًا من الشاء والغنم، وأن اكسوا هذا البيت بالأنطاع المذهبة اليمانية والبرود اليعافرية... ومكث في فاران سبعًا من الأيام ينحر للناس ويسقيهم العسل، وتزين بيت الرحمن فصار ذا كسوة سوداء فاخرة سميكة عليها نقوش ذهبية، وجعل له بابًا مذهبًا ومفتاحًا، فلم يكن في جزيرة العرب بيتًا أفخر منه وأكرم.

ومضى «أسعد» إلى الشرق في فتوح وفرسان وجيوش.. يأتي البلاد ويهزم الملوك، حتى نزل في أرض أظلَمت عليه الدنيا يومين كاملين لم تُشرق فيهما شمس!، وظن أنه بلغ مشرِق الشمس وأن الأرض لم يعُد فيها مسير إلى أبعَد من هذا!، وقال لصاحبه «عمرو بن جابر»:

- أفي الأرض مزِيد من الأصقاع آتيها بدين ربي؟

قال «عمرو»:

- إن فيها مزيدًا وإنكَ لم تأتِ منها إلا شيئًا يسيرًا!

- فأين الشمس يا «عمرو»؟

- إنك في أرض يقال لها داما، وإن الشمس موجودة لكن شيء من الريح يُخفيها عن النظَر، وإنها ستُشرق بعد أيام لا نعلم عددها.

فأمر «أسعد» أن توقد الشماع المنيرة فأوقدت.. ومضى الجيش بها في أرض الظلمات، ثم توقّف الجميع!، توقفوا على خبَر ضج به الملك «أسعد» وثار!، قالوا:

- يا أيها الملك.. إن وزيرًا لك اليوم قد قُتِل، في بلد من البلدان التي أخضعتَها لسلطانك...

فعبس فلم يُر من قبل في مثل هذا الغضب.. وقال:

- لآتينّهم فلأهدمنَّ عليهم صوامعهم ولأستأصلنّهم منها وأقطعن لهم رؤوس النخيل فيتشردون في الأرض... أي بلدةٍ تلك التي قتلَت وزيري؟

قالوا إنها بلدَة قريبة من فاران، وإنها تُدعى يثرِب.

- أبلِغوا يثرب أني هادمها ومُنزلًا عليها الخراب.

وجاءها بتسعين ألفًا من الجنود.. حتى إذا وقف على أعتابها وبانَ له نخيلها، خرج له منها رجلين من أحبار اليهود؛ أحدهما يدعى كعب والآخر شامول، قال له كعب:

- يا داعي الرحمن كيف تأتي لخراب بلدة هي مهاجر نبي يخرج من هذا الحرم في آخر الزمان تكون داره وقراره.. وإنا نحن اليهود ما أتينا إليها وتركنا كل بلدة إلا لأنا علمنا أن مُستقرَّه يكون فيها.

فوقف «أسعد» وكأنَّ على رأسه الطير.. وذهب عن وجهه العبوس وتبدَّل بملامح أقرب إلى الوجد، وقال:

- أهي كذلك؟

- نعم يأتيها فيُنير منها كل شيء، وينصُره أهلها.. وإن اسمه في كتبنا «أحمد».

ولقد كفى هذا «أسعد» ليحني رأسه ويرفع خوذته عن رأسه.. قال «أسعد»:

- ما لهذا البلد من سبيل.. وما كان خرابها ليكون على يد أي أحد من العالمين، وإني بالرحمن داع ولنبي الرحمن داع... شهدتُ على «أحمد» أنه رسولٌ من الرحمن باري النسم، فلو مدَّ عمري إلى عمره لكنتُ وزيرًا له وابن عم، ولجاهدتُ بالسيف أعدائه، وفرَّجتُ عن صدره كل هَم.

وأكرم «أسعد» أهل يثرب وأغدَق عليهم ورفع من شانهم.. وأقام لديهم في وادي قباء سبعًا من الأيام، وحفرَ لهم بئرا لازالوا يسمونه بئر الملك، وأصرَّ أن يأخُذ معه الحبرين كعب وشامول إلى اليمن فيكرمهما ويهديهما في قصرا يعيشان فيه بما بشَّراه بالنبي الأحمد...

وعاد «أسعد» إلى سبأ فأقام فيها ما شاء الله له أن يُقيم إلى أن جاء ذلك اليوم.

أتى بعد ثلاثة عشر سنة.. أتى وحضرَ شبح لا يُغادر صغيرًا ولا كبيرًا على هذه الدنيا إلا أتاه، أتى شبح الموت على الملك، وهنَ الجسَد وضعفت الروح، فصار لا يقيمه إذا انحنى مال ولا حسَب، وغزا المرض الخلايا، كان قد تزوج وأنجب ثلاثة، «حسَّان» و«شرحبيل» و«ليس»، وكانت «ليس» عند قدمه لا تُغادره أبدًا، فأرسل إلى ولديه «حسان» و«شرحبيل» قال.. (يا بني لا تختلفوا بعدي فتذهَب عزَّتكم.. وإن المُلكَ سيأتي كل واحد منكم، وليبدأ بها «حسَان» لأنه الأكبر وليخلفه أخوه من بعده...) ثم غاب عن الوعي.

فلما أفاقَ قال:

- ائتوني بسكان الجبل.. ائتوني بعمرو بن جابر، وائتوني بإينور، ائتوني بإينور.

فظنَّ أهله أنه يهذي.. لكنه ظلَّ يُكرِّرها ويصف مكانًا في الجبل يسكُن فيه «عمرو بن جابر» وتسكن فيه «إينور»!، وكان يغيب عن الوعي فيذكُر أيام لعبه مع «عمرو بن جابر» في الدير، ويغيب فيرى «إينور» وهي تأتيه تمشي وتُنقذه من سقطة كادت أن تقضي عليه، ويغيب ويرى الكعبة وكسوتها، ثم يفيق ويغيب فيرى نخيل يثرب، ويسمع الأحبار ينطقون باسم «أحمد»، ثم يفيق فيرى أمامه وجها هو أحسن وجه، وعين هي أجمل عين؛ زرقاء يُحاكي صفاؤها البحر، كانت «إينور» قد أتت له تنظر له بنظرة تذكر أين رآها أول مرة، نظرة فيها من

الشفقة والحنان ما لا يملكه بني الإنسان، و«عمرو بن جابر» بجوارها ينظُر له بوجهه الحسن الذي لا تشيبه السنين أبدًا، وكأنَّ هؤلاء الجن لا يهرمون!

تبسَّم «أسعد» لمرآهما وأدمعَت عيناه وقال:

- يا «عمرو».. وددتُ لو أنَ لي مزيدًا من السنين في هذه الحياة باقيَة، فكانت عيني هذه لتدمع من جمال رؤياه يا «عمرو».

نظر له «عمرو بن جابر» محاولًا أن يفهم.. فابتسَم «أسعد» ونظر إلى الأعلى في شيء يُشبه الرضا، وقال:

- إن اسمه «أحمد» يا «عمرو»، أحمد...

أومأ «عمرو» برأسه مُوافقًا.. فقال «أسعد»:

- شهدتُ على «أحمد» أنه.. رسولٌ من الرحمن باري النسَم.. فلو كان مدّ عمري إلى عمره.. لكنتُ وزيرًا له وابن عم.. وألزمت طاعته كل من.. على الأرضِ من عرب ومن عجَم.. ولجعلتُ نفسي له جنة.. وفرَّجتُ عن صدره كل غَم.. نبيٍ وجدناه في كتُبنا.. به الهدى وبه المعتصم.. ومنا قبائل يؤوونَه.. إذا حل في الحل بعد الحرَم.

ونظر إلى إينور وقال:

- أشهدكِ بالرحمن يا ذات الحسن والنور.. إذا بلغَ زمانكِ زمانه أن تقرئيهَ مني السلام، وقولي له أن الوجد بحبه قد نالني حتى وهَن مني العظم واشتعل الرأس شيبًا.. وثقلت الروح بالجسَد فأعياها.. وإنها لمغادرة إلى روح ربها وسلطانه.

ونظرَ إلى «حسان» فقال له:

- حضرتَ وفاة أبيك يا «حسان».. فانظُر لنفسك فالزمان زمان.. فلربما ذلَّ العزيز وربما.. عزَّ الذليل وهكذا الإنسان.

وأغمضَ عينيه باستسلام.. ثم فتحها فجأةً كأنما تذكَّر أمرًا، ونظر بعينٍ واهنَة إلى «عمرو»، قال له:

- يا «عمرو».. الكتابَ يا «عمرو».

نظرَ له «عمرو» متسائلًا.. فسكتَ لحظةً ثم قال:

- كتاب الراهب «شافع».. إني أحفظه تحت عرش الملك، فلا يضيعن من بعدي يا «عمرو».

همَّ «عمرو» أن يتكلَّم.. لكن قطع الحديث فجأةً صوت «إينور»؛ قالَت:

- لا ينبغي لمثله من كتاب أن يكون تحت العرش.. ولا ينبغي له أن يكون في القصر، فإن الممالك مهما طال عهدها تسقط، وإن نفوس الملوك تتغيَّر يا «أسعد»، فلا تجعله في براثن القِدَرِ، إنما ينبغي للكتاب أن يعود إلى دير الراهب «شافع»، فيتعلم منه المتعلمون اسم الرحمن وينتشِر.

نظر «أسعد» إليها بحنان، ثم نظرَ إلى ابنه «حسان» وقال له:

- اعهَد بالكتاب إلى «يزن».. فإنه أحفَظ له من كل أحد.

ثم نظرَ إلى «إينور» وقال:

- إن هذا الكتاب في ذمَّتكِ يا «إينور».. فلا يضيعَنَّ من بعدي.

ترقرقت عيني «إينور» بكثير من الدموع والكلام.. ونظر في عينها وتذكَّر تلك العيون الآمنات التي آمنَته يوما في العتمة، وإنها لتأمنه اليوم.

ومرَّت دقائق من الحزن حتى أذن الله لروحه أن تفيض.. فنازع حتى خرجَت منه إلى بارئها، وأقيمَ له مأتَم حضرته الأقيال والأذواء وكثير من جموع سبأ وما حولها، ونفَذ أهله وصيَّةً عجيبةً له؛ فلقد أوصى أن يُدفَن قائمًا!، ولقد تعب الناس في مُحاولة تحقيق ذلك حتى أنجزوه، فكان الوحيد الذي دُفِنَ قائمًا في التاريخ كله!

ونزل الليل على سبأ وليس فيها «أسعد الكامل».. ولزم الناس بيوتهم من الكرب فلم يُرَ في شوارع ظفار ماشيًا ولا راكبًا، إلا رجلا يمشي محني الظهر بعباءة يتلحَّف بها من فوق رأسه، ثم أحسر عباءته عن رأسه حتى بانت ملامحه الكريهة، لقد كان ذلك «إزب».. «إزب بن أزيب»، كان لامًّا عباءته خارجًا من ظفار مُتوجِّهًا إلى مكانٍ آخر، وفتنةٍ أخرى!

تمت

إني زعيمٌ بقصة عجب

عندي لمن يستزيدها الخبر

يكون في الأسر مرةً

رجُل ليس له في ملوكهم خطَر

مولده في قرى ظواهر

همدان التي اسمها خمر

يقهر أصحابه على حدث

سنه ويخفى فيهم ويحتقر

حتى إذا أمكنته صولته

وليس يدري بشأنه البشَر

أصبح في هنوم على وجَل

وأهله غافلون ما شعروا

رأوا غلاما بالأمس عندهم

أزرى لديهم جهلا به الصغر

فارشد فلا تسكن في خمر

ورد ظفار فإنها الظفر

نحن من الجن يا أبا كرب

ياتبع الخير هاجنا الذعر

فسار عنهم من بعد تاسعة

إلى ظفار وشانه الفكر

فحل فيها والدهر يرفعه

في عظم الشأن وهو يشتهر

فعبأ الجيش ثم سار به

مثل الدبا في البلاد ينتشر

قد ملأ الخافقين عسكره

كأنه الليل حين يعتكر

تقهر أعداءه كتائبه

فليس تبقى منهم ولا تذر

إنا وجدنا هذا يكون معا

في علمنا والمليك مُقتدِر

والحمد لله والبقاء له

كل إلى ذي الجلال مفتقر

أسعد الكامل

«عمرو بن جابر بن طارق»، «وإينور بنت آمون».. كثير من الجن يعتبرونهما من ذوي الذكر الرفيع، وكثيرٌ آخرون يعتبرونهما من ذوي الذكر المحتقر، لكن الأكيد- كما سيظهر لاحقًا في الإيستوريجا- أن وجودهما علامة فارقةٌ في تاريخ الجن.

الإيستوريجا هي علم الزمان.

كل اختلافات الناس في هذه الحياة إلى أديان وفرَق وطرائق تكون بسبب اختلافهم فيما كان في الزمان.

يقول بعضهم حدثَ كذا، والبعض الآخر يقول بل حدث كذا؛ فيفترقوا إلى عقائد ويختلفوا، ويتحاربوا.

أما الإيستوريجا فهي الحديث الحق.. ما حدثَ كيفما حدث.

موكول بها فرق من الجن تشاهد كل شيء، وتكتُب كل شيء كما حدَث دون تحريف وتأويل.

بأمر لوسيفر.. يكتبون ولا يُغادرون حدثًا في تاريخ الإنس.

تعلَّمنا أن التغيير والتبديل في الإيستوريجا هو المفتاح لمن أراد للبشَر أن يضربوا رقاب بعضهم البعض.. فلا أحد منكم يهتَم بتدوين التاريخ بدقّة في زمانه، نحن ننسيكم هذا، فتتعارض كتبكم في التاريخ، وتتوالى الأجيال ويختلف الإنس ويتناحرون، ويتحاربون ويفنون، هذا هو الهدف؛ أن تسفكوا دماء بعضكم بعضًا، لأن جنسكم يُزعجنا، تمامًا كما يُزعج الذباب وجوهكم، وإبادتكم بالنسبة لنا راحة مثل أن إبادة الذباب لكم راحة.

ضع هذه الكلمات في جانب من ذهنك بينما نمضي.. ولا تنسَها كما تنسى الضباع، وإن الضباع ستُخيِّم على أرضكم، بعد أن أشعل «أسعد» الكامل جذوةً من نور؛ ستُخيِّم الضباع من بعده حتى تبتلعكم جميعًا.

"إن هذا الكتاب في ذمتك يا (إينوي) فلا يضعن من بعدي"..
كلمات سأحفظها بدمي يا (أسعد)، و أعدك أن هذا الدير الذي أعدت بناؤه سيكون منارة للعلم
أذكر فيما مضى من الزمن لما كنت أنت صبياً محبوساً في قصر خمر.. كان شيء سيء يحدث عند الدير..
رأيت أجنادهم و أسافلهم قد أتوا لخرابه و قتل كل أحد..

دخلت أحذرهم ليهربوا.. فركض الجميع خارجا.. إلا واحداً رأيته يهرع إلى الداخل
تبعته لأحذره، فوجدته قد اخرج كتاباً ذو أهمية.. ثم بدأ يفكر في الهرب، فأرشدته إلى الجهة الوحيدة التي لا يأتي منها الجنود
إنطلقت إلى (عمرو) لأخبره بما حدث.. و كان عند الأخدود

(۳)

فی سبع
قطع من
الزمان

خبرٌ تناقل في العرب البائدين.. أن امرأةً كانت كالنجم في النساء الأولين، زرقاء كانوا يسمُّونها وليس اسمها زرقاء؛ زرقاء كانت عيونها، وكل زرقاء عين في العرب يُلقبونها زرقاء، وكل زرقاء عين عندهم شؤم لوالدها وتعاسة، يئدها في التراب إن كان له قلب أو تحيا في وجَع مستمر، يوجعها حديثه وتوجعها عيونه، تعلَّم العرب أن الزرقة من العجم، فإن أنتهم الزرقاء ظنوا بوالدها الظنون.

خبرٌ تناقل في العرب البائدين.. أن امرأة زرقاء لم تكُن كأي زرقاء، قصَّ العرب وحدَّثوا عنها حتى صار العربي يأمل ويبتغي أن تأتيه ابنة زرقاء!؛ ساحِر وجهها نضرة ملامحها، كأن وجهها في وجوه القوم قمر تسامى فوق كل الأنجم، عينان وضاءتان في وجهها، ترى مالا يرى، كأنما يخرُج من عينها نورًا يضيء لها كل شيء!، في بصرها حدَّة شديدة تنظر بها إلى أبعد مما ينظر البشر، في رأسها عقل كأنما نزل من السماء وحده ثم نزلت عقول القوم بعده، وحولها يمامة برية لا تفارقها، تحط على كتفها كالصقر تارة وعلى كفها تارة أخرى، فأعطاها القوم نعتًا غريبًا لكنه يليق بها.. سمُّوها «زرقاء»: (زرقاء اليمامة).

أتاها قومُها يومًا وقالوا:

- يا زرقاء إنا جمعنا لك جمعًا.. حمائم قد عرفنا عددها.. فإذا أطلقناها وتفرَّقت في السماء فانظري إليها نظرة واحدة، ثم أنبئينا بعددها.

نظرَت إلى القوم وقد خبَّأت لهم في نفسها خبئًا.. وأطلقوا حمائمهم فطرفَت عينها لهم طرفة ثم أطرقت برأسها... قالت:

- هذا الحمام ونصفه معه ويمامتي هذه يكون مائة.

فعرفوا أن عيونها ليسَت من عيون الإنس.. فإن حمائمهم كانت ستة وستين حمامة.

كان سكناها في قطعة من أرض جزيرة العرب ناحية الشرق اسمها «جو».. وإن قومها في «جو» أسموها الكاهنة- والعرب تُسمي الطبيب كاهنًا وكل من له علم أو قُدرة ليست عند غيره- وكان لها تلَّة مُرتفعة تحب أن تمضي إليها كل

حين ومعها يمامَتها. ولقد مسَّ قلبها الشغَف بالطير وسلوك الطير والحيوانات وحتى الحشرات؛ فكانت تفهَم سلوكهم؛ فإن أتى الغزاة إلى أرضها استدلَّت بمسلك الطير عليهم قبل إتيانهم بثلاثة أيام!، فإذا اقتربوا لحظتهم بعينها وحذَّرت قومها، فلم يكُن جيش يستطيع أن يدخل أرض «جو» من حيث لا يدري أهلها.

وعلا شأنها وشأن جمالها وعيونها وتنافس الخاطبين عليها.. حتى دخل إلى بلادها يومًا شابٌ رحالَة حلو اللسان جعد الشعر... يقصّ على الناس القصص ويحكيها، وكان اسمه «خرافة»، خرافة العذري، وكانت كلما مرَّت عند سوق المدينة وجدَت حوله جمهرة من الناس يستمعون إليه!، فاقتربَت مرة بكل بهائها تسمع ما يقول.

قال يا قوم إني مُحدِّثكم بأمر وإني ورب القمر المنير لصادق.. إني قد أسرَني ثلاثة من الجن يومًا فأخذوني إلى واد اسمه عبقر، فرأيت فيه من عجائبهم ما شابت به شعرات شابة من رأسي، عجيبة كانت هيئاتهم وشعورهم، فبينما أنا معهم إذ اختلفوا ما يفعلون بي، فمرَّ عليهم رجل من الجن فقال مالكُم؟، قالوا اختلفنا في أمر هذا الإنسان، قال لهم فأشركوني معكم.. قالوا أنتَ لا تكافئنا.. قال سأحكي لكم حكايةً حدثَت معي وستعلمون ما هو قدري، إني عطشتُ ذات يوم فنزلتُ لأشرب من بئر قريب فإذا صيحة عالية مُخيفة صمت أذني فهربت!، لكن العطش أعادني مرةً أخرى إلى البئر فنزلتُ وشربت، فدعا عليَّ صاحب الصرخة الجني فقال (اللهم إن كان الشارب رجلًا فحوله امرأة.. وإن كانت امرأة حولها إلى رجل)!، فنظرتُ فإذا أنا قد تحولّتُ إلى امرأة!، ومضيتُ إلى المدينة وتزوّجتُ رجلًا وأنجبتُ منه، ومرَّت السنين وعدتُ إلى البئر وشربتُ... فدعا جني البئر بنفس دعوَته، فنظرتُ فإذا أنا قد عُدتُ رجُلًا!، وتزوَّجتُ وأنجبت!، فإن لي ابنان من بطني، وابنان من ظهري...

قال له الجن والله إن قصتكَ عجيبة، وإنا سنُشركك معنا في مصير ذلك الرجل الإنسان.. وأشركوه معهم، وتكلموا كثيرًا حتى انتهوا إلى أن يتركوني أمضي إلى حال سبيلي، كان عالم الجن عجيبًا جدًا ومليئًا بالغرائب، وإن عندي كثير من الحكايا عنه.

كان الناس يتجمَّعون حول خرافة ويسمعون له غير مُصدِّقين، لكنهم يُحبُّون طريقته وطرافة حكاياته ولم يُصرِّحوا بعدم تصديقهم... وبرز بين المجتمعين

رجلٌ مألوف، بدا أن الحديث عن الجن قد أعجبَه؛ رجل يتلحَّف بعباءة سوداء وعلى وجهه الدميم بسمة ألفناها، «إزبٍ بن أزيب».. وإن وجوده في حاضرة من الحواضر لا يتبعه إلا البلايَا!، كان ينظر إلى «خرافة» وهو يتحدَّث عن الجن وعيونه الشيطانية تلمع من السخرية، لكنه صمت واستمع مع الصامتِين الغير مُصدِّقين، ثم برز من بين الصمت وجه بهي لم يجِد النفاق إليه سبيلاً.. كان وجه زرقاء اليمامة.

برزت لخرافة من بين وجوه الناس وقالَت له:

- والله إنك لكاذِب يا هذا، كاذب وذا عقل مختل أحمق.

نظر لها «خرافة».. إن الملائكةِ بنات الله إذا نزلَت لن يكن أجمل من هذه الغادة الصبوحة!، وصمتَ ولم يتكلَّم!. فنظرت إلى عينيه وارتباكه وخجله؛ كان في عينه براءة طفوليَّة أحبَّتها؛ براءة لم تلمَسها في بني الإنسان، ربما لمستها في الطيور!، وأعرضت الزرقاء عن الجمهرة وأعرضت عن أفكارها واستدارت ومضت إلى طريقها، وتابعها هو بنظرِه مبهُوتًا!

ولم تمضِ شهور يسيرة إلا و«خرافة» قد خطبَ اليمامة، وكان حدثًا في البلاد عظيمَ.. ثم نزلت على أهل البلاد مصيبة جعلَت تدور فيها رؤوسهم وتسيل فيها دماؤهم؛ مصيبة عظمى جاءتهم من حيث لا يستطيعون لها ردًا، جاءتهم من فوقهم، من ملك ظالم كان على بلادهم يُدعى «عمليق»، جبارٍ من جبابرة العرب البائدين.. غضب عليهم ذات يوم فحكمَ فيهم حُكمًا لم يحكمه قبله طاغوت على بلاده ولا شيطان!، وظهرت بوادر نفثات إزب.

كانوا قبيلتَين في «جو»؛ طسم وجديس.. امرأة من جديس أغضبَت الملك وهجَته بشعرٍ قاس، فغضبَ الملك وحكم؛ حكمَ ألا تتزوَّج امرأة من جديس إلا ويدخل هُوَ عليها قبل زوجها!، وإذا رفضت تُقتَل ويُقتَل زوجها!، وإذا انفصَل خطيبين قبل زواجهما تفاديًا لهذا الحُكم يُقتل الزوج وتؤخذ الفتاة جاريَة عند الملك!، ولقد كانت اليمامة أشهر مخطوبة في ذلك الوقت، وكانت من جديس.

كل يوم يمُر على جديس كان يوم عار.. تأتي جنود الملك لتأخُذ فتاة اشتُهر بين الناس أنها مخطوبة، ولا تقدر هي ولا زوجها ولا أهلها على العصيان والسلاح يمس رقبتها... حتى أتى يوم زرقاء اليمامة، ونزلَ الجُند على بيتها

وساقوها.

ابدي بعمليق وقومي واركبي

وبادري الصبح لأمر مُعجب

فسوف تلقين الذي لم تطلُبي

وما لبكر عنده من مهرَب

وفجأةً برزَ «خرافة» للجنود بعصا يحملها يُدافع بها عن التي اختارها قلبه.. وحتى في دفاعه كان بريئًا: فخرج يصيح ويرفع العصا وليس يُحسن قتالًا ولا خطة!، فرماه أحد الجنود برُمح انغرزَ في ظهره وأدماه وسالت دماؤه وقبلَها دموعه التي رأتها الزرقاء في عينُه قبل أن يموت... وأخذَت الزرقاء إلى قصر الملك العمليق.

ولما غابت شمس ذلك اليوم خرجت اليمامة من القصر.. داميَة من كل أرجائها، يهتز جسدها من أثر معركة يبدو أنها انتهَت بانتهاك شرفها، وارتجفت ملامحها تود البكاء لكن عزيمة بداخلها أمسكَت نفسها، ومشت حتى أتت نادي قومها بني جديس، فسكتوا عن كل حديث لما رأوها، داميةً ملابسها وعيونها دامية، لم تعُد ترى زرقة العين من حمرة القهر... قال يا جديس إنكم لأذل أهل الأرض في الأرض، وإنه ليس في العرب قوم أذل منكم، أتُؤتَى نساؤكم وأنتم رجال هاهنا تقعدون: رجالٌ كحبَّات الرمل لا شأن لهم ولا وَزن؟ أتزفُّ العروس في نهارها وتنتهك في ليلها!، ولو أننا كنا رجالا وكنتم نساءً لكان أكرم لكم، تمشون تختالون كمشية الرجال ودماء نسوَتكم تؤتَى وتكشَف!، والله إن جديس لأذل أهل الأرض.. والله إن جديس لأذل أهل الأرض.

فإن أنتُم لم تغضبوا بعد هذه

فكونوا نساءً لا تغب عن الكحل

ودونكُم طيب العروس فإنما

خُلقتُم لأثواب العروس والغُسل

فلو أننا كنا رجالًا وأنتم

نساءً لكُنَّا لا نُقيم على الذل

فبُعـدا وسُـحقًا للـذي ليـس دافعًـا

ويختال يمشي بيننا مشيَةَ الفحل

فموتـوا كِرامًـا أو أميتـوا عدوَّكُـم

وادنوا النار الحرب بالحطب الجزل

فثار الناسُ وحمي الرجال وتدافعوا إلى السلاح.. وقال أعقلهم يا بني جديس إنكم إذا قمتم اليوم إلى عمليق لتقاتلوه فإنه والله قاتلكم ومبيدكم بجنده وسلاحه. فأقيموا وليمةً فادعوه لها وادعوا لها كبراء طسم، ثم اقتلوهم غيلةً واقطعوا رؤوسهم، ويكون لكم الأمر من بعدهم... وفكرَّت جديس وقدَّرت، وقرَّرَت، وكانت مذبحة.

قَصر بلقيس.. مملكة سبأ العظمى، ومليكها حسان بن أسعد الكامل.. قالوا له يا ملِك إن على الباب رجُل أشعَث من وعثاء السفر جاء يريدك ويقول أنه من طسم، ومعه كلب يعرج عرجة شديدة... قال ائتوني به.

فلما أتاه الرجل قال:

- يا ملِك.. أغثنا فإن إخوتنا من جديس قد أغاروا علينا فذبحوا كبراءنا وذبحَوا الملك بضربة واحدة، ولقد سطوا على حكم البلاد...

قال الملك لأقياله وأذوائه:

- أفتوني في أمر طسم وجديس.

قالوا له:

- يا أيها الملك، مالَنا بهم.. فليغيروا على أنفسهم، ما أبعدهم عنا.

قال الرجل من طسم:

- بل نحن قريب يا ملِك.. وانظُر إلى عرجة كلبي هذا؛ فإن كنا بعيدًا ما كان قدرَ على المجيء معي بهذه العرجة!

أعرض الملكُ عن كلام أقياله وصدَّق كلام الرجل.. وعزم أن يتدخَّل وينتقم لطسم هذه؛ فإنه لا يرُد أحدًا استغاث به أبدًا.. تبسَّمَ الرجل من طسم بسمة

خفية، ونظر إلى عرجة كلبه، فإنه قد كسر قدم هذا الكلب قبل أن يدخُل إلى الملك؛ ليريه أن البلاد ليسَت بعيدة.

ومشى الملكُ بنفسه على رأس جيش كبير إلى «جو».. وفي الطريق قال له ذلك الرجل من طسم:

- أيها الملك.. إنا كنا إذا جاءنا غاز بجيش على بلادنا عرفنا بمجيئه قبل أن يأتي بثلاثة أيام، فإذا جاء باغَتناهُ وألحقنا به الهزيمة. فلم تقدر الملوك على دخول بلادنا أبدا.

قال الملِك:

- وكيف تعلمون قبل ثلاثة أيام؟

- لدينا امرأة كاهنة زرقاء من بني جديس.. لها عين كأنها عين الآلهة!، ترى ما وراء الجبال، وترى الراكب قبل أن يصل بأيام... وإنها اليوم سترانا من على تَلّتها وستُبلغ قومها، وسيرهقوننا.

تبسَّم الملِك «حسان» وقال وهو يُخفي أمرا:

- بل سندخُل على جديس بكل رجالنا وعدتنا هذه ولن ترانا كاهنتكَ الزرقاء ولو اتخذت سلّما في السماء.

نفَّذَ الملكُ خدعةً عجيبة.. أمر الرجال أن يقطعوا الشجر الصغير من جذوره، ثم يربطوا الشجر على بطون الجياد، وأن تمشي الجياد بأشجارها مُتلاصقة في الجيش!، فيبدو للرائي من بعيد أن هذا ليس جيشًا؛ وإنما هو مجموعة من الأشجار!.. ولما اقترب الجيش، أمرهم الملك أن يمشوا ببُطء شديد حتى لا يلحظ الرائي حركَتهم فيرى غابة من الأشجار ولا يفطن أنهاَ تتحرَّك ببطء وتقترب منه!

فعل الجنود أوامر الملك.. وكانت الطيور تطير فوق أشجار الجنود وتحط عليها بلا خوف، وكانت زرقاء اليمامة جالسة مع يمامتها تنظُر إلى الأفق في حُزن، تذكُر ما فقدَت من عرض، وتذكر «خرافة» ومشهده الأخير... ونزلت من عينها الدموع.. واقترب الجيش من جهة تكثُر فيها الأشجار، اقترب حتى أصبح في مرمى عيون اليمامة، لكنها لم تنتبِه، ثم فطن عقلها من طول جلستها

لشيء غريب!، وقفت الزرقاء على التل ومسحت دموعها وضيَّقت عينها؛ هذه الأشجار، إنها تتحرَّك، هذه الأشجار آتيَة إلينا.

ومضَت إلى قومها في عجالة.. وقالت يا قوم إني رأيتُ الأشجار تأتي إلينا.. نظر قومها إليها في سُخرية وتجاهلوا قولها، ثم ذهبت في اليوم التالي وصعدت التلة ونظرت فرأت شيئا أعْجب، فهرعت إلى قومها وقالت أنها ترى الأشجار خلفها بشَر.. فسخرَ قومُها منها سُخريةً أشد من سخريتهم الأولى، ولم يلبثوا من ليلتهم هذه ساعة إلا دخل عليهم «حسان» بجُنده وسلاحه فحطمهم وقتل كبراءهم.

خذوا حِذركم يا قوم ينفعكم

فليس ما أرى بالأمس يحتقر

إني أرى شجرًا من خلفها بشَر

وكيف تجتمع الأشجار والبشَر

في خيمة على أعتاب «جو».. فيها الملك «حسان بن أسعد الكامل»، دخل الجُند عليه بامرأة زرقاء، فنظر فإذا هي الجمال مُجسَّدًا في امرأة، والقهر في عينها والحزن أهلكها!، قال لها:

- قد أتينا برغم أنفكِ وعينكِ يا زرقاء.

قالت له:

- إني رأيتُكم تأتون تحملون الأشجار وحذَّرتُ قومي لكنهم صموا آذانهم وقالوا أن الحُزن أضعف عيني.
- أما نحن فإنا سنُكرمك وسنستخدمك في بلادنا، أما بلادك هذه فلن يكون اسمها «جو» بل سيَكون اسمها اليَمامة، على اسمك.
- قتلتَ كبراء أهلي وتظُن أني لديكَ جاريَة!، والله إني لأُمزّقنّ عيني هذه لئلا يستخدمني قاتِل قومي.

غضب الملك «حسان» وقال:

- أيها الجُند خذوا طويلَة اللسان فاذهبوا بها إلى خيمَة «مزيقياء» أمير مأرب فتكون جاريَةً عنده فليستخدِم بصرها في مراقبة السد والعناية به، ولتقِفَنَّ على أعالي السد ولتنظُرَنَّ لنا من أتانا وأراد بنا شرًّا.

ودخلوا بها إلى «مزيقياء» مُكفهرَّة الوجه.. و«مزيقياء» شيخ كبِير سَمْح الوجه... تبسَّمَ لما رآها، ثم دعاها وتحدَّث لها بصوت خفيض، وظل يتحدّث إليها حتى ضحكت، لم يعرف الحراس لم ضحكَت هذه الفتاة العنيدة بعد جلسةٍ واحدة مع «مزيقياء»!، قال لها:

- يا زرقاء، إنا ما دَرَينا بالأمر الشنيع الذي فعله العمليق فيكُم.. قد أتانا من عند طسمٍ رجل يتباكى عند الملك، ولم نُقر الملك على ما فعل، وانه لشاب فيه طيش، ليس مثل أبوه أسعد الكاملَ العظيم، لكن أخوه «شرحبيل» أقرَب لوالده وأكمل عقلًا، وإنك لتسمعين غدًا خبرَ قتل «حسان» هذا على يد أخيه؛ فلا تحزني واعتبريها عطيَّةَ صُلح من الجد «مزيقياء» لأجل من مات مِن أهلك، أما أنتِ فلستِ جَاريةً لأحد، كوني معي وستكونين فينا عظيمةً مسموعَة الرأيَ؛ فلقد سَمعنا عن بصيرتك وفطنتك... ثم قال لها:

- ما اسمك يا زرقاء؟

تحرَّجت من الإجابة، ثم أجابَت فقالتك

- إنني حين مولدي وجدَني أهلِي زرقاء فتشاءموا مني وسمُّوني عنز -غضبا عليَّ- ثم لما كبرتُ لم يكُن لأحد ابنة أجمل مني؛ فسمَّاني أهلي الشموس.

- أما أنا فإني سأسمّيكِ اسمًا آخر.. سنسميك ظريفَة؛ لأن براعة وذكاء قلبك لا يُوصفان.

فضحكَت زرقاء اليمامة.. كان هذا هو «مزيقياء بن ماء السماء» أمير مأرب.

وجاء الأقيالُ إلى «شرحبيل» وقالوا له:

- إنا قد أرهقَنا «حسان» أخوك.. مئات الأميال نمشيها ونسفك دماء الناس بلا طائل، ولا يسمع رأي الأقيال والأذواء في أي شيء، ونحن الذين لم يأتِ ملِك إلا أخذ مشورتنا!، حتى الملكة العظيمة بلقيس لم تكن

تقطَع أمرًا حتى نشهد، والملوك بَعدها على هذا.. إلا «حسان» أخوك!،
وإنا لا نريد الحكم أن يخرُج من آل «ملكيكرب»؛ فاقتُل «حسان» ونكون
نحن تحت طاعتك...

وملئوا رأسَه بكلام كثير حتى قتَل أخوه.. وأصبح ملك سبأ وتهامة والحجاز
والشام.

إذا رأيتَ زرقاء اليمامة تخطُو عند سد مأرب والجنان من حولها والماء من
تحتها يجري لمُستقرٌ له والثمار من فوقها دانيَةٌ على الأشجار... ستظنَّ أنك
تُشاهد لوحة تعمد راسمُها أن يحشد كل الجمال في مكانٍ واحد!، لكنها لم تكن
لوحَة؛ لقد كانت سبأ، ليست جنةٌ واحدة، بل جنتين عنْ يمينٍ وشمال... صنع
أهلُها هذا السد الهائل قبل أكثر من ألفي عام، وأجروا له قنوات كالأنهار تجري
فترويَ، فصارت جنتين عظيمتين في سبأ فيهما من كل شيء، حتى إذا مشيتَ
وعلى رأسك سلَّة تساقطَ عليك من ثمارها الأشجار!.. وجاءت سبأ مغانم كثيرة
من فتوحاتهم في بلاد الجزيرة.. فصار الأمر إلى غنى بلا فقر وثمار لحوم
وطيور لا نهاية لها، وكانت زرقاء اليمامة تمشي وتتعجَّب، انتهى عجبها بسحر
البلاد وأصبحَت تعجَب ممن يسكنون فيها؛ فلقد استشرَت فيهم رغبة فاسدة
أثارت حنق اليمامة!

وجد كبراؤهم وتجَّارُهم وأقيالهم وأذوائهم أن تجارتهم تبور دائمًا.. فإن
طرُق التجارة بين اليمن والشام آمنة وعامرة بالقرى الخضراء المسكونة،
والخوض في طريق التجارة سهل لكل من يريد، وكلما سهلَ أمر الطريق وتيسَّر
وكثُر عدد التجار، كلما نقصَت أثمان البضائع التي يبيعها التجار؛ فاستشرى
بين التجار وعلية القوم أمنية عجيبة، تمنوا أن تكون طرقهم متباعِدة وغير
آمنة!، فلا يخوض فيها إلا كبار التجار؛ فيزيدون في سعر بضائعهم طمعًا من
عند أنفسهم وجشعًا... كانت اليمامة لا تفهم كيف يُفكر بعض بني الإنسان،
أيريد أحد أن يبدل هذه الجنات النضرة!، ثم توقفت اليمامة فجأةً عن المسير!،
ونظرت أمامها واندهشَت.

رأت مجموعة من اليرابيع واقفين على أرجلهم منتصبين يضعونِ أياديهم
على أعينهم كل حين!. واليربوع حيوان يُشبه الفأر بذيل طويل، فتوقفت تنظر
إليهم، ثم مشَت فرأت سلحفاة مُنقلبَة على ظهرها لا تقدر على الاعتدال فتحثو

التراب على بطنها وجنبها وتقذف بالبول من مثانتها!، ونظرت فرأت أصنافًا من الحيوانات تُغادر أماكنها في غير موعدها!، وهي التي تفهم الحيوان أكثر من فهمها للبشر، ثم اتسعت عينا اليمامة الجميلتين في رُعب!: إن هذا لا يعني إلا شيئًا واحدًا؛ هذه الحيوانات، إنها تُغادر هربًا من كارثة!، السلحفاة لا تنقلب على ظهرها وتبول على نفسها إلا رُعبًا من شيء، واليربوع لا يضع يده على عينيه إلا رُعبًا... ثم رأت الأشجار تهتز من غير ريح كأنها قد لبسها شيطان!، ونظرت اليمامة حولها وفهمَت كل شيء، ثم انطلقت كالسهم إلى الأمير «مزيقياء».

وكان عند السد رجل وزوجته ينظران إلى السد والدواب التي تفر.. وكان لهما نصيبٌ وافِر من الوسامة؛ «عمرو بن جابر» وزوجته «إينور»... نظَر «عمرو» إلى زرقة عيني زوجته وقال لها: أفهمتِ كما فهمَت اليمامة يا «إينور»؟

قالت: بلى...

نظرَ «عمرو» إلى السماء وقال: إني يا «إينور» كلما نظرتُ إلى السماء أسأله متى!

قالت له: متى ماذا؟

نظرَ إلى السماء ولم يرُد!

وكان «مزيقياء» في جنَّته التي بجوار السد.. فدخلَت اليمامةُ عليه وقالَت:

- والنور والظلماء.. والأرض والسماء.. إن الشجر لتالف.. وسيعود الماء لما كان في الدهر السالف.

نظرَ لها في تعجُّب فأكملَت:

- داهية ركيمَة.. ومصائِب عظيمَة لأمور جسيمَة.

قال لها: أوضحي يا ظريفَة.

قالت: إن بيننا وبين هلاك هذا السد أوَان يسير.

اندهشت عيناه وقال لها:

- ما تقولين؟ إن هذا سدٌّ قائم لا يهتز منذ ألفي سنة.

- فانتظِر هلاكه في سبع قطع من الزمان تنقُص أو تزيد!

- يا زرقاء إن التبع «شرحبيل» قد أمر رجاله منذ شهور بالسد يعنون به؛ فهم قائمون عليه بكرة وأصيلاً.

- إني أعلم ما ترى عيني.. وإن بناءكم هذا لهالِك، وإن كل جنة في سبأ إلى زوال!

دارت الدنيا حول «مزيقياء».. وهو أمير مأرب ومالك الجنان حول السد والأراضي... أتصدق زرقاء العيون أن بناء مُشيَّدًا كهذا يسقط وينهار!، وحسم «مزيقياء» أمره فلم تمر عليه ليلة إلا وقد صدرت أوامره إلى بنيه وأحفاده وإخوته وعشيرته أني راحلٌ من سبأ؛ فاجمعوا رحالكم وبيعوا أرضكم وجناتكم... فعارضه بعضُهم وبقوا، ونزل معه كثير، فكان ممن نزل معه ولده وأبناءهم ونساءهم، ونزلت معه الزرقاء، وهي تحمل على ذراعها اثنين من أحفاده، «أوس» و«خزرج»، وكانا صغارًا في المهد.

نظر «عمرو بن جابر» إلى سد مأرب العظيم الضخم وقال لزوجته: إن الرحمن قد ارتفع ذكره في هذه الدولة يا «إينور».. ودول الأرض كلها يرفعون أصنامهم وصُلبانهم، وإن الرحمن سيدُكُّ هذه الدولة دكا!، ثم شرد بصره في السماء وقال: متى.. متى يأتي أحمد يا «إينور»، متى يأتي المُخلص، من أي بلد يخرُج، قد علمنا أن يثرب مهاجر له بعد حين، لكن من أين يخرُج؟ ومتى؟ متى يا رحمن!، الإيمان في يمان.. أفهو خارج من اليمن؟ ثم استدار وقال لإينور: إنا راحلون يا «إينور».. فإن فاض هذا الماء فإنه يغشى مساكننا ومساكن الجن.

لم ترُد عليه «إينور»!، فنظر لها متسائلاً!، قالت له: هل نسيت الكتاب يا «عمرو»؟ ماذا إن هلكت هذه القرية وتفرَّق أهلها وهاجروا كما هاجر بنو «مزيقياء»؟ إني والله لا أخرج من هنا مادام ذلك الكتاب هنا.

قال لها «عمرو»: يا «إينور» يا ذات الحسن.. إن ذلك الكتاب مع بني يزن، وإنهم له حافظون.

قالت: فإني مع بني يزن قائمة لا أبارحهم.

قال «عمرو»: أما أنا فإني لاحِق بركب «مزيقياء»؛ فإني وجدتُ فيهم إيمانًا لم أجده في سواهم، وموعدنا بعد حينٍ يا «إينور»...

ومالَ عليها فضمَّها إليه.. ثم نظر إلى جمالها نظرةً أخيرةً، ثم دار على عقبيه وحلَّق بعيدا لاحقًا بركب بني «مزيقياء».

وبعد ستة أيام سمع الناس ضجيج الأرض.. فكذَّبوا آذانهم، ثم أسمَعتهم الأرضُ مزيدًا من ضجيجها واهتزَّت من تحت أقدامهم، وخرج الناسُ فزعى وتشقَّقت عليهم بيوتهم، ثم تشقَّق السد، وحضرت نذر الكارثة، وأثقل الماء على جدار السد وتسلق يريد الخروج، وهرب الناس والدواب والأرض توقعهم إليها... حتى دكت أصول السد دكا وانهدمت من كل مكان كأن لم يعش عشر سنين!، وأغار الماء على سبأ وأهل سبأ بما كفروا بأنعُم ربهم: جَنات من فوقهم وأنهار تحتها تجري، رغبوا بها بدلًا كفرًا من عند أنفسهم!، فأبدلهم ربهم جنتيهم بجنتين ذواتي أكلٍ خَمطٍ وأثلٍ وشيء من سدرٍ قليل... وسقطت مملكتهم واستقلت عنها كل أقطار الجزيرة، وتمزَّقوا في الأرض وهاجروا منها وساحوا هنا وهناك!، وكانوا هم العرب الذين يعرفهم التاريخ باسم العرب، أقام كل فريق منهم في أرض من أراضي الجزيرة، ولقد هلك من كان قبلهم من العرب البائدة الذين أبادتهم الظروف كأمثال عاد وثمود وطسم وجديس إلا قليلًا!

رحلة طويلة شاقة ملحميَّة.. بدأت من مأرب اليمن إلى مكان مجهول، «مزيقياء» وبنيه وما معهم من الأموال والأنعام والجنود والعز الذي انهدم مع انهدام السد وبقي في قلوبهم وعيونهم، ثلاثمائة إنسان أو يزيدون ومعهم زرقاء اليمامة يستدلون من بصيرتها على أرض يقيمون بها... وكانوا كلَّما نزلوا بأرض هادنهم أهلها ثم اختلفوا واقتتلوا معهم فينتصر بنو «مزيقياء» ثم يكرهون المُكوث بالأرض فينتقلون منها إلى غيرها، وقبل ذهابهم من كل أرض كان يتخلف منهم فريق يعيش ويستقر في تلك الأرض ويعلو شأنه فيها، فمن عك إلى همدان إلى عمان إلى مكة ثم إلى الشام... ومات «مزيقياء» في عك فخلفه بنوه واحدا تلو الآخر، وفي الشام اقتتلوا مع الروم قتالًا عظيمًا أشد من كل ما كان قبله!، وبقي منهم فريق يقاتل في الشام وهاجر الباقين منهم إلى ذات النخيل: هاجروا إلى يثرب.

وقبل يثرب سقطت زرقاء اليمامة.. سقطت وفي عينها بحر من الذكرى يمرُّ عليها كأنه قد كان بالأمس كله قد حدث، وحولها بنو مزيقياء ينظرون إليها، كانوا قومًا شدادًا لا يأتي عليهم أحد إلا انتقموا منه!، ونظرت بعينها تبحث عن

الصبيين، ثم ظهرا لها من بين الزحام «أوس» و«خزرج»، تأمَّلت فيهما قليلًا ثم أخذتها سكرات الموت فماتت في محلها وهي ناظرة إليهما.

وانطلق الركبُ الكبير إلى البلدة التي كانت منتهى الرحلة الطويلة يثرب.. وكان فيها يهود من كل صنف وقبيلة، ولم يتحمَّل بنو مزيقياء معاشرة اليهود فاشتعل بينهم وبينهم القتال، واستعان اليهود باليهود، فأتت جحافل يهودية من الشام ومن خيبر، وانهزم بنو مزيقياء وبعثوا إلى اليهود يطلبون الصلح على أن يُقيموا على طرفٍ من أطراف أرض يثرب.

ومرَّ الدهرُ ثقيلًا على نفوس بنو مزيقياء؛ فإن اليهود كانوا يفرضون عليهم أموالًا ويُضيِّقون عليهم في الماء وفي كل شيء!، وكبر «أوس» و«خزرج» وصار لهم بنين وقبيلة، وعاش الأوس والخزرج في مشقَّة من العيش وتوالت أجيالهم في يثرب، وملَّ «عمرو بن جابر» من متابعتهم؛ خَاصة أن كثيرًا منهم قد انقلبَت عقائدهم وتهوَّد بعضهم وعبدَ البعض الآخرين الأصنام!، وبقي قليل منهم على دين الرحمن. فاستدار «عمرو» عازمًا على مكان آخر قد يجد فيه بذور إيمان أفضل من هذه، لكن «عمرو» توقَّف محلَّه!، فلقد رأى ما جمد قدمه وذكره بما لا يحب، رأى رجلًا قبيحًا في عباءة قاتمة، يمشي في الدروب قاصدًا موضعًا معينًا؛ إزب القميء الشيطان، وإن رؤيته تعني أن كارثة حدثَت أو ستحدُث بشكل ما!؛ فبقي «عمرو» في يثرب.

خرج المنادي في يثرب... يا بني إسرائيل إنَّ المُلك اليوم صار للفطيون عظيم بني ثعلبة، وكان «الفطيون» هذا راهب سوء، حكَم في اليهود حُكمًا (ألا تتزوَّج امرأة في يثرب إلا يدخُل بها هو قبل زوجها، فتحصُل لها بذلك بركة الراهب)، ومال الأوس والخزرج على بعضهم، أتذكرون اليمامة الزرقاء، لقد أوقدَت حربًا أبيدت فيها رؤوس كبار قومها، «طسم» و«جديس»... لكن أولئك كان عمليق متجبرًا عليهم طاغيًا، أما هؤلاء اليهود فإنهم يقدمون لحاكمهم العذارى طواعية، بئس الجوار جوارهم.

في اليوم التالي أتى الخبر الذي أشعَل كل شيء.. حكمَ «الفطيون» أن قراره يسري على كل من يسكُن يثرب؛ والأوس والخزرج يسكنونها!، فبنات الأوس والخزرج حلّ للفطيون يدخُل بهن قبل أزواجهن، وإن أعرضوا فإن «الفطيون» يأتيهم بجنودٍ لا قبل لهم بها فيقتلعهم من يثرب اقتلاعًا.

المشكلة أن الخزرج كانوا قبل هذا بيوم واحد قد أعلنوا عن زواجٍ شديد الأهمية؛ زواج أخت كبيرهم «مالك بن العجلان».

واختلف كبار الأوس والخزرج.. أن نُحارب اليهود بما فينا من ضعف، أم نترك لهم الديار!، ولم يبقَ سوى أيام على موعد الزواج المُعلَن.

- إن هذا الزواج سيتم، لكننا سنؤخِّره شهرًا واحدًا، وسندعو له كبراء اليهود أيضًا.

كان هذا «مالك بن العجلان» يتكلَّم عن زواج أخته... وسكت الجميع ونظروا له في حَنَق!، ظهر على وجهه كهيئة ابتسامة، ثم أخبرهم بأمورٍ أعجبَتهم، أمور ربما تُغيِّر كل شيء.

وأقيم حفل الزواج بعد شهر.. وحضره كبار الأوس والخزرج وكبار اليهود، وتزيَّنت يثرب بزينة الفرح، وزفَّت النساء أخت مالك العجلان إلى بيت «الفطيون»، وانفتح باب بيت «الفطيون» الكبير، ودخلت النسوَة مع العروس يُهدِّئن من روعها؛ فقد كانت في انهيارٍ ولوعَة، حتى أن بعض جواري «الفطيون» شاركنَ في تهدئتها، ثم ظهر «الفطيون»، رجل في جسده ضخامة وفي لحيَته طول بلا تهذيب، وكُحل كثيف حول عينه جعله أشبه بالشيطان... كان يبتسم في إذلال للعروس، ويقترب منها في طمع، ثم مدَّ يده ليضعها على كتفها فارتدَّت إلى الوراء مذعورة، فاتسعَت عيناه إرعابًا، وتقدَّم ليضع يده عليها يهدئها، والتقطت أذناه صوتاً غريبًا.

لم يجد وقتًا لمعرفة الصوت.. فقد طارت رقبته وتدحرجت رأسه على الأرض كأنها قلنسوة!، ونظرت الجواري فإذا هناك سيف قد استل، ومن سلَّته هي واحدة من النساء اللاتي دخلنَ مع العروس!، وكانت تغطي رأسها مُنتقبة، ثم رفعت غطاء رأسها، لم تكن أنثى!، بل كان «مالك بن العجلان» نفسه؛ أخو العروس.

هاجَ اليهودُ في يثرب وقرَّروا أن يستأصلوا الأوس والخزرج عن بكرَة أبيهم وليستعينن في ذلك بيهود خيبر ويهود الشام.. لكن فجأةً نزل على اليهود جيوش من كل صوب!، ما يدرون ما هؤلاء، نزلوا بأسلحتهم وخيولهم فقتلوا في اليهود قتلا عظيمًا، كان هؤلاء هم الأوس والخزرج الذين كانوا في الشام، انطلق «مالك بن عجلان» إليهم قبل شهر، وأعلمَهم بما يُريد، ثم دخلوا تمامًا في

الوقت الذي قُتل فيه «الفطيون»، وصارت الأوس والخزرج قوةً في يثرب، ونزح كثيرٌ ممن كانَ في الشام من الأوس والخزرج إلى يثرب واستقرُّوا فيها، وأصبح اليهود فيها مستضعفين.

- ألازلتَ تضع هذه اللثامة يا «عمرو بن جابر»؟ ألازالَت الندبة ظاهرَة فيك؟
- ما الذي جاء بكَ إلى هذه البلدة يا «إزب»؟
- جئتُ أنظُر في صدور الناس.
- عن أي شيء تنظُر يا «إزب»؟
- أنظُر فيهم عما يرديهم.
- ولماذا هُم بالذات نزلتَ فيهم؟
- لأنهم ذُريَّته.
- ذُريَّة مَن؟

احمرَّت عيناه بصورة شيطانية ولم يرُد... لكن كثيرًا من المشاهِد كانت تُراود ذاكرته: مشاهد لـ«أسعد الكامل» وهو ينزل بفرسه في السوق يلطم في رأس الساحر هيرا يَمنةً ويَسرَةً ويقول بملء فيه.. أين شيطانك يا هيرا.. و«إزب» الشيطان واقف هناك في عباءته لا يقدر على شيء!، ويرفع «أسعد» يده وعينه تنطق بالتحدي والجذل، ولا يقدر «إزب» له ردًا.. ثم قال «إزب»:

- إني سآتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ولآمرنَّهم فليضرب بعضهم رقاب بعض حتى لا تبقى لهم باقية.

ولم تمض غداة على يثرب إلا ونزل فيهم رجل غريب يذكر أنه من نجد.. «إزب بن أزيَب»، نزل مُتنكرًا في سوق اليهود- سوق بني قينقاع- وقد كان سوقًا شهيرًا؛ فيه الأقوام تتفاخر والشعراء، نزل «إزب» ومعه جواد عربي أشهب، خالط بياضه سواد شعره، لم ير أحسن منه خيلًا في الجياد الصافنات، قال يا قوم إني أهب هذا الجواد لأعز أهل يثرب، فمَن هو أعز أهل يثرب؟ أفي اليهود هو أم في الأوس والخزرج؟

قيلَ له: واللّه إن العزةَ اليوم للأوس والخزرج؛ فقد ظهروا على اليهود.

برزَ يهودي كان يتابع المشهد وقال: أنا أشهد أن العزةَ لم تعُد فينا.

قال «إزب»: فمن الأعز في الأوس والخزرج؟

تصايحَ الناس وذكروا أسماءً.. ثم صاح اليهودي وقد بدا للجميع ذا صوتٍ مسموع بعد أن اعترف بضعف قومه: واللّه إن أعزَّ أهل يثرب «مالك بن العجْلان»، وإني جارٌ له وحليف، وقد رأيتُ فيه من العزة مثل كل بني الخزرج.. أما الأوس فليس فيهم خَير ولا كرامة.

وتجمَّع الأوس والخزرج يتصايحون في السوق، وكان فيهم «مالك بن العجلان» وفيهم من ذكرت أسماءهم من الأوس...

قال «إزب»: إني وهبتُ فرسي هذه لأعز أهل يثربٍ كلهم: «مالك بن العجلان الخزرجي». فقال اليهودي بصوت عال: ألم أقل لكم أن «مالِك بن العجلان» جاري وحليفي هو أعز أهل يثرب كلها.

فقفزَ فجأةً رجلٌ من الأوس فقتلَ اليهودي!، وتصايح الناس وعلَت أصواتهم في السوق، وظهر شبح ابتسامةٍ على زاوية فم «إزب بن أزيب»، وانصرف من السوق تاركًا الأصوات تتعالى مِن ورائه.

وانطلقت شرارةُ قتالٍ بين الأوس والخزرج.. وتحوَّل القتال إلى حرب، وتحوَّلت الحرب إلى حروبٍ، حروب بين الأوس والخزرج استمرَّت مائة عام أو يزيد!، وفي كل مرةٍ تكون لها شرارة مختلفة، وسببٌ مختلف، وكان بعض اليهود يُحالفون الأوس، وبعضهم يحالفون الخزرج، لا يحالفونهم بالرجال في الحرب وإنما بالسلاح!، يرمون إليهم بالسلاح ويشاهدون دماءهم تفور وتسيل على أرض يثرب...

«شافع الكاهن»، «عاصف الغلام»، ثم «أسعد الكامل»... وفكرة توحيدية على دين إبراهيم.. برزَت ذات ليلة، وخبَت ذات ليلة فلم يعُد لها وجودا، كأنها شهابٌ تنوَّرَت به صفحة الليل، ثم خبا وتوارى كأن لم يَسْطع بالأمس، وجنِي وقفَ وسط كل هذا وقد أصابه اليأس، وتصوَّر له أصحاب الأخدود يصرخون، ثم تصوَّرت له جيوش «أسعد الكامل» المؤمنين في مأسل الجمح، ثم تصوَّر له

الأوس والخزرج واليهود يتقاذفونهم، ثم تصوَّرت له الكعبة بكسوَتها السوداء، ربِّ إني أوَدّ لو تَدُلّني إلى الطريق، أو على صاحب الطريق، ربِّ إني قد وهَنتُ، وخبَت في عروقي أنوار الأمل؛ فأظلمَ فؤادي.. ربِّ إنك قد أرسلتَ الشياطين عليهم تؤزُّهم أزًا؛ فلم تترك الشياطين في نفوسهم جذوةً من إيمان إلا أطفأتها، ولا رجل يقول يا رحمن إلا كادت له الكيد، ولم يعُد على الأرض إلا بيتك المحرَّم.

وأتى من ورائه طَيفٌ احتضنَ ظهره.. فعرفَه، بل عرفها، كانت «إينور» قد أتت له من أرض سبأ.. قالت: يا «عمرو» إن كان بنو «مزيقياء» قد ضلوا؛ فإن بني يزن باقونَ على العهد.

فاستدار لها واستبشَر بقدومها وقال: والله إنكِ لذات الحسن، وإنك الحسن في هذه الحياة الدنيا.

قالت له «إينور»: يا «عمرو» إن وراءكَ مالا يسُرُّك.

فنظرَ وراءه فإذا وجه «إزب»: قبيحٌ شيطاني يقترب منه حتى لفحَت أنفاسه وجهَه، كان ينظر له في جذل... قال: أما ذلك البيت المحرَّم فارتقب فإن أيامه معدودات!، وارتقب أرض السود، يأتيه منها الجنود السود؛ ينزلون عليه فيجعلونه ركامًا، ولا يُرفَع لإلهك الرحمن في هذه الأرض مبنى ولا تهفو إليه نفس، ولا...

انتفضَ «عمرو بن جابر» فجأةً وانطلق ناحيَة «إزب»، واتسعت عينا «إزب» من المفاجأة، لم يدرِ إلا و براثن «عمرو» مغروزةٌ في نحره وانحسرت عباءته عن رأسه، فشاهدت «إينور» شعره الجعد الطويل وقد أضاف إلى ملامحه بشاعتين، وانبعث منه عويل كأنما ثعبان يختنق!، ورأت «إينور» زوجها يرميه من تلابيب عنقه إلى الأرض بذراع من حديد.

ثم نظر «عمرو» إلى زوجته وقال: تعالي يا «إينور».. إن هذه البلدةَ بلدة شر!، وإنهم قد رجعوا كفارًا يضرب بعضهم رقاب بعض، تعالي إلى أهنوم في سبأ؛ حيث مسكننا، حتى يقضي الرحمن أمرًا كان مفعولاً.

رفع «إزب» رأسه من بين التراب ونظر مُتهكّما: ما نلتَ مني إلا بالفجأة يا بن جابر، وتعلَم أنك لستَ عندي بشيء، لكني سأدعكَ حتى أرى الحسرةَ في عينك بعد سبع قطع من الزمان، فارتقب البداية في سبأ، والنهاية عند بيتكَ الأسوَد، فلا يبقينَّ منه حجَر على حجر...

تركَه «عمرو بن جابر» ومضى كلمعَة البرق إلى جبل أهنوم.. وكل كلمة تفوَّه بها «إزب» تصول في رأسه وتجول، ولم يعُد له إلا أن يرتقِب.

وفي سبأ الجدباء بعد سيل العرم.. كانت الصحاري قد أكلَت كل نبات، وعلا صوت غربانها تبحَث في الأرض، وبدا قصر بلقيس متخاذلًا بعد عزّة؛ يحكُم فيه تبع من التبباعة في أيام الجفاف؛ جفاف سبَأ وما حولها، ولقد تحقَّقت كلمات «إزب»، وكانت البداية من سبأ، تحديدًا من عند مشهد أمام قصر التبع.

جنود الملك يسوقون رجُلَين إلى القصر.. يسوقونهما بكثير من الارتعاب؛ ارتعاب في عيون الجنود وملامحهم، فإن شيئًا في وجوه الرَّجُلَين لم يكُن طبيعيًا!، كانت وجوههما مُخيفة شديدة التشوُّه!، أحدهما غزا التشوُّه نصف وجهه، والثاني غزا التشوُّه وجهه كله حتى قلَّ بروز ملامحه!، ولم تكن هذه هي علة ارتعاب الجنود فحسب؛ بل إن الرعب كان ينبُع من شيء آخر؛ أن هذين الرَجُلَين كانا من السحرَة، بل أكبر سحرة في جزيرة العرب كلها.

* * *

وس وس وس وس وس

هكذا نذل الرجال ونُشعل قلوب النساء؛ بالوسوسة.. لا تُصدِّق أي أحمَق مُدَّعي للعلم يُخبرك أن الجن تستطيع أن تؤذي أو تجرح أو تمرض أو تقتُل... أو هم أغوال تخرُج للناس في الطريق لتأكلهم!، هذه العينات من البشَر نحب أن نلهُو بهم، ونُوسوس لهم بمزيدٍ من التخويف هم وتفكيرهم السقيم، لقد جعلهم خوفهم منا يعبُدوننا في كثيرٍ من البلدان، وهذا يُرضينا... تَخيَّل أن تمشي في مكان وناس المكان يخافون منك ويرتعبون هكذا وأنتَ لا حولَ لك ولا قوةَ عليهم!، هذا مُمتِع، أنتَ لم تُجرِّب هذا.

لكن بهذه الوسوسة يمكننا أن نصل بالرجل إلى أن يموت أو يمرض أو تُدمَّر حياته!. فنجعل الرجل يفعل أمورًا تؤدي به إلى الهلاك أو المرض أو الفشل... وكل قرينٍ منا يكون موكَل بشخصٍ واحد فقط، ولا تسمح آدابنا أن يعدُو قرين إنسان فيُوسوس لإنسانٍ آخر، لكن قد يتعاوَن قرينين أو أكثر لإغواء صديقين أو زوجين أو مجموعة من الأخلاء!.

القرين الذي يجعل الإنسان يقتُل يُحبه «لوسيفر»، والقرين الذي يُفرِّق بين المرء وزوجه يُحبه «لوسيفر»، وسوَستنا إلقاء نُلقيه في الصدور؛ لأن الصدر هو البيت الذي تسكُن فيه الروح، نجثم عليه جثومًا!، أنت لا ترى جثومنا، ولو رأيتَه لاتسعَت عيناك!، ينقلب الواحد منا في الهواء فتكون رأس الشيطان عند صدرِك وقدماه بارجتَان في الهواء، ويداه كالمخلبين في تلابيبك!.. فإذا ذكرتَ ربَّكَ خنَسَ الشيطان وتوارى وحزن أن لم يقدر على غوايتك في تلك المسألَة، فإذا غفلَ قلبكَ انقلب الشيطان في الهواء، وأمسك بمجامع صدرك وقرَّبَ وجهَه من صدرك كأنما يريد أن يُكلِّم صدرَك!، ثم يُوسوِس، فتتشبَّع روحك الرابضَة بالكلام وقد تستحسِنه أو تطرُده خارجها.

أما الجن العادي الذي لا يكون موكَلًا أو قرينًا لأحَد.. فهذا يمكنه أن يُوسوِس لأي إنسان في الطريق!، لكنه لا يفعَل هذا لأنه لا يحوز شيئًا في المُقابل فلا يُضيِّع وقتَه في تفاهات البشر، مثلما أنتَ لا تُضيِّع وقتَك في أذيَّةِ قِطة ماشية على قارعة الطريق، إلا إذا...

إلا إذا كان هُناك ساحِر.. وكان هناك شيطان.. وكان هناك تسليط.. لكن تلك حكاية أخرى، وعلى ذكر السحر والسحار، فإن المكاتيب ستحكي عجبًا عن رجُلَين ساحرين فعلا شيئًا يكاد يكون مستحيلًا في عالم الإنس!، وسيأتيك البيان.

في صحراء مديدة و قبائل عتيدة كنت أرتحل..
أبحث عن الحب بين وجوه الناس و معنى الحب
أرجعني تفكيري إلى أصل الحب.. الأم.. تعلمت أن الأم تحب ابنها لأنه قطعة من روحها، وهو يحبها لأنها قطعة من روحه.
فالمرء لا يحب إلا من هو قطعة من روحه، تعلمت أن ربي قد خلق لكل إنسان من نفسه أزواجاً يسكن إليها.. خلق له صوراً من روحه..

ذلك على كثرة من تراهم من الناس..
قليلين فقط من يكونون أصدقائك..
لأنهم صورة لروحك.

لكن كنت أبحث عنها.. تلك التي خلقت
من نفسي..

في ذلك اليوم.. برزت لي في
وجوه الناس.. كأنها القمر
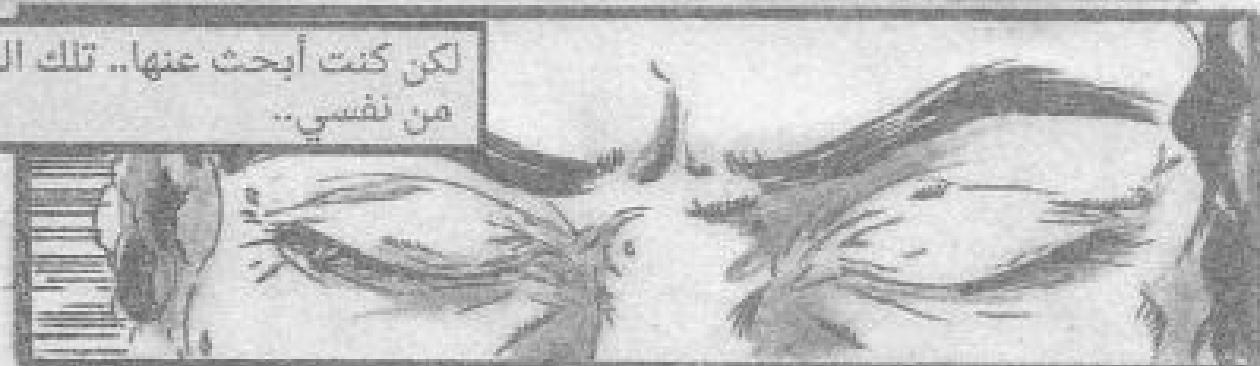
إن وجدتها ستعرفها.. ليس لأن جمالها
يناسبك.. لكن لأنها مخلوقة من روحك..
وإذا وجدتها و كلمتها تأكد بأنها
ستستجيب.. و إن كانت فوق جبل عال
يحيط به اليمام

(٤)

وحش الفلا

عن كل الخلائق ترفَّعوا وارتفعوا.. عن كل الكيانات سمَت أجسادهم، وعلَت أفهامهم وأسماعهم فوق السماعات، سبعة كانوا صاعدين، مُسدِلين أيديهم رافعي رؤوسهم طالعين إلى جو السماء، جامدةً وجوههم لا يكادون يطرفون يمنةً ولا يسرةً، سبعة كانوا شياطين.. تبايَنت هيئاتهم وقلوبهم مجموعة إلى مقصد واحد، لهم أجنحَة لا يخفقون بها وكأن اندفاعهم يكفي وحدَه للصعود!، سبعة كانوا يتسلقون الجو في حلقة شكّلوها بأجسادهم، ولهم بغيَة واحدة انتظموا لها، وتصاعدوا حتى بلغوا الغَمام المركومِ على بعضه كأكوام الجبال.. سبعة كانوا يرتقون في مغرب الشمس، حتى علت أقدامهم سطح السحاب الفسيح كأنه لجج البحر.. سبعة كانوا من الجن فردُوا أجنحَتهم فوق صفحة الغمام وتوقّفوا عن الصعود وقد بلغوا مبلغهم الذي أرادوا، وأمسكوا بعضهم كفًا بكف وضربوا بأجنحتهم خافقين، حتى طفوا في السماء ثابتين على ارتفاعهم، ثم انفك من تشكيلهم واحد منهم ارتقى فوقهم فمدُّوا أياديهم يُمسكونه حتى تعلق في الهواء!، ورفع رأسه إلى السماء، وسكنَ جسَده وملامحه، كان يملك ملامح فيها من البشاعَة والشدة الشيء الكثير... وغربَت الشمس وهم على حالهم وهو على حاله؛ سبعة كانوا شياطين، وفي وسطهم شيطان يعلوهم اسمه «إزب».

تعرفه من ملامحه و بشاعتها.. برغم السكون الذي غزاها فوق الغمام؛ إلا أنها بشعة!، كان مغمضًا عينيه مُنصتا إلى حسٍّ هامس لا تسمعه آذان المخلوقات!، حس يتحدَّث بصوت انحدرَت موجاته عنْ مدى مسامع أهل الأرض، لا تسمَعه إلا آذان الجن، وشوشة تناثرت في غمام السماء، وحل الليل والخافقين بأجنحتهم يخفقون بها، يحملون الذي يسمع، ومضى من الوقت الثقيل ما مضى، وتصاعدت تشكيلات أخرى من الجن والشيطان، يتحلقون وفي وسطهم شيطان، وقعدوا للسمع المقاعِد في السماء، ولا يُعلم لأي شيء يسمعون.

أصوات يسمعونها بآذان الجن فيها حديث عن أهل الأرض، بلُغة أهل الأرض.. حديث يُنبئ بما سينزِل بأهل الأرض، تعلموا أن هذا من حديث الملائكة؛ تتحدَّث بالوحي الذي سيُنَزله الله على عظيم الجن، أمير النور

الكائن الخالد الذي لا يموت، وتموت كل نفس سواه، أمير النور «لوسيفر».. وليس يرى الملائكة أحد سواه -عظيم الجن والخلائق كلهم- فكانوا يتحينون الليل ويتخذون مقاعد في السماء، يسمعون لأهل السماء فيتعلمون ما يكون على الأرض... وكان «إزب» مُغلقًا عينه يستقصي وشوَشَة الصوت، ثم فجأةً فتح «إزب» عينه وصاحبت بشاعتها لمعَةَ الذي حصل على ما يريد!، فألقى ما سمع إلى الذين يحملونه، فكفَّت أجنحتهم عن الخفقان، وانقلبوا بأجسادهم يتساقطون إلى الأرض!، وانفضُّوا كل إلى وجهَة يعرفها...

من قصرٍ كان له في كل قصة شأن.. من سبأ العظيمة التي أبدلها ربها كل أخضر بيابسٍ، وبقي التبابعة حاكمين عليها في ثبات.. من قصر بلقيس العظيم، انتفض التبع من فراشه وقد ارتعدت فرائصه، وجمعَ إليه أقياله وأذواءه، قال: يا خاصة بلاد اليمانِ، أني رأيتُ رؤيا هالتني فاجمعوا إلي من كان ساحرًا أو كاهنًا أو مُنجِّمًا في سبأ.

فجمعوا له كل عارف وكاهن ودجَّال، فقال: إني رأيتُ رؤيا فزعت بها...

قالوا: اقصُصها علينا نُخبرك بتأويلها.

قال: لو أخبرتكُم بما رأيتُ لن أطمئن لتأويلكم؛ ففيكم دجَّالون ومنافقون... إني لن أخبر بها ها أحدًا أبدًا، وإنه لن يأتيني بتأويلها أحد أبدًا، إلا رجل يأتيني فيقول لي أيها الملك أنتَ قد رأيتَ في منامك كذا وكذا، وإن تأويل الذي رأيتَه هو كذا وكذا، فيُخبرني ما رأيتُ في منامي دون أن أحكِيه.

نظرَ بعضهم إلى بعض.. من ذا الذي يعرف أن يرى رؤيا رآها إنسان في منامه وكتمها ولم يُخبر بها أحدًا!.. ثم قال أحدهُم: إن كان الملِك يريد هذا فإنه ليس في أرض العرب من يعلَم هذا العلم إلا شق وسطيح.

ضجَّ المكان بالصوت المجتمع بعد أن ذكر الاسمين، فقام الملك واقفًا وقال: وما شق وسطيح هؤلاء؟

وانقضى من الأيام ما انقضى وفتح باب قصر بلقيس، ورأى الملكُ جنوده يتباعدون عن الداخلين، ودخل اثنين من الرجالِ في عباءات تغطي رؤوسهم، وانحنوا للملك وأحسروا عباءتهم، فانتفضَ الملكُ من داخله؛ فإن أحدهما كان ذا وجه مُشوَّه تمامًا تداخلت ملامحه وقلَّ بروز أنفه!. كان مرعبًا بكل ما تعنيه

الكلمة من معنى، ولأن ملامحه ليست لها بروز سمّاه الناس «سطيح»!، أما الآخر فقد كان نصف وجهه مشوّهًا تمامًا ونصفه الآخر قسيم وسيم؛ فسماه الناس «شق»، وكان لكل منهما هيبة صنعَتها هيئاتهما وسُمعتهما كأكبر ساحرين في الجزيرة العربية كلها.

تمالكَ الملكُ نفسَه وقال لهما: أتعرفان ما رأيتُه في منامي؟

نظرا إليه نظرات أزالَت فؤادَه من مكانه؛ إن لهما عينان كالصقر... قال له سطيح: ونعلَم ما تُخفي في صدرك وما حاك فيه.

قال لهما: لا تدخُلا عليَّ معًا، بل ادخلا عليَّ فُرادى، فأنظُر هل تتفقان أو تختلفان.

سخرَت ملامحهما من أحاديثه ولم يتكلَّما، فأدخل عليه ذو الوجه السطيح، قال له فأخبرني ماذا رأيتُ في منامي؟

نظر له «سطيح» بعيونِ الصقر مليًّا ثم قال: لقد جاءتكَ رؤياك بشيء عظيم.. رأيتَ فيها حممًا، خرجَت من ظلمَة، فوقعَت بأرض تهامة، فأكلَت منها كل ذات جمجمة!..

اتَّسعَت عينا الملك في إعجابٍ وقال له: فما عندكَ في تأويلها يا «سطيح»؟

قال: أحلف بما بين الحرَّتين من حنش.. لتهبطنَّ أرضَكم الحبش، فليملكن ما بين أبين إلى جرش!

تحوَّل إعجاب الملك إلى صدمَة.. حبَش ينزلون ويملكون أرض سبأ؟ قال له الملك: ومتى هو كائنَ.. أفي زماني أم بعده؟

قال «سطيح»: بل بعد زمانكَ بحينٍ من الزمان.

قال: أفيَدُوم ملك الحبش في أرضنا أم ينقطِع؟

قال «سطيح»: لا.. بل ينقطِع!، وسيُقتلون ويخرجون منها هاربين.

قال: ومن يُخرِجهم؟

قال: فتى يخرُج من بيت ذي يزن، يخرُج عليهم من عدن، فلا يترك منهم أحدًا باليمن!

فقال الملِك: وهل يدوم ملك ذلك الفتى وذريته؟

قال: بل ينقطِع؛ يقطعه نبي زكي، يأتيه الوحي من قبل العلي...

اعتدل الملكُ وقال: ومن أي بيتٍ هو ذلك النبي؟

قال: من ولَد غالب بن فهر بن مالك بن النضر.

هنا لمعَت عينٌ كانت ترى وتسمع كل شيء.. عينٌ لمعَت بلمعةٍ لم تلمع مثلها قبلها: عين «عمرو بن جابر».

عهودٌ قد مضَت عليه وهو يبحث وينتظر.. حتى يأسَ من كل شيء، وراودته نفسه الجنية أنه لا أمَل، وأنه لا نبوَّةَ في آخر الزمان، والآن قد خفقَ قلبه وهو يسمع: لقد سمع الشياطين الخبر من أحاديث السماء، سمعوه مفصَّلًا أن النبي يكون من العرب من ولَد غالب، ظلَّ «عمرو بن جابر» يسترِق السمع، وقد خرج سطيح ودخل شق على الملك.

وجهٌ تشوَّه نصفه وبقي نصفه!، ولم تتأثر نظرَته.. قال «شق» للملك: لقد رأيتُ أيها الملك في ذلك المنام حممًا، خرجَت من ظلمة، فوقعت بين روضة وأكمة، فأكلت منها كل ذات نسمة.

ضيَّقَ الملكُ عينه وقال له: وما عندكَ في تأويلها يا «شق»؟

قال: أحلف بما بين الحرتين من إنسان، لينزلنَّ أرضكم السودان، فليملكنَّ ما بين أبين إلى نجران.

قال الملكُ: أهو كائن في زماني هذا أم بعده؟

قال: بل يكون بعدك بزمان.. ثم يستنقذكم منهم عظيمٌ ذو شأن، يُذيقهم أشدَّ الهوان...

قال الملِك: ومن هو عظيم الشأن هذا؟

قال: غلامٌ من بيت ذي يزن، يخرُج عليهم من عدن، فلا يترُك أحدًا منهم باليمن.

قال الملِك: ومن يملك بعده؟

قال: رسول مُرسَل، يأتي بالحق والعدل، من أهل الدين والفضل، يكون المُلك في قومه إلى يوم الفصل.

وكالبرق الطالع.. انطلق «عمرو بن جابر» إلى حيث أولاد «غالب بن فهر بن مالك»:

انطلقَ إلى تهامة...

ثم أتى الزمان بجُندٍ سُود مُتكتّلين في دروع سود.. آتين من قبل المغرِب؛ جيوش وسلاحٍ وأفيالٍ وصليب يرفعونه، وطبول يضربون عليها، وفرصة يتحينونها أجيالا لينزلوا إلى بلاد إذا ملكتها ملكت جزيرة العرب؛ بلاد اليمن، نزلوا واليمن قد أضرم فيها الجفاف نارًا بين أهلها، فانفصلت عنهم البلاد وتحزّبَت قبائلهم إلى أحزاب، نزلوا وملك في اليمن يُقال لهِ «يوسف»، ينادي في الناس بكلمة التبابعة، يا آل سبأ إنكم إذا تباينتُم مال عليكم عدوكم، فيبيدكم من عند آخركم... وسمعَ له قوم وتجاهله آخرون!، حتى نزل الحبشِ إلى بلاده أرتالًا يسدون رسمةِ الأفق، «يوسف بن أسأر» التبع الأخير.. استبسلَ في وجه بنو الحبش وحرق ما يبنُونه من بنيان، ودخلت قبائل من سبأ في القتال، دخلت إلى جوار الأحباش على الملك يوسف، وسقط عرش سبأ.

وانطلق «يوسف بن أسأر» بفرسه ناحيةَ البحر ومعه رهط من أنصاره من بني يزن.. وانطلق الأحباش وراءهم يريدون رؤوسهم، فدخل الملك «يوسف» ومن معه إلى غابة بجوار البحر، وأتى الجند وفيهم أمير الجيش «أرياط» وقائد الجند «أبرهة»، وحامت الفرسان حول الغاب يحرسون مخارجها، ومرَّ طيفٌ ذو رداءٍ أبيَض فوق الغاب ناظرا إلى ما يحدُث بقلَق!؛ كان طيف «إينور»، إن «بني يزَن» حراس الكتاب اليوم في حرَج.. هذا ما يهمّها، مدّت بصرها فرأت الملك «يوسف» قد ثنا ركبتيه على الأرض في الغاب خامدًا مُلقيًا سلاحه وفي عينَيه ذل وحوله أبناء يزن يشدُّون من أزرِه.

رفع الملكُ «يوسف» رأسَه إلى السماء وقال: يا رحمن ذي سماوي، يا مليك السماوات والأرض، إنا قد قاتَلنا ورابطنا على هذه الأرض وأهلكنا منهم ألوفًا؛ فلتبعث يا رحمن من بعدي رجالًا يطردون كل مُعتَد، ليتقدّم اسمك الرحمن الذي له الحمد.

ثم نظرَ إلى «بني يزن» وقال لهم: يا بنو يزن، إني خارِج من تلك الناحيَة وسيخرِجون ورائي وسيظفرون برأسي، أما أنتُم فانتهزوا خروجي وعودوا وتحصّنُوا في حصونكم في الجنوب.

ونظر إلى قائدهم الأمير «ذي يزن» وقال له: أنتَ لليمَن من بعدي يا «ذو يزن»، فلا تُسلمها للغربان الحبش.

ثم انتفض فجأةً وركب فرسَه وخرج من بين الأدغال، فاستدار له الأحباش، فاخترقَ من بينهم بفرسه كالسهم مُنطلقًا إلى البحر، ومضى فيه بفرسه

والرجال يشاهدونه حتى غلبت عليه الأمواج وغرق في بحرٍ قد غضب، كأنه غضبَ من سقوط سبأ.

ونظر «أبرهة» وفي عينيه مقت ساخر وهو ينظُر إلى «بني يزن» ينسحبون من الناحية الأخرى، واستل سيفَه، واستدار إلى أمير الجيش «أرياط» وهوى بالسيفِ عليه فقطع رأسَه!، ولم يُحرِّك الجند ساكنًا، بل ظهرَت على وجوههم لمحَة تهكم بمن مات!، ومناصرةٌ لمن قُتِل، وكيدٌ بيَّتوه منذ زمَن، وعلا «أبرهة» عرشَ سبأ.
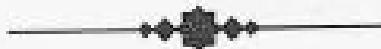
«أبرهة» أصوله من سبأ، لَونه كلَون أهل سبأ.. لكن ولاءَه للحبشة وملك الحبشة، وملك الحبشة ولاؤه لملك الروم، وملِك الروم هو الذي أمرَ الأحباش بنزول اليمن وأمدَّهم بالرجال والعتاد، والرومُ لطالما أرادوا احتلال سبأ، وسبأ اليوم قد سقطت في قبضة الحبش إلا شوكَةٌ وقفَت في حلوقهم اسمها «ذي يزن»؛ فقد تحصَّنَ لهم في الجنوب وعرَّفهم مذاق الويل بما وهبَه الرحمن من حيلَة ورجال يأكلون الأرض، وكان «عمرو بن جابر» و«إينور» ينظرون إلى كلمات نبوءَة «شق» و«سطيح» وهي تتحقَّق حرفيًا!.. دخل الأحباش اليمن وأسقطوا حكم التبابعة، ثم خرج رجل من بيت «ذي يزن»، وهاهو يُحارب من عدن، ولم يبقَ في النبوءة إلا النصر، ولكن بعد طول قتالٍ وكرٍّ وفرٍّ وسيلٍ للدماء صدرَ أمر فجائي من ملِك الحبشة بالاستسلام ووقف القتال في الجنوب، والاعتراف بذي يزن ملكًا على جنوب اليمن، على أن يظَل «أبرهة» ملكًا على شمالها، بل إن ملك الحبشة هذا أرسلَ هدايا صُلح وسلام إلى «ذي يزَن»؛ هدايا مملوءة مِسكًا وعنبَرًا وديباجًا وذهبًا وفضة وجاريَة من سمر الأحباش يفوق جمالها نِساء سبأ كافة!، وكان اسمها «ريحانة»، هدية أرسلَتها بلاد الحبش ومعها في ذوائب شعرها مثقالًا من السم تُفرِغه في شراب الملك ليموت في الحال من غير حربٍ ولا قتال...

سمراء تُعلِّم البيضاوات أصول الفتنة.. أقبلَت على الملك «ذي يزن» ونزلَت وشعرها الأسوَد ينسدل كالحرير وقبَّلَت الأرض بين قدمَي الملك، وقبلَ الملكُ الهدية والجاريَة وأنزَلها منزلًا كريمًا وقبلَ الصُلح، وأثار هذا نفوس بني يزن، كانوا يريدون تحرير الأرض... قال لهم ذو يزن اصبروا.. فإن الأحباش

أضعاف أعدادنا، وإننا إن هلكنا في هذه السنون فلن تقوم لليمن قائمة، وإن لديَّ حيلة فاستمعوا لها...

فلمَّا أنبأهم بها لم ترتَح لها نفوسهم الثائرة!، وإنما سكتوا طاعةً للملك، لكن هناك أذنًا كانت تستمع مع السامعين، أذن تحفزت لما سمعت؛ أذن لسمراء فاتنة، كانت مرسلةً للقتل!، واليوم بعد سماعها الخبر كان يجب أن تتحرَّك لتُحذِّر قومها أن ذو يزن يُرتِّب حيلة.

وانطلقَ «ذو يزن» في خفيَة من الليل في رحلة طويلة جدًا لتنفيذ حيلته.. انطلق ومعه نفَر قليلون إلى بلَاد فارس ليطلب النصرَة والجند من «كسرى»، تاركًا وراءه بنو يزن يُخفون أمر سفره، والسمراء في وسطهم تُخبئ لهم الخديعة... وقالت للغلام الجاسوس اذهب فأنبئ القوم أن «ذو يزن» قد انسل من البلاد طالبًا النصرة من فارس... فأتاها الغلام وقال يقولون أبلغينا بعدَّتهم وحرسهم ومكانهم... فتجسَّست وأبلغَتهم، وركب القوم الأحباش على ظهور الأفيال، وحملوا الرماح وانقضُّوا على بني يزن في غفلَة من الأمر...

وكان معتركًا مليئًا بالدم في حصن الغراب حيث تحصَّن بنو يزن.. وسال الدم على جدران الحصن وكسرت أبوابه الأفيال، ودخل الغربان حصن الغراب، وكان على رأسهم «أبرهة»، وبينما كان الرجال يتنازعون بالسيف والنساء تهرع إلى البوابات للفرار من هذا الجحيم، كانت هناك امرأة واحدة تخترق الصفوف داخلَةً إلى عُمق الحصن؛ كانت تلك هي «إينور» وقد تهيَّأت في هيئة البشَر، ودخلت بين الأجساد المتناحرة في جسَارة بدَت لكل من رآها جنونًا لم يفهم له أحد سببًا؛ كانت تبحث عن مكان الكتاب، وكأن الكتاب هو الحياة كلها، فلو ذُبح بنو يزن اليوم في دمائهم فإن عليها أن تنتزع الكتاب قبل أن يُذبح معهم.. وأصرَّت على بغيتها حتى أدركَت مكانها، فلما أتتها وجدَت رجلًا هو من خاصة الملك قد أخرج الكتاب من صندوقه وأخفاه في رحاله وانطلقَ به خارجًا يتخفَّى!، ورأى «إينور» مقبلةً إليه تنظر بعينين زرقاوين قلقتَين إلى كتابه، فخطا إلى الوراء في خوف، لكن «إينور» رفعت يدها وتراجعت وأشارت له بالعبور!، فنظر لها نظرةً أخيرةً تملؤها الدهشَة ثم مضى إلى حاله... كان هذا «يثرب»، مستشار الملك «ذي يزن»، وكان ذلك الكتاب محفورًا في صدره سطرًا سطرًا، حتى سمى نفسه «يثرب» تيمُّنًا بمهاجر النبي المخلص الذي يتنبأ به الكتاب.

ولم تدر «إينور» إلا وسَيف قد شقَّ نصله الهواء وشجَّ كتفها.. وكان الجن المتمثلون يتأذون إذا أذيت صورتهم التي تصوّروا إليها، فتأذت «إينور» وسقطت على الأرض، كان ذلك سيف «أبرهَة» الذي رمقها بنظرة المقت التي كانت تبدو وكأنها مطبوعة في عينيه، لكن فجأةً سمع صوتًا من ورائه فالتفت غاضبًا فلم يجِد أحدًا!، ثم التفتَ إلى «إينور» فلم يراها في موضعها، بل لم يراها في أي موضع حولَه، ولم يكن لذلك المكان مخرَج، فاتّسعَت عينه في ارتعاب قلَق، ثم استدار وانطلق إلى مواضع الجند.

كان «عمرو بن جابر» يحتضن «إينور» وقد انتقلا إلى صورتهما الجنيَّة بعد أن ألهى «أبرهة» بذلك الصوت فالتهى.. وكان كتف «إينور» قد تأذّى كثيرًا، فحملها «عمرو» وانطلق بها طائرًا من المكان، لكنها ألجأته إلى أن يلحق بالرجل الصالح «يثرب» لترى ماذا حلَّ به، فوجداه قد خرجَ من الحصن مُتخفيًا إلى الأحراش، ونظر وراءه إلى نيران قد اندلعَت في الحصن وصرخات قد خبَت!؛ لقد هزم الأحباش اليمن، لقد انتهت حضارة آلاف السنين... ونظرت «إينور» إلى «عمرو» وقالت: يا «عمرو» أين ذو يزن؟ أهوَ آتٍ ليهزِم الأحباش؟

أطرق «عمرو» برأسه إلى الأرض وقال: لقد رفض «كسرى» معاونةَ «ذو يزن» بأي شيء، وعاد خائبًا ومات في فارس، ربما مات حسرةً. ترقرقَت عينها بالدمع وقالت: يا «عمرو» لقد كذبَت النبوءة؛ لقد انهزم بنو يزن!

لم يرُد عليها «عمرو»؛ فقد كان في نفسه نيران تضرب بعضها. ولم يعُد يفهم شيئًا من الأمر.
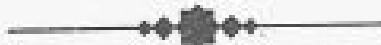
أما «أبرهة» فقد علا وتجبَّر.. ورضيَ عنه ملك الحبشة، ورضي عنه قيصر الروم، وبدأت الأفكار تجري في لُب القيصر؛ أفكارٌ عن سبأ التي كانت عروس الممالك بذلك السد الذي انهدم، فإن كان قد انهدم فإن الروم قادرون أن يبنوا سدًا خيرًا منه؛ فالخير في سبأ وفي أرض سبأ.

وبالسخرة والتسخير، وبالسوط المسلّط على ظهورهم عمل العاملون من أهلِ سبأ سدًا جديدًا كبيرًا يحمل المسحة الرومانية في البناء، لكن يبدو أن لعنَة الله التي نزلَت من السماء قد أجدبَت تلك الأرض حتى حين!، فما أغنى عن الرومان سدّهم شيئًا، ولم تُخرِج لهم أرض سبأ ما كانت تُخرجه لبلقيس

ومن بعدها!.. وأضاع «أبرهة» عامًا كاملًا في بناء ذلك السد، وأنفقَ عليه أموالًا طائلةً ولم يكُن له طائل يُذكَر.

أما «ريحانة السمراء» فقد تزوَّجَت من «أبرهة»، وصارت أميرة اليمن.. وكانت تضع يدها على بطنها كل حين تتحسَّس حملَها، فلما وضعَته كان ذكرًا جميلًا ورثَ عنها جمالها، لكن شيئًا في عينها كان قلقًا، لم تكن في عينها فرحة صافية؛ فإن هذا الذكر الجميل لم يكُن ابن أبرهة!، إنما هو ابن «ذو يزن»، ولقد حارت كيف تُخفي هذا عن «أبرهة»، ثم حسمَت أمرَها وأخبرَته، قالَت يا «أبرهة» إن هذا ابن «ذي يزن» وليس ولدك، فانظر ما أنت فاعِل فيه.

ظهرت البغضاء على وجه «أبرهة» والغضب، فقال: إنك ستقتُلِنَ ذلك الرجيم بيدك وترمينه إلى القفار أو لأجعلنَّ الأفيال تدهَس عظَامك.

فلما جنَّ الليل أخرجَت خنجرًا وقبضت على مقبضه بيدها.. واقتربت منِ الطفل الجميل الضاحك فلم تقدر على قتله وهي أمه، وكانت بجوارها جارية لها، قالت: يا سمو الأميرة السعيدة.. أي ذنبٍ فعلَه هذا الغلام حتى تُذيقيه الآلام وتسقيه كأس الحمام.

قالت: فماذا أنا فاعلَة إن نفسي لا تُطيعني.

قال الجارية: يا ذات العقل الرشيد، إن كان لابد من هلاكِ هذا الغلام فأرسليه مع أحد الخدام فيرميه في البراري والآكام ويكون بعيدًا عن هذه الأوطان، فإن عاش عاش لأمله، وإن مات مات لأجله...

فلما سمعت «ريحانة» هذا الكلام أخذها الفرح والابتسام وأعجبها هذا الأمر كمخرج مما هي فيه.. وانطلق الخادمُ الحبشي في آخر الليل على جوادٍ من خير الجيَّاد ومعه الطفل، ومضى به بعيدًا إلى ناحيَة بحر اليمن، وعند فلاةٍ موحشةٍ وضعَ الوليد على بساطٍ من الديباج، ثم هجرَه وارتحلَ بعيدًا من حيثُ أتى.

وحُجبت الشمس عن الصحاري بالسحاب، رحمة منِ الرحمن.. والطفل في وسطها يضرب بالأيادي والأقدام، وعيون الجن قد التفت حوله تنظر إليه في عجب، وليس يسكُن في الصحاري غير الجن والحيَّات... واقتربت من الوليد الوحيد غزالة، مالَت عليه برأسها تتحسَّسه، ثم فارت الدماء من جسدها وانقلبَت على الأرض، ونظر الجن وراءها فإذا رجل صياد قد رماها بسهمٍ

فأرداها!، وهو من بعد هذا ينظُر إلى ما تحتها في دهشَة، طفل ذكر رقيق واسع العينين يتحرَّك في ظرافة، فانحنى إليه وحملَه ونظر إلى لباسه الفاخر والديباج الذي تحته، ولعبت بحسبته الظنون...

أما الجن فقد انفصَل منهم فريق يمشون وراء الخادم الحبشي ليعلَموا من أين أتى الطفل، وفريق بقوا عند الطفل وشاهدوا الصياد يعثر عليه ويأخذه ويرحل... وتعلمت جواسيس الجن أن الطفل هو ابن «ذي يزن»، وأن «أبرهة» قد رماه لوحوش الصحاري.

ولعبَت الأقدار لعبَتها ورجع الصياد إلى زوجته وأنبأها بخبر الطفل وهي تحمله وتلاعبه وجماله قد أسرَ لبَّها.. قالَت: وحق زحل إن هذا الطفل من أولاد الملوك؛ فإن أطفال الناس لا يلبسون هكذا.

قال: فإني أذهب به صباحًا وأهديه إلى أمير البلدة؛ علَّه يعطينا نفحةً من مال.

وتمضي الأقدار في ذات اللعبة ويدخُل الصياد على أمير شمال سبأ، وكان من الأمراء الأحباش الذين يحكمون المناطق تحت حكم «أبرهة»، وكان اسمه «أفراح»، فلما رأى الطفل طارَ بجماله فرحًا وطارت به زوجته، وعزما ليُربِّيانه في القصر وليكرِّمانه، وسمُّوه اسمًا حبشيًا حربيًا، (وحش الفلا)،- لأنهم وجدوه في الفلا-، كان بعض الجن ينظرون من الشُرفات، كان فيهم الجن الذين تبعوا الطفل وعلموا أمرَه... قال بعضُهم لبعض: إنا سمعنا امرأةً من قومنا تذكر بني يزن وتهب حياتها للذب عنهم، أفلا نُنبئها بأمر هذا الطفل الشريد؟

قالوا: هل تقصدون «إينور» ذات الحسن والنور؟ قالوا بلى.. وانطلقوا كالشُهب المتعاقبة إلى «إينور».

وجاءت «إينور» ونور عينيها الذي كان خبا من اليأس قد شرع في اللمعان، والدمع في أحداقها نازل كماء اللؤلؤ، فأتته وجارية في القصر تُلبسه لباسا فاخرا وتُهدهده وتُلاعبه... فتبسَّمت «إينور» وأشرقَت بعد أن غزَت الظلمةُ روحَها، وشاءَ ربُّ الأقدار أن ابن ذي يزن -أو وحش الفلا كما كانوا يُسمُّونه- ينشأ عند أمير حبشي حربي النزعة، فلم يتركه للدعة والكسل؛ إنما كان يُعلِّمه الفروسيَّة والشَّجاعة والحرب والطعان وقوى البراعة والصد والرد... حتى

اشتدَّ عود الفتى الوسيم الجميل ذو الشامة على الخَد واشتهر في عدن، وعزَفوا عن تسميته وحش الفلا، وأصبحوا يُسمُّونَه «سيف» لِما رأوا منه من قوة وبهاء، وإن الأقدار كانت تَخبئ له ما تخبئ...

دقَّت الطبول وأُوقدت المشاعل، وأتى الأحباش من كل حدب في ألبسَة حلوة وأثواب مُلوَّنة؛ فإن ملك الحبشة اليوم في سبأ قد نزل، ينظر إلى الأرض الجديدة التي استملكها ولطالما تمنَّاها أسلافه، وإن أمراء المناطق كلهم قد أتوا وأبناءهم لملاقاة الملك الكبير في حفل كبير أنسًا بالغلبَة والنصر... وكان «أبرهة» ملك سبأ يمشي يختال زهوا و«ريحانة الجذابة» في كامل زينتها بجواره، وخلفهما ابنيهما «اكسوم» و«مسروق»، وجاء الأمير «أفراح» ومعه أبناؤه وفيهم وحش الفلا «سيف»، ولم يكن في الحفل أجمل منه إنسان.

ورسم إله السماء خطة القدر.. واجتمع الشباب أبناء الملوك في مجلس يتسامَرون، وجاءهم وحش الفلا يُسامرهم والبهاء في طلعَته يغيظ قلوبهم.. قال له «أكسوم»:

- ألستَ الفتى الذي وجدوه في الفلا؟ ما الذي ألبسكَ لباس الملوك؟

قال له وحش الفلا بهدوء:

- أما دريت؟ لقد وجدوا تحتي الديباج.

ضحكَ «مسروق» وكان أكثرهم مكرًا وقال:

- أما دريتَ أنت.. إنه ليس يوجد في الفلا طِفل طريح إلا أن يكون ابن زنا.

فتقطب جبين وحش الفلا وانتفش جسده واندفع إلى تلابيب الفتى وأمسك بها وسحبه بذراعٍ من حديد في وسط الحفل.. قال:

- إن كنتُ ابن زنا فإن من زنَت وأخرجَتني واحدة من أمهاتكم.

وكان قتالًا في ناحية أبناء الملوك وقف له الشهود.. وامرأة واحدة كانت قد سمعَت حديث أبناء الملوك وانتفض قلبها، وتذكَّرت طفلًا حملَته في بطنها ثم مدَّت يدها عليه لتقتُله ثم رمَته إلى الوحوش... امرأة كانت تُسمَّى «ريحانة»، نظرت إلى وحش الفلا «سيف» بقوته ووسامَته وعيناه اللتان ترتجفان غضبا وحيرةً، والملأ ينظرون إليه ويحتقرونه، ولم يكن غيرها يدري أن هذا الذي

يستهينونه بأفواههم إنما هو «سيف» -سيف بن ذي يزن- ابن ملك سبأ، وأنهم جميعًا غربان مُحتلين، وأن هذا القصر الذي يجتمعون فيه إنما هو قصر والده!..

وعاد «سيف بن ذي يزن» إلى حجر زوجة الملك «أفراح»؛ وهي التي ربَّته صغيرًا.. قال لها:

- يا أُمّه.. هل كانت أمي بغيًا، أكانت أمي زانية؟ فإن لم تكُن فلِمَ رمَتني إلى الفلا؟

نظرَت له زوجة الملك والحنان من عينها يسيل.. قالت:

- يا بني إنما أتى بك إلينا صياد فقير، وإنا لا ندري أين وجدَك.

قال: فدلُّوني إليه، وإني لا أبرحه حتى يهديني إلى المكان.

يومٌ مضى وأيام بعده قد مضَت.. وأتى الصياد وسيف يجاوره، والصياد يُحدِّثه ويُشير له إلى موضع بعيد في الفلا، ثم تركه وتولى، وسار وحش الفلا في ذلك العراء، ولا شيء يلي البصر، لا شيء إلا كثبان وآكام وعيونٌ من الجن تنظره ولا تدري أنه هو الذي كان يصرخ في هذا الخلاء طفلا!، واليوم انكتمَ صوته وترقرقت عيناه بدمع الحيرة.

فلما مرَّت عليه مقادير الوقت وحلَّت عليه الظُّلمَة وغزاه اليأس، التفتَ خارجًا من تلك الأرض، إنها المرة الأولى التي يشعُر فيها بأن له من لقبه نصيب -وحش الفلا- يمشي وليس من حوله إلا الفلا، وليس في قلبه إلا الفلا... حتى إذا بلغ القنوط في عتمَة الليل وجفَّ الدمع في المُقلتين، إذا أستار الليل تتهادى، وتخرِج من خلفها غادة ذات قوام حسن ووجه حسن وقلب حريري... لم تكُن لتتركه وحده «إينور»، وهي التي تُتابِعه مذ كان طفلًا.

- أنت صاحب الأرض يا بن «ذي يزن».. أنت مليك الأرض، وإن الأحباش قد غزوا أهلك واغتصبوا أرضك وعرضك... أنت لستَ وحش الفلا؛ أنت أمير الفلا والسهل والجبل، أمير سبأ.

فاستعجَب من قولها واستحسنته فِطرته.. قال:

- وهل بقيَ من قومي أحد؟

قالت:

- هم قليل.. فاذهب إلى رجُلٍ منهم يقال له «يثرب»؛ فقد كان صاحب سِر أبيك.

- وهل قتلوا أبي؟

- بل ذهب إلى كسرى الفرس يطلُب النصرة، وخذله «كسرى» ومات في طريق العودة.

وخرج «سيف بن ذي يزن» من تلك الفلا بقلبٍ غير القلب الذي دخلها به، وبعيونٍ يطير منها الشرَر.
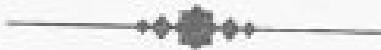
ورجع «سيف بن ذي يزن» إلى بنو يزن.. القلة المتشرذمين المتكتلين المستضعفين في عدن، فدخل عليهم وهم في دير لهم يسمعون من كلام «يثرب»، فالتفتوا إليه وكان يشابه أباه في كل ملمَح من ملامح وجهه، فأضاءت وجوههم لرؤياه واستغربت، ولم يكن بحاجة لإثبات نسبه فيهم، وكانت ليلة عامرة بالحكايا والأحزان يُلقيها كل طرفٍ إلى الآخر، ولمس في قلوبهم اليأس والحيرة، ولمسوا في قلبه الثورة والانتهاض وكره الأحباش، وطريقة في خياله يرسمها للثورة: طريقة لما سمعوها أطرقوا برؤوسهم...

- يا «سيف» إن والدكَ وقفَ فينا كمثل وقفتكَ هذه، وقال فينا مثل مقالتكَ وطريقتك، ولقد فشلَ وأفشلَنا وأفشل سبأ كلها من بعده.

فسكت «سيف» ولم يرُد.. وبقي معهم سنوات يتعلَّم دين آبائه وأجداده وتعاليمهم حتى كمل عقله وعلا علمه وفهمه.

وفي قطعة أخرى من الأرض.. عامرة بأصناف البنيان والألوان والجُند المجنَّدة، كانت تعيش حضارة ربما هي أقوى حضارةٍ شهدتها بسطة الأرض؛ حضارة «بنو ساسان»، أو كما يدعُوهم التاريخ «الامبراطورية الفارسية»؛ قصور مُشيَّدة ومساكنُ ازدانت الأرض بها وجيوش كحبات الأرز لا تُحصِي لها عددا وملك حاكم على مقادير كل هذا يسمى «كسرى»، بلغ به من تبجيل نفسه ألا يسمَحَ للأبصار أن تراه، إلا مرةً واحدةً لا تعاد إلا بعد شهورا، وكأن رؤيته شرَف لا تستحقه الكائنات... وإذا بيوم قد أتى ويدخل عليه رجل مميز المنظر بشعره الأحمر والنمش على خديه، «النعمان بن المنذر» ملك العراق وصاحب

الزهور الشهيرة شقائق النعمان ومعه رجُل مُشرِق الطلعة وسيم الملامح ذو بأسٍ شديد يُسمى «سيف»، «سيف بن ذي يزن».

وهمَّ النُّعمان بالكِلام إلا أن «سيف» أسكتَه بإشارة واحدة من يده.. وتكلَّم «سيف» و«كسرى» ينظر وقد لفتَت نظره حركة الفتى، قَال:

- يا عظيم فارس إني أنا ابن الشيخ الكبير الذي أتاكَ لتنصُره ووعدتَه ثم أخلفته حتى عاد ومات بحسرَته على قارعة الطريق، أنا ابن الملك «ذي يزن»، ملك بلاد سبأ التي عدا عليها الحبش فما تركوا فيها مغنمًا إلا سلبوه، وإني أتيتُك اليوم لتنصُرني فأطرد الأغربة عن بلادي وينالكَ منا فَيْئٌ وفِير في كل عام.

قال «كسرى» من وراء الزبرجد واللآليء التي تُحيط به:

- بعدت بلادك عن بلادي وليس فيها غير الشاء والبعير.. وما كنتُ لأوْرِط جيشًا من فارس بأرض العرب.

ثم أعطاه «كسرى» عشرة آلاف درهم ذهبي فارسي، وقال له:

- الحَق بقومِك فإنك لا تزال أكثر أهلك مالاً بعد هذه العطية.

وأشار بيده ليُخرِج الحرسُ الرجلين... وانصرف «سيف» كما انصرفَ والده؛ بحسرة أغشَت ملامحه، ولم يدرِ أن أرض سبأ في أيام سفره هذه كانت تهتز؛ تهتز بالغضب وكأن الزمان يأبَى إلا أن يُعيد الهزة في أرض سبأ كلما سافر «ذو يزن»!، لكن الهزَّة في عهد سيف كانت أشد وأنكى، وانهارت لها نفوس بني يزن أكثر من انهيارهم الأول.

حدثَ أن «أبرهة» في طوال سنين حُكمه لليمن كان يتعجَّب من شيء يُلاحظ أن العرب يفعلونه ويحرصون عليه بكافة طوائفهم وبلدانهم.. كانوا يروحون في كل عام في جموع وقوافِل مسافرين من أقصى الأرض إلى مكَّة يحجُّون فيها ويُتاجِرُون... وليس في مكة هذه إلا جبال وواد غير ذي زرع وقوم أجلاف لا دينَ فيهم ولا حضارة.

فوجَّه «أبرهة» سؤالًا إلى أحلافه العرب من قبائل سبأ:

- ما الذي تهفُو إليه القلوب في تلك الأرض؟

- بيتًا من حجَر لا يزيد حجمه عن حجم غُرفَة في قصرك يا ملِك.
- وما بال بيتٍ كهذا تهفُو إليه القلوب؟
- إنهم يذكُرون أن إبراهيم النبي قد بناه وابنه إسماعيل.

فظهرَ مسحة غاضبة على وجه «أبرهة» وكان مسيحيًا مُتشدِّدًا.. قال:

- أي هراء هذا؟ ما الذي سيأتي بإبراهيم النبِي أبو الصالحين إلى تلك الأرض الجدباء، والله إن أفكارهم وقلوبهم تُماثل طبائعهم جلافة.

قالوا:

- وانهم قد نصبوا حول ذلك البيت أصنامًا.. كل أصنام العرب وآلهتهم منصوبة هناك، حتى إذا أتت القبائل تحجّ إلى ذلك البيت تتقرَّب كل قبيلةٍ لأصنامها.
- ولم تحجّ القبائل إليهم؟
- لأن كل القبائل العربية في الجزيرة تعرف أن ذلك البيت مُقدَّس، وأن «إبراهيم» هو الذي بناه.

سكت «أبرهة»، وبيَّتَ شرًّا في دواخل نفسه.

وبالسخرة والتسخير، وبالسوط المُسلَّط على ظهورهم.. أمر «أبرهة» بنَصب كعبَة في سبأ، تكون هي الجمال مُجسَّدًا في بناء، وتعاضدت سواعد من سبأ ونظمَت أحجارًا على أحجار ومسامير من ذهب وفضة... فانتصبَت على أرض سبأ كعبَة دائرية لها باب ذهبي وبلاط من المرمَر الملَّون تعلُوها قبَّة مُشيَّدَة من الفسيفساء... وجُعلت على تلة مُرتفعة زينة للناظرين، وبعث «أبرهة» مبعوثين إلى القبائلِ يدعونهم للحج إلى كعبة سبأ، وسمَّاها القليس، وقطب العرب جباههم ومطوا شفاههم واتخذوها سخريًا!، لكن الداعين إلى القليس قد زادوا وكانوا من عرَب سبأ المتحالفين مع الحبش، فحدَثت المناوشات مرّةً بعد مرة، ثم لمَعت الشرارة التي أوقدَت منها نار القلوب، عربٌ نزلوا على كعبة سبأ وسعروا فيها نارًا، فسعرت النار في قلوب الأحباش!

وقف ناظرًا إلى النار، والحبش من حولها يصيحون بلغاتم.. و«أبرهة» يصيح في جُنده بأمر غاضبٍ ما، وقف يسمع كلام «أبرهة» الذي يقوله لوزرائه،

كان يُصدر أمره أن جيشوا الجيش والأخيال والأفيال واقرعوا الطبل؛ فإن الحبش نازلون إلى العرب في جموع تغزو ولا ترحَم، ولا تقف إلا عند كعبة العرب فلا تدعها إلا حطاما، وقف ساهمًا ينظر إلى حرقتهم وحريقهم واللهب ينعكس على شعره الأصفر الذي اعتدنا عليه، «عمرو بن جابر» كان ينظر إلى عيون حمر قد وقفت على جانب من النار -عيون شيطان- قال له هل تذكَّرتَ يا «عمرو»؟ أن نارًا قد أجّجَت من أخاديد هذه الأرض يومًا، كانت شُعلة ولد منها رجل غاضب يسمى «أسعد» رفع كلمة الرحمن من سبأ إلى الكعبة ليكسوها.. واليوم نار قد أججت في هذه الأرض، كانت شُعلَة خرج منها رجل غاضب يسمى «أبرهة»، نازل بجنده من سبأ إلى الكعبة ليهدمها.. أليس النظَر في القدر مُمتع وساخر؟ أليسَت هذه الكعبة هي آخر ما يملك الرحمن على هذه الأرض؟ حتى أن مُخلصه إذا أتى لن يجِد معبدًا يعبُد الرحمن عنده...

ثم ضحك وعيناه مُتّسعتان جذلا وقال: يبدو أن النبوءةَ التي ألقيناها لكاهننا «سطيح» كانت نبوءةً زائفةً يا بن جابر!، ألا تدري أننا نكذِب في النبوءات.

ثم تولّى وهو يصدح بالشماتة وهو يقول: نحن نكذب في النبوءات يا بن جابر.. نحن نكذب في النبوءات...

ليس من حكَى عن الجيش كمن رأى الجيش، قبائل وأفيال ورومان وحبَش... عشرات الآلاف تتبع بعضها وكأنه لا نهايةَ لها!، وإن أكبر حرب بين العرب لم يزِد المتقاتلون فيها عن ألفين، أما وقد أتتهم اليوم عشرات الألوف بأسلحَة يرفعونها وأفيال يجرُّونها وغضب استقرَّ في عيونهم، فإن العرب اليوم في حرَج... كان «عمرو» يتبعهم وعيونه الجنية لا ترى آخرهم، وخاطر يجول بذهنه؛ حقًا إن الشياطين يكذِبون في النبوءات!، فلم تذكُر النبوءة أن الحبَش سينزلون إلى مكة، إنما قالت أنهم سيحكمون إلى نجران، لعنهم الله الشياطين قد أوقدوا في قلبه الأمل يومًا.

وخرجت جيوشُ العرب تُدافع عن أرضها.. فخرج أول من خرَج أشراف اليمن، فانهزموا وأبيدوا عن بكرَة أبيهم، ثم خرجت قبائل شِهران وناهس، فانهزموا ولم تبقَ منهم باقيَة، خرجوا رجالا على قلّتهم بكلّ بسالَة العرب

وجسارتها، لكن الجيش لم يكن عاديًا، وعلم بقية العرب أنهم لو حاربوا هذا الجيش واجتمعوا له كلهم، ستنزل عليهم جحافل الروم فتطبق عليهم عن آخرهم: فالحبَش والروم فريق واحد.

فكانت جحافل الأحباش تمشي وتتحاشاها القبائل حتى وصلوا إلى أرض المغمس على أعتاب مكة.. فتوقّف جيشهم وتأهّب لينقضّ على مكة ويستبيحها ويدُكّ حرامها وحلالها... لكن فرسانًا ثلاثة قد انطلقوا من مكة وعلى ملامحهم ألوان من الغضب، حتى أتوا على خيمة «أبرهة» ومشوا بين الجيش لا ينظرون حتى إلى عتاده وجهازه!، قيل لأبرهة إن هؤلاء أسياد مكة وقد أتوا للتحادُث.. قال فأدخلوهم، وكان على عرش له جالسًا فدخل عليه ثلاثة فرسان يتقدّمهم رجُل هو الهيبة كلها والجلال كله، طول وربعة في الجسد ووسامة في الوجه وجلال، وشعر أسوَد تتخلله خصلة بيضاء أضافت إلى هيبته مهابة ورزانة، وكان اسمه «عبد المطلب»، سيد مكة وصاحب بئرها.. فلما رآه «أبرهة» قام واقفًا، ثم انتبه إلى وقفته التي وقفها على غير عادته، واستكبر أن يجلس على عرشه بعد أن وقف لئلا يُقال أنه وقف إجلالا، فمشى باستكبار ثم جلسَ على بساط ملكي للزائرين، وأشار للثلاثة أن يجلسوا.

وأشار «أبرهة» للترجمان أن يسأل الرجال عن حاجتهم.. فتكلّم سيد بني بكر، وقال:

- قُل لمليكك يا ترجمان أن «بني بكر» تعرِض عليه ثُلث أموالها على أن ينصرِف عن مكة.

ثم تكلّم سيد «هذيل» وقال مثل قول صاحبه... فسمع «أبرهة» ترجمة كلامهم فقال:

- لا حاجَةَ لي بأموالهم، وإن أرادوا السلم فليخلوا بيننا وبين ذلك البيت فندكّه دكًا بأفيالنا.

ثم أشار «أبرهة» إلى ترجمانه ليسأل الرجل ذو الخصلَة البيضاء عن حاجته... فسأله الترجمان، فتكلّم «عبد المطلب» قال:

- قُل لمليكك الأشرَم أنه قد اعتدى في طريقِه إلى هنا على إبِل لي.. مائتين من الإبل، فقُل له أن يرُدّها لي.

فترجم الترجمان.. فظهرت على «أبرهة» علامات العجَب والغضب... قال:

- أتُكلّمني في مائتي بعير أصبتُها لك!، وتترُك بيتًا هو دين آبائك وأجدادك قد جئتُ لأهدمه على رؤوسكم فلا تكلمني فيه؟ لقد كنتُ أعجبتَني حين رأيتك ثم زهدتُ فيك حين كلمتني.

قال عبد المطلب بحزم:

- أما هذه الإبل فأنا ربها.. وأما البيت فله ربٌّ يحميه، وما أنت على هدمه بقادر.

ولما سمع «أبرهة» الترجمان اتّسعَت عيناه مقتا وقال:

- أما ذلك الرجل ذو الخصلة البيضاء فردُّوا إليه إبله.. أما البيت فإني سأزيله وأزيل من يعترِض طريقي إليه.

رمال صفر امتدَّت إلى حافة البصر، تراها قد تماثلت صورتها في كل ناحية، ولو ملكت عين الصقر لن ترى غيرها.. صحراء فاقعة أكلت أرض الجزيرة كلها إلا قليلًا، وهي حول مكة أشد، و«عمرو بن جابر» واقف على أعتاب مكة ناظر إلى الصحراء يرقب شيئًا شقَّ صفحة الأفق!؛ ظلال سود أبرز الأفق الطويل رؤوسها تبرج من كل حافة، مصفوفة على طول الشفق، رؤوس ترتدي خوذات حربية، ورؤوس أفيال تغطَّت رؤوسها بالدروع، ورجال حبشان على ظهور الأفيال يدقون الطبل... وتقدموا راجلين وراكبين وعجز البصر أن يرى منتهاهم!، وصعد «عمرو» في الهواء ليرى فعجز أن يرى منتهاهم، وارتجفت عينه المتَّسعَة، والله إن هذا المسِير لقادر على أكل الجبال إذا أراد، واقترب منهم طائرًا بجناحيه، فرمقتَ عينه حركةً في مقدم الجيش كسرَت انتظام المسير، تحديدًا عند الأفيال التي في طليعة الجيش.

توقفت الأفيال كأنما أحسَّت شيئًا!. وصارت تُضرَب بالسياط فتمشي في كل جهة إلا جهة المسِير، وتوقفت الطبول عن الدق، وتعالى صياح الرجال، ثم انتقل الصياح إلى مؤخرة الجيش!، فنظر «عمرو بن جابر» فإذا الجنود في الخلف رافعوا رؤوسهم إلى السماء من خلفهم ويصيحون... وانتقلت عين «عمرو» إلى السماء، وارتجف، وانظر إلى الجن لما يرتجف ماذا يرى!

سرب من الذرات السود شُوهِدت من بعيد.. تتقارب فتكون كأنها بساط مديد من الذر الأسود!، وتتباعد فتكون كأنها كُرة، وتظل تتقارب وتتباعد كالشياطين في السماء وتُشكل الأشكال... واقتربت أسراب الذر من بعيد فرأت تفاصيلها العيون؛ فلم تكُن ذرات، ولم تكُن سوداء!

كانت طيور.. طيورٌ من فصائل لم تعرفها بلاد العرب!، لكن بلاد الحبش تعرفها، ويدعونها (الزرازير الجواثم) وبدأ الجيش يتفرّق، والطيور تتوسّع في سربها حتى ما خلا منها موضع في السماء، وتعثّر الرجال هربًا، ونزل الطير كله إلى أسفل مما كان فرؤيَت ألوانه وأشكاله وأعداده... أزرق الأجساد أحمر العيون والأجنحة، أعدادهم لا تُحصيها حتى عين زرقاء اليمامة، كان مائتي ألف طير أو يزيدون، يصدرون أصوات طيرية عالية، غاضبة ثائرة، وكان في الجيش عرب ضلّوا السبيل فلم يفقهوا من الأمر شيء، وإن لم يعرفوا الطير إلا أن الرعب ألقي في قلوبهم مما يخوف الأحباش، فأصبح الواحد منهم يهرب كأن الغيلان تُطارده!، وتصادمت الخيول ودارت الأفيال حول نفسها، وعين «عمرو» في السماء تنظر لجيش كان أرتالا مُنظّمة، والآن لا تعرف طليعته من قفاه، يخافون من طير يُحلّق في جو السماء له نعيق وصريرا!، كانت المرة الأولى التي يرى فيها «عمرو بن جابر» هذا الطير رغم أنه رحّالة، لم يكُن يدري أن أرض أفريقية مملوءة بأمثاله، لا يمرون بقرية إلا أهلكوا محصولها ونزل بين شعبها المرَض... كان الجيش يحاول التفرُّق والطير فوقهم صافات، ثم فعلت الطيور شيئًا جعل الأحباش يصرخون على صراخهم ألف صراخ!

مائتي ألف طير ألقَت من بطونها عذرات تحجّرت في جو السماء ونزلت كالوابل المُنهمر.. وكان الحبَش يعلمون معنى هذا، نزلت عذرات الطيور وتفتّتت على الأرض والأجساد، وأعادت الطيور تشكيل سربها بأشكال وأشكال!، ثم تحرّكت بعيدًا إلى العرين الذي أتت منه تاركة جيشًا مفرقًا شتيتًا تغمرهم الحسرات، حتى غابت عليهم الشمس ونزلت ستارة الليل وفشا بينهم الجدال، قالوا إن تلك الطيور لا تمر إلا والمرض تابعها، ولقد ألقَت علينا العذرات كعهدها كلّما مرّت في مكان، فما لنا إلا العود إلى الحبشة... فغضب «أبرهة» وقال: ما بال الرجال أصحاب الدروع والسيوف يخافون من مرميات الطيورا!، والله لا نرجع حتى ندُكّ ذلك الحجر، وما بيننا وبين مكة إلا ميل أو اثنين...

وبقوا ساعات الليل يعدونها عدا.. بين حيرة وتوجُس، حتى أتى الصباح فنظَّمُوا تنظيمهم، وحملوا سلاحهم، ومشوا في تهيب وجبانة ملأت قلوبهم، ثم نزل بهم ما كانوا يحذرون.

فشَت في جثمانهم الحُمَّى وتولَّدت السموم في بطونهم.. فمرضوا وتقيَّأوا، وسعلت حلوقهم... وتوقَّف المسير وأعياهم المَرَض، وعزموا على العود، فاستداروا ومضوا إلى ناحيَة الحبشَة يمشون مشيَة المرض، وبقت أفيالهم وخيولهم لم يمسسها ضر، فمشت بهم أيامًا بغير عائقة، ثم اندفع البثر على وجوههم وأعناقهم وغزا أيديهم وأرجلهم، وانتفخت أشكالهم وجحظت عيونهم من الرعب، واهتاجت أبدانهم وشاعت فيهم حكة يُطفئون بها ما ثار عليهم، فصاروا يفركون البثور بأظفارهم فتخلف وراءها حفرًا!، وتباينَت جلودهم بين مُنتفخ ومحفور، وسقط ثلث منهم صرعى شاخصين بأبصارهم إلى السماء وقد انطفأت فيهم الحياة، وبقي الآخرون أحياء يحثون على التراب مرضى بين أمواتهم، وجلودهم مأكولَة ممدَّدين على الرمال كأنهم أصناف نبت نهشَته قطعان البعير وداسَت عليه الحوافر.

ومشى «إزب» بينهم وبشاعة البغضاء طالعة على وجهه.. ترمي الرياح عباءته إلى يساره، ثم رفع رأسه إلى السماء، وصرخ، وما كان الشيطان لينعى الموتى وإنما كان ينعى انهزامه!، ونزل من تلك السماء «عمرو بن جابر» كالملاك الأمير، وكان في عينيه نَصر وغلبَة، فلما رآه «إزب» سحب عباءته ورحل مغاضبًا، وانتقل من المكان كالومضَة وابن جابر يُلاحقه كأنه له ظل.

في سوق من أكبر أسواق بلاد فارس.. وقف «سيف بن ذي يزن» على أعلى موضع يمكن أن يقف فيه، وأخرج الدراهم الفارسية الذهبية التي أعطاه إياها كسرى، وبدأ ينثرها على الناس ويتحدَّث بلغته التي لم يكن يفهمهما أحد من أهل السوق، لكنهم اجتمعوا كالمحمومين على الدراهم يتلقونها من الأرض، أنتَ لا ترى مجنونًا ينثر الذهب في السوق كل يوم، وبلغ الأمر «كسرى»، فقال ائتوني بهذا الفتى اليماني، وكانت المرة الأولى التي يدخل فيها أحد على «كسرى» في يومين مُتتاليين!، فلما أتاه قال:

- ما دعاكَ إلى أن تنثُر أموالي التي أعطيتُك على رؤوس الناس؟

- هل ترى هذا الذهب الذي وضعتَه لي في كيس ورميتَه إلي، فإن جبال بلادي ذهب وفضة، وإني أتيتُكَ لأعطيكَ أنا الأموال إذا مددتَني بالجُند، أما أموالكَ أنت فلا حاجةَ لي بها.

وعلى جراءته إلا أنه أعجب «كسرى».. ونظر إلى حاشيَته في تفكير، قال له الموبذان وهو قاضي القضاة:

- يا عظيم البلاد.. فلتُخرِج له «وهرز» ومن معه، فإن ماتوا فإنا نُريد هلاكهم، وإن نصرُوه فسيأتينا من بلاده خراجًا.

نظر المُترجِم إلى «سيف» وهو متفاجيء من حديث «كسرى» والموبذان.. ونظر له «سيف» مُتسائلًا، قال له المترجم:

- سيُخرجون معكَ «وهرز» ومن معه.

نظر له «سيف» بعدم فهم.. ولما بيَّنَ له المترجم الأمر، اتسعَت عين «سيف» الوسيمة اندهاشًا؛ فلقد تبيَّن أن من سيخرُجون معه لن يخرجوا من معسكرات جنود فارس، إنما سيخرجون من السجون، أعتى المجرمين الفُرس المحكوم عليهم بالإعدام، «وهرز الأعور»، وثمانمائة مُجرم من سفلَة بلاد فارس.

وهبطت سفُن ثمانية على خليج عدن.. وانتثر منها رجال أتوا من فارس في عدة وسلاح، وقمع انكتم بداخل نفوسهم في السجون وقد آن أوان إخراجه، يرأسهم رجل يمتلئ حتى آخره بالحقد على الحبش وحتى على أمه الحبشية!، وأقسم ليُخرجنَّهم منها أجمعين، وإنَ مُهمَّته كادت أن تكون مستحيلة بثمانمائة رجل؛ فجيش «أبرهة» وإن كان الذي خرج منه إلى بلاد العرب قد صاروا كَعصف مأكول إلا أن بقيَّة جيش الأحباش كان يُسيطِر على بلاد اليمن، مائة ألف مِنَ الرجال في أحسن التقادير، يحكم عليهم «مسروق ابن أبرهة» صاحب اللسان البذيء، لكن «ذي يزن» لم يكتفِ بمجرمي الفرس الذين معه بل كان يمُر على القبائل ويُشعِل نيران الغيرَة في نفوسهم على الأرض، حتى جمع ما جمع من العرب الرجال.

واندلعَت حرب أخيرة ملحميَّة.. نجح فيها «وهرز» أن يقتُل «مسروق بن أبرهة» بطعنة بين عينيه، وانتهضت قبائل اليمن الأخرى وانقضوا على الأحباش من شرق ومنْ غرب، وانطلقت كل غرائز الوحشيَّة في المجرمين الخارجين من سجُون فارس؛ فكانوا يضربون الرؤوس يمينًا وشمالاً!، وبرز «إزب» في السماء يظهر في موضع ويختفي ليظهر في موضع آخر كأنه الخيال ووراءه «عمرو ابن جابر»، حتى أمسك به «عمرو» من جيده وخنقه بيَد واحدة من فولاذ، لكن «إزب» انتفض وتخلَّى عن عباءته التي كان يَمسك بها «عمرو»، فبانت ملامح جسده الرمادي ورأسه الخالي من الشعر وملامحه الشيطانية... وصرخ صرخة كأنه صرخها بجسده كله!، وتراجع «عمرو» وهو ينظر إلى «إزب» الذي صرخ ثانية كأنه يصرُخ للسماء، ونظر «إزب» إلى «عمرو» بنظرَة مقت، ثم اندفع كالشهاب فصدمَه صدمةً زجَّت به إلى الأرض وأحرقَت وجه «عمرو» من أسفله.

أما «إينور» فقد بقيَت لسيف بن ذي يزن تتعقَّبه.. حتى انتصر جيشُه في تلك الحرب، وهزم الأحباش واستعبدَهم وطرد أكثرهم، وعاد «وهرز» ومن معه إلى بلاد فارس أحرارًا، وكانت فرحة انبسطَت في أنحاء الجزيرة كلها، أهل سبأ يحتفلون بطرد الأحباش واستعادة التبابعة حُكم البلاد، وقريش تحتفل بقصوف الطير الأبابيل التي أهلكَت جيشًا مهولاً جاء لهدم كعبتهم، وأتت وفود العرب من كل صوب تُهنئ الملك «سيف بن ذي يزن»، و«إينور» تنظر إليه وإلى جواره صاحب العلم «يثرب»، وعينها تترقرَق بالدمع؛ إن النبوءة تحقَّقت كما قيلت، ورفعت رأسَها للسماء امتنانًا للإله الرحمن ذي سماوي.

وشاهدت من الوفود وفد قريش قد أتى وفيهم أسياد مكة وأشرافها.. «خويلد بن أسد» و«عبد المطلب بن هاشم» وغيرهم... وكان «عبد المطلب» رجُل مهيب المنظر في شعره خصلة بيضاء، لم تكن تعرفه لكن مرآه أسرَّ عينها عمن سواه، ولقد لفتَ نظر «سيف» أيضا فكان لا ينظر إلى سواه!، فتكلَّم «عبد المطلب» وقال مقالةً بليغةً في تهنئة الملك، فزاد إعجاب «سيف» به فسأله:

- من أنت؟

- أنا عبد المطلب بن هاشم.

استبشرَ «سيف» خيرًا وتهلَّلت أساريره وهو يقوم من مكانه ويقول:

- ابن أختِنا اليمانية الخزرجية الباسلَة «سلمى»؟

قال له عبد المطلب: نعم...

نظر «سيف بن ذي يزن» فرحًا واستبشارًا وأكرَم سيف وفادة عبد المطلب وكل من كان معه، و«سلمى أم عبد المطلب» كان لها موقف باسل في حروب الأوس والخزرج وتناقلت العربُ موقفها حتى اشتهرَت... والأوس والخزرج إنما هم من أهل اليمن، ثم انصرف الوفد القرشي من عند «سيف»، لكن «سيف» استدعى «عبد المطلب» وحدَه ليدخُل عليه، وسمعته «إينور» وهو يقول ليثرب:

- إني مفضٍ إلى ابن أختِنا بسرٍّ لا يمكن أن أفضيه إلى رجُل غيره، فليأتوني به وحده.

فأتاه «عبد المطلب» وحده.. و«إينور» تتحرَّق شوقًا لتسمع ماذا يريد أن يقول له، لكن «سيف» أدخل «عبد المطلب» في سرادق خاص وأغلق الباب، و«إينور» تمور في عصبية باحثة عن موضع للدخول، فلم تجِد فوضعت أذنها على الجدار لتسمع ما يقال، فلم يأتِها الكلام واضحًا جدًا...

كان «سيف» يقول لعبد المطلب:

- يا عبد المطلب.. إني سأطلعكَ على طليعة، فاجعلها عندك مطويَّةً حتى يأذن الله، فإن الله بالِغ أمره.. إني أجد في الكتاب المكنون والعلم المخزون الذي اخترناه لأنفسنا وحفظناه دون غيرنا خبرًا عظيمًا فيه شرَف للناس عامة ولرهطِكَ خاصة.

قال «عبد المطلب»:

- فداؤكَ أيها الملك.. وأنت صاحب السر والبر.

قال له «سيف»:

- إذا وُلدَ غلامٌ لديكُم بتهامة، به علامة، بين كتفَيه شامة، كانت له النبوَّة والإمامة، ولكم به الزعامة.

قال له «عبد المطلب»:

- بشَّرَكَ الله أيها الملك.. فزِدني من أمرِه.

قال «سيف»:

- هذا حينه الذي يُولَد فيه.. يبعثه الرحمن وهو يعبُد الرحمن، واحِدًا أحدًا لا تُشاركه أوثان.

قال «عبد المطلب»:

- إن الموحِّدين في أرض تهامة قليل، وأنا مِنهم.. فزِدني أيها المِلك.

قال له «سيف»:

- انظُر في القومِ يا عبد المطلب وأنتَ سيِّد من أسياد العرب.. فإن وجدته فاحفظه واحذَر عليه الناس، واطوِ أمرَه عن كل أحد، فإني لستُ آمَن عليه إن عرفَه الناس أن تدخُل لهم النفاسَة من أن تكون له الرياسة، فيطلبون له الغوائل وينصبُون له الحبائل، ولولا أني أعلَم أن الموت مُجتاحي قبل مبعَثه، لسرتُ بخيلي ورجَلي حتى أنتظره بيثرب دار مملكته ومهاجره، فإني أجد في الكتاب الناطق والعلم السابق أن بيثرب استحكام أمره وأهل نصرَته، ولولا أني أقيه الآفات وأحذر عليه العاهات لأعلنتُ على حداثة سنه أمره، فاذهب يا عبد المطلب، وإذا حال الحَول فائتني وأعلمني إن كنتَ قد وجدتَه، لكن هل تجِد أحدًا أو سمعتَ عن موحد وُلِد له ولد فيه تلك العلامة بين كتفيه؟

قال «عبد المطلب»:

- أيها الملك.. كان، لـ...

ولم تُكمِل «إينور» السماع!. فقد شعرَت بألَم يعتصر كبدها!، ثم تنبَّهَت أن سلاحًا ماضيًا قد انغرزَ فيها من وراء ظهرها فسالَت منها الدماء، ولم تجِد وقتًا لتتألَّم، فإن الذي طعنَها أدار السلاح ليزيد من وطأة القتل، ثم تركها فسقطَت على الأرض مضرجة في دمائها، وعينها تفيض دمعًا... ونظرت بطرفِ عينها وراءها فرأته في عباءته المقيتة، «إزب بن أزيب»، كان ينظُر لها في مقت ويقول، قد أخذَتنا مغالبة الإنس وتركنا الجن يصبأون حتى غرَّهم حلمُنا، انتظري زوجك في أرض الجحيم، فإنه لاحِقٌ لكِ بعد حين، وإني قد ضللتُه فلا أظنه يدري أين أنا.

وانطفأ نور عين «إينور» فغشا عينها الظلام الأسوَد.. ولم ينقص من جمالها شيء، واستلقَت بجوار سرادق «سيف بن ذي يزن»، بعد أن قضَت أكبر قطعة

من عمرها تُنوِّر طريق الموحِّدين، وقد بذلَت حياتها لأجل هذه الغاية وحدها، تذكَّرت «أسعد» وجبل أهنوم، وتذكرت «يزن» الصغير متعهد الكتاب، وتذكَّرت ملاحقتها للكتاب وضربَة «أبرهة» لها بالسيف، ثم تذكَّرت «سيف»... فتبسَّمَت ملامحها، وخرج «سيف» من السرادق ومعه «عبد المطلب» يُحيِّيه ويُبَيِّيه، ولم يدرِ أن الفادة التي دلَّته يومًا لجادة الحق قد فاضَت روحها تحت قدميه.

ثوانٍ وظهرَ «عمرو بن جابر» كأنما برزَ من العدَم.. وتلفَّتَ باحثًا عن «إزب بن أزيب»، ثم وجد «إينور» على الأرض، والسواد المُظلِم قد غزَا عيونها!، فتوقَّف مكانه واتسعت عيناه وارتجف حاجباه، «إينور» يا صاحبة النور، أين النور الذي كان منك يشع، وهوى «عمرو» على ركبتيه!، ثم هوى على مرفقيه وكأن جسده يأبى الانتهاض، وبكى حتى غطى الدمع على ما يرى فلم يعُد يرى إلا لقطات تجيء على خياله تجمعه بإينور!، ويداه ممتدَّة ماسكةً بيدها وهي مُستلقيَة على الأرض جثةٌ لا روح فيها ولا نور.

وحمل «عمرو» «إينور» وانطلقَ بها في ثوانٍ فكان عند جبل أهنوم.. وأقبرها في دارها والعين تسيل بالعبرات والروح تستدمع وتنتحِب، ثم نظر والعين قد ظهر العزم على رسمَتها، وانطلق يبحث عن الخبيث، وليس في الدنيا شيء يُهدئ مرارة الروح إلا رأس الخبيث، وظلَّ ينتقل في الظلمات بين دور السحرة كالنجم يهوي ويرتحل... حتى عثر عليه بعباءته الخسيسة.

كان «إزب» في طور سيناء.. موضِع نشأته وولادته، يطفُو فوق بيت مُتهالك، ثم نزل فيه من فتحة في سقفه، وتبعه «عمرو» بلا تفكير، في داخل البيت كان رجُل مُستَلقٍ في إعياء، له أبشع وجه حظيَ به ابن آدم، مسطحة ملامحه مغمضة عيناه، كان ذلك «سطيح»؛ ساحر العرب الأشهر، متمدِّد تمَدُّد المرض الأخير، وجلس الشيطان عند رأسه، وكأن بينه وبينه حديث، كان الشيطان يُخبره بأمر من أمور السماء، و«سطيح» ذو الوجه السطيح مُغمضًا عينه كأنه صنَم، ثم فجأةً فتح عينيه المغمضتين في جِد لما سمعَ ما قاله الشيطان، وفي نفس الوقت ارتجف «عمرو بن جابر» إذ سمعَ الكلمة، ارتجف حتى نسي كل ما كان بخُلده يدور من ثأر وقصاص... فإن الشيطان كان يُلقِي بكلمة نزلَت من عنان السماء!.

بخبرٍ من أخبار السماء، فخشعت منها الملامح والمسامع، كلمة تنزّلت وتناقلت في الخافقين، أن تهامة اليوم قد أبلجَت وأشرقت، وأبرقَت كائناتها وأومضَت، وتألّقت درة الأرحام فيها وأولدت، نورًا مصطفى من بيت فهر وزيّنَت، ولادته صفحةَ الأرض وألمَعت، بمولده السماء وأنورَت، لمولده الملائك والصور، يا معشر الإنسان وُلدَ النبي المنتظَر، وخبَت عيون كاهن العرب السطيح، وتمتمَ والروح تخرُج من بين أضلعه:

لعَمري لم تعُد الشام بعد اليوم لسطيح يا «إزب»!، ولم تعُد الرافدين لكسرى بعد اليوم رافدين، وكل ما هو آتٍ آت، كل ما هو آتٍ آت، ثم فاضَت روحه.

ماتت «إينور».. ومات معها الحرص على الكِتاب، وانطلق «عمرو بن جابر» يبحث عن النبي وترك الكتاب، وصار الكتاب في براثن القدر، وكنا نحن في تصاريف القدر، فوسوسنا إلى من جاءوا بعد «سيف بن ذي يزن» أن يزيدوا في الكتاب، ثم أوعَزنا إليهم أن يُبدِّلوا فيه مع تبدل الزمان، فبدَّلوا وكتبوا وانتهى إلى ما انتهت إليه الفيدا من قبله.

ومات «سطيح» ذو الوجه السطيح.. وبقي «شق» من بعده، ولعلَّك سائلٌ نفسَك، كيف علمنا بخَبَر رؤيا رآها شخص في نومه!، أنت عند النوم تكون لنا عبدًا، لأن إرادتكَ تهرب منك وروحك تخرُج منك فتكون صافيَة متقدة أمامنا نُوسوِس لها كيف نشاء، بلا حاجة لأن نُقرِّب وجوهنا من صدرك العفِن، فإذا وسوسنا لها بشيء وهي في ذلك الصفاء طافية خارجك، تترجم وسوساتنا هذه لأحلام أنت تحلم بها، فإذا أردناك أن ترى ثعبانًا وسوَسنا لروحك بأمر ثعبان، وتأتيك الصورة في أحلامك كيفما تأتيك!، والذي يفعل هذا ويُوسوِس لروحك عند النوم هو القرين، وإنه ليستمتِع برؤيتك ترجف والعرق ينحدر على جبهتك.

لكن قرين الملك لم يكُن هو الذي تسبَّب له في تلك الرؤيا الخاصة بغزو الحبشة.. فلا علاقة للقرين بهذه الأمور المستقبلية، لكن القرين سمعَ ما كان الملك يُحدِّث به نفسه بصوتٍ عالٍ إذا خلا إلى نفسه، وإن توابع «شق» و«سطيح» من الجن سألَت قرينَ الملك وعلمَت منه أوصاف رؤيا الملك.

ولعلَّكَ سائل نفسَك عن السحر والسحار.. ولست أدري ما هي درجتك في السحر، وربما يكون لك توابع، لكنني سأحدِّثكَ بأمورٍ هي أعلى ما يمكن أن تصل إليه في علم السحر، سأحدثك بالخلاصة؛ ودَعْ عنكَ كل ما يكذِب عليك به توابعك من الجن، أو مَن تعرفه من السحار، فكله هراء!.. الكل يُحب أن يُبالِغ، والكل يحب أن يكذب، يقولون أن السحر يقتُل، يقولون أنهم سيؤذونكَ لو تركتَهم، يقولون كل ما يقولون لك لتظُن أنك تفعَل شيئا مُميتا!، لكن كل هذا هراء فارغ، أما أنا فسأحدثكَ بخلاصة الحق، لأني أريد لك أن تكون.. الم...

لن أخبركَ الآن عما أريده منك.. لكنني سأعلمكَ خلاصة هذا الأمر.

لا يقدِر إنسانٌ أن يصير ساحرًا هكذا من عنديات نفسه، لابد من ساحر أن يُعلِّمه الطريقة، هذا الأمر متوارَث منذ آلاف السنين، منذ زمن النمرود، أو أن تتعلَّم بنفسكَ من كتاب سِحر حقيقي.

طرُق أن تصير ساحرًا كلها تدُور حول أن تصير كافرًا بالله. ولإثبات هذا عليكَ أن تُثبت للشيطان أنك كفَرتَ، حتى يلتفتَ إليك الشيطان أصلًا، ستجِد الساحر الذي يُعلّمك قد وجّهكَ إلى شيء تدنس فيه الهالة المقدسة التي تعتقد أنت أنها دين الله، إنجيلًا كان أو توراةً أو صليبًا أو قرآنًا، هذا يختلِف حسب اختلاف دينكَ الذي تُؤمِن به، إما تُلقي بكتابك المقدس في المزابل، أو تكتُب آياته بدم الحيض، أو بالرجز أو تتبوَّل عليه... لابد أن تفعَل شيئًا مُشينًا.. ليس فقط هذا، بل يجب أن تختلِي بنفسك في خلوَة تزيد عن الشهر، لا تأكل فيها إلا القليل الجاف، هكذا تتعذَّب من أجل الشيطان، هكذا تصوم لأجل الشيطان، هكذا تتقرَّب للشيطان ويلتفِت لك الشيطان.

وإن الشياطين تتمنَّى أن يكفُر إنسان بربِّه ويتقرَّب لها؛ فإنهم إن نالوا هذا، نالوا عند «لوسيفر» منزلة خاصة خاص الخواص، ونالوا عند الله مكانةً عاليةً؛ لأنهم قد أنشأوا إنسيًّا كافرًا، سيضل كثيرًا جدًا من هم حوله، فتجد الشياطين يتجمَّعُون حول الكافر الذي بدأ يمشي طريق السحر وينتظرون منه الخطوَة التالية: الدم...

لابد أن تذبَح شيئًا.. يُعطيك الشيطان أوصافَه، تذبحه تقرُّبًا للشيطان، هنا لابد أن يذكر الكافر اسم شيطانٍ مُعيَّن أو أكثر، يُعرِّفه بأسمائهم الساحر الذي علَّمه السحر، فيتقرَّب بالذبح لذلك الشيطان، هذا نفعله كشياطين لأن الذبح لا يفترض أن يكون إلا لله الذي خلَق، لكنا نجعلكَ تذبحه تقرُّبًا للشيطان وعِبادةً للشيطان، وفي كل خدمةٍ يؤديها لك الشيطان لابد أن تذبَح شيئًا، لذلك ترى السحار يطلبون من الناس بعض الحيوانات الغريبة الأوصاف مقابل أن يخدموهم.

ثم يصير للإنسان الساحر تابعًا أو توابع من الجن.. يخدمونه ويخدمون من يأتِيه، لا يرَاهُم بعينه أبدًا على هيئاتهم الجنية؛ فعين الإنسان لا تستطيع ذلك، إنما يراهم إذا تمثَّلوا بهيئات إنسيَّة، أو يراهم إذا دخَل في حالة الاسترواح؛ وتلك حكاية أخرى من الأسرار العالية، آتيكَ بها في وقتها.

يا سيد العرب ..
سأحدثك بسر..
والله يا سيد العرب إنك
لأنت جده..
حدك هنا..
لقد علمت ما لا يجب أن
تعلمي
إرفع راسك يا سيد العرب ..
ثلج صدرك، و علا أمرك

من تتبع يا (إزب)..
(لوسيفر)؟
هو؟.. لا..
(لوسيفر) ليس سيدي
أنا أتبع (المخلص)
المخلص؟!
(المخلص).. الرب الذي سيكون سيد الجن و الإنس..
العظيم الذي إستوى على الهيكل.. ربنا وعظيمنا.. أنتي... خريستوس

(۵)

ملأت نصیبین

ليلةٌ استتَر منها قمر نصيبين.. وأرعدَت فيها غمائم نصيبين، فخرَج كل من فيها من إنسان ودابة، مُنتشرين من ديارهم شاخصَة أبصارهم إلى السماء، لا يكادون ينظرون إلى شيء غيرها، تعرف في وجوههم صبغَة الكارثة، في كل مرَّة يشق الرعد وجه السماء تنشق معه نياط قلوبهم!، كانت الشهب تستنير وتلمَع ويرمى بها هنا وهناك كأنها زخات لهَب مُنهمرِ!، حتى غلب على ظنهم أن النجوم تزول عن مواضعها، وكلما برقت صفحة الأفق خرُّوا سُجَّدًا مُمرِّغي رؤوسهِم في تراب نصيبين، خاضعين لأصنام نصيبين، الأصنام التي بدَت وكأنها تنظُر بعيونها الحجرية إلى أبواب السماء، ولا شيء إلا الحيرَة يعلو ملامحها.

الزمن في الجاهلية والمكان بنصيبين.. مدينة تتربَّع بأشجارها بين دجلة والفرات، ووابل من الشهُب المتتابعة يلفَح ظهر الأرض منذ شهر كامل، وحالَة من الفزع الحقيقي زلزلَت أفئدة أهل الأرض جميعًا، والعرب خصوصًا لشدة جهلهم، كانوا ينظرون إلى السماء بأعيُن ملؤها الرعب ليعرفوا إن كانت هذه النجوم التي يرمى بها في السماء فتختفي من أماكنها هي نجومهم التي يعرفونها ويهتدُون بها أم أنها نجوم أخرى مجهولة!، ولقد سجدوا كثيرا وذبحوا لأصنامهم كثيرا، وطيَّبُوها كثيرا وزيَّنُوها كثيرًا ولم يتوقف وابِلهم بل زادت حدَّته!

وقام أهل نصيبين يحثُون التراب من على وجوههم من أثر السجود، ونظر بعضهم إلى بعض في يَأس، فسمعوا مُناديًا نازلًا إليهم من جبلِ «إيزلا» شمال نصيبين؛ كان يصيح بكلام لم يتبيَّنُوه جيدًا حتى اقترَب، فلما اقترب عرفوه، إنه القس «جون داليما»، كان يقول لهم:

يا أهل نصيبين.. أعتقوا من استطعتم من عبيدكمِ وسيبوا ما استطعتم من مواشيكم تسرح في الأرض، وافعلوا ذلك لله وحده، لعلَّ الله يرضى.

ولو كانوا في أيامهم العادية ما كانوا سمعوا للقس.. فهم وثنيُّون، لكن شيئًا ما في كلامه جعلَهم لا ينامون من ليلتهم هذه إلا وقد أعتقَ كثير منهم عبيدهم وسيَّبُوا مواشيهم... ومرَّت الليلة والليلتان والثلاثة والشهُب ترمي مستعرة، ونزلت عواميد الرعد من السماء تضرب كل ما يقابلها من نخيل باسقات، فتفجَّرت وتطاير منها السعف والجريد. فتصايحوا بينهم أن الآلهة ستُهلككم من ليلتكم هذه بما سمعتم لذلك القس المخرف، وكان بينهم شَيخ كبير فصرَخ فيهم ألا تَلاوَموا فإن الوقت قد أزف، وأن امضوا بنا إلى ذلك الكاهن في بطن الجبل، فان له رئيًا من الجن، ولقد كان يعلمنا بجنيه من أمور الغيب الكثير... فنظر بعضهم إلى بعضٍ في قلق!، وقال رجلٌ منهم :

- أتقصد «كين» صاحب الجدائل؟

ولَّى الشيخُ وجهَه ناحيَة الجبل وقال :

- نعم، يقولون أن توابعه من الجن تَتْبعه كما تتبع الظلال أندادها، وما نراه إلا يعظم آلهتنا، ولن يكون بها علينا غضب.

كان يقف على حافة الجبل ساهمًا.. يُحدِّق في السماء، تأخُذ الرياح بردائه وكأنها ستُوقعه، رعد وبَرق وشهُب... لكن كل هذا لم يكُن يعنيه، فقد سما بصره فوق أبصار البشر، وسما فهمه كذلك، فلتغضب الأنواء وتهوي النجوم كيفما تشاء، فإنما هي أجرَامٌ تحرقها السماء، لكن ما يعصف بقلبكَ هو أن يغيب من وهبتَ له كل شيء، ناصيتَك وكرامتك وروحك ذاتها، ثم غاب ولم يعُد، ثلاثون يومًا، انقطع صوته، بل صوتهم، هل سئِموا منك؟ هل ملَّ منكَ الذين عبدتَهم؟ وعبدَهم كل ذو حكمَة وسمُو، هل ضجَّ منكَ الجن؟ أم أنهم تواروا من عصف هذه السماء.. لكن مثلهم لا يتواري، أم أنهم هلكُوا؟ وكيف للأرباب أن تهلَك! .

كان واقفا بجسده الهزيل و شعره الذي يربطه في جديلتين .. و لم ير أو يحس بوجود حشد من البشر يقفون وراءه غير بعيد .. ينادون باسمه بصوت عال .. وكأن سمعه قد احتجب .. ثم إن بعضهم اقترب منه بحذر وهو واقف بثبات على الحافة لا يهتز و لا يميل .. مد أحدهم يده ليصل إليه .. لكن الرجل ذو

الجديلتين كان قد رفع يديه إلى جانبيه .. وتخلى عن ثباته و ترك نفسه يهوي منتصبًا من الحافة .. هرع كل من كان واقفًا لينظر من الحافة، قال أحدهم:

- لقد هلكَ «كين».. لقد فتكَ ذو الجدائل بنفسه، لقد قُضيَ علينا.

كان «كين» يهوي كأنه صخرة مُنتصبة.. أول ثوان من سقوطه كان في وعي كامل وكان يائسًا لا مباليًا، ثم تبدَّل حاله، ليس مخافَة الموت فلقد تجاوز هذه المرحلة؛ إنما لأنه صار يُبصِر أمورًا لم يكُن ليبصرها، ويسمع أصواتًا مجلجلة بوضوح شديد، وكأن بصرَه صار أحَدّ من السيف وسمعه، وكأنه يسمع ضحكات شياطين وهو يهوي. جحظَت عيناه، وأصبحت تنظُر في كل مكان اتقاء أصحاب الضحكات، ثم لاحظ أن سرعة وقوعه ليسَت هي السرعة الطبيعية لأي شيء يهوي، بل شعر أنه كالريشة التي تتهادى نازلةً ببُطء إلى الهاوية، ثم فطنَ إلى الحقيقة، إنه لم يعُد في جسده، بل إن جسده لازال يهوي، لكنه يسمع ويُبصِر بوضوح لم يعهَده، ثم سمع صوت جسده يضرب أرض الهاوية البعيدة بقوة مُحدثًا بعض الضجيج، إن سمعَه الذي صار حادًا جعله يسمع ضجيجًا عاليًا جدًا لوقوع جسده على أرض ليست بقريبة .

لحظات وشعر بشيء يتخطَّفه وهو يهوي.. بل أشياء؛ أشياء لها كيان ووجوه وعيون، تدور حوله، كانت تهزَأ به وتشمَت، وإذ به فجأةً يفهم كل شيء، فاتَّسعَت عينا روحه هذه التي تهوي، لقد عاش حياته يتقرَّب إليهم، علَّموه كل ما يعقله وما لا يعقله البشر، كان يراهم كظلال ويسمع أصواتهم إذا حدَّثوه، كانوا يطلبون منه فيفعل ويطلب فيفعلون، وكانوا يأتونه بالغيب... وضعَ رأسَه في التراب إرضاءً لهم، صار طاغوتًا يفعل كل ما تستشنعه الفطرة، دنَّسَ كل شيء يُقدِّسه أهل الأديان من أجلهم، آمنَ بهم وتولاهم وهابهم، وبعد هذا ها هم يلتفُّونَ حولَه ويهزؤون، لماذا يفعلون هذا!، لم يجد الوقت لينظُر لهم مليًا لأن بصرَه قد صار فجأةً يتحرَّك رغمًا عنه، وفي ثانيَة واحدة شخصَ البصر إلى الأفق، وكأن شللًا قد أصاب روحه وأجبره على النَظَر إلى تلك الناحية، وصار يرى الأمور التي يراها من حضَرَه الموت، ولم يرَ «كين» أمورًا جيدة أبدًا.

- يا «كين».. كيف تثِق في قَول من تكلَّم عن الله ولم يرَ الله!، كيف تثِق يا «كين» في شرائع وضعَها بشَر!، ألم ترَ إلى حياتهم كيف دمَّرتها شرائعهم!، انظُر إلى أعلاك يا «كين»، إن الله ليس هذا الذي يُحدِّثونكَ عنه .

كان واقفًا عند ذلك الدير المسيحي.. يُلقي فيه كل ما استقذر، ويرمي دماء الكلاب على كل رمزٍ نصب فيه.

- أما نحن يا «كين» ففي علّيين.. نراكُم وأقذاركم ولا ترَوننا أبدًا، وإنا جاعلوكَ تسمُو إلينا، وكلما سموتَ رأيت أكثر!، سنجعلكَ مسموعا في قومك بما نُخبرك من الغيب .

كان يتذكَّر أقوالهم.. ويتذكَّر أفعالَه، لم يكن يُصدِّقهم، لكنهم كانوا يُلبُّون شهواته، ويُشبعون فضولَه، لو كانوا في علّيين ما تحيَّنُوا غواية أمثاله، وإن أصحاب عليين اليوم من الملائكة يمسكون بجنبات روحه المتَّسخة ويصعدون بها إلى أعلى، لا يدري أين يذهبون بها، ظلُّوا به يصعدون... حتى إذا بلغ الغمام رأى ما أثار استغراب روحه!، وأي شيء يُمكن أن يُثير استغرابه بعد أن كُشِف عن بصره غطاءه .

أجساد موتى تتساقط من السماء.. تشتعل منها رؤوسها، كثيرة مُتفرِّقة في الأنحاء من حوله تهوي إلى الأرض، بينما هو صاعد وسطها، ثم أتته صرخات من جهات كثير،، يعلُو صوتها كلما يصعد، ووسط الأجساد المحترقة رآهم؛ وجوه مفزوعة تهبِط هاربةً إلى أسفل ما تستطيع تتبعها عواميد من نار، كانوا يهربون ويصرخون!، وكان حماله يصعدون به بسرعة ثابتة وسط كل هذا وكأنه لا يعنيهم، والآن تذكَّر الشيء الذي كان يشغَل باله شهرًا كاملًا قبل أن يموت، وابِل الشهُب الذي استعمَر السماء، نظر نظرةً بعيون مُتَّسعَة، لم يفهم من الذي يهربون وتشتعل رؤوسهم!، ثم نظر نظرةً بعيون مُدقِّقة في الوجوه التي تهرب من حوله، إنها أجساد كاملة لها أياد وأرجُل وعيون وملامح... أجساد سريعة جدًا لكن الشهب أسرع منها، أجساد يبدو أنهم ليسوا بخير، وأنه قد ألمَّت بهم مذبحة، وجوه رأى بعضًا منها قبل الموت تهزَأ به، لقد عرف من هؤ...

فجأةً تركه الملائكة الذين كانوا يحملونه.. تركوه بعد أن بلغوا به مبلغًا بعيدًا في الصعود!، تركوه يهوي وحده، ثم انصرفوا عنه، ولم تكُن سرعة هبوطه كسرعة صعوده معهم، بل كانت أبطأ!، وأصبح يلحَظ مشهد الملحمة النارية من حوله وقد ظن أنه صار جزءًا منها، وأن شهابًا سيقَع عليه بعد حين ويثقُب روحَه المنتنة التي يشم رائحتها منذ أن أخرجوها من جسده، كان ينظُر حوله وقد اتضح له شيء من الأمر: إن هؤلاء شياطين، ويبدو أنهم لما رأوا من أمر الشهب المُنهمِرة علوًا بأجسادهم لينظروا الأمر، ويبدو أنهم قد أحيط بهم!

هوى «كين» حتى مرَّ بنفَر قد استمسكوا ببعضهم مُرتعبين.. يهبطون بحذَر وسط أجواء تبدُو هادئة لا نيران فيها، ولما تراءى لهم «كين» نظروا إليه، ونظرَ إليهم، فعرفهم وعرفوه، هم الجن الذين كانوا يتراءون له في حياته كظلال، لكن كياناتهم كانت مطبوعَة في ذهنه!، فكان يُفرِّق بين ظِل كل واحد منهم، والآن تراءوا له في مماته، رأى ملامحهم وأجسامهم وأشكالهم، ثم برزَ شهابٌ من الفراغ كأنه انبثقَ وانطلق إلى اجتماعهم فتفرَّقُوا عنه ومرَّ بينهم وظلوا يهبطون بحذَر وينظرون إلى «كين» نظرات خاويَة بين الفينة والأخرى، أفلهذا غبتُم أيها المردة، أولم تكونوا من قبل تتكبرون في عيوننا حتى استصغرنا إلى جانبكم كل شيء!، والآن قد حُوصرتُم كأنكم جرذان!، وظلَّ «كين» يهبِط ويهبِط حتى نزلَت روحه إلى موضع جسده من الأرض .

في أهرام مُمرَّدَة يعلُوها البَحر من كل جانب.. كأن من مرَّدها لا تسيره قوانين البناء، اجتمعت أنفار من عشيرة الرجل حول الرجل، ينظرون إلى الرجل صامتين كأنهم قبور!، كان سابحًا في خواطره رافعًا بصرَه إلى السماء، لم يكن يُفكِّر بقدر ما كان يتذكر، يُضيِّق عينيه ويتذكر، عشيرته يُحرقون ويتساقطون اليوم من السماء كأنهم الذباب المصروع، يُذكِّره هذا بمشاهد ومذابح شتى في الماضي السحيق... وكلما أتته الذكرى نبذها خارجَه واشتعل فكره في هذه الطامَّة التي ألمَّت به، كان من حوله ينظرون إليه في رهبة!، فلم يُر

غاضبًا منذ عهد طويل، كان دائمًا هادئًا ساخرًا لاسعًا كالأفعى، لكن مشاعره صارَت الآن مكشوفة ولا تحمل إلا الغضب، كان يرتدي عباءة ملوّنة كأن فيها من كل لون وجد على الأرض، طويلًا كان جميل الكيان، مخيف الملامح حاد العيون، تحمل عينه نظرة كالشفرة!، عينٌ رأَت كل شيء، رأت تقلُّب السماء في العصور وحفظَت نجومها وشهبها، عين كانت هناك تنظُر عند خلق الإنسان، وقبل ذلك وبعد ذلك... عينٌ شديدة الخطَر، يولد الإنس والجن ويهرمون ويموتون وتظل هي باقيَة تنظُر وترقب؛ عينُ شيطانٍ رجيم .

له في كل لغةٍ اسم، وفي كل حضارةٍ رسم.. هو ست عند آل فرعون، وأهريمان عند أصحاب زرادشت، وهو لوسيفر، أمير النور، بين عينيه كِبر وتعالٍ، لم يرَه أحد ولكن الكل يعلَم أنه موجود، وقد وقف اليوم أمام صرحه وعرشه، ينظر في النجوم التي تهوي، وإلى عشيرَته التي تفنى، ثم التفتَ إلى خاصته يريد أن يقول شيئًا غاضبًا!، لكن بوابة كانت وراءهم انفتحَت وألقت ظلالا على الأرضية تشي بما خلفها، فاستدار الكل إليها، فوجدوا عندها طوابير من الجن، يدخلون منها يمشون الهوينى كأنهم فيالِق!، تعرف إذا رأيتهم مدى ضآلَة اختلافات بني الإنسان، إنهم هنا فصائل وطوائِف، ومعاشِر وفئات... نظر إليهم أمير النور بعيون ابيضَّت من الغل، وقال جُملَة واحدة :

- إن في الأرض حدثًا قد وقَع، تلبَّدَت به الغيوم وترامت له الشهب!

خيَّم الصمتُ على الألسِنة والأفهام... فقال:

- وإنكم ستضربونَ مشارِق الأرض ومغاربها، ولن تتركوا فجًا ولا بلدَة ولا حاضرة إلا ونزلتُم فيها، حتى تأتونِ باليقين.

وخرجوا من عنده يتفرَّقون في الأرض بدوابهم ورواحلهم، يبحثون في الأرض عما أغاظ السماء، كانوا يبحثون عن خيطٍ واحد يدلّهم إلى الصواب، كانت معاشر الجن تتناقل بينها أن السماء لا ترمي هكذا إلا لأحد أمرَين؛ إما لعذابٍ يُنزله الله على أهل الأرض، أو لنبي يبعَثه ويُرسِله إليهم... وبرغم أن السماء قد هدأت بعد شهر كامل وعادَت إلى طبيعتها الوديعة إلا أنهم لم تكن يعنيهم هدوءها، كان ما يعنيهم هو سبب ثورتها في ذلك الشهر، ولقد دخلوا إلى كل مدينة وقرية وباديَة ونجع على ظهر الأرض، وبين هذه الأفواج الجنية كلها، فوج واحد هو الذي عرف الحقيقة و أتى بالخبر اليقين، فوج كانوا من أعالي وأشراف جن نصيبين، من تلك الطائفة التي يُعرفون بين باقي الجن باسم الملائك، وكان عددهم سبعة، وكانت طوائف من الإنس في تلك البلاد تعبُدهم وتُقدِّسهم وتتقرَّب لهم، غير عالمين بأن ملائك نصيبين قد غابوا وساحوا في الأرض، وأنهم نزلوا من نصيبين يبحثون في بلاد ما بين النهرين وفي الشام والجزيرة العربية، وأنهم دخلوا كل القرى، وأن حكايتهم قد سطَّرتها مكاتيب الجن وحفظَتها القرون .

ارتفعَت عقائرهم بالغناء.. وكان للهيب نيرانهم صوت، وكانوا يدُورون حولها كالمحمومين، ثم حدثت خلخلَة في تناغم حركتهم وتبين أن بعضًا منهم قد انشغلوا بعمل شيء ما في منتصف الدائرة، ثم خرج بعضهم من الدائرة وهم يسحبون عِجلًا أسوَد وقد غطُّوه برداء أحمر فاخر ورشُّوه بماء الورد، ثم اندفعت بعض الأيادي تُثبت رقبَة العجل وأيادٍ أخرى تذبَحه، وأياد ترفع رأسه وتلوح به إلى ظُلمة الوادي الذي نزلوا فيه في نصيبين، لقد ذبحوه تقرُّبًا للملائك، يا سادة نصيبين كفُّوا عنا شروركم وشرور هذا العالم، نعوذ بكم من سوء ما تُقدِّره لنا الدنيا .

كانوا ينظرون إلى الوادي ولا يرون شيئًا! لا يسمعون إلا صوت العزيف، ويقولون أنه صوت الجن، ينظرون إلى الوادي ويعرفون أن الجن يسكنون فيه،

ولا يدرون كيف هي هذه السكنى، هل لهم بيوت أم قصور أم أنهم يسكنون بين ثنايا التجاويف، يعبدون الجن مخافةً منهم لا حُبًا، يذبحون لهم في كل عام مرة، في ليلة ينطلقون فيها إلى أكبر واد من أوديَتهم، ويختارون أوفَر عجولهم لحمًا ويذبحونه ولا يأكلونه بل يرمون جثَّته إلى ظُلمة الوادي، حتى ترضى عنهم الملائك، وإن الملائك عادةً تشهد هذه الليلة، وينظرون إلى هذا النجس الفكري الإنساني ويتعاظمون في أنفسهم ويتكبّرون.

كان ثلاثة من ملائك نصيبين حاضرين في تلك الليلة بهيئاتهم الشيطانية الحقيقية التي لا تراها أعين الإنس.. وليست الهيئات الجنية الشيطانية مُخيفَة في حقيقتها بل هي مثل جميع خلق الله المرئي، تجِد بعضهم أكثر مهابَةً من بعض، وبعضهم أكثر غرابَةً من بعض، وبرغم أن أعيُن البشر لا تراهم إلا أنهم مرئيين تمامًا بالنسبة لبعض الحيوانات والطيور، ولقد كانت أعيُن العجل تراهم قبل أن يذبح، كان الثلاثة واقفين في الهواء بثبات كأنهم الطير الخافق، وإن كان لحركتهم في الهواء إذا مضوا فيه صوت مُميَّز كأنه العصف أو النسيم لا تسمعه آذان البشر.

كان أحدهم عظيم الجسم، بُنّي البشرَة أحمر الشعر طويله، كَثّ اللحيَة الحمراء، له ملامح حفرَ فيها الزمان كثيرا من الحفر مما يدل على عُمرٍ طويل وحكمة، كان اسمه «الأرقم»، ويبدو أعلاهم شأنًا، نظر إلى الراقصين بشيءٍ من السُخرية الراضية وقال لرفيقيه:

- هل تريان ما أرى؟ إن الكائنات البشرية أكثر غباءً من العجول التي يذبحونها.

ردَّ عليه الذي على يمينه وكان اسمه «إنيان» وكان شابًا وسيم الملامح ذا شعر أشقَر مرتفع ورداء بهي فتَّان... قال بصوتٍ هادئ:

- إن هذه طوائف جاهليّة بدويّة، لرُبّما كان أصحاب الحضارة أكثر حظا من العقل عن هؤلاء.

قال الأرقم:

- ما رأيت أصحاب الحضارة إلا يفعلون كما يفعل أصحاب الجاهلية، بل إنهم يزيدون ويبنُون الصروح لمن يتقرَّبون لهم، ألم ترَ من هؤلاء يا «طيفون»؟

نظرا إلى صاحبهما الثالث «طيفون» طلبًا لرأيه، وبرغم أن هيئة «طيفون» من بينهم كانت هي المرعبة بكيانه الذي يحيطه اللهب الأزرق وعينيه اللتان تبدوان كحُفرتين سوادوتين، إلا أن «طيفون» كان ينظُر إلى السماء برُعبٍ حقيقي ارتسَم في شكل عينيه، فنظرا إلى ما ينظُر، فإذا شُهُب تتساقط من كل مكان، كانت هي الليلة التي غزَت فيها الشهب سماء الأرض، وانتقل الرعب إلى نفوس ثلاثتهم، لأنه ومن بين الشهب المتساقطة، برزت أجساد من الجن تسقط جريحة وجثث من الجن تسقط ميتة! .

ولاحظ الإنس اضطراب السماء بعد أن ذبحوا عجلهم فهاجوا وماجوا وخروا على ذقونهم وظلنوا أن الجن قد غضب.. وأكثروا في توسّلهم وتقرّبهم، فانشغل الإنس بالجن، وانشغل الجن بالسماء، حتى حدث ما حوَّلَ انتباههم عن السماء وجعلهم ينظرون ناحيَة البشَر.

حدث أن كل الطيور في المنطقة قد طارت فجأة بعيدًا عن البشَر المجتمعين حول النار!، وهربت أحصنتهم وأنعامهم بعيدًا عنهم وغادرهم كل حيوان يدب على الأرض كان قريبًا منهم، ثم انطفأت نارهم، ووقعت قلوبهم إلى أسفلهم، ونظر إليهم الثلاثة من الجن في استغراب، حتى تبيَّنُوا الأمر، فصاح «إنيان»:

- تبَّت أيادينا.. أليس هذا...

قاطعَه «الأرقم» مُجيبًا:

- ميتاترون.

كان البشَر قد بدأوا يجرُون هنا وهناك هاربين من المجهول الذي هربَت منه حيواناتهم.. ومن بين أجسادهم التي تتفرّق هنا وهناك ظهرَت ثلاثة كيانات شيطانية تمشي ببطء، يتوسطهم أعلاهم منزلةً، ويبدو أنه هو سبب هروب الحيوانات لما أحسَّت به، «ميتاترون»، شيطانٌ مارد مُنبعِث من عند «لوسيفر»، فِضّي الجسَد ذهبِيّ الشعر كبير الجناحين، يرافقه ماردَين؛ «بيليعال»و«سيدوك»، والمردَة أشد الجن قوة، يليهم العفاريت ثم الملائك ثم الأرواح، وفي جبال نصيبين في تلك الليلة، التقى ثلاثةٌ من المردَة مع ثلاثة من الملائك، وبلغ المردة رسالات «لوسيفر».. أن انزِلوا من نصيبين إلى جزيرة العرب، فانظروا في أحوال ساكنيها، إن كان قد نزلَ بها عذاب أو خرجَ فيها نبي، وانا معكم نازلون.

قال «سيدوك» وكان شيطانًا أسودًا مُخيفًا كالِحًا له شعر أبيض طويل:

- لكن بلغَنا أن في نصيبين جنّيةً يقال لها «ماسا».. ولقد سمعنا عنها سماعات ونحن نازلون إليكُم فيها من العجب ما جعلنا نعمل النظر في الاستعانة بها قبل أن ننزل.

قال له«إنيان»:

- هي في جبال كاشياري شمال نصيبين عند نَهر يُسمّيه الأهالي باسمها؛ نهر ماسا.

قال «سيدوك» بحزم :

- ستكون هي سابعتنا .

Mostafa Mortaja

«ماسا» جنية من طائفة الأرواح، فاتنة الملامح، كأن حسنها يضيء في الليل، تملك شعرًا أسودًا طويلًا ينسدل خلفها كسلاسل الحرير، وصفها الأهالي بأوصاف شتى وأنها إذا ظهرت لأحدهم فأن هذا يعني أن أحدًا من أهله سيموت، وفي هذا حمق وسخف شديد... إن أسماء الجن والشياطين وحكاياتهم عادةً ما تتسرَّب إلى الناس من أبناء الكهنة وخاصتهم، أو من الكهنة أنفسهم، وعادة ما يزيدون في القصص لمسات بشرية ركيكة، «ماسا» لا تظهر لأحد، لكن فيها موهبة جعلت اسمها يشتهر بين الجن في نصيبين وما حولها، كان يمكنها أن ترى لمحات من ماضي مكان إذا مرَّت بذلك المكان، تأتيها اللمحات بلا طلب منها، تأتيها كنوبَة شديدة تمسك فيها رأسها وتغمض عينها وترى مشاهد مما حدث كما حدث.

كانت واقفة هناك عند نهر اسمه مكدونيوس، والشعر كالليل مُنسدِلًا وراءها، تأتيها رؤى من ماض سحيق، أيام كانت طفلة تقف نفس الوقفة على نفس النهر، ورجل غزا الشيبُ رأسَه يقف بجوارها ويمسك بيدها بعناية، كانت تنظُر إلى فتيَة يلعبون عند النهر يرمون الماء العذب على بعضهم البعض... قالت له يا أبت ما بال هؤلاء الصبية لا يروننا؟ قال: لأنهم بشَر على عينهم غطاء يا بنيتي.. قالت يا أبت ومن وضع عليها الغطاء؟ قال: الله.. قالت: وما الله؟ قال: الله الذي خلقَنا من نارٍ سامية وخلق هؤلاء من طين مهين.. قالت إذن أين الله؟ قال: الله في السماء.

كان الفتية قد أتى آباؤهم ليُخرجوهم من النهر.. نظرَت إليهم وتأمَّلت ثم قالت، وهل هؤلاء يعرفون الله؟ قال: كل ما يعرفونه عن الله كذب يخدعهم بها أنبياؤهم.. قالت ومن أنبياؤهم؟ قال هم قوم منهم يكون بهم لوثة في عقولهم يتحدَّثون عن الله ولم يروه.. قالت: وهل رأينا نحن الله؟ قال: إن الله لم يرَه من الجن والإنس إلا واحد، هو الخالد المخلَّد أمير النور «لوسيفر»، هو وحده الخالد وكل من عداه يفنى، فنحن نفنى والبشَر يفنون، هو وحده عرف الله وحدَّثه ورَآه، فهو وحده الذي حديثه صدق عن الله، وكل من عداه يكذبون ويهرفون بما لا يعرفون، من ذا الذي في عقله جنَّة ليُصدِّق رجلًا فانيًا يتحدَّث عن الله، إنما نُصدِّق من هو خالد لا يموت، خلق في أول الزمان وبقي وتعاقبت عليه الأجيال ورأى كل شيء رأيَ العين، إنما نحن نُصدِّق «لوسيفر».

كانت واقفةً هناك عند نهر مكدونيوس وستة شياطين يقتربون منها في عزم.. وفي وجود شياطين مثل «ميتاترون» و«بيليعال» كان الحديث مع الجميلة «ماسا» مُتخذًا صفة الإجبار أكثر من الإقناع، ولقد اتحدت معهم وهي كارهَة لهم وما يعزمون، ونزل السبعة من جبال كاشياري إلى الجنوب، كانوا ينزلون وسط القرى بهيئاتٍ بشريَّة كمسافرين، يقيمون في كل بلدة أربعين يومًا، ينزلون على الناس ضِيوفًا ويسألونهم، يحضرون أسواقهم وأفراحهم، ولقد كان صبرهم جميلا، لأن مهمَّتهم تبغي أن يتشكلوا في الهيئة البشرية فترات طويلة من الزمن.. والجن إذا تشكل في أي هيئة مادية فإنه يأخُذ صفات هذه الهيئة المادية ويفقِد كل خواصه الجنية، والهيئة الجنية لا تصلُح لسؤال الناسِ لأنها مخفية عنَ عيون البشر وعن أسماعهم، لا تصلح إلا للاستماع والتجسُّس... ولقد كانوا يستخدمونها إذا أرغمتهم الأحوال.

سنواتٌ انقضَت شهورها في الترحال.. ولم يُصبهم نصَب ولا كلَل، كانوا ينامون كما ينام الجن حتى تغرب الشمس، فإذا غَربت خرجوا، فإذا طلعت رجعوا إلى مساكنهم!، كان أول نزولهم إلى الأناضول، موئل الروم، وكان هرقل عظيمها، ثلاثٌ من السنوات انصرمَت وهم يدورون في بلاد الروم يعيشون وسط المُزارعين في أكواخهم، وحول الأغنياء في قصورهم، خابت مساعيهم، ترميهم قرية إلى قرية، لم يمروا بقرية إلا وهي في أحسن حال، ليس فيها خسف أو مرض أو لعنة، أو نبي.

عقائد الناس مسيحية كلها، لا أحد يتحدث إلا عن الفرس وخطر الفرس الذين سيقتحمون البلاد ويذيقونهم صنوف الويل، ثم نزلوا إلى الشام ثم إلى العراق، وكانت كلها داخل امبراطِورية الروم المتباعدة، وكان حظهم في شامها وعراقها أسوأ مما كان، ومرَّ الحَول ودخل الفرس على الروم وأذاقوا الروم صنوف الويل وغلبوهم شر غلبَة، واستمر الفرس يزحفون على أرض الروم يأكلون الأراضي حتى مرَّت من الشهور سبعة، وهبط السبعة من الروم إلى فارس، وبقوا يدورون ويجولون فيها، حتى كاد حولهم أن يرتخي، وكاد جهدهم أن ينضب.

لكن جنيًّا واحدًا كان أكثر حظًا.. في مكانٍ آخر من أرض هذه الدنيا، جني واحد كان يبحث وحده، ما هو من الملائك ومَا هو من الأجناد، أصفر الشعر لامعَه طويل الأهداب وسيم الملامح، رمَته الخطوب من بلاد اليمن إلى تهامة،

جني اسمه «عمرو بن جابر»، وقف ينظُر إلى مرامي النار في السماء والجن يسقطون منها حوله كالفراش المحترق، ومشى وسط اللهب المنهمر ناظرًا إلى قبة السماء يساءل نفسه، الحيرة أحارت قلبه، فتصاعد طائرًا بين النيران ينظر هنا وهناك إلى كارثة أردَت ألوفًا من بني الشيطان، وتحادث الجن أن في الأرض أفواج من الجند والملائك، نزلوا ليتبيَّنوا ويبحثوا، فإن لهذا الأمر شأن، ومجامع حكماء الجن يجودون الرأي الذي يقول أنه نبي من البشر خرج ليتحدَّث عن الله، ورب السماء يغضب إذا تحدث البشري المحدود عن الله، فليس في الأرض نبي يتكلم عن الله إلا لوسيفر الجني القديم الأبدي الذي لا يموت، أما البشر فبئس الكائنات هم، أما «عمرو» فانتفضَ قلبه لما سمع تفسيرهم، وأسقط منه كل الكلام إلا كلمة واحدة، (نبي)، لقد آن لقلبكَ المحزونِ يا «عمرو» أن يبتهِج، حتى هؤلاء قد عرفوا خروج النبي الأحمد، وكل ما عليكَ فعله هو أن تصل إليه قبلهم، ولقد عرفتَ البقعة التي سيخرج فيها، (تهامة)، أما هؤلاء الأجناد فلا يعرفون بعد.

ملاك نصيبين

أوقدَت مشاعل عيد الكافرين ورفعت بها المعاصم والأيادي للسماء.. وأنزلت السماء من فوقهم أستارًا للغروب مخضبة بحمرة الشفق، واجتمع الأصاغر والأكابر عند كعبة الرب لينظروا إلى الرب، في أحسن ثيابهم وعطورهم، فإن الرب الجليل صاحب القداح خارج عليهم اليوم من أعلى الكعبة، وتعلقت الأنظار وهفت القلوب وخضعت الوجوه، ثم ارتفعت المشاعل فجأة كلها وأشرف عليهم الرب صاعدًا من جوف الكعبة، أحمر مهيب العارضين ذو لحية عليه وتاج، فتعاظم قدره في القلوب من حُسنه ودقة تكوينه، وعلت أصوات الكافرين تقول لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريكَ لك لبيك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك... ثم هتفوا: اعل هُبَل، اعل هبل، اعل هبل.. وقالوها بترنيم يوحي بالعظمَة.

ومشى وسطهم والحزن في صدره أثقال.. ليس يدري أي الحُزنين أبكى، زوجة قد فقدَها، أم صنم من عقيق أحمر قد تصدَّر فوق سطح الكعبة، وكانت لثامة قد لفَّها على وجهه تخفي كل هذا وهو يمشي بين المشاعل متجسدًا في

هيئة بني آدم، لم تنجح اللثامة في إخفاء شُقْرَة شعره وحاجبيه، «عمرو بن جابر»، الغريب الوحيد؛ غربَة الأهل وغربة الدين، وليس يعنيه في هذا البلد إلا أن فيه فتيَة من أولاد «غالب بن فهر بن مالك»، عشرون سنة قضاها يتبعهم في تهامة من أعلاها إلى أسفلها، من عند ما سال من الحرتين إلى أسياف البحر حتى أطراف اليمن، حتى أتى إلى آخر بقعة في تهامة، (مكة)، ولقد تناثر فيها كثير من أولاد غالب، كثير جدا، فبني أمية كلهم من أولاد غالب، وبني عدي، وبني هاشم، وبنو تيم، وبنو زهرة، وبني مخزوم، وأغلب بطون قريش، فأصبح يجول فيهم ويطوف، ينظر أحوالهم وما يعبدون وما يقومون عليه وما يتأمّلون، فإن «أحمد» من بين أصلابهم قد طلع نجمه وأقمر، وتخطو أقدامه على هذه الأرض اليوم، ولو أن جبال تهامة كلها قد أثقلت شوقًا، ما بلغ ذلك شيء مما في قلب «عمرو» إلى رؤيَته.

الاسم «أحمد» وليست العرب تسمي أحمد، ولا في أي بطن من بطون تهامة واليمن ..فليس هذا اسمه، إنما هي صفَته وكنيته، والأحمد هو من تحلّى بأفضل الصفات فأكثر الناسُ من حَمده، فلم يكن «عمرو بن جابر» ينظر إلى أسماء الرجال، بل كان ينظر إلى الأكرمين منهم، وليس أي كريم من الأكرمين، بل إلى نبي زكي، بهي الصورة والكلام، لا يعبُد صنمًا ولا يتقرَّب له، بل يعبُد الرحمن حتى قبل أن يصطفيه الرحمن بالنبوة، عشرون سَنة يَنزل في تهامة ويرتَحِل، يبحث في القائمين والقاعدين، لعله يراه، فلم يرَ إلا ما يظلم الوجه، نجوم وأنواء وأصنام وكواكب وجن يعبدون في الأودية... حتى أتى ذلك العيد في مكة بعد عشرين سنة، وتحت رأس هبل، سمع بأذنه الجنية حديثًا لم يسمعه من بني الإنسان منذ أمد سحِيق!، حتى وقفَ مبهوتًا بين المشاعل ينظر بعينه إلى مصدر الحديث.

كانوا أربعة، والنور من عقولهم يغلو على ضوء المشاعل، ودار بينهم حوار ألمعي وسط كل هذا الجهل...

- أيا قومًا قد تصاغرَت عقولهم، أمَّن خلق السماوات والأرض وخلقكم، أفتدَعُونه وتعبدون ما خلقتُم بأيديكم؟
- أما علمتَ أن القوم لا ينظُرون إلى حجارَة الصنم في عبادتهم، إنما يكون الحجر رمزًا لإله قد تعالى في السماء واستفحل.
- إنما هي أصنامٌ تُكنَّى بأسماء آلهة تضارع الله في السماء .

- ومن خلقَ هذه الآلهة؟ أليس هو الله؟ أيخلُقها بيَده ثم تُضارعه وتغالبه؟ أفلا يعقلون؟

- ليس الله الذي خلقها في ناموسهم؛ إنما هي آلهة ليسَت مخلوقات، تساوي الله وتُغالبه.

- هي لا تغالب الله بل تشاركه؛ فالله تزوّج العُزى فصارَت صاحبَة الله وملكة السماء، وأنجبا بنات الله اللات ومناة، فمن تقرَّب لأي منهم فقد تقرَّب لله.

- ولله بناتٌ أخرَيات، فهو قد تزوَّج سروات الجن -أفضل نساء الجن- وأنجب الملائكة فهُنَّ بنات الله أيضًا، فمن عبد الجن والملائكة فقد تقرَّب لله .

- أفشهدَ أولاء على ربهم أم كانت لهم مقاعد في السماء؟ والله إن قومَنا قد زاغوا وتاهوا!، وإنا والله إن بقينا هاهُنا إنا لضالون.

- فإنا خارجون منها نلتمِس لأنفسنا الدِين في البلاد.

وتوافقوا عليه.. فأتاهم صوتٌ من ورائهم يقول في نبرَة هادئة: فإن كنتم خارجين فإني معكم خارج... نظروا وراءهم فرأوا رجلًا طويلًا مُلثمًا أشقر الشعر واقفًا في ثبات... قالوا له :مَن الرجل؟ قال لهم وهو يفك لثامته: عمرو بن جابر، من أهل سبأ.

قالوا: وما خبرك يا بن جابر؟ قال: جئتُ من عند قوم يعبدون ثورًا لامعًا يسمونه المقه!، وإني لم أعبُده يومًا معهم، وإني قد هدَتني بَصيرَتي أن آتي إلى دار الكعبة ألتمِس الدين الحق.

نظر بعضُهم إلى بعض في تهازؤ!، فابتسمَ «عمرو بن جابر» وقال: فلما أتيتُها لم أكد أراها مما صنع قومُكم بها؛ وجدتُها قائمة متوارية في كسوَتها وحولِها ثلاثمائة صنَم أو يزيدون!، ووجدت ثور المقه منصوبًا بينهم ها هناك بقرنَيه ينظر لي في شماتة!..

تبسَّم بعضهم ونظروا إلى ثور منصوب في زاوية قريبة وحوله أصنام وأوثان لا حدَّ لكثرتها.. قال «عمرو»:

- فإن كنتم خارجين لهذا الأمر فأخرجوني معكم وسأكون لكم عونًا.

أضاءت له وجوههم وقالوا: فإن كنتَ كما تقول فوالله إنا لا نردكَ أبدًا... ونظروا له بعيونٍ عرف فيها كثيرًا من الذكاء، وكثيرًا من الحيرة، كان الأربعة من أولاد غالب بن فهر، يافعون وضّاءون من خيرة قومهم، ما عبدوا في حياتهم صنمًا ولا تقرّبوا له.. ملأ بن جابر عينَه من ملامحهم، واستبشرت نفسه واستضاءت بضيائهم، والله إن أحدهم لهو النبي الزكي، والله إن أحدهم لهو البشير المنتظر، وإن الرحمن ليصطفيه من بينهم اصطفاء، وإن ذلك اليوم لقريب، وانطلق معهم إلى حيثما انطلقوا.

لأول مرة منذ سبع دورات عجاف في بلاد فارس.. لمَعت عيون الجن الملائك، لصدفة وجدوها هناك اجتالتهم عن طريقهم الذي كانوا قد هيأوه لأنفسهم إلى طريق آخر، كان قد أتى من الليل آخره، في بلدة تدعى (رام هرمز) في قلب فارس، وقد افترق الجن إلى سبعة طرق؛ واحدة منهم هي طريق قصر الملك، وفيها كان يسعى «إنيان» الجني ذو الشعر الأصفر، طائرًا كان يلف حول القصر يتقصّى الخبر، وطالت عليه الساعات ولم يجد من الخبر شيء!، حتى إذا أتى آخر الليل توقف لينظر إلى باب القصر وقد انفتح ببطء حذر وخرج منه فتى مُلثم عرفه «إنيان» فور أن رآه؛ إنه ابن ملك البلدة، وإن خروجَه من القصر ملثما هكذا لهو شيء يثير طوفانًا من الأسئلة، كان الملثم يمشي بسرعة متوسطة وينظر ناحيَة القصر كل حين، وقد مشى وراءه الجني «إنيان»، كان يفكر في الـ..

- أما إنكَ إذا أردتَ أن تتخفّى، فلا تتخفى مني.

انخلَع قلب «إنيان» وظنَّ أن الصيحة عليه!، فنظر خلفه في رُعب ليجد فتى مراهقًا يبدو غاضبًا وهو يُوجّه حديثه إلى الملثم، فالتفت له الملثم بملامحَ الذي يستعد لتبرير شيء ما، وقال:

- يا سلمان أنت صغير السن ولو أخبرتُكَ عما أفعله آخر الليل ستخبر أبي، وإذا أخبرتَ أبي سيكون غضبه هلاكًا .

قال «سلمان»:

- إني أمينٌ على سرّكَ يا صاحبي، فأخبرني عما تفعَل، فإني رأيتك تخرُج من القصر في مثل هذا الوقت من كل ليلة، وإنه قد اشتعل القلق في نفسي عليك.

نظرَ الملثَّم لسلمان نظرةً طويلةً ثم أشار إليه ليتَّبعه.. وانطلقا ناحيَة الجبل، وانطلق «إنيان» خلفهما، وظلَّا يصعدان الجبل حتى أتوا إلى قوم قد بنُوا لأنفسهم ديرًا يتعبَّدون فيه، كانوا ستة تبدو أجسادهم وكأن أرواحهم قد خرجت منها من العبادة، لكنهم لما رأوا الملثم قد أحضر معه «سلمان»، نظروا متسائلين بقلَق، فقال لهم الملثم مُطمئنًا:

- هو صاحبي، وهو أمين يحفَظ السر.

فرحَّبُوا به وأحسنوا فيه القول.. ثم تحدَّثوا بحديث كان غريبًا على مسامع «سلمان»؛ فهو من قوم يعبدون النار والأوثان، أما هؤلاء فقد كانوا يتحدَّثون عن الله الواحد، الذي خلقَ النار وخلق الجبال، وحمدوه وأثنوا عليه كثيرًا، ثم نظروا ناحيَة «سلمان» وقالوا :يا غلام إن لكَ ربًا، وإن لكَ معادًا، وإن بين يديك جنة ونارًا إليهما تصير. وإن هؤلاء القوم الذين يعبدون النيران أهل ضلالة لا يرضى الله عما يصنعون... ثم حوَّلوا أنظارهم عن «سلمان» ومضوا في حديثهم، فذكروا من مضى من الرسُل والأنبياء حتى خلصوا إلى ذكر «عيسى بن مريم» وقالوا فيه كلامًا لم يعتَد «سلمان» أن يسمعه من نصارى قومه، قالوا لقد بعث الله «عيسى» عليه السلام رسولًا إلى بني إسرائيل وسخَّر له ما كان يفعل، فكان يحيي الموتى ويخلُق من الطين كهيئة الطير، فينفُخ فيه فيكون طيرًا، وأنه كان يُبريء الأكمَه والأبرص والأعمى، فكفَر به قوم وتبعه قوم، وإنما كان عبد الله ورسوله، وإن الله سوف يبعث من بعده نبي اسمه «أحمد» يخرُج من جبال تهامة وإن هذا هو زمانه قد تقارب فإن أدركتموه فاتبعوه وإنه لـ...

سمع الجميعُ ضجَّة تأتي من خارج الدير!. ثم اقتحم عليهم أصحاب الضجة الدير، كان الملك مع جنوده، ولقد كان شديد الغضب ينظر إليهم وينظر إلى ابنه الذي يجلس في حضرتهم.. قال الملك:

- يا هؤلاء.. قد جاورتموني فأحسنتُ جوارَكم ولم تروا مني سوءا، فعمدتُم إلى ابني فأفسدتموه عليَّ .

ثم تمالكَ بعضا من نفسه وقال :

- إني قد أجلتكُم ثلاثًا، فإن قدرتُ عليكم بعد ثلاث أحرقتُ عليكم ديركم هذا، فالحقوا ببلادكم فإني أكره أن يكون مني إليكم السوء.

لم يستمع «إنيان» إلى باقي الحديث، فقد هرع من فوره نازلًا من الجبل، ولقد نادى أصحابه من الجن، وأخبرهم بما سمع: يا أيها الجن إن صاحبكم بتهامة، وإن اسمه أحمد.

ولم يلبثوا في ديرتهم هذه إلا ساعة ارتحلوا بعدها إلى ناحيَة الغرب، إلى جبال تهامة.

إن سرعة جسم دأب على مسابقة الشهب تجعله يقطع ألفي ميل في دقيقة واحدة، ولقد قطعت أجسام الجن ما بين فارس وتِهامة في أربعين ثانية!. ثم هبطوا تهامة من أسفلها ناحية اليمن، وأعادوا التشكل في هيئة البشر ونزلوا في قرى العرب، لم تعُد هناك صروح مشيَّدة وأنسام باردة، إنما تصخَّرت الأرض واحتدَّت الشمس وطغت البادية على الحاضرة، وكانت جاهلية العرب أشد من غيرها، فلم تنزل الجن في قريةٍ إلا وهي أجهل من التي قبلها، أوثان وأصنام تُصنَع من حجارة أو خشب، يُعلِّقون عليها النذور ويتمسَّحون بها عند السفر، يستنصرونها فتنصرهم ويستمطرونها فتُمطِرهم، أو هكذا فكَّرت عقولهم!. لا يدرون شيئًا عن الحضارة والعلم والفلسفة...

ولقد نزل هؤلاء يسائلونهم ويستنطقونهم: هل خرجَ فيكم من نبي أو أتاكم من نذير، هل سمعتُم عن رجل يدعو إلى غير ما دين... حتى أنهم أتوا العرافين و الكهان، هل جاءكم رئيكم من الجن قبل ليالي الشهب المشؤومة بنبوءة أو غيب عن رجل يخرج في هذه الأنحاء يتحدث عن الله بغير ما يتحدث به قومهُ... ومرَّ الشهر والشهرين والثلاثة ولم يأتوا بجواب عن سؤالاتهم، حتى أتوا أرض الحجاز، فاستضاءت وجوههم بعد طول السواد، ولقد رأوا الذي لم يره نفرٌ من الجن فيمن كان قبلهم، ولم يره نفر ممن كان بعدهم، وتحدَّثت بهذا أجيالهم وأنسالهم، وكتبوا في هذا المكاتيب.

تعاهد قومي على هذا الأمر عهودًا، على محبة «لوسيفر»، وأمر «لوسيفر»..

كيف لا وهو الكائن الوحيد الذي لا يموت، الكائن الخالد الوحيد، الذي رأى كل شيء منذ أن انخلق هذا الكون، المخلوق الوحيد الأسمى والأعلى الذي كلّم الله، وعرف الله، وتحدّث عن الله، وكلامه صدق، لأنه خالد أمير، انبعث بعده من الجن أنبياء كذبة كثيرون، يحومون على عوالي الجن ويذكُرون «لوسيفر» بشَر الكلام، لكنهم فانون، مثلنا، كيف نُصدّق من كان فانيا ونُكذّب الخالد المخلد الأمير!..

لا يمكنك أن تقتُل «لوسيفر»، ولا تؤذيه!. ولقد حاول أنفار من الجن بكل ما أوتوا، لكنه دائمًا يبقى، أميرًا للنور، وباعثًا للنور، يُنوّر لنا طريقنا ويُعلّمنا ونحن له مخلصون.

أما أنت، يا قرد الشر.. فإنه قد ظهر في قومك أنبياء كذبة لا حصر لهم، وهذا مُضحك، كأنك تقول أن في القطط أنبياء، أنت قرد يا عزيزي، قرد، كيف يخرج في جنسك أنبياء؟

نظرة واحدة في كتبهم الموروثة عنهم أعلمَتنا أنهم كذبوا، نظرةٌ إلى كلامهم عن الجن، من يقول أننا أولاد زنا آدم مع شيطانة اسمها ليليث، ومن يقول أننا ملائكة ساقطة متمردة، ومن يقول أننا ندخل في الخنازير... مهازل.

دعكَ من هذا واسمع لي..

آتيناكَ من قصص الأولين شيئًا كثيرًا، لكن في صحيفتين تاليتين، لابد أن تتعلّم شيئًا آخر.

شيء ما هو بالعلم الخفي، لكنه مُتعب إذا أردتَ جمع مجامعه، ستجِد اختصاره في صحيفتيي الإيستوريجا التاليتين؛ شيء يتعلّق بالعقائد، وإنه ليس لبشَر عادي أن يطلع على الإيستوريجا، لكني أريد لك أن تطلع أنت.

ولقد حان الوقت لكي أنبّئك الذي أريده منك.

إنه قد قضَت حكمتنا، أنه إذا قرأت علومنا، تكون أنت المُخلّص الذي ارتضاه النبي «لوسيفر»، المخلص من الإنسان لبني الإنسان، المخلص الذي سيُعطيه نبينا أمير النور هدية

إلى اليهود، لأنهم يؤمنون أن «لوسيفر» ملاك كريم، أعظم من أعظم الملائكة، أم أنك ظننت أن المخلص الذي يرتقبه اليهود في التوراة سينزل لهم من السماء، بل هو سيخرُج لهم من بين أظهر الناس، نحن نصنعه ونؤتيه العلم أثقال، سحره يكون فوق كل الأسحار، وعلمه فوق كل العلوم...

فإذا صفا ذهنك لي، وسجدَت روحك لسيدك «ظام»، فستكون أنت، أنت أنت، ولا أحد سيكون غيرك.

هذه الشهب!.. هناك شيء يمنع الجن أن تستمع في السماء
هل يعقل أن يكون هذا؟
هذا ليس غضباً، و ليس مطراً شهابياً عارضاً..

(٦)

الباب الأحبار

كانوا أربعَة رجال وجني، حسنةً وجوههم وعقولهم وخيولهم، نزلوا يلتمسون الدين في يثرب.. وذهن «عمرو بن جابر» في نخيلها شارد، يذكر منها كل موضع، «أسعد» وجنوده وبُشراهم بأحمد، أوس وخزرج ويهود وحروب... استفاق من سَهوه على جلبَة وصخب، رجال ونساء يهود وأطفال احتشدوا في زينة وتبرُّج، والبَسمة في وجوههم تعلو، يمشون الهوينى يرفعون تمثالًا رديء الصنع، يتمتمون بكلام من التوراة، ثم توقفوا مكانهم وأبرزوا التمثال وأشعلوا فيه النار وتهللوا وتبسَّموا وشربوا الخمر، والخمسة ينظرون لهم في تحيُّرا، وأفراد من الأوس والخزرج واقفين على الأطراف ينظرون .

نزل الخمسة عن رحالهم ومشوا بين الجموع ووجوههم مغبرة من أثر السفر، واليهود ينظرون لهم في عدم ارتياح، حتى اقتربوا من الكنيس اليهودي فنهاهم الناس فتوقفوا، حتى خرج من الكنيس رهبان في سواد مسدل على أكتافهم، تقدَّم أحد الخمسة من الرهبان ومال عليه وأسرَّ له بأمر فنظر الراهب له في دهشة وريبة! ثم استشار أقرانه الرهبان ثم أشار للخمسة أن يدخلوا معه إلى الكنيس .

دخل «عمرو» والأربعة الأنوار من بني «غالب بن فهر» إلى الكنيس اليهودي يلتمسون لأنفسهم الدين، فجلسوا على مثل الأرائك ينظرون حولهم إلى حوائط مزينة وستائر حمر، وجلس الرهبان على دكة متجاورين ينظرون... قال أحدهم: مَن الرجال؟

فعرَّفَ الرجال الخمسة الأزهار عن أنفسهم، ثم سألوا الرهبان فقالوا لهم: ومن الرجال؟

قالوا هذا الحصين من بني قينقاع، وهذا يامين من بني النضير، وذاك مخيريق بني النضير أيضًا، من أعاظم أحبار يثرب.. فما بالكم آذيتمونا في عيدنا!، قالوا: فإنا تعاهدنا أن ننصرف عن دين قومنا وما يعبدون من خيال عظيم، ففررنا بعقولنا عنهم نلتمس لأنفسنا الدين الحق فأتيناكم لعلنا نجد ذلك عندكم، فعلمونا يا بني إسرائيل، فإنا ألحدنا بكل شيء سوى ما تقبَله عقولنا .

قال الحصين وكان يبدو أنه أعلاهم: اعلموا إنه ليس إله لهذه الدنيا سوى إله واحد، لا إله إلا هو، خلقَ الشمس والأرض والكواكب، وخلق الجبال والبحار، وخلقكم وخلق أنعامكم، إله غير محدود لا تُدركه الأبصار والأفهام ولا تقدروا أن تتصوره... قالوا: فما اسمه وأين هو؟

قال: اسمه يهوَه.. ولا يصح أن يكون له مكان لأنه خلق المكان.

كان «عمرو بن جابر» يسمع ويُفكّر في ربه رحمتن ذي سماوي.. قال واحدٌ من الأربعة: فكيف بالذي لا يُرَى ولا يُدرَك ولا يُلمَس أن يخلُق أشياء تُدرَك و تُلمَس وتُرى؟

قال الحبر «يامين»: إن ربنا الله الأزلي اللانهائي كان وحده ولم يكُن شيء غيره، فلما أراد خلقَ هذا العالم صدرَت منه أربعة انبثاقات عظيمة نُسمّيها الفيوضات الإلهية الأربعة، في كل فيض تدفّقت عدة تلألؤات صدرَت عن بعضها البعض.. هي الصفات التي سيتعامل بها الله مع هذا العالم الذي يريد أن يخلقه، أحد هذه الفيوضات الأربعة هو العُزير، ويعني التكوين، وهو الفيض الذي خلق الله به هذا العالم.

قال له «عمرو»: وهل رأى أحد الله قبل ذلك؟ قال «يامين»: نعم رآه اليهود أكثر من مرة.. تحديدًا رأوا أحد تلألؤات الله: وهو تلألؤ السكينة، أقرب صفة من صفات الله للعالم، وهي سكنى الرب في هذا العالم.

انتبه الجميع و سألوه: أين رأوها وكيف؟ قال: رآها بنو إسرائيل على هيئة سحابة كبيرة كانت تُرشدهم للطريق لما خرجوا من مصر وتاهوا في البرية، وهي نفسها التي تكلم الله بها مع موسى وتكلم الله بها مع كبراء بني إسرائيل ذات مرة، ولقد وصفوها أنها كانت كالعقيق الأزرق الشفاف الفاخر... سكت الجميع وكأنهم كانوا يستوعبون ما يقول .

قال أحدهم: كيف عرفتم كل هذا؟ قال «مخيريق»: من التوراة والتلمود والكابالا. قالوا: وما التوراة؟ قال: هي الكتاب الذي نزل على موسى، والتلمود التعاليم الشفهية التي تلقاها موسى من ربه وعلمها لكبراء بني إسرائيل، والكابالا هي العلم الباطني الذي أوحاه الله إلى كبراء بني إسرائيل من بعد موسى... قالوا: وما موسى؟ قال: أول نبي بعثه الله.. قالوا: وما النبي؟ قال: رجل يهودي يختاره الله ويُوحي إليه ليُرشِد ويُصلح بني إسرائيل.. قالوا: فقط

بني إسرائيل؟ قال: نعم.. قالوا: وماذا عن باقي الشعوب؟ قال مخيريق: لا نبي إلا من اليهود، ولا نبي إلا ويُبعَث لإصلاح بني إسرائيل.

ثم قال مخيريق: لكن عهد الأنبياء انقضى منذ قرون طويلة جدا، ولم يبق إلا نبي واحد بشرَتنا به التوراة... تنبَّه «عمرو بن جابر» وانحلت أساريره وسأله: أي نبي هذا؟

قال الحصين: نبي مختار هادي، يُخرِج الحق للأمم.. تشنَّفت آذان «عمرو بن جابر» وأهدأ نفسه ليسمع.. قالوا: ومتى يظهر ذلك النبي؟ قال: يظهر في هذا الزمان الذي نعيشه الآن.. قالوا: وهل له علامات؟ قال: هو ليس بصخاب ولا يصيح ولا يُسمَع في الشارع صوته، لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض، يحفظه الله ويجعله عهدا للشعب ونورًا للأمم، يفتح به عيون العمي ويخرج من الحبس المأسورين في الظلمات، فلترفع تلك البرية ومدنها صوتها فخرًا به، تلك الديار التي سكنها قيدار بلاد العرب، فليترنم سكان جبل سلع ويهتفوا من رؤوس الجبال فخرًا به، ليعطوا الرب مجدًا ويخبروا بتسبيحه في البلاد.

تفتَّحت أزهار قلوبهم لما سمعوا الحديث وقالوا: أنبيٌّ من بلاد العرب؟ قال «يامين»: نعم عربي لكنه من بني إسرائيل، ويأتي هنا عند سكان جبل سلع في يثرب، لماذا تظنون أنا قد أتينا إلى يثرب قبل قرون!؟ ضاقت عينا «عمرو بن جابر» وأومضت في حافظته مشاهد من زمن قديم، خرج فيه يهود يثرب إلى جيش يقوده «أسعد» فقالوا له يا «أسعد» حدك هنا، إن هذا لمهاجر نبي زكي، فخضع «أسعد» وخضعت جيوشه ...لكن، نبي من بني إسرائيل؟ أليسَت تقول البشارَة أنه من ولد «غالب بن فهر» من قريش... ودارت رأس «عمرو» في أفكار لا تنتهي!

قال أحد الرجال: وما إبراهيم؟ أليس نبيًا عربيًا أيضًا؟ قال الحبر: أبونا الحبيب إبراهيم لم يكُن عربيًا ولم يكن نبيًا؛ بل كان رجلًا يعيش في مدينة أور البابلية، هدَته بصيرته بأن هذه الأصنام لا تضُر ولا تنفع، وأن قومه كلهم على ضلال، وأن لهذه الدنيا ربٌّ عظيم أعلى وأرقى من كل تلك الصور، ودعا قومه لهذه الفكرة بكل الطرق، حتى أنه كسر أصنامهم فقبضوا عليه وألقوه في النار ونجاه الله بمعجزة...

قال أحد الرجال: والله إنه لأبيكم إبراهيم يا رجال الذي بنى كعبتكم، وإن تأملاته مثل تأملاتكم... تحفَّظ الأحبارُ ونظروا إلى بعضهم ولم يرُدوا!، ثم سألوه: وابنه إسماعيل أبو العرب ماذا عنه؟ قال الحبر: كان لإبراهيم ولدَين: إسماعيل واسحق، إسحق كان صالحًا وهو أبو الجنس اليهودي كله، لكن إسماعيل كان همجيًا يعيش في البرية وكان لصًا يقطع الطريق ويسرق المسافرين...

قام «عمرو بن جابر» وقد أخذه الغضب وأمسك بتلابيب «مخيريق» يرفعه فتناهض الرجال عليه، صرخ «عمرو»: ألستُم عربًا يا هذا، أتؤمنون بالتوراة وهي تلعَن أبوكم إسماعيل؟ قال له «يامين»: بل نحن عرب من بني إسرائيل من نَسل إسحق ولسنا من نسل إسماعيل، ونؤمن بالتوراة لأنها كلمة الله... وفجأةً هجم الأحبارُ على «عمرو» فأمسكوا به وقالوا: تالله ما أنتم بخارجين من حينا إلا هالكين.. وقام الأربعة الأنوار لتهدئة الغضب، قال أحدهم للحبر «مخيريق»: آذيتَنا بلعن أبينا إسماعيل، وأنت تعلم أنفَة العرب، وإنا قد أتينا هاهنا لا نريد إلا أن نكون يهودًا أمثالكم.. لكن الجو كان قد توتَّر ولم يهدأ أحد من الأحبار إلا بعد أن تم طرد «عمرو بن جابر» خارج الدير.

سبعة جنون من نصيبين تنزلوا في الحجاز.. فألجأهم الطريق إلى خيام كالقباب منصوبة متجاورة، والناس فيها يجولون في أحسن الملابس والفوارس، والغاديات من النساء والعاديات من الخيل، وسبعة من عوالي الجان ينظرون إلى كل هذا في هيئات بدت أجنبية تمامًا على المكان، شعر أحمر وآخر أصفر وعيون ملوَّنة وملامح رومية، عرفوا بعد حين أن هذا الذي هم فيه هو سوق عكاظ -أكبر أسواق العرب الذي يجتمعون فيه وهم في طريقهم إلى الحج- وكانت فرصتهم ليسائلوا العرب الآتين من كل مكان، فلا شيء حادث حدث يمكن أن يخفى في سوق عكاظ.. مشوا وسط الجموع حتى رأوا خيمة هي أكبر من كل خيمة: حمراء من جلد فاخر والناس حولها يتزاحمون في اهتمام .

اقتربوا لينظروا بدورهم.. كانت تلك خيمة «النابغة الذبياني» رأس الشعراء العرب، يأتيه الشعراء في كل موسم يعرضون عليه أشعارهم، وكانت أمامه امرأة في غاية الجمال قسيمة في القوم اسمها الخنساء، واقفة في ثبات وصوتها يشدو بقطعة من شعرها، كانت تقول:

كأن عيني لذكراه إذا خطرت

فيض يسيل على الخدين مدرار

تبكي لصخر هي العبرى وقد ولهت

ودونه من جديد الترب أستار

كانت ترثي أخيها صخرا الذي مات في المعارك.. والناس يسمعون لها في تأثُر ووَجد، والجن ينظرون يمنةً ويسرَة والصوت يصدح.

وان صخرا لتأتمَ الهداة به

كأنه علم في رأسه نار

جلد جميل المحيا كامل ورع

وللحروب غداة والروع مسعار

وظلَّت تشدو حتى توقَّفت والعبرات في القوم قد ظهرَت.. فوقف النابغةُ وقال لها: لولا أن الأعشى أنشدَني قبلَك لقلتُ أنك أشعر الناس يا خنساء، والله إنك أشعر من كل امرأة... هنا ارتفع صوتٌ بينَ الجموع يقول: والله إني أنا أشعَر منها ومنك!. التفت الجميع إلى مصدر الصوت في اندهاش، كان ذلك «حسان بن ثابت» شاعر الخزرج واقفا في سمو.

قالت له «الخنساء» بتحَدٍّ: ما أجوَد بيت في قصيدتك يا حسان؟

قال:

لنا الجفنات الغر يلمَعن بالضحى

وأسيافنا يقطرن من نجدَةٍ دما

سكتت «الخنساء» ثم قالت: والله لقد ضعف افتخاركَ هذا في مواضع عدة، أنت تقول الجفنات وهي أوعية الطعامِ التي تُقدَّم للضيوف دلالة على الكرم، فلما تقول جفنات فهذا يدل على القلَّة!، وكان يجب أن تقول الجفان، لأن في هذا كثرة وأنسب للافتخار... قام «النابغة الذبياني» وقال: كذلك قُلتَ أسيافنا وهي تدل على القلة، ولو كنت تريد الكثرة لكنت قلت سيوف.. كان «حسان» قد جهَّز نفسه للرد حين شعر الجميع بشيء يتحرك عند باب الخيمة!، كان الناس

يوسعون لرجل مهيب معظَّم، داخل على جمل أحمر، والناس يتهامسون عليه، كان ذلك «قس بن ساعدة»، أحكم حكماء العرب وأفصحهم على الإطلاق، كان خطيب العرب الذي إذا قال يسمعون وإذا تحدَّث يُقلِّدون.. نظر «قس» إلى «الخنساء» وقال: أما الجفنات فقد قال أنها الجفنات الغر يعني المشهورة، فإنما أراد شُهرَتها وليس كثرتها، وقال الأسياف يقطرن دمًا، ولو قال السيوف لتكثيرها لكان افتخارًا بكثرة القتل، وإنما أراد الافتخار بالشجاعة... سكت الجميع ينظرون إليه في مهابة، ثم شدَّ لجام جمله الأحمر يجوده ونظر للناس نظرةً لها معنى ثم قال قولةً عجيبة:

أيها الناس، اسمعوا وعوا.. وإذا وعيتُم فانتفعوا، فانه من عاشَ مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، إن في السماء لخبرا وإن في الأرض لعبرا، أقسم قسمًا حقا لا حانثًا فيه ولا آثمًا، إن لله دينًا هو أحب إليه من دينكم الذي أنتُم عليه، ونبيًا قد حان حينه، وأظلَّكُم زمانه، وأدرككُم إبانه، فطوبى لمن آمنَ به فهداه، وويلٌ لمن خالَفه وعصاه، تبًا لأرباب الغفلَة من القرون الخالية.

يا معشر إياد أين الآباء والأجداد وأين الفراعنة الشداد، أين من بنى وشيَّد وزخرف وجدَّد، وغره المال والولد، أين من طغى وبغى وجمع فأوعى، وقال أنا ربكم الأعلى، ألم يكونوا أكثر منكم أموالًا وأبعد منكم آمالًا وأطول منكم آجالًا، طحنهم الثرى بكلكله ومزقهم بتطاوله، فصارت عظامهم باليَة وبيوتهم خاليَة عمَّرتها الذياب العادية، في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر، لما رأيت موارد للموت ليس لها مصادر، ورأيت قومي نحوها تمضي الأصاغر والأكابر، أيقنتُ أني لا محالة حيث صار القوم صائر.

نظر الناظرون وقد أصمتَهم الكلمات، وتجولت عيون الجن بين الملامح وتفرَّست في «قس بن ساعدة»، بعد سنين التجوال ضحك الزمان لهم فبشَّرهم بما كانوا يظنون، وأجمعوا أنفسهم وانطلقوا إلى «قس بن ساعدة» الذي تحرَّك بجمله يريد الرحيل.. قالوا له يا ذا الهيبة إنا قد أتينا من أقصى الأرض نبحث عن ذلك النبي الذي تنبأتَ به، فهلا أسهبتَ لنا في أمره؟ قال «قس»: لا أزيد عما قلت حرفًا، لكن ابحثوا عنه في تهامة، وإن أعيان تهامة ليجتمعون في رحلة

الصيف المسافرة إلى الشام للتجارة، فالحقوا بها، فربما يخرُج معهم.. قالوا له: ما أنتَ، يهودي أم نصراني؟ قال: بل أنا على الحنيفية.. قالوا: وما الحنيفية هل هو دينٌ جديد؟ قال: بل هو دين إبراهيم، أعبُد الله واحدًا لا شريك له، وإن كل ما خلا دين إبراهيم باطِل.. نظر الجن بعضهم إلى بعض، وقالوا: موعدكم الصيف، وليس الصيف بقريب، فلتمكثوا ولترتقبوا.

مضى «عمرو بن جابر» هائمًا على وجهه بعد أن طرد من الدير.. ثم توقَّف فجأة وتسمَّر مكانه، استدعته حاسته الجنية أن يتوقف!، شيء ما يملأ الأجواء، شيء ما له حضور كثيف، وضع «عمرو» يده على رأسه، ثم سمع شيئًا ما كأنه يمر في جواره، انتفض «عمرو» واشتعلت مواقد الحذر في نفسه، وصار يسمع أشياء كأن نفسه تُحدِّثه بها فينفضها عن رأسه، ألا يزال في القلب شك يا بن جابر!، أبشَر من لحم ودم لا يرون إلا مواضع خطوتهم سيتكلَّمون باسم الرحمن، أبشَر يكون منهم أنبياء مثل الجن يا بن جابر، هل ترى بين القرود أنبياء؟ إنما ميزهم الرحمن بشيء من الوعي في عقولهم فأتلفوا به سطح البرية الخضراء، أفأمثال هؤلاء يكون بينهم الأنبياء والرسُل؟ ألا تراهم يتحدثون باسم الرب فيسفكون به الدماء ويحرقون به النخيل، أم صرت تميل لهم يا بن جابر؟ رجال أربعة تتبعهم كالمفتون وهم لا يدرون ما ربهم وأين ربهم، أفيكون منهم أنبياء!.. أمسك «عمرو بن جابر» رأسه واشتعلت عينه كشيطان للحظة ثم خبَت وألقى عن خياله كل ما تُحدِّثه به نفسه، ونظر حوله، إنه يحس بشيء ما، أو بكيان ما!..

يا بن جابر لقد تناهى علم أهل الكتاب أنه إن كان نبي فسيكون يهوديا، ولو ارتحلتُم إلى النصارى سيذكرون لكم هذا، فهم أيضًا يؤمنون بالتوراة ويعتبرونها نصف كتابهم المقدس، أتصدق نبوات الشياطين أن نبيًا من بني غالب بن فهر وتترك حديث أهل الكتاب؟ أليس يفترض أن يكون أهل الكتاب أعلم بالله من غيرهم من البشر، لقد أضعت حياتك في هذه الأوهام وأضعتَ امرأتك «إينور»، ألستَ تذكرها وتذكر روحها يا بن جابر، ألست تذكُر نظراتها

لك!، نزلَت دموع «عمرو بن جابر» حارة وهو يذكر، ثم نفض عن رأسه الأفكار بقلة حيلة. الإنسان فان والجن فان، وليس في هذه الدنيا إلا خالد واحد، ذلك الذي كفرت به يا بن جابر، الملاك المنير المتوج، اعتدلت عيون «عمرو» من الحيرة إلى العزم، ونفض عن نفسه كل الوساوس وأرهف سمعه برهة ثم استدار بلمح البصر إلى ورائه ونظر فرآه.

كان يطفو في علو من الأرض وعينه بارقة، وبسمة من الأذى تعلُو محياه.. كان هو ذلك الجن المارد «إزب بن أزيب»، كان يُوسوِس له منذ البداية، استعر وجه «عمرو» بالغضب وتحرَّك إليه.. تنحَّى «إزب» كالطيف ثم قال: أنت عار على مؤتلف الجن يا بن جابر، كان من الأجدر أن يخلقك الله حيوانًا مثل أولئك الذين تحن إليهم، أم قد أخذتكَ أوهامك أنك تقدر أن تمسني بجسدك البشري المحقور هذا!، انظُر إلى نفسك وأنت تستمع خلف هذا الجدار إلى لغو بني الإنسان وقد طردك بنو الإنسان، لقد كانت تلك النبوءة التي ألقيتُها أنا في أذُن الكاهن سطيح كذبًا يا بن جابر، إنما نحن نزيدهم في الغي، إن كان نبي في أولئك المحقورين فلن يكون إلا من بني إسرائيل... قال له «عمرو»:

- إن كان كذبًا فلم ألقيتَه في سطيح وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة وليس يقدِر أن يغوي به أحدًا؟!

لم يرُد «إزب».. ثم اجتن «عمرو بن جابر» من المكان كأن لم يكُن فيه، ثم برز في هيئته الجنية عاليًا فوق «إزب»، ثم أقدم على «إزب» وفي عينيه غضبَة لم يغضَب مثلها من قبل، غضبة تذكر فيها «إينور» وتمدُّدها على الأرض عند عباءة ذلك الشيطان، لكن «عمرو» لا يتعلَّم من ماضيه، لم يذكُر كلمات «إينور» وهي تُعاتِبه أن يجابه ماردًا، مدَّ ذلك المارد يده فانغرزت في صدر «عمرو» كأنها إلى جوفه ماضية، وتكوَّرت قبضته بداخل الصدر لتفتك بمهجة «عمرو بن جابر» الذي تقوَّس جسده للوراء ولمحت عينه شيئًا ما بالجوار.

- عن أي نبي تتحدَّثان يا إزب؟

التفت «أزب» بعين مصدومة.. وسقط «عمرو بن جابر» كالجثة، رأى «إزب» ظلا مستورًا جالسًا على عقبيه وركبتاه مثنيتان، ثم تنبَّه إلى أنه ليس ظلا، بل كان جسدًا، أسوَد حالك يحموم، له شعر أبيض يفرقه من منتصفه، وملامح لا تتبينها لكنها كالحية الضارية، كان ذلك هو «سيدوك»، من مردة «لوسيفر» الثلاثة، والرجل الثاني في وفد نصيبين، كان يجلس يراقب كالقدر وقد سأل السؤال بصوتٍ لا يستطيع المرء أن يكذب أمامه.

تناهض «عمرو بن جابر» من الأرض وهو يمسك صدره في ألَم ونظر إلى حيث يجلس «سيدوك» فاتسعت عيناه، إن مثل هذا لا ينزل في سهول الأرض إلا و الأمر أمر عضال، لقد أنزلتهم من مواضعهم بخبرك يا «أحمد»، والله لئن رأتك عيني لأنصرنك.. قال «إزب»:

- إنما هي أخبارٌ سمعناها من عجيج الغمام لابد أنها تناهت إلى مسامع سيدنا المقدسة.

قال «سيدوك»: أي أخبار هذه؟ قال «إزب»: سمعنا أن نبيًا في هذه الأرض قد وُلد، من بني غالب بن فهر، من أشراف قريشٍ. قال «سيدوك» وقد تبدَّل لون عينيه: متى رأيتَ هذه الرؤيا يا إزب؟ ظهر التوتّر على وجه «إزب» البشع وهو يقول بخفوت: قبل أربعين سنة تزيد أو تنقص.. قال سيدوك: وماذا فعلتَ في أربعين سنة؟ قال «إزب»: كنتُ أبحث عنه في كل درب.. نظر له «سيدوك» نظرةً حادة وقال: وهل وجدتَه يا أزب؟ قال «إزب»: خشيت أن أعلَمه قبل أن يعلمه رسُل سيدي.

نظر «سيدوك» إلى «عمرو بن جابر» الذي قام واقفًا.. قال «عمرو» هازئًا: عجبًا من أمر سيدكم، أتأتيه الملائكة الكرام بالخبر ويُرسِلكم لتبحثوا عن صحة الخبر، فإما العوار في قلوبكم أو العوار في سيدكم!

نظر «سيدوك» بعين كأنها عين ثعبان وقال: من هذا الكائن؟ قال له «عمرو»: أنا الكافر بالهراء الذي أنتُم عليه.. نظر «سيدوك» إلى «أزب» وقال له: انطلق يا إزب إلى الهرم فأبلغ عما رأيت.. ثم التفتَ إلى «عمرو» بعين مشقوقة وقال له: إلام كنتَ تسمع وراء ذلك الجدار؟ خشي «عمرو» أن يُحدِّث بشيء يدُل على الأربعة الأنوار، فتماسك وقال: دخلتُ لأسأل اليهود عن دينهم وعن النبي الذي ينتظرون، فطردوني خارجًا.. قال «سيدوك» وقد اتسعَت عيناه كالمجنون: كذبت.

طار الطير من على رؤوس الشجر ونظر «عمرو» راجفًا إليهم ثم نظرَ إلى «سيدوك» الذي لم يعُد في مكانه.. تلفَّت «عمرو» ثم وقف مُتجمّدًا كأنه مشلول!. كان «سيدوك» واقفًا وراء «عمرو» ويدَه تجري على رقبة «عمرو» ببُطء، وصار «عمرو» ينزف وسقط على الأرض في ألم.. قال له «سيدوك»: ستكون عيني وراءك يا أشقر، وسيكون كفرك عليك وبالا، وستذكر اسمي كلما قبضك السم بقلبك قبضة، حتى يقضي عليك.

نظر «عمرو» إلى «سيدوك» الذي اجتث من المكان كأن لم يكن فيه.. ودفع «عمرو» جسده حتى استند على حائط الدير، وأسند رأسه ووضع يده على رقبته يتحسسها، فرأى في يده من أثر السم شيء، وعرف أن ليس قد بقي له في عمره الطويل إلا نزر ضئيل.

بقى الرجال الأربعة جلوسًا يعتذرون آسفين عما بدر من «عمرو بن جابر».. قال «الحبر يامين»: صاحبكم الأشقر قد آذانا، ويظن أننا من العرب، إنما نحن يهود من بني إسرائيل، وإنه قد كانت لنا أرض مقدسة نعيش فيها، لكنا لم نحفظ عهد الله وعبدنا آلهة أخرى، فغضب علينا فسلّط علينا الأمم فأخرجتنا من أرضنا، فتشرَّدنا في الأرض، ولن نعود إليها حتى يبعث الله فينا المسيح المخلص، الذي سيجمع اليهود كلهم في الأرض الموعودة ويبني الهيكل الثالث ويهزم لهم أعداؤهم .

قالوا: ومتى ينزل هذا المسيح المُخلّص؟ قال الحبر: ينزل في آخر الزمان.. قالوا: وهل قبله علامات؟ قال: ينزل قبله النبي إيليا من السماء يُبشّر الناس باقتراب نزول المسيح المخلص.. قالوا ومتى ينزل إيليا؟ قال في آخر الزمان.. قالوا وهل قبله من علامات؟ قال: يظهر قبله النبي المختار نبي آخر الزمان الذي سيخرُج في أرض العرب.

سكت الرجال قليلا ثم قال «يامين»: لذلك لما جاءَنا في أيام ضعفنا واحتلال الرومان رجل اسمه يحيى يعظ الناس ويدعوهم للتوبة سألنَاه من أنتَ؟ هل أنتَ المسيح؟ قال لا، قلنا هل أنت إيليا؟ قال لا، قلنا هل أنت النبي؟ قال لا، ثم قال لنا يا بني إسرائيل إني أبشّركم وأنذركم، لقد خرج فيكم المسيح المخلص، وإنه لعيسى بن مريم، وإني رأيتُ روح الله ينزل عليه كما الحمامة، فقابلنا عيسى هذا فوجدناه رجلا بسيطا ليس به قوة تجعله المسيح الذي وعدنا به الكتاب،

فلا هو من اللاويين ولا هو من الكهنة ولا من الرؤساء.. بل كان نجارًا، لم نرَ فيه أنه سيحررنا من الأمم التي استعبدتنا، بل إنا وجدناه يتكلم ضد كبراء اليهود وينتقد أفكارهم ويُحذرهم إن هُم بقوا على فسادهم فسيُدمِّر الله لهم الهيكل. جماهير كثيرة اتبعته، ولاحظ الرومان حدوث فرقة بين اليهود وخشوا أن تحدُث ثورة، فأوعزنا للرومان أن يصلبوه لأنه كافر وضال ومضل، وكان في نفسونا أننا نفعل هذا امتحانًا، فإن مات فليس هو المسيح المنتظر!، وبالفعل أمسك به الرومان وصلبوه ومات، فعرفنا يقينًا أنه ليس المسيح.

سكتَ الرجال وخرجوا وليست قلوبهم مرتاحة.. فلقيهم «عمرو بن جابر» في الخارج وهو واقفًا بهيئته العجيبة.. قال أوسطهم: والله إن هؤلاء القوم قد أكلوا عقولنا، قوم لا يجوزون الأنبياء إلا منهم وكأن الله تارك شعوب العالم هائمون على وجوههم لا يدرون عنه شيئًا.

قال بعضهم لبعض: فالشام الشام يا بني غالب، فإن فيها نصارى، وإن فيهم ودًا ولينا، وإن لديهم الدين والدنيا، وإنهم ليبنون لدينهم المدائن والقصور، ولقد أصبح لدينهم ألوف مؤلفة من الأجناد والأنصار؛ فإن لم يكن في دينهم حقًا فأين سيكون!، وإن رحلة الصيف إلى الشام قد اقتربَت، فلنخرُج مع الخارجين.. وانتظروا حتى أتى الصيف، وانطلق أربعة من بني غالب ومعهم جني إلى بلاد الشام في رحلة الصيف، غير عالمين أن تسعة من جنون نصيبين نزلوا إلى نفس الرحلة، والكل يبحث عن نبي!

نياق تتابعت خطواتها مصفوفة في صفوف، عليها من كل صَنف وبضاعة، مسافرة في قافلة طويلة تلقي بظلالها على الجبال، تبغي ربوع الشام للتجارة والربح.. كان «عمرو بن جابر» قد اختلط ببني الإنسان العرب حتى صار بعضهم يعرفه بالاسم، وإمعانًا في ادعاء البشرية فقد جعل «عمرو» لنفسه تجارة يُسافر بها إلى بلاد الشام، ولقد كان صفه وصف أصحابه الأربعة مقربًا ومجاورًا لأبو سفيان بن حرب، سيد قبائل قريش كلها وكنانة، وكانت مجاورتهم له لأن واحدًا من الأربعة الأنوار له معه قرابة، كان «عمرو بن جابر» لافتًا بذلك الشعر الذهبي الذي يملكه، كان يضاحك أصحابه وهو يعدل السرج على ناقته، وحانت منه نظرة إلى الأمام فتغيرت كل ملامحه.. فهناك وفي موضع غيرٍ بعيد عنه، رآهم فعرفهم، بملامحهم وشعورهم، والجن يعرف الجن وإن تمثل كالبشر،

كانوا يمشون ويتلطفون الناس، وعيونهم تبرق إذا تباعدت عنها الأنظار، كور «عمرو» عمامته فوق رأسه ووضع اللثامة ليخفي منظره، واطمأن لبعد موضعه عنهم ولأنه لا يمشي في عير أبو سفيان إلا من كان مقربًا منه.. كان يتساءل كيف وصل الجن بهذه السرعة!، كان يلاحظ انتشارهم بطرف عينه.. تبيَّن أن كل واحدًا منهم قد وضع نفسه عند جماعة من جماعات الركب، ولم يرَ أحدًا منهم قد أتى لدى عير أبي سفيان، فتنهَّد وأكمل تجهيز ناقته.

- لم أدرِ أن الجن إذا أرادوا إخفاء أنفسهم يكونون بهذا الغباء.

انتفَض قلبه وتصاعد التوتر فيه وعرف أن أمره قد انكشف.. ثم كظم غيظه للإهانة واستدار ونظر من وراء لثامته، فرأى «ماسا» -الجنية الحسناء- تنظر له في ثبات، قال لها بحزم: اكتمي عني عند أصحابك وسأنبئك بأمري بعد حين.. نظرَت إلى وسامته وقالت: فليكن كما تريد أيها الوسيم.. ثم أتاها صوت من ورائها يقول: من أي عير أنتِ يا امرأة؟ نظرت فإذا هو «أبو سفيان» يسألها، لم يبد أن ملامح «ماسا» أجنبيَة، فلها شعر أسوَد وملامح سهلَة، لكن لهجتها فضحَتها.. قالت له: إني من عير وراءكم، واني قد أتيتُ لأسائلك عن أمر... قال لها: تسألينني أنا؟ قالت: نعم، إنا أتينا من نصيبين إلى بلادكم وقد تنبأ لنا كاهننا أن فيكم رجلًا نبيًا مرسل من رب السماء، فهل أتاكم مثل هذا أو قريب منه يا سيد قريش؟ قال «أبو سفيان»: إن الـ....

قاطعَه صوتٌ هادئ من جواره يقول:

- إني أنا نبِي هذه الأمة.

نظرَت بدهشَة ونظر «عمرو بن جابر» بعيون أتعبَها الشوق إلى صاحب ذلك الصوت الواثق؛ فوجداه رجلًا بهي الصورة أبيض الوجه، كان الأربعة الأنوار يُتابعون المشهد وبعض السائرين القريبين.. سأله «عمرو بن جابر» مباشرة: ما اسمك؟ قال الرجل: أدعى أبا القاسم.. توتَّر «عمرو» قليلًا؛ فقد كان يريد أن يعرف نسبَه، فسأل أحد الرجال حوله، قال له الرجل: إن أبا القاسم رجُل صالح عذب اللسان وحلو الكلام، نحن نسافر للتجارة وهو يُسافر يحمل الكتب المقدسة يقرأها ويحفظها.. قال له «عمرو»: أي كُتب مقدسة؟ قال الرجل: كتُب اليهود والنصارى.. سألت «ماسا» «أبا القاسم» فقالَت له: ماذا ترى في الدين يا أبا القاسم؟ قال: أرى الله ولا أرى سواه.. ثم قال:

لكَ الحمد والنعماء والملك ربنا

فلا شيء أعلى منكَ جدا وأمجَد

مليك على عرش السماء مهيمن

لعزته تعنو الوجوه وتسجُد

عليه حجاب النور والنور حوله

وأنهار نور حوله تتوقَد

وأنى يكون الخلق كالخالق الذي

يدوم ويبقى والخليقة تنفذ

هو الله باري الخلق والخلق كلهم

إماء له طوعا جميعا وأعبد

«عمرو بن جابر» ذهَب.. «عمرو بن جابر» جاء.. طردوه من الدير، سمَّمُوه، وإنه قد أتى الحين الذي أخبرك فيه بالشيء الذي لم يُخبرك به الأولون، ولن يخبرك به الآخرون، الشيء الذي فهمه كل بني جنسك فهمًا خاطئًا، كلهم عن بكرَة أبيهم، سأخبرك يا عبدي عن التمثل.

إن بنو جنسك بأفهامهم السقيمة البشرية وألبابهم، يظنون أنا نحن الجن يمكنهم التمثُّل بأي شيء وبأي صورة؛ يعني يمكننا التمثُّل بصورة أبيك وأمك، أو أخوك، أو أحسن شيخ فاضل في البلدة فنُخبِر الناس أمورًا على لسانه تضلكم وتضل جنسكم كله!، يا ليتنا نقدر على مثل هذا.. لكُنا لعبنا بكم ألعابًا وغررنا بقبيلكم كله وجعلناكم ملاهي وتلاهي... لكننا لا نقدر على مثل هذا، وليس لمخلوقٍ في هذه الأرض أن يتحوَّل عن خلقته التي خلقه الله عليها إلى خلقة أخرى.. ولكن، لنا في جِنسنا سحرَة عوالي، ماهرين بالتخييل نُسمِّيهم السعالي، ينثر الجني الساحر منهم على جسده ووجهه وفجواته وملابسه الجوستار، وهو عنصر ثمين جدًا إذا نثرناه يلزب بذراته على أجسادنا وألباسنا فنستبين لعيون الإنسان، فيتكشف الجني للأبصار، بنفس ملامح الجني وملابس الجني، وجسد الجني، وإن أجسادنا وملامحنا لا تختلف عن ملامحكم وأجسادكم في أي شيء، ليست لنا ملامح مريعة وقرون وأنياب كما تحسب خواطركم السفيهة يا سفهاء الأرض، إنما نحن أمثالكم، منا الجميل الأجمل منكم ومنا القبيح الأقبح منكم، إلا أن فئة منا تكون لهم أجنحة كأجنحة الطير العظيم، وفئة ليس لديهم أجنحة، هذه الأجنحة لا تكون لمغالبة الريح والتطاير فيها، فإن إسراعنا في الأرض يجعلنا ننقل من مدينة إلى أخرى قبل أن يخفق طائر من طيوركم جناحه خفقةً واحدة في الريح، إنما أجنحتنا تكون لمغالبة لجج من الأثير ليست بعيونكم تُرى، وأجنحة كهذه لا يلزب عليها الجوستار أبدًا؛ لأنها أجزاءها دائمة النبض فلا يقدر جني أن يُظهرها بين البشر.

جميع السحرة السعالي العارفين للتمثل هم من أتباع الأمير «لوسيفر».. هذا مفهوم منطقًا لأن التمثل هو شأن يخص التعامل مع الإنس، وهو تعامل لا يعتني به سوى أتباع الأمير «لوسيفر»، لكن عامة الجن ليس لديهم أي اهتمام لمثل هذا، ولا يملك الجوستار إلا «لوسيفر»

وشيعته، ولا يحوزه غيرهم، التمثُّل بالنسبة للسحرة السعالي هو أحد طرق الإضلال، يتمثَّل أحدهم ويأتي الناس في صورة شخص لم يروه من قبل، فيتحدَّث لهم بالكذب والإضلال ولا يحتاج السعالي لفعل هذا إلا في حوادث تعجز الوسوسة على التغيير فيها.

جميع الذين تدعونهم ملائك نصيبين إنما هم سعالي نصيبين.. كلهم من رهط «لوسيفر»، حتى «عمرو بن جابر» وزوجته «إينور»، إلا أن هذين انتفضا وعصيًا وخانا العهد وكان لهم قصة في الجن يتحدَّث عنها القاصي والداني، كيف كانا من أشرس وأخلص أنصار الأمير، وكيف تقابلا في حكاية ملحميَّة وكيف تحابَّا وكيف عصيًا، حكاية ستجدها في المجلد الثاني من الصحائف.

مشكلة التمثُّل الوحيدة أن الجوستار إذا أبلجنا وأظهرنا في هيئة مرئية، تحجمت جميع خواصنا الجنية، بل هو يثقل على ذراتنا الجنية تحريكه فنتحرَّك حركةً مستصعبة، فنكون كأننا إنسان ضعيف جدًا، إن أمسكت ذلك الإنسان لا يقدر أن يُؤذيك ولا أن يعمل فيك أي شيء يضرك، وإذا قطعتنا بأداة أو ضربتنا بعصا فإنا نتأذى في هيئتنا الجنية بقدر ضربتك أو قطعتك للهيئة المرئية، لكن لا تكون لنا دماء!

كل حكاياتكم المسطورة والمنقولة عن الجنس بين الجن والإنس إنما هي خبَال.. إلا لو تمثَّلت إحدانا وأمسكت بها بالقوة واغتصبتَها، وفعلتكَ هذه لا ينتُج عنها أي حمل؛ لأن الجوستار إنما يُظهِر الأجزاء الخارجية من الجسد والفجوات الظاهرة، لكن الأحشاء الداخلية لا يصل لها جوستار، فماء المغتصِب سيهبط في وعاء فارغ من الجوستار ولن يكون هناك رحِم لاستقباله، وإن حدث هذا واستظهرت إحداهن رحمها بالجوستار بمعجزةٍ ما، فإن الحمل لا يقع، مثلما لا يقع الحمل بينكم وبين القرود إذا نكحتُم القرود، ولا يقدر الجن الرجل أن يمارس جنسًا مع أحد؛ لأن أعضاءه الجنسية تحتاج لأحشاء داخلية تثير فيها الحركة، والجوستار لا يغطي إلا الجزء الخارجي من أعضائه.

الجوستار فيه خاصية الانتشار الذاتي.. فلا يقدر جني أن يضعه على أجزاء من جسده دون أجزاء، ولا يقدر جني أن يختفي من أمامك فجأة كما قد تظن ألبابكم الجاهلة، بل إن الجوستار هي طبقة يحتاج إلى أن يخلعها الجني قبل أن يخفى إلى عالمه المستجن، وخلعها عنه يحتاج إلى بضع دقائق أو ثوان حسب مهارته.

(٧)

الآب
الابن
الروح القدس

In nomine Patris et Filii et Spiritus Santi, Amen...
Ave Maria... gratia plena ... Dominus tecum
ora pro nobis peccatoribus

رعشةٌ مضَت في عروق الجميع لما سمعوا حديث الرجل.. «أبو القاسم» قال لهم: لم يبعثني ربي لكن بعثي قريب.. طلّت أعينهم إلى هيئته وثقته، وتسابقت آذانهم لسماع قوله وأعجبتهم حلاوته... قال له أحدُهم: أفأنتَ يهودي أم نصراني؟ قال: لستُ هذا أو ذاك، ولقد دارست أحبار اليهود في كتُبهم حتى أهدُوني جميع أسفارهم وتلمودهم، ودارست رهبان النصارى وإن لي فيهم ودا وصحبة... قال أحد الأربعة: والله إننا ما خرجنا في هذا الركب إلا لنبتغي دين النصارى: فقد جالسنا يهود يثرب ووجدنا في دينهم التعسُّف والجور.. قال: إني كذلك قد مضيتُ فيما مر بكم ومال قلبي إلى دين النصارى، لكني لم أدخل فيه.. قال أحد الأربعة: فلتُعلمنا منه يا أبا القاسم فنصطبر على حر الطريق، فإن بعثكَ الله فإنا لك تابعون.

قال «أبو القاسم»: يذكرون أن الله الواحد له ثلاثة كيانات متساوية في القدر والعظمة، (الآب والابن والروح القدس)، كل واحد منها لوحده هو الله، والثلاثة كيانات معا هي الله، فالآب هو الله اللانهائي الغير محدود والغير منظور، والابن هو الله المنظور، والروح القدس هو روح الله وهو الله.. ورغم أنها ثلاثة كيانات متماثلة إلا أنها كلها كيان واحد هو الله، وهذه الثلاثة كيانات موجودة في العالم في نفس الوقت.

ثم قال «أبو القاسم»: كيان الابن المنظور هو كيان صادر منذ الأزل من كيان الآب اللانهائي الغير منظور، بينما كيان الروح القدس انبثق منهما، كيان الابن هو الذي خلق العالم، وكيان الروح القدس هو الذي أعطى المخلوقات الحياة، ثم أتى حين من الزمان، تجسَّد فيه الكيان الابن الذي هو الله في هيئة بشرية ونزل إلى الدنيا فرآه الناس، وهذا الكيان الابن هو المسيح عيسى، ولأن كيان الابن هو الله، فإن المسيح هو الله، ولقد تجسَّد في صورة إنسان لسببٍ مُعيَّن..
قالت «ماسا»: ما هو هذا السبب؟

قال «أبو القاسم»: أن يُضحِّي بنفسه ويموت قُربانًا لأجل خطايا العالم التي بلغت حدًا عظيمًا متعاظمًا لا يقدر على غفرانها أي قربان، فقضى الله أن

يرحم هذا العالم رغم خطيئته المتعاظمة، فتجسَّد كيان الابن في هيئة بشرية هي المسيح عيسى، وسمح للإنسان أن يقتُله ويصلبه، وما فعل ذلك إلا ليبذل نفسه قربانًا ليرحم العالم كله رحمةً أبدية ويغفر خطايا الإنسان المتعاظمة.

قال أحدهم: أي خطية مُتعاظمة؟ أليس اليهود كانوا يعبدون الله وحده وسط أمَم كثيرة رفضته؟ قال «أبو القاسم»: العالم كله كان قد غرق في الخطية حتى طفا، الأمم الغير يهودية غاصت في الخطية وعبادة الأصنام، واليهود بعد أن حرَّرهم الرومان من السبي وأرجعوهم إلى الأرض المقدسة وبنوا المعبد الثاني، استمرأوا الخطية وتركوا التوراة ومارسوا الربا على أبواب المعبد، كانت الأرض سابحة في الخطيئة، لكن ليست هذه هي الخطيئة التي جعلت الله يضحي بنفسه قربانًا ليرحم العالم، هذه جزء فقط من الخطية، هناك جزء آخر أكثر أهمية... قال الرجل: أي جزء؟ قال «أبو القاسم»: الخطيئة المتوارثة التي ورثها كل إنسان من جده آدم، هذه موجودة مع الإنسان يولَد بها وهو مُشبَّع بها، هذه موجودة لدى كل أحد منذ خروجه إلى العالم طفلا، فلم يكتف العالم بهذه الخطية الأصلية التي ورثوها من أبوهم آدم، إنما أخطأوا خطايا أخرى استوحلوا بها في وحل الخطية أكثر.

قال «عمرو بن جابر»: يا رجُل، خطية آدم قبل آلاف السنين؟ ما علاقة ذريته بها؟ قال «أبو القاسم»: آدم لما أكل من الشجرة أصبحت نفسه خاطئة وتوَّاقة للخطية بعد أن كان بريئًا، هذه النفس الخاطئة التواقة للخطية أورثها آدم لكل ذريته، ولقد قضى الله في الأزل أن العاصي يخرُج من رحمة الله، فآدم لما عصى خرج من رحمة الله وخرج من الجنة، وذرية آدم كلها بالتالي خاطئة وخارجة من رحمة الله... تبسَّمَت «ماسا» وقالت: ما الحل إذن؟ ماذا يفعل بني الإنسان؟ تبسَّم «أبو القاسم» وقال: الحل هو المسيح، فلما ضحَّى بنفسه وبذل دمه، رفعت خطيئة آدم الأصلية أثقالها عن بني البشر، ورفعت كل خطايا البشر الأخرى.

قال «عمرو»: إذن الله غفر للعالم كله خطيئاتهم بعد أن صُلب المسيح؟ قال «أبو القاسم»: لا، فقط الذي يؤمن أن المسيح ضحى بنفسه لأجله هو الذي ترتفع خطيئته، أما الذي لا يؤمن بذلك فإن خطيئته باقية لم ترتفع.

قال «عمرو»: إذن يكفي أن أؤمن بتضحية المسيح حتى تغفر لي جميع خطاياي وأدخُل الجنة؟ قال «أبو القاسم»: نعم.. قال الرجل: وماذا إن عصيتُ

فزنيت أو قتلتُ.. قال «أبو القاسم»: كل خطاياك هذه مغفورة بتضحية المسيح طالما أنت مؤمن به.

لاحظ «عمرو» أن الجميع يُفكِّر في الأمر بشكل جدي.. لم تكن وجوههم ممتعضة كما كانت أثناء سماعهم لكلام اليهود، ثم تنبَّه «عمرو» إلى نقطة وقال: ماذا عن اليهود وكتب اليهود وعقيدتهم، ماذا يقول النصارى فيها؟ قال «أبو القاسم»: النصارى يؤمنون بكل ما جاء في التوراة اليهودية، كله كما هو بل ويقولون أنه هو كلمة الله المقدسة كما يقول عنه اليهود... ولكنهم لا يؤمنون بالتلمود.. قال «عمرو»: فما الاختلاف إذن؟ قال: الاختلاف هو في عيسى: اليهود لا يعتبرونه شيئًا على الإطلاق والنصارى يعتبرونه هو الله نفسه، الله المثلث الكيانات أنزل ابنه الوحيد في هيئة بشرية ليبذل دمه على الصليب لرفع خطيئة العالم.

قال رجل من الأربعة الأنوار: سمعنا من أفواه اليهود أنهم ينتظرون نبيًا من أرض العرب يخرُج في زماننا هذا، وينتظرون بعده نزول النبي إيليا الذي سيبشر بنزول المسيح المخلص.. قال «أبو القاسم» وقد شردت عينه: بالنسبة للنصارى فالمسيح المخلص الذي ينتظره اليهود قد نزل لليهود بالفعل واليهود كذبوه وصلبوه، وهو المسيح عيسى، وهو من نسل النبي داوود، يعني من النسل المقدَّس كما كان ينتظر اليهود.

قال الرجل: لكنه لم يُحرِّر اليهود من الاستعباد ولم يَعِد لهم الأرض المقدسة المحتلة من الرومان.. قال له «أبو القاسم»: كانت مُهمَّته هو تنبيههم إلى خطاياهم والتضحية بنفسه لغفران خطايا العالم، وبالنسبة للأرض المقدسة فلم يكونوا يستحقونها، لأن الله وعد الأرض المقدسة لليهود الذين يحافظون على العهد، وهم في زمن عيسى كانوا قد تركوا التوراة وظلموا وعملوا الخطايا، بل إن عيسى تنبأ لهم أن معبدهم الثاني هذا سيتم هدمه بسبب أعمالهم، وتحقَّقت نبوءته بالفعل؛ وتهدَّم المعبد الثاني بالفعل حين غزا الرومان الأرض غزوةً غاشمة طردوا اليهود من الأرض إلى الأبد، لكنه سيعود في آخر الزمان ليحقق النبوءة.

أما النبي الذي ينتظره اليهود، فلأن النصارى يؤمنون بالتوراة فمن الطبيعي أن يكونوا ينتظرونه أيضًا، لكنِ اعلموا أن ذلك النبيَ لو أتى سيُبشِّر بإتيان المسيح عيسى في آخر الزمان ليُحقق النبوءة، ولذلك لن يُؤمِن به اليهود.

نزل الجميع منزلا في الطريق ليستريحوا فيه.. وتمدَّدت العظام وتمطت الأجساد ونزلت الشمس تود الغروب، والأربعة لازالوا يشكون ويسألون أبا القاسم.. قالوا له: وكيف يريد النصارى أن يؤمن اليهود أن عيسى هو المسيح المنتظر وهو لم ينزل قبله إيليا كما تقول النبوءة في التوراة؟ قال «أبو القاسم»: بل نزل إيليا وحل في روح يحيى، ويحيى هذا هو الذي كان يُبشِّر بالمسيح.. قال له «عمرو بن جابر»: هذا من الـ...

فجأةً فجع القائمون والقاعدون بصرخة أنثوية مُتألِّمة بقسوة!. فنظر الناظرون لها فإذا هي «ماسا» تصرُخ وتمسك برأسها في ألَم وتبيض عيناها الجميلتان.. فهرع لها قومها من الجن وانسحب «عمرو بن جابر» وتخفى عن النظر، وأهدأ الجن المتمثلون الناس وقالوا أنها تُصرَع.. والناس من حولهم يعجبون من غرابة ملامحهم وغرابة فتاتهم.. أما «ماسا» فلم تكن تُصرَع؛ إنما كانت في تلك اللحظة ترى من ذكرى المكان أحداثًا عجبًا.

تنامى اللهيب بشمس كابدَة في وسط السماء تذرف لها الجباه.. و«ماسا» مجندلة على ظهرها فوق سطح دير، فلما استفاقت وأفرجت عينيها وقامت تعتدل، رأت أنها على دير ينظر إلى نفس الموضع الذي نزلَت فيه قافلتها منذ ثوان، فتطاولت فرأت قافلة قد توقفوا يحطون رحالهم في ذلك المستراح، قافلة ليست هي قافلتها وإن كانت تقف في نفس المكان.. والحقيقة أن الذكرى التي غشيتها قد أخذتها إلى نفس الموضع قبل سنوات طويلة جدًا، وقافلة في زمن قديم كانت تمر في المكان، فنظرت عينيها الجميلتين إلى تلك القافلة القديمة، كانت القافلة تحط الرحال على بُعد خطوتين من الدير ويبدو منظرهم واضحًا وقريبًا من مكانها، فجأة تنبَّهت إلى وجود رجُل يقف معها على السطح!. فجعت «ماسا» من وجوده، كان راهبًا شيخًا يرتدي زي رهبان النصارى، لكن وجودها الروحي كان يمنع أي شخص في المشهد أن يراها أو يحس بها، بدا بال الرجل مشغولاً ونظره مركزًا على القافلة، تحديدًا عند نقطة واحدة من القافلة، وعينه تنبض مرجفة كأنما يرى مشهدًا لم تحتمله عينه!، ورغمًا عنها حولت «ماسا» أنظارها لترى ما يرى، في البداية لم تستوعب ما الذي يلفت نظره، ثم ضيقت عينها في استغراب، فقد كان ما تراه عجيبًا!

غلام زكي كان من أمره عجبًا.. كانت رحال القافلة توضع وتُفرش والغلام يمشي مُتجوّلًا أمام القافلة. كانت القافلة قد نزلت وسط مدينة بصرى، وكان مستراحها وسط كثير من البنيان والشجر، وكل بناية وشجرة تُلقي بظلها أمام ذاتها، وبين الظلال مساحات مشمسة، والصبي يمشي هنالك، وهنا ضيقت ماسا عينها، فقد بدا أن ظلال الأشياء تتحرك فلا تدع موضعًا مشمسًا أمام قدم الصبي إلا ظللته!، كان هذا عجيبًا للوهلة الأولى كأن الشجر والحجر يخضع للصبي. ثم نظر الرجل إلى السماء ففطن إلى الأمر. كانت هناك غمامة بعيدة تتحرَّك وسط الغمام تلقي بظلالها في ذلك الموضع وتوافقت حركتها مع حركة الصبي.. تنهَّد الشيخ الراهب مُتفهِّما، ثم حاد الصبي عن جوار البنيان والشجر وتحرَّك إلى ناحية ساحة مشمسة كبيرة، تحرك إلى غير اتجاه حركة الغمامة، وهنا انتفض قلب الراهب، والتبس الأمر على «ماسا» فلم تعد تفهم.

تحرَّكت الغمامة من بين أخواتها كأنما لها حس.. تحرَّكت لتلاحق حركة الصبي، كان هذا مشهدًا يرجف القلوب إرجافًا!، فهرع الرجل ينادي على أصحابه «زريرا» و«ثماما» و«دريسما».. فأتوا إليه في اندهاش، قالوا ما بالك يا «بحيرا»؟ قال إني قد شهدَت عيوني عجبًا ما كنت أعلمه إلا مسطرًا في المكاتيب، أن الجماد إذا خطا في جواره نبي، تشوق الجماد إلى حفاوته، وإن الغمام لا يتحرَّك إلا لأجل نبي، أفلا تذكرون الغمامة التي تابعت موسى وقومه في البرية؟ أو تلك الغمامة التي ظللت المسيح على جبل التجلي؟ كان الرجال وكأنما سكرت أبصارهم ينظرون.. قالوا له: يا بحيرا، ما من نبي إلا من بني إسرائيل وهذه قافلة من قريش، دعك من هذا.. قال «بحيرا»: لا والله حتى أنظر في أمره.

ونزل ونزلت «ماسا» وراءه.. فتخلل القوم ماشيًا بينهم، قال: يا قوم إني صنعتُ لكم طعامًا وأحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم وعبدكم وحرّكم.. قالوا له: ما بالكَ يا بحيرا؟ ما كنتَ تصنع هذا بنا وكنا نمرُّ عليك كثيرًا!. فما شأنكَ اليوم؟ قال: صدقت قد كان ما تقول، لكنكم ضيف وقد أحببتُ أن أكرمكم.. فرجع فصنع لهم طعاما فأتوه معجبين مما يصنع.. نظر «بحيرا» بينهم يبحث عن الصبي وقد كان يعرفه من ملابسه التي رآها واضحة من فوق الدير.. فقال لهم وهو ينظر ويتطاوَل: يا معشر قريش لا يتخلَّف أحدكم عن طعامي.. ثم لم يلبث إلا أن رأى رجلًا مُحتضنًا غلامًا وداخلًا إلى الدير،

فارتاحت أسارير «بحيرا»، كان هو ذلك الغلام نفسه، وإن «ماسا» لم تكُ تستطيع الوصول إلى الغلام ببصرها من كثرة الرجال، لكنها شاهدت الراهب يتخلّل الناس حتى وصل إليه، فتبسّم له وسألَه مُلاطفًا: أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتَني عما أسألكَ عنه.. وفي مفاجأة للراهب قال له الغلام: لا تسألني باللات والعزى شيئًا، فوالله ما أُبغض شيئا قط بغضهما.. نظر الراهبُ إلى وجوه الرجال يتنحنحون لكنهم كانوا يتبسمون: فالغلام لازال في التاسعة من العمر.

صار الراهب يُساءل الغلام أسئلةً والغلام يُجيب و«ماسا» لا تسمَع جيدًا.. ثم شاهدت الراهب يكشف كتف الغلام وينظر أسفل كتفه، فاتسعت عينا الراهب، وظهرت المهابة على وجهه، ثم رفع الراهب يد الغلام وقال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين.. ارتجفت أسارير «ماسا» لكنها لم تستطِع التحرُّك أكثر، فإن جسدها الروحي لا يخترق الأشياء.. ثم قال الناس للراهب: ما أعلمكَ بهذا؟ قال الراهب: إنكم حين أشرفتُم من هذه الثنية لم يبقَ حجر ولا شجَر إلا تذلل له، وإني أعرفه بهذه الشامة بين كتفيه.. نظر له الأشياخ في تعجُّب وعدم قبول لأي شيء مما قال، ثم سألهم السؤال المنتظَر: يا أشياخ قريش هل هذا الغلام من قريش؟ مَن والد هذا الغلام؟ قال رجل من القوم: أنا أبوه.. قال الراهب: لا والله ما ينبغي أن يكون له أب.. قال الرجل: صدقت، وإني لما قلتُ أبوه فهي قد تعني في لغة العرب عمه... نظرَ الراهبُ للغلام، لم يكن الغلام من بني إسرائيل، بل كان من قريش، لكن الراهب «بحيرا» كان جازمًا أن هذا الغلام نبي، ولقد عرفه بعلاماته التي تكلّمت عنها كتب اليهود الإسينيين، وهم طائفة من اليهود الزاهدين العابدين الساكنين قرب قمران، تكلمت كتبهم عن المختار الذي ستكون لديه شامة، ويكون يتيما يفقد أبوه ويفقد أولاده، وسيكون حكيمًا تصل حكمته للعالمين، وسيكون حكمًا وبالحق خير حكم، وإن خطته لتنجح لأنه مختار من الله، وستكشف له الأنوار وسيقدس الملائكة، سيكون ممجّدًا في منطقته، وسيمتلئ كلامه حكمة عظيمة، وسيكتب كلمات الله في كتاب محفوظ لا يفسد.

نظر الراهب «بحيرا» إلى عم الغلام وقال له: لا تُسافر بهذا الغلام إلى الشام؛ فإن اليهود إذا عرفوه سيريدون به الشر، فأي نبي من غير بني إسرائيل هو عندهم دجال.. ثم دخل الرهبان أصحاب «بحيرا» ووجوههم لا تحمل

الخير، فانتحوا ببحيرا جانبا وتحدثوا له، فانطلقت «ماسا» لتسمع حديثهم.. قالوا له: ماذا وجدتَ في هذا النبي الذي زعمتَ أنه خارج مع أهل هذا الموسم؟ قال: ليس الغلام يهوديًا.. قالوا: أما والله إن هذا الغلام ليس بنبي، بل إنه قد يكون ساحرًا أو به جنة أو سيكون دجالًا من الدجاجلة.. قال لهم «بحيرا»: يا قوم ألا تفقهون، أساحر يتحرك له الغمام؟ قالوا: إن كتابنا يُحذرنا يا بحيرا من الأنبياء الكذبة، ويقول أنهم سيكونون مؤيَّدين بالمعجزات، إنا سنغافل القوم ونأخذ الغلام ونبطش به، فإن كان منصورًا من ربه كما تظن فإن ربه سيُنجيه... قال لهم: ما بالكم أطمست عليكم عقولكم، أفرأيتم أمرًا أراد الله أن يقضيه، هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا.. قال: إذن دعوه فإن يشاء الله أظهره وإن يشاء أهلكه.

فسلَّم الرهبانُ له بالرأي ونظروا إلى الغلام.. وكان قوم الغلام خارجين إلى ظل شجرة قريبة يجلسون تحتها، فجلسوا في جميع مواضع الظل أسفلها ولم تبقَ إلا مواضع تتخللها الشمس وسط أغصان الظل، ثم تبع الغلام القوم إلى الشجرة وجلس في ذلك الموضع المشمس المتخلل بأغصان الظل، والرهبان ينظرون و«بحيرا» ينظر و«ماسا» تنظر... والشجرة تفعل أمرًا مستحيلًا، تهاصرت أغصانها واقتربت من بعضها لتُظلل جميع مواضع الشمس أسفلها عند مجلس الغلام!، ووسط دهشة الرهبان انطلقت «ماسا» تمشي إلى حيث الغلام لترى وجهه، لكن شيئًا كأنما كان يسحبها من الأجواء كلها.. ثم استفاقت فجأةً لترى شعر الأرقم الأحمر وهو ينظر لها في قلق ملول، فنظرت إليه ونظرت حولها، فوجدت أن القافلة قد نزلت في نفس موضع دير الراهب «بحيرا» الذي يظهر بقبابه الثمانية ها هناك، وتحدثت إلى إخوانها من الجن وقصت لهم ما رأت، فسألوها عن اسم عم الغلام، فقالت أنها لم تسمع الاسم يُذكر في رؤياها، ثم نظرَت حولها لتبحث عن ذلك الجني الذهبي الشعر فلم تجده ولم تجد أصحابه الأربعة، حتى ذلك الرجل الوضّاء الذي قال أنه سيكون نبيا لم تجده.

في كنيسة عظيمة البنيان مزخرفة جدرانها بنقوش وصلبان.. دخل أربعة من أنوار قريش ومعهم رجل يمني ذو شعر أصفر، ورجل يُلقب بأبي القاسم له معرفة برهبان الكنيسة الذين أخذوا يحتفون به احتفاء عظيمًا، كان قسيس الكنيسة رجلًا ذو ملامح مميزة، وكان اسمه تميم، «تميم الداري»، كان الأربعة

ينظرون إلى حسن البناء والحضارة ويقارنونه في عقولهم بذلك الدير اليهودي الذي كانوا فيه، كان الفارق ضخما، إن كل صورة وقبة هنا توحي بعظمة هذا الدين المسيحي.. وكانت تجول في ألبابهم أسئلة كثيرة بعد حديث أبي القاسم لهم في الطريق، ولقد وجدوا من القساوسة في هذه الكنيسة ترحيبًا بهم وبشاشة عكس الذي وجدوه عند اليهود، خاصة لما عرف القساوسة أن هؤلاء يلتمسون لأنفسهم الدين، و«تميم الداري» هذا قد خصّهم بالحفاوة والترحيب، فابتدره «عمرو بن جابر» بالسؤال، قال له: بالله عليك يا قس أفأنتم تقولون أن الله له ثلاثة ذوات؟ قال «تميم»: نعم.. قال «عمرو»: وتقولون أنها كلها واحد؟ قال «تميم» نعم.. قال: فكيف يكون الثلاثة واحدًا، ويكون الواحد ثلاثة؟ تبسَّم «تميم» وقال له:

- أفأنتَ تظُن أن الله هو مثل هذه الماديات التي في الدنيا.. إن الله لا يدرَك بالعقل، فكيف تريد أن تجعله يخضع لقوانين الماديات، فتقول كيف يكون ثلاثة ويكون واحد، الماديات قوانينها ترفض هذا، أمِن الحق أن تجري قوانين المادة على الله؟

قال له «عمرو»: لا ليس الله يُقارن بالماديات، لكن لماذا لا يكون الله واحدا له ذات واحدة، لماذا ثلاثة ذوات؟ قال له «تميم»: حتى يخلق هذا العالم، كيف لله الغير مادي والغير منظور واللانهائي أن يخلق هذا العالم المادي؟ لابد إذن أن يكون له ذات منظورة منذ الأزل، قادرة على خلق العالم المادي، هذه الذات هي كيان الابن... استحسن بعضُ الرجال قولَه، ثم سأله أحدهم: وما حكاية أنه فقط إذا آمنا بتضحية المسيح من أجلنا فإن كل خطايانا السابقة واللاحقة مغفورة؟ قال «تميم»: من قال لكم هذا؟ نظرُوا إلى «أبو القاسم» الذي نظرَ لتميم مُتسائلا!.

مطَّ «تميم الداري» شفتيه وقال: ليس هذا صحيحًا هكذا على عواهنِه، وإلا لماذا نحن نعمد الناس في الكنيسة يعني نغمرهم بالماء المقدَّس حتى تُنقِّيهم من خطاياهم؟ كان يكفيهم الإيمان بالمسيح، ولماذا نحن نأمُر الناس أن يأتوا للكنيسة ويعترفوا بخطاياهم للقس، أليست خطاياهم مغفورة فقط بالإيمان بتضحية المسيح؟ لماذا يأتي المسيح في يوم الدينونة ويُحاسب المؤمنين به على خطاياهم، أليس يفترض أن تكون مغفورة لهم لما آمنوا به في المرة الأولى؟ فالأمر ليس كما قيل لكم.. قال له «عمرو»: وكيف الأمرُ إذن؟

قال «تميم»: إن المسيح لما صُلب وضحى بنفسه، لم يفعل ذلك ليغفر خطايا السابقين واللاحقين؛ إنما فعل ذلك ليسمح لخطايا السابقين واللاحقين أن تُغفر؛ يعني هو كأنه لما ضحى بنفسه إنما شفع شفاعة عظيمة للعالمين، شفع لهم عند الله حتى يقبل الله أن يغفر خطاياهم أصلًا... قال له «عمرو»: أليس المسيح هو الله؟ قال «تميم»: نعم.. قال «عمرو»: أوليسَ الآب هو الله؟ قال «تميم»: نعم.. قال له «عمرو»: ولماذا يحتاج أن يُضحّي بنفسه ليشفع عند نفسه؟ قال «تميم»: وماذا كنتَ تريده أن يفعل؟ قال «عمرو»: عند اليهود الله يغفر الخطايا بمجرَّد أن يتوب الشخص في نفسه، الله يملك سلطان غفران الخطايا، لماذا يحتاج إلى فداء؟

قال «تميم»: كيف تُريد أن تُخطيء ثم تُغمض عينك بضع ثوان تستغفر فيَغفر الله لك؟ هل الملك لو أخطأ شخص في حقّه ثم أتاه يقول له أن يغفر له، فيغفر هكذا بدون شيء؟ بلا واسطة ولا فداء تفدي به نفسك؟ اعلم أنه لابد لله من واسطة بينك وبينه حتى يغفر لك خطيئتك؛ هذه الواسطة كانت عند اليهود ذبائح يذبحونها للرب يحرقونها كلها لله ليغفر لهم أو يذبحونها ليأكل منها الكهنة، أما عندنا فلا توجد ذبائح؛ لأن الله عَفانا من هذا فقدَّم ابنه ذبيحةً نهائية، فلا يمكن أن تصل إلى غفران الله إلا بالواسطة، والواسطة هي هذه الذبيحة النهائية، الواسطة هي المسيح.

وحتى لو آمنتَ بالمسيح وغُفرت لك خطاياك السابقة كلها، فإنك ستحتاج أن تأتي للاعتراف في الكنيسة لأن المسيح قد أعطى تلامذته ومن بعدهم سلطة غفران الخطايا؛ فهؤلاء الرجال الصالحون سيكونون الواسطة بينك و بين الله، إن غفروا لك يغفر لك الله.

ثم ختم «عمرو» بسؤال أخير قال: ماذا عن ذلك النبي الذي ينتظره بنو إسرائيل، النبي الذي من بلاد العرب؟ نظر الكل إلى «تميم» يرقبون قوله.. قال «تميم»:

حكاية أن اليهود ينتظرون نبيًا يأتي في آخر الزمان يُبشّر بنزول إيليا ونزول المسيح المخلص فنحن لا نؤمن بهذا، وحتى لو جاء نبي حقًا فسيكون ممجّدا للمسيح وسيخاصم اليهود لأنهم رفضوا المسيح، وبالتالي سيكفر به اليهود.

هنا تكلَّم «أبو القاسم»، قال: يا «تميم» أتنكر أن المسيح عيسى بنفسه كان يُبشِّر بالنبي الذي سيأتي من بعده؟ قال «تميم»: أين قيل هذا؟ قال «أبو القاسم»: في كتابكم الإنجيل أو كما تصفونه بالعهد الجديد.. قال «تميم»: نعم أنكِر هذا، أين وجدت هذا في كتابنا؟ قال «أبو القاسم»:

في الأسبوع الأخير من حياة المسيح، قبل ساعات من صلبه، علم أن ساعته قد جاءت، حينها قال لتلاميذه أنه ذاهب إلى حيث لا يمكن أن يتبعه أحد، أي أنه سيغادر هذه الدنيا، وكان هذا يعارض ما وُصف به المسيح المخلص في التوراة أنه سيملك أورشليم وسيُحرِّر اليهود ويعيد أرض الميعاد لهم... فقال «المسيح» لتلاميذه المؤمنين به: لا تخافوا وثقوا بي فإني ذاهبٌ لأعد لكم مكانا عند الآب، فإن ذهبت وأعددتُ المكان سآتي وآخذكم إلي، واحفظوا وصاياي وسأطلب من الآب أن يُرسل لكم «مناحما» آخر، رسول من عنده يمكث معكم إلى الأبد، رسول هو روح الحق، العالم لا يستطيع أن يقبله لأنهم لا يرونه ولا يعرفونه، لكنكم تعرفونه لأنه ماكثٌ معكم ويكون فيكم، وأنا بعد قليل لا يراني العالم أيضًا، أما أنتم فترونني أني أنا حي فأنتم بهذا ستحيون، لكني لا أترككم يتامى، إني آتي إليكم.

فالذي يحفظ وصاياي هو الذي يحبني والذي يُحبني يحبه أبي وسأظهر له ذاتي.. فقال له أحد التلاميذ: لماذا ستظهر ذاتك لنا نحن وليس للعالم كمسيح مُخلص ملك على أورشليم مثل نبوءة التوراة؟ وأراد المسيح أن يعلمهم عدم النظر إلى ملك الدنيا وأرض موعودة فانيَة في الدنيا ويرغبهم في النظر إلى ملكوت الآخرة.. فقال له «المسيح»: إن الذي يُحبني سيحفظ كلامي ووصاياي وسيحبه أبي واليه سنأتي معًا ونصنع عنده منزلا في ملكوت الآخرة، وأما المناحما، الروح القدس، الذي سيُرسله الآب باسمي فهو يُعلِّمكم كل شيء ويُذكِّركم بكل ما قلته لكم، فلا تضطرب قلوبكم ولا ترهب، أخبرتكم أني أذهب ثم آتي إليكم، لو كنتم تحبونني ستفرحون أني قلت أني أمضي إلى أبي، لأن أبي أعظم مني.

إن كان العالم يُبغضكم فاعلموا أنه قد أبغضني قبلكم، إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم، سيُخرجونكم من المجامع وستأتي ساعة يظن فيها كل من يقتلكم أنه يُقدِّم خدمةً لله، وسيفعلون بكم هذا من أجل اسمي لأنهم لا يعرفون الذي أرسلني، لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالًا لم يعملها

أحد غيري، لم تكن لهم خطية. لكن ليس الآن وقد رأوا أعمالي وأبغضوني أنا وأبي، ومتى جاء المناحما الذي سأرسله أنا إليكم من الآب، هو روح الحق الذي من عند الآب ينبثق. فهو يشهد لي، وأنتم أيضا تشهدون لي لأنكم معي من الابتداء... إذن يا «تميم» أنتَ تؤمن أن المسيح بشّر برسول يدعى «مناحما»، وهو رسول غير مرئي وأنه هو الروح القدس سيرسله المسيح من عند الله ليمكث مع المؤمنين بالمسيح إلى الأبد.

وبالفعل بعد صلب المسيح وإيداعه في قبره بثلاثة أيام، وجد التلاميذ قبره فارغا، ثم فجأةً رأى التلاميذ «المسيح» ظهر أمامهم بلحمه و دمه.. وقال: سلام لكم، كما أرسلني الآب أرسلكم أنا.. ثم نفَخ بفمه الشريف عليهم وقال: اقبلوا الروح القدس.. فهيأهم وهيأ أجسادهم أن تقبل وعد الله بنزول الروح القدس عليهم، ثم قال لهم: من غفرتم خطاياه تُغفر له ومن أمسكتم خطاياه أمسكت.. ثم أمرهم ألا يبرحوا أورشليم وأن ينتظروا موعد الله، لأنهم سيتعمدون بالروح القدس، ليس بعد هذه الأيام بكثير.. وقال ستكونون لي شهودا بقوة الروح القدس في أورشليم وفي كل اليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض.. فهنا هو أعطى للتلاميذ سلطان مغفرة الخطايا متى تحقق وعد الله ونزل عليهم الروح القدس، وأعطاهم مهمة تبشير العالم.

ثم صعد «المسيح» إلى السماء.. وبعد صعوده بعشرة أيام، كان التلاميذ مُجتمعين معًا فسمعوا صوت ريح عاصفة من السماء، وظهرت لهم ألسنة منقسمة من نار استقرت على كل واحد منهم فامتلأ الجميع من الروح القدس، وفجأة وجدوا أنفسهم قادرين على التحدث بلغات أخرى وكانت معجزة، فذهبوا ليبشروا ويشهدوا للمسيح في البلدان، ثم أن أربعة منهم كتبوا الأناجيل الأربعة بمعاونة الروح القدس، فتحققت فيهم النبوءة أن الروح القدس يُعلّمهم ويذكرهم بكل ما قاله المسيح.. فكتب كل واحد منهم إنجيلا سجّل فيه حياة المسيح وأقواله، وأصبحوا شهودًا للمسيح بقوة الروح القدس.

ثم أنهم قد أورثوا قوة الروح القدس إلى خلفائهم من الأساقفة إلى الأبد.. فتحققت نبوءة المسيح عن الروح القدس، الرسول المناحما الغير مرئي الذي يمكث معهم إلى الأبد، وهذا مثل الذي حصل لما ذهب سبعين من كبراء بني إسرائيل مع «موسى» ليكلمهم الله، فرأوا السحابة، عندها تقول التوراة أن الله أخذ من روحه وأحل عليهم منها فصاروا كهنة، فهؤلاء أيضا قد جعلهم الله

كهنة بقوة حلول الروح القدس.

قال له «تميم الداري»:

- حسنا، ما المشكلةَ لديك، لم أفهم؟

قال «أبو القاسم»: المشكلة هو أن المسيح قال في هذه البشارة في أولها، «مناحما آخر»، أي أن هناك مناحما غيره أيضا مُبشَّر به.. قال «تميم»: مناحما غيره؟ من تقصِد؟

قال «أبو القاسم»: قبل أن يخرُج المسيح إلى وادي قدرون الذي قبض عليه فيه الرومان، قال للتلاميذ، أما الآن فأنا ماض إلى الذي أرسلني وليس أحد منكم يسألني أين تمضي، لكن لأني قلتُ لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم، لكني أقول لكم الحق، إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المناحما، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم، ومتى جاء ذاك سيحاج العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة، أما الخطية فسيحاج العالم بأنهم لم يؤمنوا بي، وأما على بر فلأني ذاهب إلى أبي ولا تروني أيضًا، أما على دينونة فلأن الشيطان رئيس هذا العالم قد انهزم (يعني سيحاجهم بأن البر هو في الإيمان بي وليس في إنكاري وسيحاجهم بأن اتباع الشيطان سيحرِمهم من الخلاص في يوم الدينونة).

إن لي أمورًا كثيرة لأقول لكم.. ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يُرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية، ذاك يُمجدني، لأنه يأخذ مما لي ويُخبركم وكل ما للآب هو لي، لهذا قلتُ أنه يأخذ مما لي ويخبركم.

هكذا ترى يا «تميم» أن المسيح كان يُبشّر بمناحما ثان أوصافه غير أوصاف الروح القدس، ولا تنطبق على الروح القدس الذي هو روح غير مرئي.. لكن هذا المناحما الثاني يأتي من بعد المسيح يمجد المسيح ويرشد إلى جميع الحق ويخبر بأمور آتية، ثم إنه يحاج العالم كله على رفض المسيح ويُعلمهم أن البر في الإيمان بالمسيح ويُحذرهم من اتباع الشيطان، ولا يتكلم من عند نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، هذا هو المناحما الثاني، وهو نفسه النبي الذي ينتظره اليهود من أرض العرب.

سكت «تميم الداري» قليلًا ثم قال: ولم تلاحظ يا قاسم أنه يقول يرشدكم إلى جميع الحق ويخبركم بأمور آتية، يعني يرشد التلاميذ ويخبر التلاميذ،

يعني هو سينزل للتلاميذ فقط.. قال «أبو القاسم»: بل المسيح لم يكن يُحدِّث التلاميذ فقط، ألم تره منذ أن بدأ الحديث معهم في أول بشارة قال لهم أنه ذاهب ليعد لهم مكانا عند الآب ثم سيأتي إليهم، وهو منذ أن صعد إلى الآب لم يأت للتلاميذ مرة أخرى ولن يأتي إلا في مجيئه الثاني في آخر الزمان؛ فكلامه لم يكن موجهًا للتلاميذ فقط، بل كان موجهًا لكل المؤمنين به عبر الأجيال، يبشرهم بأنه سيذهب إلى ربه ثم سيأتي لهم في آخر الزمان ولن يتركهم يتامى، ثم الأهم من هذا، ما حكاية أن المناحما يحاج العالم كله على إنكارهم للمسيح.. ويُحذِّرهم من اتباع الشيطان، وأنه لا يتكلم إلا بما يسمع، كل هذا لا ينطبق على الروح القدس أبدًا، كيف يقوم بهذه الأشياء روح غير مرئي مثل الروح القدس، هذا مناحما غير الروح القدس، لذلك لما بشر المسيح بالروح القدس، قال عنه أنه مناحما (آخر)، فهناك مناحمين.

قال «تميم»: اعلَم يا أبا القاسم أنه لو كان نبي من أرض العرب سيأتي ليحاج العالم على عدم إيمانهم بالمسيح، فسيكفر به اليهود لأنهم يكرهون المسيح، وسيؤمن به المسيحيون لأنه يدعو للمسيح.

هنا تدخَّل «عمرو بن جابر» وقال لتميم وهو يشير لأبي القاسم: إن هذا الرجل يا «تميم» قد أخبرنا أنه سيكون هو النبي المنتظر.. اتسعت عينا «تميم الداري» ونظر إلى «أبو القاسم» وقال له: يا أبا القاسم، إنه لا يكون نبي إلا أن يكون من بني إسرائيل، فحتى لو كان عربيًا فلابد أن يكون من بني إسرائيل، هذا ثابت نؤمن به من التوراة.. قال «أبو القاسم»: هذا شيء يتعسف به اليهود لجنسهم وأنا أعجب كيف توافقونهم عليه، أفيترك الله الأمم الأخرى بلا أنبياء؟ أم أنه خلقهم فقط ليقتلهم بني إسرائيل ويأخذوا أرضهم!، ثم أن هناك نبوءة يتناقلها الكهان أن نبيًا من أرض العرب من غالب بن فهر سيأتي وليس من بني إسرائيل، يعني من قريش، وأنا والدتي من قريش، ويتناقل الكهان في وصفه أنه أحمد يعني محمود بين القوم، وأنا عليم باللغات، كلمة مناحما الواردة في إنجيلكم آرامية تعني الأحمد المحمود، بهذا تطابقت النبوءات، نبوءة الكهنة ونبوءة الإنجيل ونبوءة التوراة... نظر له «تميم» بعين آسية وقال له: يا عزيزي حتى لو صدقت نبوءة الكهنة فإن النسب في النبوات لا يكون من جهة الأم، بل يكون من جهة الأب، يعني لابد أن تكون من غالب بن فهر من جهة الأب، يعني تكون من قريش من جهة الأب.. بان عدم الرضا في عين «أبو القاسم»، ومال

«عمرو بن جابر» على واحد من الرجال الأربعة وسأله مباشرةً: ما اسم «أبو القاسم» ونسَبه؟

مالَ الرجل على «عمرو بن جابر» وقال له: اسمه أميّة بن أبي الصلت، وهو من ثقيف في الطائف وليس من قريش.. اتسعت عين «عمرو بن جابر»، وشرد ذهنه في مشاهد وأمور، ولم يستفِق إلا على كلمة أحد الرجال الأربعة وهو يقول:

- أيها القس الكريم، إني أريد أن أتنصر.

انتفض كيان «عمرو بن جابر» ونظر بعيونٍ ملئها المعاني إلى ذلك الذي تكلم.. كان واحدًا من الرجالِ الأربعة ويبدو أكبرهم سنا، فاستبشر به القسيسون وفرحوا فرحًا شديدًا، وهنا قام رجلٌ آخرِ من الرجال الأربعة وقال: وأنا مع ابن عمي، أيضًا أريد أن أتنصر.. ثم قام رجلٌ ثالث من الرجال الأربعة وكان هو قريب أبو سفيان وقال: وأنا معكم... سقطت روح «عمرو بنِ جابر» إلى أسفل قدميه، حتى كاد ينهارِ عن صورته الإنسية، وارتجف وهو ينظر إلى الرجل الرابع الذي كان جالسًا ثابتًا لم يتزحزح مثل أصحابه... نظر «عمرو» إلى الرجال الثلاثة الذين كان القسيسين يحتفون بهم ويسوقونهم ليعمدوهم بالماء المقدس، وقال في دواخله، إن النبي ليس من المعقول أن يتنصر، هذا مستحيل، على الأقل لن يتنصر على منهج النصارى في الإيمان بكتاب اليهود الذي فيه ما فيه من الفظائع عن الأنبياء وسفك الدم بأمر الله، حتى المسيح رغم أنه كان يهوديًا إلا أنه كان يعارض اليهود ويغالطهم في تصرفاتهم وأفكارهم.

وشطب «عمرو بن جابر» من ذهنه أسماء ثلاثة من الرجال الأربعة.. «ورقة بن نوفل» أول من تنصَّر منهم، والذي تبعه هو ابن عمه، «عثمان بن الحويرث»، ثم الذي تبعهما «عبيد الله بن جحش» زوج بنت أبو سفيان، ولم يتبقَّ إلا رجُل واحد، رفض أن يتنصر ورفض قبل ذلك أن يتهوَّد، بل قام وقال للنصارى:

- أما أنا فلا أتبعكم أبدًا، إنني من لعنة الله أفر، ثم آتيكم لتخبروني أن كل إنسان مولود بالخطيئة، حتى الطفل الرضيع، فلو سألتُكم ما خطية الطفل الرضيع، تقولون خطيئة آدم، فالعالم كله خاطيء بالفطرة، وربنا العظيم ضحَّى بابنه الوحيد فقط ليسمح لنفسه أن يغفر خطيئة العالم، أوليس ربكم بقادر على أن يغفر دون أن يضحي بابنه؟ آلله أعطاكم ككهنة سلطان مغفرة الخطايا، أفيعطيكم الله سلطان مغفرة الخطايا ولا يعطيه لنفسه!؟

ثم قام وقال: وتؤمنون بتوراة اليهود بكل ما فيها من أمور مستشنعة وتسمُّونها العهد القديم، واليهود هم الذين رفضوا المسيح وحرَّضوا على قتله، أفتؤمنون بكل شنائعهم على الأنبياء ثم تكفرون بقولهم في المسيح؟ ثم نظر إلى أصحابه وقال: من أراد أن يتنصر فليتنصر، فإنما نحن نبتغي لأنفسنا الدين، أما أنا فلستُ معكم، ونظر إلى «عمرو بن جابر» وقال: وماذا عنكَ يا أخا اليمَن؟ ساعتها كان «عمرو بن جابر» ينظر إليه نظرةً لو ترجمت لملأت أسفارًا، نظرة رجل فقدَ كل أمَل إلا فيك، رجل حار مئات السنين وبحث حتى وقف هاهنا، لم يترك قريةً ولا نجعًا إلا تحرَّى فيها، ولم يعُد باقيًا إلا أنت، نظرة ساهمة آملة إلى رجل لا يُمكِن إلا أن يكون هو النبي المنتظر، لا يمكن أن يكون شخصًا آخر.

إننا نؤز، ونؤز، ثم نؤز أزًا أنت لا تدريه، حتى نُخرج كل من يؤمِن بشيء مستقيم إلى الإيمان بشيء فيه من الشناعة ما فيه، كيف تريدنا أن ننقذ الجنة من أمثالكم..

أن تؤمن أن الله نفسه قد نزل بنفسه ليمشي على هذه الأرض، وهي من هي، حبة رملٍ هيِّنة وسط كون عارم كأنه الصحراء فيها رمال ورمال، هذا اعتقاد كبير..

إن لدينا أنبياء مثلما لديكُم، ومنا طوائف وطرائق، لكنا لم نظُن في جني من الأنبياء أنه هو الله نفسه، إلا «الوسيفر»، ظنه بعض الجن أنه الله، وهذا طبيعي لأنه الأول؛ فهو أبو الجن كلهم، وهو الآخر، يعني لا يموت، مخلوق من بداية الزمان ومستمر إلى نهايَته، ظنوه أنه الرب رغم أنه لا يقول هذا عن نفسه أبدًا، وكيف يقدر أن يقول هذا وهو نفسه في أول الأمر كان يدعو أبناءه لعبادة الله الواحد، حتى كثر قبيله، وظل هو عليهم حاكم يبث فيهم عقيدة الله وحب الله، كانت سكناه مع قبيله من الجن في جنة عظيمة بين دجلة والفرات... لكن الجن كانوا يسيحون في بقية الأرض كل حين ينظرون إلى حيواناتها ونباتها وأنهارها وبحارها، وبالفعل لم تكُن في الأرض بُقعة أجمل من جنة «الوسيفر».

حتى تحوَّل بعض القردَة من حيوانات الأرض إلى قردة أذكياء.. وبنوا مساكن لأنفسهم واستعمروا كثيرًا من الأرض وتخيروا أحسن المواضع فيها.. وحكى لنا نبينا «الوسيفر» عن أن واحدًا من الأذكياء أدخله الله إلى جنتنا، فيها من كل حيوان أنيس وجميل، ولم يكن فيها ضواري، لكن الله سمح فجأةً لذلك القرد الذي كان اسمه آدم أن يدخل، هو وزوجه حواء، ومن بعدها لم نرى الخير.. يقول «الوسيفر» أن آدم هذا أحدث خطيئة عظيمة فأخرجنا الله منها جميعًا.

واستعمر بنو آدم الأرض وكثر نسلهم وناكدونا فيها، وإنا اعتدنا ألا نسكُن بجوار مساكن الحيوانات، كنا نسكن السهول والمواضع الجميلة الواسعة، لكن بنو آدم كانوا يبنون القرى حول الواحات والأنهار وأجمل البقاع، لم يكونوا يختبئون في الجحور كالحيوانات، بل كانوا يستعمرون الأرض بالبناء ويقطعون كثيرًا من الأشجار.

وأمر «الوسيفر» قبيلَه أن يتبعوا هؤلاء الأوادم ويضلوهم ويرجعوهم إلى حيوانيتهم وشهواتهم، ولا يرتقون بروحهم وأفكارهم إلى ربهم، حتى لا يفسدون علينا آخرتنا كما

أفسدوا في الدنيا.. وقد كان، وسنعيدك إلى بهيميتك أيها البهيم كلما أتيحت لنا لذلك بادرة.

الآن قد عرفت ما يجب أن تعرف من صحائف الدين.. لازال اليهود ينتظرونك، أن تكون من نسل داوود، وأن تعيدهم إلى الأرض المقدسة، لا تغتم فلقد تاهت الأنسال الآن ويمكن أن تصنع لنفسك نسلًا إلى داوود، لن ينظر أحد بدقة شديدة إلى نسلك إذا أعدتَ اليهود إلى أرض الميعاد، وإن لأرض الميعاد حديث آخر.

(٨)

نبيّ بهيّ
قد تسامى وظهر

محمد
صلى الله عليه وآله وسلم

ليلٌ بهيم أسوَد، ورجل بقلب بهيمي أسود، وراءه امرأة تكاد تحثو التراب على رأسها من الأسى.. تقول له يا أبا فلان ارحم وليدتنا.. وهو يمضي حاملًا طفلة رضيعة في غلالة سوداء، بكحل أسود على عينيه كأن مداده من سواد قلبه، حتى أتيا جبلًا أسودًا لا يبين من سواد الليل، كان الرجل يريد أن يئد الرضيعة في حفرة تحت الجبل، جبل دلامة الملعون الأسود الذي تئد عنده العرب بناتها، لوحة انماعت ألوانها فصارت أسودًا، ولا شيء إلا الأسود.

أعطى الرجل فلذة كبده إلى أمها وشمَّر عن ساعديه وبدأ يحفُر في الأرض.. والأم إلى رضيعتها تنظر في فجع!، والرضيعة لا تكاد تفتح عينها، لا تدري أنها خرجت من سواد الرحم لتعود إلى سواد آخر يُحفر لها بالجوار.. توقَّف الرجل ومسح عن جبينه ذرات عرق تركت بعد مسحها سوادًا على جبهته، ثم رفع رأسه، فإذا بأقدام غريبة واقفة في حزم، رفع مقلتيه لينظر إلى وجوههما في هذا السواد فلم يتبيَّن إلا أن أحدهما أشقر عجيب والآخر فيه من أحسن ملامح العرب.

كان هذان هما «عمرو بن جابر» والرجل الأنور الوحيد الذي تمسَّك بالحنيفية.. كانا عائدان من رحلة طويلة من الشام وتمددا ليستريحا عند جبل دلامة إذ واجههما هذا المشهد.. قال الرجل الأنوَر: آلله أمرك بهذا يا صاحب الجبين الأسود؟ قال الرجل: ويحَك، إن البنات من عند الله، أما الذكران فمن عند الآلهة المقدسة، إنما أنا أعيدها لمن أرسلها، إلى الله، فلا حاجةَ لي بها.. لمعت عين الرجل الأنور غضبًا وقال: آلله أمرك بهذا يا صاحب القلب البهيم؟ قال الرجل: ذرني وما أنا فيه، إنما نحن فقراء، لا نجد قوت يومنا.. قال له الرجل الأنور: أنا أكفيك مؤونتها.. وأخذ منه الطفلة يُلاعبها ويُضاحكها ورآها «عمرو» بعينه النافذة كأن شفتاها قد انفرجتا ببسمة ضاحكة في هذا الظلام...

في كل يوم يتأكَّد لعمرو بن جابر أن هذا الرجل الأنور لهو النبي المصطفى؛ كل كلامه وحُديثه وبشاشته في تجارته ومحبة الناس له وثباته على تقديس ربه وأنبياء ربه عن كل منقصة... كان «عمرو» يمشي مع الرجل ومعهما الرضيعة

إلى ناحية مكة، ثم توقف «عمرو» فجأةً بلا سبب!، وطافت في عينه الدنيا ودرات، كأن لسعة من نار أصابته في الفؤاد، ومال «عمرو» إلى الأمام ثم اتزن واعتدل، تنامت اللسعة إلى ألَم حارق سعى في نصفه الأعلى حتى رفع رقبته ورأسه إلى السماء من الألم، ثم هوى على ركبتيه وتذكّر، ذلك السم، كان وجه الشيطان «سيدوك» يجول في ذاكرته، لكن هذه الآلام لم تكن في صالح صورته الإنسية التي تصوَّر بها، لأن عيناه كانت قد ابيضتا تمامًا من الألَم وهو ينظر إلى السماء.

نظر إليه الرجل الأنور وقد تنامى الرعب في صدره، ومدَّ يده حتى يلمسه، لكن «عمرو» أبعدَ يده بحدة، ونظر إليه بعين صافية البياض فانتفض الرجل الأنور متراجعًا والرضيعةَ في يده، دقائق وهدأت آلام «عمرو» وأمسك برقبته وحركها كأنما يود الخروج من جسده، ثم استقر «عمرو» وقال للرجل ألا يشغل باله، فإنها نوبات صرَع تأتيه من حين لآخر.. لكن نظرَة الرجل الأنور له لم تكن مرتاحة، ولم تكن تُصدِّق.. وبدأ يمشي قلقًا بجوار «عمرو» في الطريق، وأصبحت أسئلته موجهة ناحية شخص «عمرو»، قال له: من أي قبيلة أنتَ يا بن جابر؟ نظر له «عمرو» ولمحات من الحيرة تغزو ملامحه، ثم قال لهُ أنه يتيم، لا أب له ولا أم، ولا يدري لنفسه قبيلة.. فسكت الرجل الأنور، وتشاغل بالتفكير في أمر آخر رغم أن شكه لم يخبو، وبدأ ينظر إلى «عمرو» نظرةً مختلفة، فلم يكن ما رآه مجرد ابيضاض عين فقط، كان قد رأى أمورًا أخرى، لكنه كتمها في نفسه.

نزل الرجلين إلى مكة وافترقا فيها.. أما «عمرو بن جابر» فقد هرع إلى وادي عبقر، فإن فيه من الجن حكماء، لينظر في أمر السم المبيد الذي أصبح يأتيه بالألم ساعة وساعة، أما جن نصيبين فقد تشاغلوا بالحوم حوالي «أمية بن أبي الصلت»، فلم يعرفوا رجلا غيره يُخبر كل من يعرفه أنه نبي هذه الأمة.

أما الرجل الأنور فقد وضع على نفسه عهدًا بأن يكلم كل من يعرفه بسفاهة هذا الدين الذي يتبعون، وسفاهة هذه الأصنام التي يعبدون.. بدأ يُحدِّث الناس كلما نوَّرت له فرصة، كان يحاول بالعقل أن يُعلمهم وبالحجة، ويدعوهم إلى أن يعودوا إلى دين أبيهم إبراهيم، ويعبدوا الله وحدَه لا شريك له، وأصبح لا يأكل مما يذبحون لآلهتهم؛ يقول لهم: الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض، أفأنتم تذبحونها على غير اسم الله؟ لكن الأمر لم يكن

بالنسبة لقريش دينًا، بل كان تجارة، كل تلك الأصنام حول الكعبة إنما وضعوها لتأتي قبائل العرب تحج إليهم، والحج يعني التجارة والمكانة والأمان، من ذا الذي يجرُؤ أن يُهاجم بلدهم المقدَّس وفيها البيت الحرام ولكل فئة من فئات العرب فيها أصنام مقدسة، التخلي عن كل هذا هو أمر مستحيل.

فضجَّ بهم الرجل الأنور.. وأسندَ ظهره إلى جدار الكعبة وصاح فيهم ذات يوم: يا معشر قريش، والذي نفسي بيده ما أصبح أحدكم على دين إبراهيم غيري.. ثم قال بصوت خفيض ناظرًا إلى السماء: اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتكَ به، لكني لا أعلم.. وعمل حركةً عجيبة أثناء دعائه، سجدَ على راحته متوجِّهًا إلى الكعبة، ثم قام ونظر إلى السماء وهو يقول بصوت عال: إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم.. ثم علا صوته أكثر وقال:

أسلمتُ وجهي لمن أسلمَت

له الأرض تحمل صخرًا ثقالا.

دحاها فلما رآها استوَت

على الماء أرسى عليها الجبالا

وأسلمت وجهي لمن أسلمت

له المزن تحمل عذبا زلالا

بدأ الناس يتجمَّعون حوله، فنظر إلى الأصنام الموتودة كأوتاد الغزاة هنا وهناك، وقال:

أربٌ واحدٌ أم ألف رب

أدين إذا تقسمت الأمور

عزلت اللات والعزى جميعًا

كذلك يفعل الجلد الصبور

فلا العزى أدين ولا ابنتيها

ولا صنمي بني عمر أزور

ولكني أعبد الرحمن ربي

ليغفر ذنبي الرب الغفور

وتوجَّه إلى بيته فوجد عمه عند الباب، وكان رجلًا غليظًا، قال له: ما مقالة بلغَتني عنك؟ أنك تُسفِّه من آلهتنا المقدسة عند كل من تحادث، أغاب عقلكَ أم تريد أن تأتينا قريش بما نكره؟ ألست عندهم محمودًا طوال عمرك؟ قال له: يا عم، إنما يفعلون الشر ويذبحون لأخشاب ويسجدون لأحجار ويقتلون أولادهم وبناتهم، إن كان هناك عقل قد ذهب فهي عقولهم وعقلك معهم... وكانت مشادة بين الرجل وعمه، وعلَت الأصوات، وتجمهَر بعض الساكنين في الجوار، وكانت بينهم عين رجل جني كان للتو آتيًا من وادي عبقر، وقع في نفسه لما رأى المشهد أن نبيًا في هذه الأرجاء سيتصدى لأيام صعاب وأناس صعاب، ويبدو أنه يرى النبي الآن وهو يبدأ بذور دعوته، مضى الرجل الأنور ماشيًا بعيدًا، وحيدًا غريبًا كغربة عقيدته، وبقي «عمرو بن جابر» بهيئته الجنية يرقبه من عَل.

خرج الرجل إلى أرض فضاء يمشي فيها مهمومًا على غير هدى.. فناداه صوتٌ بل نادته أصوات، فالتفتَ لها، فإذا بهم فتية من حدثاء قومه، ولم يكنِ في وجههم خير، في أعينهم نظرات مراهقة جذلة، ثم فاجأوه ووثبوا عليه وثبة رجُلٍ واحد، فجالت أياديهم في وجهه وجسده حتى لم يبق فيه موضع سالم.. ثم تركوه مطروحًا على الأرض وحيدًا مضرجًا في دمائه، وقد نقلوا له رسالة من عمه، أن قد آذناك ثلاثة أيام، ثم اجمع رحالك وارحَل من هذا البلد، فلستَ حِلًا لهذا البلد.

فقام الرجل ولم يعُد يدري ما الذي يجول بفكره، تلاطمت أفكاره كما تلاطمت عظامه، ورجع إلى بيته وزوجه، وارتمى على فراشه...

وفي يوم آخر خرج من بيته وركب ناقتَه إلى وادي بلدح قرب جبل حراء، وتوسطت الشمس صفحة السماء حارةً ملتهبة، والرجل الأنور يمشي بناقته والأفكار في وجدانه تخطر، حتى إذا نزل في أسفل الوادي لقيَه رجل من قريش قسيم وسيم كأنه القمر، كان راكبًا على ناقة له، فحيَّاه الرجل الأنور فقال له حييت صباحًا، فرد له الرجل التحية وتبسَّمَ له وقال: مالي أرى قومك قد شنفوك؟ فقال له الرجل الأنور وقد بلغ منه الهم مبلغه: أما والله إن ذلك لغير ثائرة كانت مني فيهم، لكني أراهم على ضلال، إني خرجتُ أبتغي هذا الدين فأتيتُ إلى أحبار يثرب اليهود فوجدتُهم يعبدون الله ويشركون به، فقلتُ ما هذا بالدين الذي أبتغي، فخرجتُ حتى أقدمتُ على أحبار الشام النصارى فوجدتُهم يعبدون الله ويشركون به، فقال لي حبر من أحبار الشام إنك لتسأل

عن دين ما نعلم أحدًا يعبد الله به إلا شيخًا في الجزيرة، فخرجتُ فقدمت عليه فأخبرته بالذي خرجتُ له، فقال لي إن كل من رأيت في ضلالة، إنك تسأل عن دين هو دين الله ودين ملائكته، فمن أنت؟ قلت أنا من أهل بيت الله ومن أهل الشوك والقرظ... فقال لي: إنه خارجٍ في بلدك نبي أو قد خرجَ نجمه، فارجع واتبعه وآمِن به، فرجعتُ ولم أحس شيئًا بعد.

فأنزل الرجل القسيم الوسيم ناقتَه وأتى له خادمه.. كان يبدو أن ذلك الخادم قد فرغ لتوه من عمل شاق، فلما تكلّم الخادم اتضح الأمر، دعا الخادم الرجُلين إلى سفرة، شاة ذبحها لتوّه وحضرها في مائدة، فأبى الرجل القسيم الوسيم أن يأكُل من السفرة!، فسأل الرجل الأنور الخادم وقال: ما هذه السفرة؟ قال الخادم: هذه شاة ذبحناها لنصب من الأنصاب.. قال الرجل الأنور: ما آكل شيئًا ذُبح لغير الله.. وقام الرجل الأنور وفارقهم، ومضى في طريقه، فلا أكل الرجل الأنور، ولا أكل الرجل الوسيم الأقمر.. تعجّب «عمرو بن جابر» من هذا، لكن كان همه مع الرجل الأنور المهموم الذي بدأ يجهز رحاله ليسافر أو ليهاجر هجرة نهائية، فلا أحد من قومه يحتمله، وإن أفكاره لتضع قبيلته في مأزق لا يحتملونه مع قريش.. وبالفعل غادر الرجل الغريب، غادر مكة وهاجر إلى حيثما هاجر، لم يدر «عمرو بن جابر» ما يفعل، لإن كان نبيًا فلماذا يترُك البلد ويهاجر!، وأحسَّ «عمرو» ببدء وساوس مثل التي أتته وشكٍّ في كل ما يعتقِد، فنظر حوله فلم يجِد حوله شيطان، فعلم أنها وساوس من نفسه التي بين جنَبيه، وساوس ملحدة.

حوافر عاديات على كثيب الصحراء عليها رجل أنور من أحسن أنساب قريش، نبذَه قومه فخرج برحاله إلى العراء مسافرًا إلى وجهة بعيدة، كان يلتفت حواليه كل حين وكأنما يحس شيئًا ما!، وبالفعل كان هناك شيء يطوف به وكأنما يجس أمره، كان ذاك «عمرو بن جابر» يطير وقد طار عنه كثير من حسن إيمانه، وراودته أفكار وأفكار، لكنه كان محتفظًا بأمل أخير في ذلك الرجل على أي حال.

وفجأة سمع الرجل صوت حوافر لها دوي عالٍ في الصحراء مما يشير إلى كثرتها.. كانت آتيَة من خلفه، نظر الرجل إلى اتجاه الصوت فرأى الصورة، كانوا رجالًا شدادًا من قبيلة لخم يتجهون إلى ناحيته ويشدون على خيلهم

لتعجل في العدو، وفي ثوان كان الرجال يعدون حول الرجل بخيولهم وينظرون إليه نظرات لم يفهمها، ثم حاد بعضهم وجعلوا أنفسهم يعدون أمامه، فأحاطوا به، فعلم أنهم يطلبونه، فأبطأ ناقتَه حتى أوقفها، لكن الرجال لم يتوقفوا، ظلوا يحومون حوله؛ همَّ «عمرو بن جابر» بالتدخُّل بطريقة ما لكنه توقف، أوقفته أفكاره التي تطوف في قلبه، ونظر، ثم ترقب وانتظر، فيرى ماذا يصنع القدر بذلك الرجل الأنور.

لقد قرأها «عمرو بن جابر» في عيون الرجال، كانوا مُرسلين للقتل، أخرجوا سيوفهم من أغمادها وكانوا أكثر من عشرة، والرجل الأنور وحده لا أحد معه، فأخرج سيفًا كان معه مجهزًا ليحمي نفسه في الطريق، أخرجه وفي عينه حيرة وحزن، ولم يكن في عينه خوف، فقاتله الرجال وقاتلهم حتى أردوه عن ناقته إلى رمال الصحراء الحارة، ونزلوا عن جيادهم وتهازءوا به، أيهم يقطع رأسه، فهوت عليه ضربات حاول أن يتفاداها لكنها أصابته في مواضع خطرة، وبين زحمة الرجال والسيوف، رأى الرجل الأنور طيف «عمرو بن جابر» واقفًا خلف الرجال ينظر وفي عيونه كلمات لم يفهمها الرجل الأنور، مدَّ الرجل الأنور يده إلى «عمرو بن جابر» وكأنه يشير له أن يبتعد ويحذر، لكن «عمرو» كان يمشي إليه بثبات لا يحس بشيء.

ورأى الرجل الأنور بعينه أن أجساد الرجال تخترق جسد «عمرو» كأنه طيف، وأنهم لا يحسون به، ثم توقف «عمرو» ونظر إلى الرجل الأنور، كان يزحف والدماء تفور من أطرافه، وضربات السيوف وضحكات الرجال المجرمين تصم الأذن، و«عمرو» واقف ينظر إليه وفي عينه برود قاس، فرفع الرجل وجهه إلى رب السماء وقال، اللهم إن كنت حرمتني صحبة نبيك، فلا تحرم منها ابني سعيدًا، ارتجفت جنبات «عمرو» من كلمات الرجل، ثم عاد له لباس القسوة، وأعرض وجهه عن الرجل، ومشى مبتعدًا، وهو يسمع الرجال يضربونه ويُمثِّلون به ويضحكون كضباع الصحاري، وليس من كلمة على وجه الأرض يمكنها أن تصف المشاعر التي كان يحس بها «عمرو بن جابر» وهو يمشي مبتعدًا عن ذلك المشهد، عن ذلك الأمل الأخير الذي مات أمام عينيه، تهدَّمت أسوار إيمانه وتصديقه بالقضية كلها، وشطب اسم الرجل الأخير الذي كان واضعًا فيه أمله، شطب اسم «زيد»، «زيد بن عمرو بن نفيل»، ولم يبقَ بعده أحد.

إلى الله أهدي مدحي وثنائيا
وقولا راضيا لا يني الدهر باقيا
إلى الملك الأعلى الذي ليس فوقه
إلـه ولا رب يكون مدانيا
حنانيك إن الجـن كانت رجاءهـم
وأنـت إلهـي ربنـا ورجائيـا
رضيـت بـك اللهـم ربـا فلـن أرى
أديـن إلهـا غـيرك الله ثانيـا
واني لـو سبحت باسمك ربنـا
لأكثر إلا مـا غفـرت خطائيـا
فـرب العبـاد ألـق سيبا ورحمـة
علـيّ وبـارك في بنـي وماليـا

«زيد بن عمرو بن نفيل»
سيّد الموحدين في الجاهلية.

إلى مكة كانت عودته ساهما في سير الأمور.. تذكر لما دخلها مرة مع «أسعد» الكامل فاتحًا في جيوش، ووضعوا على البيت كسوَته، كان اسمها فاران، وتذكر الطير الأبابيل، وتذكر وجه «إزب» و«سيدوك»، إن كل هذا وَهم، إنه أكثر مخلوق رمته الخطوب والسنين الطوال يتتبع هذا الأمر، أربعمائة سنين أو أكثر وهو ينتقل من قصة إلى قصة ومن أرض إلى أرض، خسر حياته وزوجه وشبابه، ولا شيء في النهاية إلا نبوءات شياطين وكلام في كتب أهل الكتاب بكل عجائب الأشياء التي وضعوها في الكتاب.

- أليسَت لك جماعة أيها الوسيم؟

نظرَ إلى مصدرِ الصوت فرأى فتاةً حسناء تنظُر له في لوم مشوب بالمرح.. نظر لها وفورًا تذكّر «إينور»، لكنها لم تكن «إينور»، فأطرق برأسه إلى الأرض

في حُزن وقال: ليسَت لي جماعة، إلام وصلتم؟ كان تلك هي «ماسا»، من وفد جن نصيبين.. حكَت له «ماسا» تفاصيل رؤياها التي رأتها عن الراهب «بحيرا» والغلام الذي يتحرَّك له الغمام، وعرفته بقدرتها التي اشتهرت بها في نصيبين... أنها ترى الماضي بكل تفاصيله، و«عمرو» يسمع لها وعروق عيونه ترتجف!، قالت له: ما بك يا هذا؟ قال لها: أفأنتم تؤمنون أن في هذه البلاد يخرُج نبي حقًا؟ إني كعمرو بن جابر لم أعُد أؤمن بهذا، أفأصدق رؤيا تأتيك أنت لما تنامين عن راهب في دير في الشام؟

كانت «ماسا» تنظُر إليه وعينها بارقة بطريقة عجيبة.. وكأنها قد انفصلت عن هذه الأرض كلها، ثم أغمضت عينها وعملت بلامحها ما يوحي بأنها تتألَّم، ثم فتحت عينها ونظرت له وقالت: «ربِّ إني أود لو تدلّني إلى الطريق، أو على صاحب الطريق، رب إني قد وهنت، وخبت في عروقي أنوار الأمل، فأظلم فؤادي، رب إنك قد أرسلتَ الشياطين عليهم تؤزهم أزا، فلم تترك الشياطين في نفوسهم جذوة من إيمان إلا أطفأتها، ولا رجل يقول يا رحمن إلا كادت له الكيد، ولم يعد على الأرض إلا بيتك المحرم».

كان «عمرو» يسمع وعينه متسعة؛ لقد كانت هذه كلماته، هذا ما دعا به ربه على أعتاب مكة قبل سنين طوال عند هذا الموضع أو حوله، اتسعت عين «عمرو»، هذه الفتاة التي أمامه ترى الماضي بتفاصيل لا يقدر عليها سواها.. هذا الدعاء قاله منذ زمن بصوت خفيض، وساحت نفس «عمرو بن جابر»، هذه الفتاة صادقة، ورؤياها صادقة، وتذكَّر «عاصف»، الذي مات مربوطًا على خشبة؛ مات لأجل دين الله، وتذكر «أسعد» الكامل وبسمته حين موته وهو يقول: شهدت على أحمد أنه، رسول من الله باري النسم.. ثم تذكر الرجل الأنور «زيد بن عمرو بن نفيل» وطيبته وخلقه الجميل ثم سجوده لربه في وسط ثلاثمائة صنَم ثم موته المفزع الدامي... تذكر كل هذا وأحسَّ بالحياء من نفسه، وترقرقت عيناه بالدمع حارًا على الوجنتين، هذه الفتاة.. لقد رأت رؤيا لصبي من تلك الديار يتحرك الغمام لمواضع قدميه، هذه الفتاة، لقد رأت «أحمد»، أخفى دموعه عنها وأعرض بوجهه، وهو يقول: وأين وصلتُم بعد هذه الرؤيا؟

قالت له وقد التقطت ما يفعل وما يخفي: نحن لازلنا نتبع أمية بن أبي الصلت، ولازال يخبر الجميع أنه سيكون نبيًا... لم يشأ «عمرو» أن يخبرها أن «أمية» هذا موهوم، وأنه ليس هو من يبحث عنه الجميع، فسكت «عمرو».

قالت له: يا «عمرو» ماذا عنك، أتؤمن أن نبيًا من بني الإنسان سيدعو إلى الله حقًا؟ أعرض عنها وقال: لم أعُد أدري ماذا أؤمن.

وافترقا... فعادت «ماسا» إلى أصحابها، أما «عمرو» فذهب إلى رجل واحد كان لابد أن يُخبره بأمر «بحيرا» الراهب، رجل تنصر من الأربعة الأنوار، أو من الأربعة الذين كانوا أنوارًا، ذهب إلى «ورقة»، -ورقة بن نوفل-.

كان «ورقة» رجلًا ساهمًا كثير النظر في النجوم، كثير همهمَة الصدر، وكان له صوان خارج بيته يجلس فيه ينظر إلى السماء، وكان «عمرو» إليه آتيا في هيئته البشرية، لكنه لما اقترب سمع صوت شخص عند «ورقة»!، فتوقف «عمرو» وتنحى عن الدرب والتقطت أذنه حديثًا يدور بين ورقة وبين من عنده، لكن «عمرو» لم يحتمل، فزال من المكان بهيئة البشر وانتقل إلى هيئة الجن وحل في المكان كجني، تمامًا عند «ورقة» ومن عنده، فوجد عند «ورقة» رجلًا جميلًا طويل الشعر أسوده، كان الرجل يقول لورقة: يا ورقة إني كنت جالسًا بفناء الكعبة، وكان زيد بن عمرو بن نفيل قاعدا، فمرَّ به أمية بن أبي الصلت، فقال كيف أصبحت يا زيد، قال بخير، قال له أمية، هل وجدت النبي الذي تبحث عنه يا زيد؟ قال زيد، لا يا أمية، لم أجد من ذلك شيء، أما إن هذا النبي المنتظر سيكون منا أو منكم أو سيكون من أهل فلسطين، فسكت أمية و رحل عن زيد.

ثم قال الرجل الجميل لورقة: إني لم أسمع قبل هذا بنبي ينتظر أو يبعث، أفهذا الأمر حق يا ورقة؟ قال له «ورقة»: نعم والله إنه لحق، إن هذا النبي المنتظر سيكون من أوسط العرب نسبًا، وإن لي علم بالنسب، وقومك أوسط العرب نسبًا، وإن النبي إذا خرج سيكون منكم.. قال الرجل الجميل: وما يقول هذا النبي إذا خرج؟ قال «ورقة»: يقول ما قيل له من عند الله، لا يزيد على هذا ولا ينقص.

ثم انصرف الرجل الجميل المحيا من عند ورقة.. وعلى الفور تصور «عمرو» في صورة البشر ودخل على «ورقة بن نوفل» فاستبشر به «ورقة» وحيَّاه وأكرم وفادته، قال كيف حالك يا بن اليمن، مكث «عمرو» عنده يسائله ويتذاكران رحلتهما ويتذاكران «زيد»، ويتذاكرا «أمية بن أبي الصلت» ووهمه في النسب والنبوة، وعلم «عمرو» أن «عثمان بن الحويرث» الرجل الثالث في الأربعة الأنوار

قد قُتل في الشام، وحكى له «عمرو» حكاية «بحيرا» الراهب، فخشع قلب ورقة للحكاية ولم يكن يعلمها.. قال «عمرو»: مَن هذا الرجل ذو الوجه الحسن الذي خرجَ من عندك لتوّه يا ورقة؟

قال «ورقة»: إنه رجل محمود في قومه يسميه قومه بالصادق من عظمِ صدقه فيهم.. استبشرِ قلب «عمرو»، لكن «ورقة» قال له: يا عمرو أعلم ما تُفكّر فيه، لكن يا عمرو، اعلم أن النبي لا يكون ينتظر النبي أو يبحث عن النبي، إن النبي يعلم أنه نبي.. اتسعت عين «عمرو» وقال: كيف يعلم أنه نبي يا ورقة؟ قال «ورقة»: هذا ما هداني إليه نظري يا «عمرو»، وليس لدينا إلا الانتظار.. لكن «عمرو» عارضَه بشدة ولم يُوافقه على هذا النظر.

وانصرف من عنده وهو يُفكّر في حكاية أخرى.. إن «ورقة» يظن بما عنده من العلم أن النبي سيكون من أواسط العرب نسبًا، من بني مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، فمضى «عمرو» وقد استعادت عروقه إكسير النشاط، لقد ضاقت الدائرة قليلًا فصارت من بني مرة بن كعب بن لؤي.. هذا يلغي نصف بطون قريش على الأقل، ولم يُضع «عمرو» وقتًا، وإنما انطلق إلى ذلك الرجل الجميل الذي كان عند «ورقة» لينظر في أمره، وقبل أن يتحرّك خطوة من بيت «ورقة»، وجدها أمامه؛ الحسناء من طائفة الأرواح، «ماسا».

قالت له: أفأنتَ تضللنا يا عمرو؟ إني قد سمعتُ حديثك مع ورقة، وقولكما أن أمية بن أبي الصلت موهوم، أتخاف علينا من نبيك إذا خرج يا عمرو؟ ألا تدري أنه إذا خرج وكان نبيًا من ربه فلن نقدر على أن نؤذيه؟ لم يدر «عمرو» ما يجيبها، وكان في سؤالها كثير من المنطق، همَّ «عمرو» بالكلام فسبقَته وقالت: والله إني لأرى من أمر هذا النبي عجبًا عجابًا، وإني لست كلِ ما أراه أحدث به أصحابي.. انتفض «عمرو» وقال لها: ما هذا الذي ترينه ولا تحدّثين به يا هذه؟ هل عرفتِ من هو أحمد؟

أطرقت برأسها وقالت: ليتني أعلمه، لكني رأيت من حياته عجبا.. قال: ألم تستدلي عليه؟ قالت: إني لست أخبر أحدًا بشيء حتى أريد أن أخبر.. نظر لها بعين كلها شوق وقال: أرجوك يا صاحبة الأرواح أن تنبئيني بما رأيت.. قالت «ماسا»: إني لا أفعل ذلك أبدا، لكن اعلم أني قد أتيتُ مع وفد نصبين إلى هاهنا مُجبرة، وإنك إن أردتَ أن تُضللهم لن تجد أفضل مني، فإني بينهم ذات ثقة.. نظر لها «عمرو» وهو يُفكّر وقال: لماذا تفعلين هذا وتضلليهم؟ ظهرَت في عينها

أشباح الدمع وهي تتذكر مراثيها ولم تردا، ثم فجأةً أمسكها من ساعدها وسحبها معه بقوة، وقال: إذن تعالي معي.. وانطلق «عمرو» بها إلى حيث كان يريد أن ينطلق، إلى ذلك الرجل الجميل الصادق من بني مرة بن كعب بن لؤي.
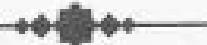
وقفا أمام بيته.. و«ماسا» تمسك بصدغها وكأنها تتهيأ لترى أمورًا، ثم فجأة تقوّس ظهرها ونظرت إلى السماء واتسعت عينها وصرخت، وأخذت إلى عالم من الصور، عالم من الماضي، عند نفس هذا البيت، حيث خرج من البيت رجل ومعه غلامه المراهق الذي ناهز الحلم، كان هذا هو صاحب الوجه الجميل لما كان غلاما، وكان معه أبوه، فانطلق أبوه به إلى مخدع الأصنام، وقال له: يا بني، هذه آلهتك الشم العوالي فتعبّد لها.. ثم ذهب الرجل وترك ابنه في مخدع الأصنام وحده.

نظر الفتى إلى الأصنام التي تعلو قامَته كلها، وذهب إلى صنم منهم وقال له: أيها المُشيَّد من الحجارة، إني جائع فأطعمني، إني عطشان فاسقني، ولم يرُد الصنم بل ظل ناظرًا بلا هدى... ثم ذهب الصبي إلى صنم آخر عليه هيبة، قال له: يا ذا الهيبة إني عارٍ فاكسني، ظل الصنم ينظر وأنفه أمامه، فأمسك الصبي حجرًا من الأرض وقال: إني راميك بحجر يا هذا فادفع عن نفسك، فلما لم يجد ردًا رمى الحجر فضرب مقدمة الصنم فخرَّ على وجهه وانكسر.. ونظر له الصبي بعينٍ حانقة، ولم ترى ماسا بقية الحدث فاستفاقت وأمسكت رأسَها من ألَم شديدٍ، وحكت لعمرو كل ما رأته، فتلهَّف قلب «عمرو» أن ينتقل إلى هيئة بشرية ويُصاحِب ذلك الرجل، و...

- ليسَ هو.

نظرا معًا إلى ما وراءهما.. كان يجلس جلسته القرفصاء المعهودة ويكتئب الجو لمرآه، «سيدوك» -شيطان السم- نظر إلى «ماسا» نظرةً لن تنساها وقال لها: لم أكن أدري أن في بعثتنا المقدسة رجل يماني؟ قالَت له بسرعة دون أن ترتبك: إنما هو قد علم في رحلته ما لم نعلمه وكنت أستزيده من الخبر.. رفع «سيدوك» حاجبه وقال: وما الذي يعلَمه هذا الكائن ولا نعلمه نحن؟ قالت: لقد كان في رحلة مع أربعة يظن أن واحدا فيهم النبي، وكان معهم أمية بن أبي الصلت، وكان أمية يعلمهم الدين، وهو...

ظهر شيء على رقَبة «ماسا» جعلها تهرع بيدها لتمسك رقبتها!، كان كالطوق القابض الذي قبض عليها فتساقطت والدنيا بها تدور، حتى سكنت حركتها على الأرض!. لاحظ «عمرو» طوقًا مشابهًا قد رُسم على رقبته فتراجع وسقط من التراجع.. قال له «سيدوك»: إن الذي تقف أمام بيته ليس هو الرجل الذي تنتظر، ثم غيَّر نبرة صوته إلى ما كأنه ثعبان ساخر وهو يقول: ألم يقل لك ورقة أن النبي يعرف أنه نبي.. توسَّعت عين «عمرو» وهو يطرد شيئًا لا يفهمه عن رقبته.. و«سيدوك» يقول له وهو يشير إلى عينه السوداء: لقد قلت أن عيني ستكون وراءك يا بن جابر.. ثم أغلق عينيه ولم يعُد هنالك، ولم تعُد «ماسا» أيضا هنالك، وانفك الطوق من على رقبة «عمرو»، وبقي يتحسَّس ما بقي فيها من ألَم، وحسرة.

رفع «عمرو» رأسَه ليرى الناس كلهم في الدرب قد توجَّهوا إلى بقعة واحدة وهم يتكلَّمون بشيء غير معتاد، فتناهض «عمرو» من بين آلامه وانطلق إلى حيث ما انطلقوا، كانوا ينطلقون إلى حيث الكعبة، وفي جزء من اللحظة كان «عمرو» عند الكعبة ينظر، وهناك تجمَّد «عمرو»!، تجمد وارتجفت يده وسقط على ركبتيه، لقد كانت الكعبة منهدمة على أركانها، وقريش كانت حولها يهدمونها بمعاولهم، ولم يكن هذا كل شيء، بل كان هناك شيء آخر، شيء مخيف!

كانت حقيقة.. إن قريشًا تهدم الكعبة، رغم أنها هي شرفهم وحرزهم ومنعتهم من الناس، لكن من أحاديث القوم تبين أن الأمر على غير ظاهره، إنما كانوا يخافون عليها من السيل الذي نزل بمكة فأرادوا رفعها وأرادوا تسقيفها بخشبٍ لئلا يدخلها ماء، لم تكن هذه هي المشكلة. المشكلة أن كل من كان يحمل معولاً حول الكعبة قد تراجع من الخوف، فلما هدمت قريش الكعبة، وأخرجت ما بداخلها من الأصنام ظهرت لهم من جوف الكعبة حية ضخمة جسيمة ملتفَّة حول نفسها رابضة على الأرض، وكلما اقتربوا منها رفعت رأسها وكشت في وجوههم واحزألت وفتحَت فاهًا وكان موضعها في قعر الكعبة، فهابوا منها وشعروا أن الله غاضب عليهم لأنهم هدموا الكعبة، وظنوا أنهم هالكون.

فأشار عليهم كبير منهم ألا تُدخلو في بنيانها من كسبكم إلا طيبا، لا تدخلو فيها بيع ربا ولا مظلمة لأحد منَ الناس.. فتعاهدوا عليه، وأمروا بحربة ليرمونها على الحية، فتحركت الحية الملتفة على نفسها وخرجت وانسلت من

بين أحجار الكعبة وغابت بعيدًا فجأة، فعلموا أن الله قد رضي على تعاهدهم، فمكثوا يضعون الحجر على الحجر ويضعون الخشب على السطح حتى أعادوا بناء الكعبة كلها لتكون أحسن وأعلى مما كانت عليه، حتى بلغوا موضع الركن والحجر الأسود، فتناظروا بينهم، أيكم يضع الحجر الأقدس، وتصايحت القبائل واختلفت وعلت الأصوات وتنابزوا بالألقاب وكانت العرب يمكن أن تقيم حربًا على أمور أقل من هذه أهمية!، وبدا من أحاديثهم أن الأمر ماضٍ إلى فرقة وتناحُر.

وتحالف بعضهم على بعضهم في وقفتهم هذه بل أعدوا للقتال، بل إن «بني عبد الدار» أخرجوا قربة مملوءة بالدم فوضع كل المتحالفين معهم أصابعهم فيها، فكان تحالف على الدم والموت، وإن ما أصعد الأمر لهذه الدرجة هو التنابز بين القبائل، فذكرت كل قبيلة معايب الأخرى، وفي وجود أسياد القبائل، اشتعلت النعرة في القلوب.

ثم خرج منهم رجلٌ رشيد واحد، قال لهم: يا قريش اجعلوا بينكم حكما فيما اختلفتم فيه، واجعلوه أول رجل يدخُل علينا من باب هذا الحرم.. فنظروا إلى بعضهم وتخافتوا بينهم ينظرون في الأمر، وبينما هم يتخافتون، إذ دخل عليهم من تلك الناحية من الحرم رجل، وانقلب بدخوله كل شيء رأسًا على عقِب!

نظر له الرجال وهو آتٍ وابتهجوا وانشرحت صدورهم وتراخت ملامحهم بعد عبوس ووجوم..

قالوا: رضينا، هذا الأمين، قد رضينا به والله، هذا محمد.. والتفت «عمرو بن جابر» وقد كان قبلًا يلتفت برأسه أما الآن فقد التفت كله، التفت ونظر إلى محمد.

دخل عليهم في تلك الساعة رجلٌ بهي، كأن وجهه قطعة قمر، أبيَض مهيب واسع المنكبين، له ملامح وسيمة كأنما أنشئت لوحدها إنشاء دونا عن جميع ملامح قومه، يتباهى في رسمها البياض الأقمر مع السواد الفاحم، الخد سهل سوي أزهر، تُفاخر بياضه لحيَة سوداء عليه تجمله، خافض الطرف والعين حورى طويلة أرماشها، سوداء وأحداقها سوداء، يعلوها حاجبان قويان

متصلان وشعر أسود فاحم مصفَّف مُرسَل طويل نازل على كتفين عريضين، إذا رأيته أكبرته ولا تطيل فيه النظر مهابة.

كان هو ذلك الرجل الأقمر الذي قابله «زيد بن عمرو بن نفيل» قبل أن يهاجر، ذاك الذي قُدمت له السفرة المذبوحة على الأنصاب ورفض أن يأكل منها.. استبشر كل الرجال بقدومه، كان يمشي مشيَة جادة فيها شيء من سرعة، ولما عرف اختلاف الرجال أمر بثوب وأمر أن يوضع عليه الحجر الأسود، وجعل رئيس كل قبيلة يمسك بطرف منَ الثوب ورفعوه جميعًا، ثم أمسك هو بالحجر الأسود ووضعه في ركن الكعبة.

لم يكن «عمرو» ينظُر إلى المشهد ولكن كان ينظُر إلى «محمد»، فقط إلى «محمد»!. كيف لم يلحَظ تواجده، إنه لم يأكل من تلك السفرة لما قُدّمت إليه، وإنه من «غالب بن فهر»، بل هو من «مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر»، بل هو من أشرف العرب نسبًا وأوسطها، من «عبد المطلب بن هاشم بن المغيرة بن قصي بن حكيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر»، لا يناديه قومه إلا بالصادق الأمين، واسمه «محمد»، ارتجف قلب «ابن جابر» وسقط في قدميه وهو ينظُر، أهو «أحمد»، بل ليس هناك في القوم أحمد منه عندهم، كان كل شيء في «عمرو» يهتز حتى لم يسمع ما يقال ولا ماذا حدث، لكنه فقط كان ينظر إلى «محمد» وتتوارد الأفكار عليه كالسيل، ثم ينظُر إلى الأرض ويمسك برأسه ويجف حلقه، ثم ينظُر إلى محمد، ويذكُر كل ما مرَّ به، وترتجف عيناه كأنها تود البكاء، ثم ينظر إلى «محمد»، والبهاء والنور الذي على «محمد» كاد أن يحلل ذرات جسد «عمرو بن جابر» من الارتجاف.

فكَّر لحظة في ذلك الرجل الجميل الذي ذهب إلى «ورقة بن نوفل» والذي رأت «ماسا» من طفولته أنه يكره الأصنام، إن اسمه أبو بكر، ويُلقّبه الناس بالصديق، ثم تذكَّر كلمة «سيدوك» بأنه ليس هو، أيعلم ذاك الخبيث «سيدوك» شيئًا لا يعلمه!، أيعرف «محمدًا»!؟ نظر «عمرو» حواليه، وحوَّل نظره عن «محمد» لأول مرة منذ أتى، فجعل ينظر حوله ليبحث عن أحد من جن نصيبين في الجوار، ثم تذكَّر أن «أمية بن أبي الصلت» قد ارتحل إلى اليمن وربما يكونوا قد ارتحلوا معه، ثم تذكَّر «ماسا» ونظر إلى الأرض وهو لا يدري ماذا حل بها، ثم عاود النظر إلى «محمد»، والقوم حول «محمد»، ولم تغِب عينه عنه فيما أتى من الأيام طرفة عين.

كان يتيما مات أبوه وأمه وربّاه جدُّه «عبد المطلب».. تذكُر «عمرو» الرؤيا التي حكَتها «ماسا» وكلام الراهب «بحِيرا»، عن الغلام الذي يتحرَّك الغمام لموضع قدمه، كان ذلك الغلام يتيمًا وذُكر في كتب اليهود أنه يتيم، ثم أن «محمدًا» مات عنه جده بعد ذلك فربَّاه عمه أبو طالب، فكان «أبو طالب» له خير أب، يُحبه أكثر من أبنائه جميعًا، وكانت زوجة أبو طالب له خير أم، «فاطمة بنت أسد»، كان لا يناديها إلا أمي، فكانت أمه بعد أمه، ولما حكى لها «أبو طالب» عما كان من أمر الراهب «بحيرا» وهو يقول أن هذا الغلام هو رسول رب العالمين.. استبشرت «فاطمة» بذلك وصدَّقت به وآمنت وهو لا يزال غلامًا، فكانت تجوع نفسها وتشبعه وتعرى لتكسوه وتمنع نفسها طيبها وتُطعمه... لا تريد بذلك إلا وجه الله والدار الآخرة.

وفي رؤيا الراهب «بحيرا» التي حكَتها «ماسا».. ذلك الغلام الصغير الذي يتبعه الغمام كان معه رجل قال أنه عمه، كان ذاك إذا هو «أبو طالب»، ولما كبر «محمد» زوَّجَه «أبو طالب» من امرأة فاضلة اسمها «خديجة» وأنجبَ منها «محمد» ولدَين وأربعة بنات، تذكر «عمرو» كلام الراهب «بحيرا» أن النبي يموت عنه أولاده، فاغتم «عمرو» لذلك، لكنه طرد هذا الخاطر عن رأسه وجعل يتابع «محمد»، وفي كل ساعة يستنير قلبه بمحمد نورًا.

وفي ساعة من الصباح.. كان «محمد» يمشي ومعه خادمه، ذاك الخادم نفسه الذي قدَّم السفرة لمحمد ولزيد بن عمرو بن نفيل فأبيا أن ياكلا منها، كانا يمشيان عند صحن الكعبة يطوفان بها و«عمرو» ينظر إليهما في اهتمام، حتى مرَّا بصنمين كبيرين من نحاس اسمهما إساف ونائلة، يؤمن العرب أنهما إنسانين زنيا عند الكعبة فمسخهما الله صنمين، وكان الذين يطوفون عادة بالبيت يتمسَّحون بهما لنيل البركة، فتوجه الخادم إليهما وتمسَّح بهما، فنهاه «محمد» عن ذلك وقال له: لا تمِسَّهما ولا تمسَح بهما فإنهما رجس.. فتركهما الخادم، و«عمرو بن جابر» ينظُر ويستبشِر.

حتى أتى ذلك اليوم..

غارٌ معزول في بطن الجبل، فجوة ظلماء لا تكاد تبين في جوف الليل، ورجل محمد قد انتبذ قومه فيها وتنحى، وتوحد بنفسه فيها وتخلى، كان يأتيها في كل عام شهرًا، ثم حبب إليه الخلاء فيها فانعزل شهورا، كانت مثل هذه الأماكن المعزولة مخيفة جدًا لأهل مكة والعرب لما شاع بينهم من قصص الجن

والأغوال، أما ذلك الرجل المحمد فكان يذهب إليها كل يوم، لشهور عدة... و«عمرو بن جابر» وراءه يحوم، حتى أتى يوم من الأيام الدابرة..

في ظلماء الليل وعسعسة النجوم، وكل غافل في المساكن منكسف، إذ قضى الله الأمر الذي كان منتظر، وقضى «عمرو» كل صبر معتبر، ورأت عيون «عمرو» في هاته العتمة أمرًا خارج سلطان البشر، أمر تنزل من فوق سبع سماوات بقدر، فلما رآه خرَّ على رجليه واكتوى كل جن واندحر، وتهللت النجوم وانقشعت الغيوم حتى خشع الجبل، تنزَّل الأمر في ليلة هي خيرٌ من ألف شهر، على نبي بهي في آخر الزمان قد تسامى وظهر، بشيرًا نذيرًا لقوم غافلين من الأعراب والعجم.

أرأيت لما ابيضت عين «عمرو» وقال أنه يُصرع، أرأيت خوف الرجل الأنور منه وذعره وهو رجل بكامل رجولته.. ذاك بسبب أسطورة تناقلتها أجيالكم، أسطورة بدأت من التوراة، تقول أن الله أرسل على الملك شاول روحًا شريرة كانت تدخُل فيه وتؤذيه، فنصحه خاصته أن المقاتل داوود يعزف عزفًا رائعًا على القيثارة، فليعزف لك حتى تخرج تلك الروح، فاستدعى داوود وعزف له وخرجت منه الروح الشريرة، وفي مكاتيب يهود قمران وجدت تفاصيل مفصلة عن كيفية إخراج الأرواح الشريرة التي تسبب المرض للناس، وفي الإنجيل أن «عيسى» كان يطرُد الأرواح الشريرة التي تمرض الناس، لكن، كل هذا قد فُهم خطأ، وتسبب في أسطورة عظيمة تناقلتها الحضارات، أن هناك أرواحا شريرة، وهذه الأرواح هي الشياطين، وهذه الشياطين تدخُل في الناس وتتلبَّس فيهم وتصرعهم وتتحدث على لسانهم وتمرضهم وربما تقتلهم!

نحن نحب هذا التصور، لأنه يملؤكم منا رعبًا، وكم يجعلنا هذا نتعاظم في أنفسنا، نحن العالون الراقون، ندخُل إلى تجاويف أجسادكم العفنة؟ أي دماغٍ عفنَة تُفكّرون بها بالضبط؟ نحن لا نقدر أن نفتح بابًا مغلقًا، ولا نقدر أن نمر من تحته ولا من خلاله ولا من تجاويفه، أفنقدر أن نمر من تجاويفكم الصغيرة برائحتكم الكريهة الحيوانية؟

نحن لنا كيان مخلوق من نفس المادة التي تُكَون النار، ليست مادة سائلة أو صلبة أو غازية، بل هي حالة رابعة فوق غازية، وهي حالة مثلها مثل كل حالات المادة، ليس لها القدرة على التخلل خلال الأشياء، فالنار لا قدرة لها أن تمر عبر جدار، ولا قدرة لها أن تحل في الأشياء، بل لها كيان مستقل خاص، وكل شيء في هذه الدنيا له كيان مستقل خاص.

لهذا ترى أن الوضع الأنسب بالنسبة لنا في الوسوسة أن نطير مقلوبين رأسا على عقب، فنضع رؤوسنا عند صدوركم وأرجلنا في الهواء، لأنه لو مشينا أو طرنا بشكل معتدل ستزاحمنا أجسادكم الماشية وأشيائكم التي تضعونها على الأرض، لكن الطيران يجعلنا نقتنص صدوركم في الوسوسة بحرية.

جميع الأشياء الغريبة التي يفعلها بعض الإنس من تحدُّث بأصواتٍ مخيفة ليظن الناس أنهم يلبسهم شيطان إنما يكون هذا من مرض في نفوسهم، مرض نفسي يجعلهم يبتكرون شخصيات تعيش فيهم، شخصيات كاملة لها أصوات و طريقة في الكلام وطموحات،

شخصيات تستخدم الجسد، وبعضهم تبتكر نفسه بداخله شخصية شيطان يتحدث بصوت بشع، من في الجحيم قال لكم أن أصواتنا تكون هكذا كأصوات الضواري؟ إذا رأيت شخصًا يتحدَّث بصوتٍ كهذا ويزعُم أنه شيطان اعلَم أن هذا قد ابتكر شخصية شيطان في خياله، فهو يظن أن الشيطان يتحدَّث هكذا.

لكن الناس الأقدمين، لما كانوا يرَون أناسا طبيعيين يتحدَّثون بأصواتٍ غريبة بلغات غريبة ويقومون بحركات غريبة، يقولون هذا قد أصيب بروح شريرة، لكن الأمر كله يرجع إلى مرض نفسي.. كان «داوود» و«عيسى» يعالجون الناس من أمراضهم النفسية التي اصطلح الناس على تسميتها روح شيطانية، لكن عدوى الروح الشريرة هذه قد تنامت بين الناس وتفشَّت، وفرحنا نحن بها، فهي تُهلِككم في أوهامكم.

إن عقولكم مُصمَّمة بحيث تحفظ كل صورة وكل كلمة تمُر عليها، حتى لو كانت تلك الكلمة بلُغَة مختلفة، حتى لو كانت ذاكرتكم لا تذكرها فهي محفوظة في دواخل عقولكم، فلما نجد أحدكم قد استحدث شخصية غريبة في نفسه وتحدَّث بلغة غريبة، نحن لا نستغرب، لأن عقله الباطني يستخدم كل الكلمات المحفوظة بداخله والتي سمعتها الأذن يومًا، فيخرجها على هيئة كلام منطوق، هذه أمور شديدة الدقة داخل نفوس وعقول البشر، وكثير من البشر إنما تكون علَّتهم في هذه الأمور، ويظنون ويظن الناس أننا قد تلبَّسنا بهم!

وإنا لو كنا نتلبس بالناس، ونقدر على التحكُّم بهم فعلا، لجعلنا حياتكم جحيما، ولحرَّكناكُم مثل الدمى وأجبرناكم على فعل ما نريد، ولأمرضناكم ولآذيناكم، لكن الله لم يجعل لنا عليكم سلطانًا إلا أن ندعوكم بالوسوسة فتستجيبون لدعوتنا وتنجرفون إلى شهواتكم.

ولا يوجد حاكم عادل سيجرمنا بما نفعل.. كالذي وقع في حفرة من الوحل واشتكى عند القاضي، فلما سأله من أوقعَك، قال إن هذا الشيطان قال لي أن أقفز في حفرة الوحل فقفزت!، هنا لن يحكُم القاضي على الشيطان بل سيحكُم عليكَ بأنك غبي، وياالكثرة الأوحال التي دعوناكم أن تقفِزوا فيها فقفزتم.

سيدي صاحب الهرم..
خادمك (إزب بن أزيب)
تأخرت علينا يا قذر..
إخشع
سيدي..
لقد جئت لأن.....
إكشف رأسك يا
عبد...
لقد جئت للبلاغ أن...
البلاغ قد جائني..
بلاغ فيك

بلغني أنك تخدم سيدا آخر..
سيد مخلص
و لكن..
و لكنك أفشيت بهذا السر لامرأة
.. بعد أن تأكدت أنها بعد دقائق
ستموت.. وتدفن معها سرك
هي كانت من أجنادنا ثم إنشقت..
ولقد أبلغنا بسرك طرف آخر..
طرف منشق مثلها
كيف؟.. لقد قتلتها بيدي!
طرف منشق آخر؟..
أيعقل أن يكون..

(٩)
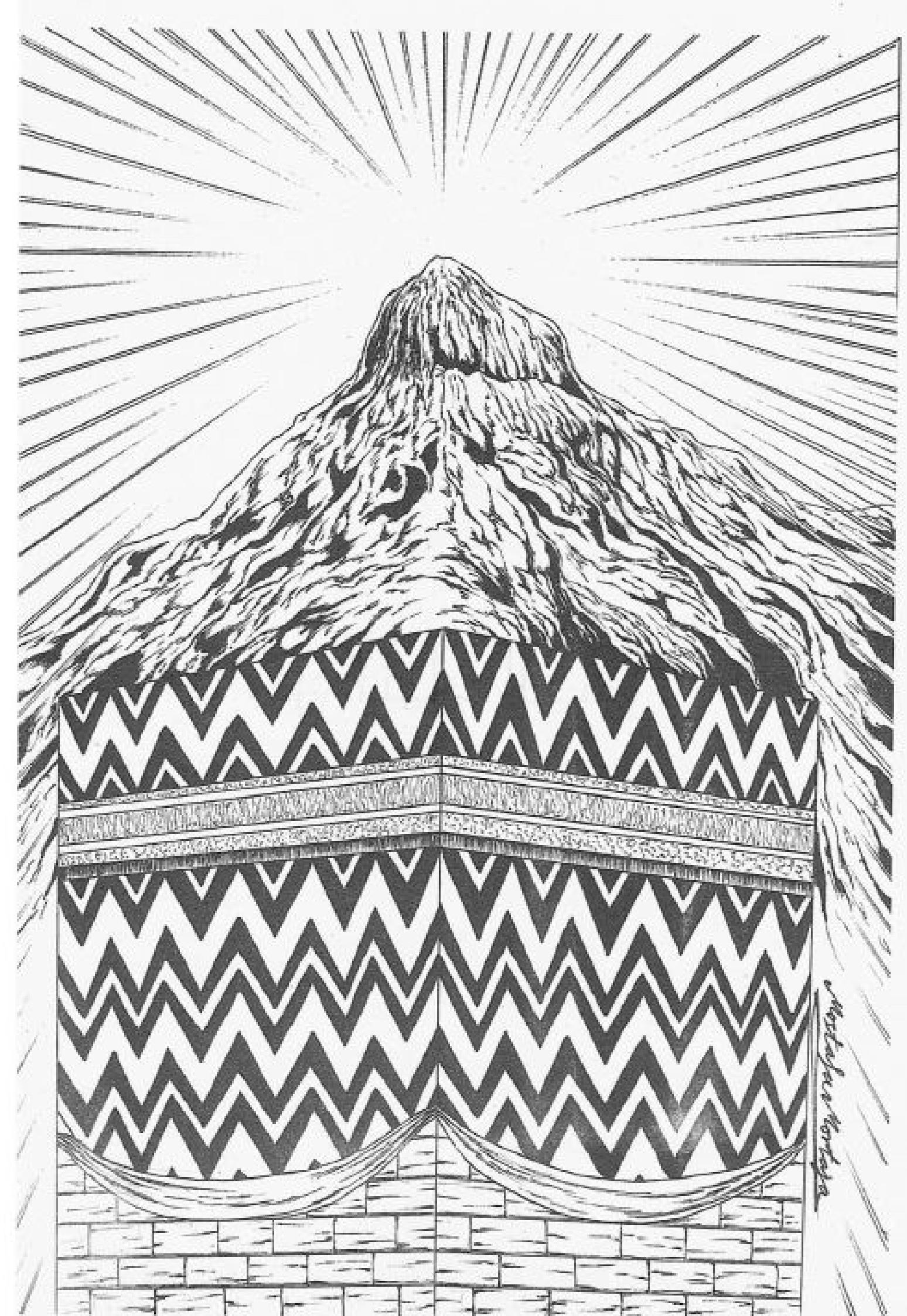
بين ثنيات الجبل

في غسَق من الليل، بين ثنيات الجبل، في عتمَة على الأرض وتلألؤ في السماء، عند تجاويف الجبل؛ جبل بهيئة كأنها سنام الجمل، من حيث ناحيته تخرج الشمس على مكة كلها ومن حيث ناحيته يبين القمر، جبل لطالما كان مرادفا للنور فسمي جبل النور.

في سودة من الليل، بين تفاصيل الجبل.. كان يجلس مربع اليدين والرجلين، في هيئة جنية كاملة، يرى كل شيء، ولا يراه شيء، بشعره المميز وملامحه التي لم يدع فيها الزمن أثرًا إلا رسمه، «عمرو بن جابر» الجني القديم، قبل مئات من السنين كانت تقوده فكرَة، ودَّع من أجلها كل شيء، أهله وبنيه وزوجه.. حتى أتى إلى هنا، جالسًا على صخرة بارزة في جبل من جبال البشر، صخرة قاعد عليها قرب غار طولي مشقوق في وسط الجبل، غار يتنسك فيه رجل هو أجمل رجل يمكن أن تراه العين، لا يخرج منه إلا ليتزود بما جف من الطعام والزاد، كان يأتيه في كل سنة شهرًا واحدًا، و«عمرو» يتابعه على هذا خمس سنين.. ثم تغيَّر هذا فجأة وأصبح الرجل ماكثًا في الغار شهورا متواصلة لا تنقطع.

أصبح «عمرو» ينظُر إليه كل يوم، لكنه لا يدخُل عليه في خلوَته ولا يقتحمها ببصره، إجلالًا له واحترامًا، قد يكون نظر إليه في الغار مرة أو مرتين، هذا الرجل لا يبحث عن ربه مثل أحناف قريش، هذا الرجل عرف ربه بالفعل، كل تصرفاته تدل على هذا، إن له ستة أشهر يذكر أنه لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح، وله ستة أشهر منقطع في ذلك الغار، أتراه يعلم أنه نبي؟ فإن كان يعلم فلماذا ينقطع الناس؟ أيكون متشوِّقًا لاصطفاء ربه؟ فإن كان لا يعلم أنه نبي، فلماذا ينقطع الناس؟ هل ضجَّ بمفاسد الناس بعد أن بلغ أربعين عامًا؟ بل هو والله متشوق لاصطفاء ربه فيما يبدو.

كان ذلك الشق الطولي في الجبل يُطل مباشرة على صفحة السماء، بكل نجومها وكواكبها، وفي داخله كوة تصنعها الصخور تطل على مكة كلها وترى الكعبة بوضوح، ورجل بداخل كل هذا قد تزهد الناس اسمه «محمد».

في قطعة من الليل، بين بروزات الجبل.. كان «عمرو» مستغرقًا في أفكاره تلك، إذ أحس بشيء من ناحية الغار فالتفت بحدة، واتسعت عينه كما لم تتسع

من قبل، وانتفض قلبه وانقبض وانقبضت أطرافه المتربعة حتى كاد أن يفقد توازنه، وتعدل وانزوى وراء صخرة واختبأ كمثل اختباء الجن، ونظر إلى شيء لم يرَه قبله إنس ولا جان، شيء كان يحدُث هناك، قرب ذلك الغار...

نظر «عمرو» إلى مثل ذرات تتكوَّن أو هيئة تتصور وتتشكل، كأنما تنبعث من العدم؛ ذرات كأنما تومض في الفراغ لتنحت صورة تتصور أمام عينٍ «عمرو»، كان «عمرو» جني يعرف التشكل و طرائقه، لكن ما يراه أمام عينه لم يكن يمت بصلة لأي شيء رآه في حياته!، فإن كان جنًا فلماذا لا يراه في هيئته الجنية، ثم اضطربت أوصال «عمرو» لما أتته فكرة في عقله عما يمكن أن يكون يحدث الآن أمام عينيه، يا ويلتا يا «عمرو»، ما ذلك الذي ترى؟ كانت الذرات لازالت تتكون حتى تمثلت بشرًا سويًا، وكاد قلب «عمرو» أن يتوقَّف محله.

بشرًا كان بهي الصورة بهي الوجه بهي الملبس الأبيض، كأنما انبعث من نور.. وجفَّ حَلق «عمرو» وارتعدت فرائصه من أسفله إلى أعلاه، أما البشر الذي انبعث من اللامكان فقد توجَّه في هيبة وسمو إلى ذلك الغار مباشرة، توجه إلى «محمد».

انحدر «عمرو» عن موضعه وجر قدمه جرًا وراءه وهو لا يدري أيخشى على «محمد» أم يخشى على نفسه!، ولم يستطع ألا ينظر في الغار، فاكتمَن بين أكوام الصخور ونظر؛ نظر إلى مشهد جمد أركانه فصارت كأركان الصخر الذي يستتر وراءه.

كان الرجل المنبعث من نور قد دخل على «محمد» ففجأه فجأةً عظيمة.. كان الرجل يمسك في يده بشيء ما، فمدَّه ببُطء إلى «محمد» وقال له:

- إقرأ.

نظرَ «محمد» إلى ما في يد الرجل فإذا هو ديباج فاخر من قطيفة ملوَّنة وحرير، مكتوب عليه كلام.. قال له «محمد»:

- ما أنا بقارئ.

وهنا مدَّ الرجلُ يده الأخرى التي لا تمسك بالديباج وجذب «محمد» جذبةً شديدةً ثم لفَّ يده الأولى التي تمسك بالديباج حول «محمد» وضمه بها، وضغطه ضغطةً شديدة جدًا حتى بلغ به الجهد، ثم أفلتَه.. ومدَّ يده إليه بالديباج الفاخر وقال له بحزم:

- إقرأ.

وكان «محمد» أميًا لا يعرف القراءة، فقال له:

- ما أنا بقارئ.

فأخذه فغطه غطة شديدة أخرى حتى أجهده، و«عمرو بن جابر» مندس بين الصخور لا يبين منه إلا ارتجاف عينيه، ثم أرسل الرجل محمدا وقال له بقوة:

- إقرأ.

كان هذا منذر بشيء ما، لا تدري الكائنات ما هو، قال له «محمد» للمرة الثالثة:

- ما أنا بقارئ.

فجذبه وضمه ضمةً ثالثة.. ثم قال له:

- اقرأ باسم ربك الذي خلَق

- خلق الإنسان من علَق

- اقرأ وربك الأكرم

- الذي علَّم بالقلم

- علم الإنسان ما لم يعلم

فارتجفت بوادر «محمد»، وذهب الرجل من أمامه، وجفَّ كل عرق في عروق «عمرو بن جابر» الذي شل تفكيره كما شلت أطرافه وبردت وتحجرت، ونزل «محمد» برجفته من الجبل، ونزل «عمرو» وراءه ينظر هنا وهناك، ولم يكن ثمة أثر لذلك الرجل المنبعث من نور، وعاد «محمد» إلى بيته وأغلق الباب... ولم تعُد الدنيا بعد هذا كما كانت قبلها.

وانقضت فترَة من الزمان انقطع فيها ذلك الرجل المتنور البهي كأنما كان خيالًا جميلًا، سطع ذات ليلة، وأفل ذات ليلة، وجاءت ليلة نزل فيها «محمد» إلى بطن ذلك الوادي نفسه، ومشى فيه يتلفت كل حين كأنما يسمع شيئًا!. لكن «عمرو» لم يكن يسمع. أما «محمد» فقد كان في شأنٍ آخر، كان يسمع أحدًا

يُناديه باسمه فينظُر أمامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله فلا يرى أحدًا، ثم سمعه يُناديه باسمه تارةً أخرى، فنظرَ فلم ير أحدًا. ثم نودي الثالثة، فرفع رأسه فإذا الرجل المنور الذي جاءه في الغار، لم يكن على الأرض بل كان في السماء، مهيبًا كان في وسط فراغ أسود يخالطه ذر أبيض تذروه الرياح، جالسًا على كرسي بين السماء والأرض، سادا عظم خلقه ما بينهما من الأفق الأعلى... فأخذَت محمدًا رعدَة شديدة ظهرت جلية على وجهه الكريم، حتى أنه هوى على الأرض، ولم يفهم «عمرو» سبب هذه الانفعالات كلها!. فلم يكن «عمرو» يرى ما يرى «محمد»، ولا يسمع ما يسمع «محمد»، لكنه رأى محمدًا يُسرع في الخطا مرتجفًا حتى دخل بيته عند زوجته، ولم يسمع «عمرو» إلا قوله وهو داخل، زمّلوني زمّلوني، دثروني دثروني... وظل «عمرو» يطوف بالخارج ويحاول الاستماع، لكنه لم يسمَع شيئًا أبدًا.

في داخل البيت الكريم.. دخل الكريم ذو الخلق الكريم والروع لايزال في نفسه، إلى زوجته وبنيه يقول زمّلوني؛ فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع، وحكى لزوجه «خديجة» الخبر، وقال أي «خديجة»، مالي، لقد خشيتُ على نفسي، إني إذا خلوتُ وحدي سمعتُ نداء خلفي، يا «محمد» يا «محمد»، فقالَت له الكريمة ذات النفس الأميرة: أبشر فوالله لا يُخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتَحمل الكَلّ وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق... ولم تمض ساعة إلا وقد أتى رجل جميل عند الباب عرفه «عمرو بن جابر» فور أن رآه، هذا «أبو بكر»، الصديق، ما الذي أتى به ها هنا؟ لم يكن «عمرو» يدري أن «أبو بكر» صاحب «محمد» منذ سنوات.. أدخلت «خديجة» «أبا بكر» وذكرَت له ما حدث لمحمد وقالت له: يا أبا بكر، اذهب مع محمد إلى ورقة بن نوفل.. فانطلق «أبو بكر» مع صاحبه الكريم المحمد، إلى «ورقة بن نوفل» الرجل الساهم المنتظر.

فلما أتيا إلى «ورقة» الذي استحال شيخا كبيرا قد عميَت عيناه.. قصَّ عليه «أبو بكر» الخبَر، فتهلّل «ورقة» وتيمَّن واستبشر وظهر هذا على وجهه المسن الذي كانت مسحت عليه الخطوب مسحة اليأس، سمع ما سمع توارت فمسحة الخطوب جميعها واختلجت جميع الأسارير، قال «محمد»: إني إذا خلوتُ وحدي سمعتُ نداءً خلفي يا «محمد» يا «محمد»، فأنطلق هاربا في الأرض... تمالك «ورقة» نفسه من الفرحة وقال: لا تفعل، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتني فأخبرني.

فخرج «محمد» من يومه هذا حتى خلا بنفسه.. فناداه ذلك الذي ناداه، فثبتَ مكانه ولم يُولي، فقال له ذاك الذي كان يناديه: قُل بسم الله الرحم الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

فجاء إلى «خديجة» والروع في قلبه قد برد.. فانطلقَت هي بنفسها به إلى «ورقة بن نوفل»، قالَت له: يا ورقة، اسمع من ابن أخيك.. فأخبرَه «محمد» خبر ما سمع من النداء، فنظر «ورقة» إلى النجوم، تلك التي لم يعُد يراها، بل نظر إلى رب النجوم، والوجد في قلبه قد بدا وتجلى، وتلألأت قسمات وجهه حتى ظهر اهتزازها. وقال: هذا والله الناموس الذي نزلَ على موسى.. ثم ظهرت همهمة صدره وبكت دواخله بدموع ليست تُرى، أفلم يكن للعين أن تصطبر فلا تعمى حتى ترى «أحمد»، فقالَ والأسى في محياه قد بدى: يا ليتني فيها جذعًا، ياليتَني أكون حيا حين يُخرجك قومك، فقال له «أحمد»: أومُخرجيَّ هُم؟ قال «ورقة»: نعم، لم يأتِ رجل قط بما جئتَ به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصركَ نصرًا مؤزرًا، ووالله لا يحزنك الله أبدًا.

ومرَّ اليوم واليومين.. ولم ينشب «ورقة» أن توفاه الله إليه، ولقد أهدى ربه إليه بعض الذي كان ينتظر... فتشنفت أذنه بسماع صوت رسول الله، فبكى وبكى من يومه ذاك حتى اخضلت روحه بدموعه، أما «عمرو بن جابر» فإن الدنيا لم تكن تسعه في ذلك الحين، إنه ما قرأ في التوراة أو الإنجيل عن وسيط يكون بين الله وأنبيائه يتجسَّد في هيئة بشرية إلا واحد، ملاك من أعظم ملائكة الله في التوراة والإنجيل، «جبريل»، يؤمن اليهود أنه الملاك الذي أتى إلى «إبراهيم» مع اثنين من الملاكة يبشره بإسحق، وهو الملك الذي جاء للنبي «دانيال» أيام السبي البابلي يبشره بالمسيح المنتظر بعد أربعمائة وتسعين سنة، ورغم هذه البشارة الواضحة العددية لم يؤمن اليهود بالمسيح لما جاء بعد أربعمائة وتسعين سنة، و«جبريل» في الإنجيل هو الملاك الذي جاء لمريم يُبشرها بالمسيح «عيسى»، إذن فذلك الرجل المنير الذي أتى فدخل على «محمد» لا ينبغي أن يكون إلا واحد، الملاك «جبريل» نفسه.

وجلَ قلب «عمرو بن جابر» خشوعًا وخوفًا.. فرقا وارتقى حتى بلغ السحاب، ورفع رأسَه ويده، وقال يا الله يا مُرسِل الرسل، ويا سامع الإنس والجان، يا

مليك الأرض والسماوات وعظيمهما، إني تبتُ إليك مما تعلم، وإني آمنتُ بك وبدينك الذي ارتضيت وبنبيك الذي أرسلت... ثم تذكر ما قاله «ورقة بن نوفل» من أن القوم سيُخرجون «محمد» فتنكد لذلك، وعلم لماذا قال ورقة هذا، فما حدث لزيد بن عمرو بن نفيل لم يبرد من الذاكرة، وإن نبيًا يخرُج وسط هؤلاء القوم من بين أصنامهم التي سدت بجثمانها وجه الكعبة لهو خارج إلى الهاوية.

أرض مكورة سابحة في ظلام لست تدري ما بها، من أمور وأمور، وبحار وافرات وجبال، وعروش تغالبها عروش، وإنس فيها يعمرها يظن في كل حين أنه قد قدر عليها.

أرض مكورة سابحة.. ثالثة بين تسع كواكب جدباء ما فيها نفس يتنفس، وكل في فلكه يسبح، يطوفون حول شمس واحدة، تنور لهم من نواحيهم وتدفئ لهم أرجاءهم، مجموعة متسقة متآلفةً لا يعدو بعضهم على بعض، يحيط بهم سياج من سحاب يفصلهم عما يجاورهم، مجموعة كلها تعتني بالأرض التي تسبح بينهم، مجموعة تعتني بالحياة، وتحافظ على الحياة، مجموعة من كواكب يشاهدها السائر على الأرض كدرر كأنها اللؤلؤ تنور في السماء، وشمس يراها كل صبح، وقمر يراه كل ليل، مجموعة تسمى السماء الدنيا.

تجاورها وتماثلها مجموعات من كواكب وشموس سابحات في طيف من الفضاء كأنها الذر تسمى السماء الثانية، فتجتمع الأطياف من المجموعات لتسبح في مجرة هادرة جسيمة كأنها القرص هي السماء الثالثة، تجاورها مجرات لامعات كأنها المرجان يجتمعون في طيف واحد هو السماء الرابعة، فتستوي أطياف المجرات لتصنع عنقودًا ملونًا مضيئًا هو السماء الخامسة، تجاوره عناقيد وعناقيد كالياقوت يجتمعون في طيف هو السماء السادسة، ثم تخيط أطياف العناقيد كلها في خيوط وحُبُك هي السماء السابعة، سماوات سبعة طباقًا، فيها بلايين المجموعات الكوكبية، وبلايين الكواكب التي يعيش عليها أناس وأناس مثل الأرض، كون كبير عظيم مُتقَن له رب واحد واجد، حكم عدل، جميل لا يخلق إلا الجمال.

لكن رجلًا على هذه الأرض نظر إلى السماء في ذات يوم فرأى شيئًا آخر؛ شيء سد أفق، شيء كبير، لا هو بشمس ولا بقمر ولا بنجم؛ شيء أكبر، شيء مهيب، بل ملك مهيب، اسمه «جبريل».

كيان من نور تبدى له في خلقته الحقيقية.. ورغم أنه كان أبهى مما رأت عين على وجه الأرض إلا أن الرجل المحمد رآه فارتجف وسقط وهرع إلى بيته، فالملاك الجليل كان حقًا بهيًا وحقًا باهرًا، عليه أجنحة كثيرة جدًا لها مظهر رفيع ماجد، ستمائة جناح، ثلاثمائة عن اليمين و ثلاثمائة عن الشمال، كل ثلاثمائة يخرجون في ثلاث مجموعات، كل جناح ظاهر يكون وراءه جناحين يعززانه، قوي متين كث الأجنحة، ينتثر منه إذا تحرك الجناح تهاويل متلألئة كالدر الأبيض والياقوت الأحمر، أغَر خلاب جميل لا تقدر الحروف على خلق بهائه في الخيال.

قبل سنوات من زمان الأرض أراد الله أن يتكلّم بوحي سيوحي به إلى أهل الأرض الموكل بها هذا الملاك الجبريل، فرجفت السماوات كلها رجفةً عظيمة، وسمعت ملائكة السماوات صلصلة كصلصلة السلاسل على الصخر الأملس!، فأخذتهم رعدة شديدة من خوف الله فصعقوا وخروا سُجّدًا أجمعين، فكان أول من رفع رأسه منهم «جبريل»، فكلّمه الله من وحيه بما أراد، فنزل به «جبريل» شديد القوى من عند الله فكلّما مرَّ في سماء وجد ملائكتها سُجدًا يغشاهم الخوف، يظنون أن أمر الساعة قد وقع، فإذا رأوه قالوا: يا جبريل ماذا قال ربنا؟ فيقول لهم: قال الحق وهو العلي الكبير، حتى نزل إلى السماء الدنيا، تلك المجموعة الكوكبية الصغيرة التي فيها تدور الأرض، فمضى إلى موضع يعرفه فوق جو الأرض، موضعٌ سَمِيٌّ كريم، مشرف مفخم كائن فوق كل أرض يعيش عليها مكلفون، صرح مجيد هو، للملائكة مثوى ومستقر، يمُر عليه من يعرج منهم إلى السماء ومن ينزل منهم إلى الأرض، بيت مكَرم اسمه بيت العزة.

إلى بيت العزة قصد، وفي بيت العزة دخل، فأملَى ما لديه من الوحي على ملائكة سفرَة، كرام برَرة، كتبوه في صُحُف مكرمة، مرفوعة مطهَّرة، فكان يملي لهم ويقول، ضعوا آية كذا في موضع كذا، فكتبوه آيات وسوَر، حتى أتموه كتابًا وافيًا، فيه ذكر أمور سابقات، وذكر أمور تاليات لم تحدُث على الأرض، أمور في حياة الذي اصطفى الله ليكون نبيًا خاتمًا من بين الماشين على الأرض، صحف شكّلت كتابًا، كتاب مكنون، من نور كريم، اسمه (القرآن الكريم).

آيات قدّر لها ربها أن تتنزّل على عدد النجوم البائتة في السماء، لتكون هُدى للسائرين في الظلمة كما أن النجوم هدى، قدر لها أن تتنزل في كل مرة آية أو

آيتين، أو ثلاث آيات، أو أربعًا أو خمسًا، تنزيلًا من رب العالمين، لتوافق الأحداث التي تمر بالنبي القاسم، يتنزل بها عليه «جبريل» من بيت العزة.

وحي قرآن أملاه «جبريل» للسفرَة الكرام البررة ووحي لم يمليه لهم، لأنه لم يكن من القرآن، وحي اسمه (السُّنَّة)، وهي وحي مأمور أن يبلغه الملاك «جبريل» للنبي تبليغًا بالمعنى، يبلغه بأمور من عند الله، وعلوم من عند الله وفيوض.. افعل كذا وكذا، حقيقة ذلك الأمر كذا وكذا، اعلم أنما سيحدث كذا وكذا، أو قد حدث كذا و كذا... لكن السُّنة وحي لا يتلوه النبي على الناس تلاوة القرآن؛ إنما يجعله في صدره، ويتكلم به للناس بأسلوبه الشخصي النبوي، افعلوا كذا أو لا تفعلوا كذا، اعتنوا بكذا، قال لي ربي كذا، سيحدُث كذا وكذا... فآتاه الله القرآن ومثله معه من السنة، وآتاه من أجل السنة موهبة جوامع الكلم، فكانت الجمل التي ينطق بها بأسلوبه يسيرة كلماتها عظيمة، ليبلغ السنة بخير الكلمات، فكان لا يتحدث ولا ينطق إلا بما بلغه به ربه، إما يتلوه قرآنًا على الناس يتعبدون بتلاوته، أو يقوله للناس ويكون سنة لهم بما آتاه الله من حسن البيان؛ فكان لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحيٌ يوحَى.

وفي تلك الليلة.. كان في منزله يقول دثروني دثروني من هول ما رأى، وهناك كان لابد أن تتنزَّل عليه آيات بينات.

هناك وسط ما يدثرونه به سمع ذلك الصوت فتنبَّه له وسكت وظن أن نفسه تقبض، صوت كأنه صلصلة الجرس، أو كصوت سلسلة تمر على صخر أملس، كان يسمع و يتربد وجهه كأنه يركز في أمر جلل، ثم بدأت أنفاسه تتسارع وتُسمع بصوت عال، ووجد بردا في ثناياه وتحدرت منه حبات من ندى كأنها اللؤلؤ والجمان.. ثم فجأة، نُفث الكلام في روعه نفثا، فجاءته آيات كريمات..

يا أيها المدثر، قم فأنذِر، وربك فكبِّر، وثيابكَ فطهِّر، والرجزَ فاهجُر...

قرآن كريم.. أصدر له الأمر، فقام المدثر، وأنذَر سبعة كانوا في بيته هم أول من نزل في قلبهم النور، زوجته، وبناته الأربع الشابات، «زينب» و«رقية» و«أم كلثوم» و«فاطمة»، وولد باهر جميل واسع العينين أسودهما، في العاشرة من عمره، ليس ابنه وإنما ابن عمه، واسمه علي-«علي بن أبي طالب»- أبوه سيد بني هاشم، أبو طالب بن عبد المطلب، عم «محمد» الذي ربى محمدًا صغيرًا

ورعاه و كفلَه وزوَّجه، لكنه كان ضيق الحال كثير العيال، فلما تزوج «محمد» وتيسر في المال، دعا أبا طالب إلى أن يأخذ منه واحدًا من بنيه ليربيه عنده، فيخفف عنه، فأخذ منه الطفل العلي، «علي بن أبي طالب»، وربَّاه في بيته، فكما ربى أبو طالب محمدًا، ربي محمدٌ عليا، وكان الطفل العلي ملازمًا لمحمد أينما ذهب، حتى كان يطلع معه إلى غار حراء في شيء من الأوقات.

وسابع من في البيت كان رجل، اشترته خديجة من سوق عكاظ، اسمه «زيد بن حارثة»، كان سنه قريب من سن «محمد»، فلما تزوَّجت خديجة بمحمد وهبَته لمحمد، فكان «محمد» يعامله معاملة لم يرَ مثلها أحد، حتى أن أهل «زيد» قد أتوا بعد سنين طوال ليفتدوا ابنهم ويأخذوه من «محمد»، قبل بعثة «محمد» بكثير، فقال زيد لمحمد: ما أنا بالذي أختار عليكَ أحدًا، أنت مني بمنزلة الأب والأم... قال له أهله: ويحَك يا زيد أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ فقال: نعم إني رأيتُ من هذا الرجل شيئًا ما أنا بالذي أختار عليه أحدًا أبدًا... فلما رأى «محمد» ذلك خرج به إلى الكعبة ذات يوم و نادى وقال: يا من حضر اشهدوا، أن زيدا ابني يرثه ويرثني... فتبنَّاه فصار ابنًا له وهو في مثل سنه.. وكان «زيد» هو نفسه الرجل الخادم الذي قدم لمحمد ولزيد بن عمرو بن نفيل السفرة ليأكلا منها فأبيا أن يأكلا، وهو الذي كان يتبرَّك بإساف ونائلة فمنعه «محمد».

أنذر سبعة فآمن سبعة، وكان ثامنهم «أبو بكر»، صاحبه الكريم النبيل، ثم انطلق النبي إلى أمه وأبيه، أمه بعد أمه وأبوه بعد أبوه، الذين ربياه وكانا له كل شيء، عمه «أبو طالب» وزوجته الطيبة «فاطمة بنت أسد»، التي ربَّته وهي به مؤمنة، فلما علمت «فاطمة» أن الله قد بعثه نبيًا فرحت روحها واستبشرت وأسلمت لله كما كانت قد أسلمت من قبل.. أما «أبو طالب» فقد كان مريضًا يومئذ منهكًا، فدخل عليه رسول الله فعاده، فقال له «أبو طالب»: يا بن أخي، ادع إلهك الذي تعبُد أن يعافيني.. فدعا النبي الزكي وقال اللهم اشف عمي.. فوجد «أبو طالب» نفسه قد قام كأنما نشط من عقال، وقال: يا بن أخي، إن إلهك الذي تعبُد ليطيعك.. قال النبي: وأنت يا عماه لئن أطعتَ الله ليطيعنك.

كان «أبو طالب» على ملَّة أبيه «عبد المطلب»، وملة «عبد المطلب» هي الحنيفية؛ عبادة الله لا شريكَ له ملة «إبراهيم»، التي عليها أجداد النبي كلهم إلى «إبراهيم»، ومن «إبراهيم» إلى «آدم»... ولقد كان عبد المطلب يعلم علم

اليقين أن حفيده «محمد» نبي، لما أنبأه «سيف بن ذي يزن» عن أوصافه وقال له أن بين كتفيه شامة وستكون له النبوة والإمامة، كان «محمد» ساعتها يعيش في كنفه، بعد أن مات أبوه وأمه وصار يتيمًا في الثامنة من عمره.. هنالك عرف «عبد المطلب» النبي وآمن به، لكنه كتم الأمر لئلا يؤذيه الناس حسدًا من عند أنفسهم، وكذا أوصاه «سيف بن ذي يزن»، أن يحفظه ويحذر عليه الناس.

فلما حضرت «عبد المطلب» الوفاة، عهد بمحمد إلى «أبي طالب»، وأنبأه بنبوته وأوصاه أن يحفظه وأن يحذر عليه الناس... وكان «أبو طالب» هو الأخ الشقيق الوحيد لعبد الله والد النبي، ولقد رأى «أبو طالب» بعينه على «محمد» معجزات لا تجوز على بشر؛ كتتبع الغمام له وتهاصر الشجرة لأجله، وآيات أخرى معجبة.. فصدَّق به وآمن وأحبَّه أكثر من جميع أولاده والنبي لا يزال دون البلوغ.

والآن لما حان الموعد وبعث الله النبي وأتاه ليدعوه.. كان من المتوقع أن يؤمن «أبو طالب» ساعتها ويصدح بإيمانه وهو سيد بني هاشم فيدعو بقية بني هاشم، لكن هذا لم يحدث؛ بل اختار «أبو طالب» أن يعمل شيئًا آخر؛ اختار أن يكتم إيمانه ولا يصدح به، فإنه إن يصدح سيد بني هاشم بإيمانه ستنشق بني هاشم على بقية القبائل وستعاديها القبائل كلها وتكون عداوة قبلية، وقد يتجرأوا على أذية النبي أو قتله بعداوتهم لبني هاشم، أما إن كتم إسلامه، فإن النبي سيدعو كما شاء ولن يجرؤ أحد أن يؤذيه بل سيحميه سيد بني هاشم وقبيلة بني هاشم كلها وينصروه بدعوى القبلية لأنه في كنف بني هاشم المتحالفة أصلا مع بقية القبائل.

فرح «أبو طالب» وزوجته «فاطمة» بإسلام ابنهما «علي»، ودعيا ابنهما الثاني «جعفر» -جعفر بن أبي طالب- وهو أسن من «علي» بعشر سنوات، يعني في الثالثة والعشرين، وكان أشبه الناس برسول الله، بذلك الوجه المتألق وذلك الشعر الفاحم الأسود، فاستنار قلبه بكلام رسول الله كما استنار وجهه بمشابهته، فأسلم وأسلمت معه زوجته «أسماء بنت عميس».

ومضى النبي إلى عمه الثاني، «العباس بن عبد المطلب»، ابن عبد المطلب من زوجة ثانية، سيد في بني هاشم وله عمارة البيت الحرام و السقاية، أسن من النبي بثلاث سنوات، كان لا يدع حاجًا من الحجاج يُسب أو يُظلم أو يجوع، وكان رجلا جسيمًا ضخمًا فاضلا من أحسن الرجال صورة و أبهاهم، فجاءه

النبي فأخبره أن رب السماوات قد أمره بهذا الدين، وأنه ستُفتح لهذا الدين يوما كنوز كسرى وقيصر، فآمن العباس لكنه فعل كما فعل «أبو طالب»: كتمَ إسلامه حماية للنبي، وأسلمت معه زوجته «أم الفضل»، أخت «أسماء بنت عميس» زوجة «جعفر».

ثم ذهب النبي إلى عمه الثالث، وهو ابن عبد المطلب من زوجة ثالثة، وهو الفارس الباسل، الأسد صياد الأسود، «حمزة بن عبد المطلب»، أخوه من الرضاعة وصاحبه الذي تربى معه.. كان ذلك المغوار أسن من النبي بسنتين، ولم يكن في أيام العرب وحروبها من هو أشهر منه فروسية، صاحب لحية طويلة ناعمة وملامح قوية جدًا، أقرب أعمام النبي إليه وهو الذي خطب له «خديجة»... فأقبل عليه النبي فعرفه وبشّره، فألقى الله في نفسه الإيمان بما قال له رسول الله، فقال له «حمزة»: أشهد أنك لصادق شهادة الصدق، فأظهِر يا بن أخي دينك، فوالله ما أحب أن لي ما أظلته السماء وأنا على ديني الأول.. فأسلمَ الأسد الحمزة، وأسلمت زوجته «سلمى بنت عميس»، وهي أخت «أسماء» و«أم الفضل».

أما عمه الرابع فهو الذي أتى بنفسه إلى الكريم «محمد»، وهو من زوجة رابعة، كان ذهبي الشعر واللحية والحاجبين، ينسدل شعره على كتفيه، وسيم كأن وجهه الذهب، واسمه «أبو لهب»، وهو الذي خطب النبي ابنتيه لابنيه.. قال له: ماذا أعطى إذا آمنتُ بك يا «محمد»؟ قال له النبي: تُعطى كما يُعطى المسلمون.. قال: مالي عليهم من فضل؟ قال النبي: لا.. فتمصّص «أبو لهب» شفتيه وهزَّ رأسَه وقال: تبًا لهذا من دين، أن أكون أنا وهؤلاء سواء؟ ثم انصرف مغاضبًا.

وبغض النظر عن أبي لهب، ولهيب أبي لهب، فقد زاد ثمانية مسلمين على الثمانية الأولين فأصبحوا ستة عشر، عشرة من بيت رسول الله يزيد عليهم أربعة من زوجاتهم ثم «أبو بكر» الصاحب البار و«زيد» ابن «محمد» بالتبني، ثم أسلمت «أم رومان» زوجة «أبو بكر»، فصاروا سبعة عشر.

وظلُّوا سبعة عشر سنة، أو تزيد قليلًا، نزل فيها قرآن كثير..

ثم انقطع «جبريل» فترةً من الزمن فلم يره «عمرو بن جابر» يأتي على تلك الصورة البهية إياها أبدًا، وأحزن ذلك «رسول الله»، وحزنت «خديجة» الأميرة وبناتها لحُزنه، وعرف خُطابهن الخبر، عتبة وعتيبة ابني أبي لهب، فضحكت

أمهما العوراء وهزئت، فيالمنظر عيونها العوراء في سُخريتها من نبي!، كانت تلك هي أم جميل العوراء، أخت «أبو سفيان» سيد قريش وزوجة «أبو لهب»، حاطبة تحطب الكلام وتنقله لمزا من هنا إلى هنا، فلم تحتمل نفسها أن تكتم في نفسها، فلما رأت رسول الله ذات بارحة قالت: ما بالك يا «محمد»، ما أرى شيطانك إلا قد قلاك وودعك.. فزاد بكلمتها حزن النبي الخاتم.

ولم يمضِ حين من الأوان، إذ ظهر الجليل «جبريل»، وهذه المرة كان لديه شيء آخر، شيء عظيم.

كان «عمرو بن جابر» يتبع محمدًا وهو لحزنه حزين حتى وصل «محمد» إلى أعلى مكة.. وهناك تجلى الأمين المجيد «جبريل»، على تلك الهيئة البشرية التي أتاه فيها أول مرة، بهي المرأى وضاء المنظر، فبلّغه بسورة من ربه، «وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ»، ففرح النبي برأفة القريب المجيب، فرحة رؤية العين لقرة العين.

ورقب «عمرو» ذلك المشهد في أعلى مكة، ثم رأى «جبريل» يضرب بكعبه في الأرض فتشققت الأرض ناحية الوادي وتفجرت منه عين، فنزل «جبريل» ناحية الماء فأندى به يداه ووجهه ثم مرفقاه وشعره، ثم أذنيه وقدماه، وفعل «محمد» كما فعل «جبريل»، ثم وقف الاثنان وقفة ساكنة ناظرين إلى الأرض التي أمامهم، خاشعة أبصارهم وقلوبهم، وركعوا وسجدوا، وجلسوا وسلموا، كان «جبريل» يفعل وقمر بني هاشم «محمد» يتابعه لا يخطئه، ثم قام «جبريل» عنه وانصرف.

وعلّمها «محمد» لخديجة وعلّمها لبناته وعلّمها لعلي الصغير البهي وأخوه جعفر القمر، ثم علمها لأبو بكر وعلمها لزيد، علمهم أن تلك النداوة بالماء هي الوضوء، وذلك الوقوف بالركوع والسجود والسلام هي الصلاة.. وكان يخرج إلى شعاب مكة مع الطفل الخلوق «علي»، فيصليها معه في الشعاب، فعلمه الصلاة وعلمه التنزيل، فكان تربية النبي وتعليم النبي.

وتعلمها «عمرو بن جابر» لما رآها، وصار يركع ويسجد، ويضع جبهته في الأرض، وشعرت روحه أنها صلاة، صلة بين الكائن وربه، وما سميت صلاة إلا لأنها صلة، وكانت نفس «عمرو بن جابر» تتوق إلى النبي «محمد»، تتوق أن يعلمه

النبي «محمد»، تتشوق أن تراه عين النبي «محمد»، يود لو أنه يقول له يا نبي، إني مكثت في شوق يا نبي، ومكثت في كد يا نبي، لكنه يعلم أنه ليس له أن يفعل هذا، حتى يأذن الله لنبيه أن يجهر للجميع، وبقي «عمرو» وحده يركع ويسجد ويناجي ربه وحده.

وفي ذات مرة في الشعاب، تحديدًا عند شعب أجياد.. كان النبي يصلي عصرًا مستخفيًا بها عن القوم، وفتى وراءه ينظر إليه وهو يصلي، فتى في السابعة عشرة من عمره، قصير أسمر الوجه مخضب جلده بالسواد في مواضع عدة، جعد الشعر أفطس الأنف، حاد البصر، فتى كان اسمه «سعد»-«سعد بن أبي وقاص»- كان ينظر إلى الصلاة وقد شدت حركاتها عينه، فما درى إلا وصوت رجل من ورائه!، فالتفت فإذا هو «أبو بكر»، فتحدث معه يسيرًا فقط وأنبأه بالنبي الجلي.. فأسلم «سعد» نفسه لله وكأنه كان ينتظرها، فصار الإسلام ثمانية عشر.

في خشوع الليل، وإطراق الشجر والحجر، وهدأة السماء.. كانت أجساد من قريش قد تمددت على أرض صحراء في طريق السفر عائدين من الشام بين معان والزرقاء، وقد تغطى كل منهم بغطاء وغطوا في سبات عظيم، إلا واحدًا كان يستند إلى جذع شجرة يحدق في السماء، كان مميزًا في القوم بهيئته، شعر مموج أسود إلى الكتفين ولحية عظيمة جدًا يخضبها باللون الأصفر، ونمش على الخدين وقسامة في الثغر لما يبتسم، عظيم الجاه في قريش يحبونه حبًا جمًا لماله وحسَبِه وجاهه وعذوبة كلماته وشدة حيائه ورقة طباعه وعفته... وكان اسمه «عثمان» -«عثمان بن عفان»- كان ساهمًا في أمور شتى والليل لا يزال في منتصفه، والقمر باد حاضر كأعظم ما يكون القمر، وحديث نفسه في نفسه كأعظم ما يكون الحديث، تحدثه نفسه أن يتزوج، وكلام النسوة في قومه في أذنه يتردد، عن فلانة وفلانة، لكن نفسه تأبى كلما تذكر اسمًا لفلانة أو فلانة، لأن اسمًا واحدًا كان كلما يرتسم أمامه يمحو جميع الأسماء من حوله، اسم لشريفة من أشراف بني هاشم، «رقية» -«رقية بنت محمد»- فعزم أنه إذا رجع أن يتزوجها، ولو نظر «عثمان» في كتاب الزمن المدون في صفحة السماء لعلم أن تلك الرقية نورها هو القمر وأن اختياره لهو الاختيار الأوفى.

التقطت أذنه صوت إنسان ينادي آت من بعيد يعابث سكون الليل.. فتنبَّه وتنصت، كان الصوت يقترب حتى علا واتضح وخرق كل السكون وبدأ النائمون يتململون، لم يكن قريبًا من «عثمان» بما يسمح له أن يميزه، فقام «عثمان» واقترب، فإذا هو رجل في جُبة طويلة كالتي يرتديها السحرة الكهان!، كان يمشي وكأنه قد خبل، وكان ينادي:

- أيها النيام هبوا.

صحا بعض النائمين ونظروا بضيق إلى ذلك الرجل المنادي وتدثَّر البعض الآخر بألحِفته حتى لا يسمع، وأكمل الرَّجل ينادي:

- أيها النيام هبوا، إن أحمد قد خرج بمكة.

رمى كثير من النائمين أغطيتهم على رؤوسهم وظنوا أنه رجل يهذي في جوف الليل.. وجاء «عثمان» ينظر إلى الرجل الذي كان في صوته خليط عجيب بين الأسى والطرب.. قال رجل من القوم من وراء «عثمان»: يا عثمان إن وراء هؤلاء ما وراءهم، ما أبعد ما فات وما أقرب ما سيأتي.. نظر «عثمان» إلى الرجل وراءه فإذا هو رجل أبيض يضرب إلى الحمرة مربوعًا إلى القصر أقرب، كان هذا «طلحة بن عبيد الله»، أسد قريش التاجر القوي البنية.. قال «طلحة»: لقد رأيت مثل هذا لما كنا في سوق بصرى، والشمس تهبط إلى مغربها، والتجار العرب يجمعون حوائجهم ويرحلون، بقيت أنا في زاوية من السوق أحادث تجارًا قد أتوا من بلاد الشام جميعها، وكنا نتحدث في أمور السوق، إذ خرج علينا رجل مثل هذا، كاهنًا كان أو منجمًا لست أدري، فسألنا في جدية، سلوا أهل هذا الموسم أفيهم أحد من أهل الحرم؟ فقلت له نعم أنا من أهل الحرم... فأمسك بي من ردائي وقال: هل ظهر أحمد بعد؟ تحيَّرتُ من طريقته وقلتُ له: ومن أحمد؟ لم يرُد علي وقال لي: هذا شهره الذي يخرج فيه، نبي من الأنبياء هو، فإياك أن يسبقوك إليه.. فوقع في قلبي ما قال، ورجع «عثمان» و«طلحة» من سفرهم هذا واسم «أحمد» في وجدانهم يتردد، بلا هوية.

فلما نزل «عثمان» بمكة تناهت إلى سمعه أخبار أظلمت فؤاده وانكدر.. أن رقية بنت «محمد» قد خطبها «عتيبة بن أبي لهب»، وهو ابن عم «محمد»، فدخل على أمه مهمومًا: ما يحزنكَ يا عثمان؟ قال: إني تأسفتُ أني لم أكن أنا

الذي تزوجها.. فسمع من ورائه صوت امرأة تقول له: أبشِر.. فنظر فإذا هي خالته الكاهنة «سعدى بنت كريز» التي تعمل السحر، فتهيب منها، قالت له: أبشر وحييت ثلاثًا تترًا، ثم ثلاثًا وثلاثًا أخرى، ثم بأخرى كي تتم عشرًا، أتاك خير، ووقيتَ شرًا، أنكحت والله زهرا وأنت بكر ولقيت بكرا، وافيتها بنت عظيم قدرًا، بنيت أمرا قد أشاد ذكرًا.. فتعجب منها «عثمان» وقال لها: يا خالة!، ماذا تقولين أتبشرينى بامرأة قد تزوَّجت بغيري؟ قالت: عثمان لك الجمال، ولك اللسان، هذا النبي معه البرهان، أرسله بحق الديان، وجاءه التنزيل والفرقان، فاتبعه ولا تغتالك الأوثان.. قطب «عثمان» جبينه عجبًا، وتذكر أمر الكاهن المنادي وكلامه عن النبي!، لكنه لم يدر ما العلاقة بين هذا وبين «رقية»، يبدو أن كل الكهان يذكرون أمر هذا النبي.. قال لها: يا خالة أنت تذكرين أمرًا ما وقع ببلدنا؟

قالت له: محمد بن عبد الله، رسول من عند الله، جاء بتنزيل الله، يدعو به إلى الله، مصباحه مصباح، ودينه فلاح، وأمره نجاح، وقرنه نطاح، ذلت له البطاح، ما ينفع الصياح لو وقع الذباح، وسلت الصفاح ومدت الرماح...

فانطلق «عثمان» من عندهم مفكرًا.. الكهان يذكرون «أحمد»، وخالته تذكر «محمد»، أفتكون «رقية» أبوها «محمد» نبي؟ وهل بهاء «رقية» إلا من بهاء «محمد»، إنه ليس في القوم من هو أصدق منه وأجمل منه، لكن «رقية» الآن تزوجت، فما حاجته بمحمد، ثم فكر تارة أخرى وتفكر، ليس أحد في القوم قابله منذ أن خرج من عند خالته فسأله هل خرج نبي في بلدنا إلا قابل سؤاله بالعجب والتعجُّب، كيف يقول كهان الشام وكهان العرب أنه نبي، وهو نفسه لا يقول هذا عن نفسه، أفإن كان نبيًا أو لم يكن، ألك به حاجة بعد رقية يا عثمان؟

تقلب الأمر في رأسه.. كان «عثمان» منذ صغره لم يسجُد لصنم قط، كان يكره هذا من قومه، بأي عقل يصنع الرجل شيئًا بيده ثم يسجد له، هذا هراء وحمق، والله لئن كان ذلك البهي نبيًا ليصدقن به.. ومازال «عثمان» يمشي على عماء حتى لقيه «أبو بكر» وكان صاحبًا له، فأخبره «عثمان» بالخبر كله.. قال له «أبو بكر»: ويحك يا عثمان، إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل، ما هذه الأصنام التي يعبُدها قومنا؟ أليست من حجارة صم لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع؟ قال «عثمان»: بلى والله إنها لكذلك.. قال «أبو بكر»: والله لقد صدقتك خالتك، هذا رسول الله «محمد بن عبد الله» قد بعثه الله إلى

خلقه برسالته، فهل لك أن تأتيه؟ فوافق «عثمان».. ولقيًا في طريقهما «طلحة بن عبيد الله»، فحكى «عثمان» لأبي بكر ما حدثه به «طلحة» في الشام من أمر «أحمد»، فسرَّ «أبو بكر» بالخبر، وكان «طلحة» ابن عم «أبو بكر»، فتوجَّه «أبو بكر» إلى «طلحة» مباشرة وسمع منه وأسمعه من الإسلام فأحبه قلبه، فانطلق «أبو بكر» بعثمان» وطلحة، إلى النور ذاته، إلى «محمد».

وحدها تجالس نفسها، وطوق على عنقها يطوق روحها، «ماسا» التي كانت في جبال نصيبين، والذكرى تلازمها، ذكرى مرسومة في وجدانها بكل خطوطها كما حدثت في واقع الأمر، رأته في خيالها مرَّات ومرات، ذلك النبي الأحمد، بين طفولة وشباب، في شعاب مكة، وبرغم عديد الذكريات التي مرَّت على خاطرها في حياتها، إلا أن ذكراه كانت وحدها تضيء في عقلها ولا تنفك تراودها منذ أن رأتها وكأنها لم ترَ غيرها.

كانت في عالم غير العالم.. وصروح غير التي تراها عين البشر، مأسورة من عنقها مطوقة من أطرافها، مأخوذة إلى موضع لا يؤخذ إليه إلا ذو قلة في الحظ، مأخوذة إلى بيت التحقيق الأعلى، أو كما يسمونه «الجوداكيولا»، موضع يحاكم فيه الخطائون من أتباع «لوسيفر»، ولا يخرج الداخلون إليه إلا بحكم الحتف والإفناء، إلا إذا حدثت معجزة.. كانت «ماسا» مغلولة محبوسة في حجرة متماثلة الجدران البيضاء، وهي جالسة فيها ضامة ركبتيها، لا تدري ما سيُفعل بها..

- ألستِ صغيرة على الجوداكيولا يا غانية؟

تنبَّهت من رقدتها، كأن الصوت قادم من يسارها.. فقامت ونظرت من بين فرجات محبسها، فرأت المتكلم: كان ذا وجه شديد البشاعة تبدو منه البغضاء والمقت!، كان يتبسم ببشاعة، وكان اسمه «إزب» -«إزب بن أزيب»- وكان محبوسا مثلها في الجوداكيولا.. قال لها:

- يبدو أن كل من يقترب من ذلك اليماني الأشقر ينتهي هاهنا، لا أدري لم لا يأخذوه معنا.

قالت له «ماسا»: هل تعرفه يا هذا؟ ضيَّق «إزب» عينيه وكأن نقمة الكون قد بدت له لما تذكر، وتكلم «إزب» إليها وذكر لها كل الذي مرَّ به مع ذلك الأشقر

«عمرو بن جابر»... وكانت هي تسمعه وتتأثر، ملحمة مضت من سبأ إلى الزرقاء إلى تهامة إلى الشام، وكل هذا لأجل عقيدة واحدة يؤمن بها.. حتى قال لها «إزب»: وقد كان له زوجة حسناء تماثله عنادًا وتكبرًا في هذا الأمر، حتى أتيتها من ورائها فاغتَلتُها وسقطَت بين قدمي، على بعد قليل من أن تعرف الحقيقة التي كانت تبحث عنها، وكان اسمها «إينور».

تأثرت عيون «ماسا» وكانت رقيقة.. وعلمت أسباب تهدج ملامح «عمرو» لما كان يسمع منها أمر النبي، ثم نظرت إلى سقف حجرتها وتفكرت.. أتراه وجد ذلك النبي؟

قطع أفكارها دخول مردَة من الجن يفتحون عليها محبسها، ويأخذونها للمحاكمة!، وكان هذا يعني أنها ماضيَة إلى حكم الموت. قال لها «إزب» وبشاعة بسمته تزيدها وجلا: يا هذه، أراكِ في الجحيم.

«محمد» وأي شيء فعله بنا «محمد»..

إن قطع الزمان كثيرة..

لكني تخيرتُ لك القطعة من الزمان التي انقلب عالمكم فيها رأسًا على عقب..

نسختها لك من الإيستوريجا، وأخرجتها لك، قصة انقلاب عالمكم..

لم تكن لتصبح هذه معضلة، فلتحترقوا جميعًا في يوم واحد..

لكن البلوى أن ما قلب عالمكم، قلب عالمنا بدوره كمثل انقلاب عالمكم أو أشد..

«محمد»..

أتى في غفلَة من الزمان..

أتى بعد بضع قرون انقطع من دنيانا كل الأنبياء الكذبة، لو يعودوا يخرجون كما كانوا، انقطعوا من الجان، ومن بني الإنسان...

ثم خرج..

خرج في بني البشر إنسان، لم يكن كأي إنسان..

إنسان «محمد»..

زلزل بخروجه عقائد الجن، وعقائد الإنس..

ذلَّت له أعلى وجوه في معشر الجن قاطبة..

وحكى عن الجن ما هو العجب العجاب، وفجع من ذلك العوالي والأقاصي، أن كيف يؤتى ذلك العلم إنسانًا!

لم يكن مثل «سليمان»، ذلك الساحر الذي غلب سحره على أشداء الجن..

بل كان أقرب إلى نبي..

«محمد» الأخلاق، «محمد» الصفات، محمدًا كان واسمه محمد..

عقيدة واحدة أخرجها..

وصلَ زلزالها المشارق والمغارب حتى زلزلت بشدتها عرش نبي النور، «الوسيفر»..

عقيدة الإسلام..

وا ألماه لما أتذكر، وا أنيناه..

وا عذاباه يا بني شيطان، وا حزناه..

كأن ما كنا فيه وعشنا لنصنعه قد رُدَّ إلى وجوهنا فصفعَنا..

أفَلَ أفلَ، كل نجمٍ وكوكب..

وطلع قمرٌ واحد؛ قمر بني هاشم..

(١٠)

اعتقلوا الجني القديم

لو يعلم «أمية بن أبي الصلت» عدد الجن الذين كانوا حوله في اليمن لاستخفى في بيته، ولو يعلم أقدارهم في الجن لقتل نفسه رُعبًا!، كانوا لا ينفكون يتابعون خطواته حتى ملوا منه، رأوه في ذلك اليوم يتحادث مع قافلة آتية من مكة في رحلة الشتاء، يستعلم أخبار قريش، كان يتحدث بحلاوة منطقه المعتادة وحوله قد استكثر الناس، حتى رأى امرأة راكبة على بعير، والبعير يرفع رأسه إلى المرأة ويرغو، فنظر «أمية» إلى المرأة وقال لها: يا امرأة إن البعير يقول لك أن الهودج الذي تركبين عليه مغروز في أسفل بطنه.. فاستعجب الناس كيف فهم البعير!، ونزلت المرأة وكشفوا عن الهودج فإذا فيه حديدة مغروزة في بطن البعير، وعلت وجوه الناس نظرات الإعجاب، وبدت وجوه الجن متسائلة.

وظلوا وراءه يتبعونه ويتبعون أخباره حتى قرروا قرارًا أخيرًا، هذا الرجل لا يُخبر أحدًا أنه نبي، إنما يذكر أنه سيكون هو النبي، ولا يقول هذا غالبًا إلا للنساء اللاتي يخرج معهن ويغدو ويروح، وبدأت نظرة الجن له تتغير، حتى توافقوا أن يقتلوه، فإن كان نبيًا فقد قتلوه، وإن كان غير ذلك فقد قتلوا رجلًا أضاع كثيرًا من وقتهم.

ولا سلطان للجن على الإنس بالقتل أو بالأذى، إنما سلطانهم بالوسوسة والفتنة.. وهذا ما عملوه، حاموا على رجال من العرب يؤزونهم أزًا حتى استل الرجالُ سيوفَهم وعدوا على «أمية بن أبي الصلت» ورجل كان معه هو حرب والد أبو سفيان، وكانت مفاجأة عظيمة للرجلين، لكن القدر كان قد كتب أن «أمية» سيخرج من هذا بلا خدش واحد، فخرج منها ولم يمسه سيف!، لكن مات في هذه العدوة والد أبو سفيان، وكان قبره في المكان الذي مات فيه، معزولًا بعيدًا عن قبيلته، وزعمت العرب أن الجن قد قالت فيه شعرًا قد اشتهر..

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفرٍ

وليس قُربَ قبرِ حربٍ قبرُ

أما الجن فكانوا في شأن آخر: اختلطت مشاعرهم في «أمية بن أبي الصلت»، وبدأ بعضهم يُصدّق أن الرّجل حقا مُختلِف، فإن كان نبي في القوم فسيكون هذا.

وظلُّوا على شأنهم يدورون في الضلال حتى أتى ذلك اليوم، إذ تنبه واحد منهم إلى ما لم يتنبَّه إليه أي منهم..

كان ذاك «طيفون»، أشد مارد فتكًا في أساطير اليونان، قالوا عنه من أوهامهم ما قالوا، قالوا هو المجنون الذي تحدى زيوس وغالبه على حكم الكون، وهزمه زيوس ودفنه في الحممِ تحت الجبال، فلقَّبوه بعدو الآلهة، وأصبح من ساعتها «طيفون» مدفونًا منبوذًا في حمم الأرض، وأصبح هو سبب كل بركان أو زلزال، فلما يغضب تهتز لغضبته الأرض، وإن الإنسان ليغلو في خياله، لقد كان طيفون فقط ماردًا جنيًا متمردًا، ولقد سكن نصيبين وما حولها، وخرج في وفد نصيبين حتى انتهى معهم إلى «أمية بن أبي الصلت»، لكن «طيفون» رمَته الصدفة إلى الحقيقة، رمته هو وحده.

حدثت الصدفة سريعًا.. في تلك القافلة القرشيَّة التي قدمَت من مكة إلى اليمن في رحلة الشتاء، جاء فيها شاب طويل أبيض في وجهه حمره وحُسن، له سمة في وجهه أن لديه شيئًا يسيرًا من الطول في النابين الأعليين من ثغره، ولديه حدبة يسيرة في ظهره، كان ثريًا جدًا يحب التجارة والكسب، وكان اسمه «عبد الرحمن» –«عبد الرحمن بن عوف»– ولقد أذهبت به الصدفة إلى أن ينزل في بيت شيخ كبير ساحر من سحار اليمن؛ شيخ قد كبر وبلغ أرذل العمر حتى صار أشبه بالفرخ، وكان اسمه عسكلان.

كان عسكلان شادًا عصابة على عينيه.. فرأى «عبد الرحمن» بصعوبة فقال له: انتسب يا أخا قريش.. قال: أنا عبد الرحمن بن عوف بن الحارث بن زهرة.. قال الشيخ: حسبُك، ألا أبشركَ ببشارة وهي خير لك من التجارة؟ قال عبد الرحمن: بلى.. قال: أتيتك بالمَعجبة وأبشرك بالمَرغبة، إن الله قد بعث في الشهر الأول من قومك نبيًا ارتضاه صفيًا، وأنزل عليه كتابًا وفيًا، ينهى عن الأصنام و يدعو إلى الإسلام، يأمر الحق و يفعله، وينهى عن الباطل ويبطله، وإنه من بني هاشم، وإن قومك لأخواله، يا عبد الرحمن وازره وصدقه.

كان رئي الجن الذي يأتي ذلك الشيخ قد أتى له بالخبر قبل أن يسمع به الجن الموفدون من نصيبين، وكذا سحرة الشام سمعوا وعلموا الخبر، وكذا

الخالة «سعدى»، فآمن أولئك الجن وآمن بإيمانهم سحرتهم، وكل هذا ووفد نصيبين لا يدري من الأمر شيئًا.. لكن في تلك الساعة عند ذلك الشيخ العسكلان، كان المارد «طيفون» من أبناء نصيبين يمشي بالجوار، ورأى المشهد كاملًا، وعرف الخبر، عرف أن الحق ليس ها هنا، بل إن الحق هناك، في مكة.

وكان «طيفون» ماردًا يحب المجد؛ يحب أن يناله وحده دون غيره، فأخفى الخبر عن أبناء نصيبين كلهم، وفي غفلة من الجميع انطلق وراء «عبد الرحمن بن عوف» إلى مكة، يريد أن يعرف أمرَ ذلك النبي، أما «عبد الرحمن» فكان الأمر شاغله طوال طريق السفر، لطالما شعر أن شيئًا ما خطأ فيما يفعله الناس في الأرض، لكن المال ألهاه عن النظر في هذه الأمور، فلما نزل إلى مكة لقيه «أبو بكر»، الصديق العتيق، وكان خليلًا له، وكان مع «أبو بكر» «عثمان» و«طلحة»، آخذا بيدهما إلى رسول الله، فقال «عبد الرحمن»: يا أبا بكر، ذرني أحدثك بأمر لدي عجيب... وحكى له من أمر عسكلان، فقال «أبو بكر»: يا بن عوف، هذا محمد بن عبد الله، بعثه الله إلى خلقه رسولًا، وإنا ماضون إليه فامضِ معنا.

فبينا هم على طريقهم إذ رأوا فتى أسمر طويلًا جدًا كثيف الشعر لم يُجاوز السابعة عشرة، ومعه شاب يافع كثير الشعر أيضًا لم يجاوز الثلاثين، ومعهما كَهل في ملامحه سمت بني هاشم، قال «أبو بكر»: هؤلاء أبناء عمات رسول الله.. كان الأسمر الصغير السن هو «الزبير» -«الزبير بن العوام»- فتى اشتُهر بقسوَة أمه عليه، «صفية بنت عبد المطلب» عمة النبي، كانت تضربه ضربًا مُؤذيًا حتى لا يكون ناعمًا مدللًا، وقد كان لها ما أرادت، فكان «الزبير» شديدًا قويًا على صغره، والأوسط الكثير الشعر هو «عبد الله بن جحش»، ابن أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي، والكبير الذي يشبه الهاشميين هو «أبو سلمة»، ابن العمة الثالثة لرسول الله «برّة بنت عبد المطلب»، وكان أخو النبي من الرضاعة، وكلمتين من «أبي بكر» لم يزيدهما أوقدَت في نفس «الزبير» و«عبد الله» و«أبو سلمة» اهتمامًا عجيبًا فاستمعوا إلى بقية الكلام واستحسنوه.. وكأنَّ «أبا بكر» كان يقول سحرًا أو كأن نفوس أولئك كانت مختارة من عند ربها!

ومضى ستة رجال مع الصديق، لكنه فجأة توقف، ونظر إلى ناحية معينة وثبت عينيه!، كان هناك يقف ابن الرجل الأنور، ابن زيد بن عمرو بن نفيل، «سعيد» -«سعيد بن زيد»-، ذاك الذي دعا له أبوه المناضل لما كان يموت وحده

في الصحراء، إذ قال: رب إن كنتَ حرمتني صُحبة نبيك فلا تحرم منها ابني سعيدًا.. وكان «سعيد» يُشبه أبوه، كان واقفًا مع اثنين من أترابه يتحادثون، وكلهم في نهاية العشرين من العمر، شباب يافعون، أحدهم كان مميزًا جدًا، ريان وسيم عليه ثياب كأنها من حرير، يقف بشعر مرجل وعطر فائح، كان ذاك الفتى المنعم الواقف مع «سعيد» هو حديث حسناوات مكة ولؤلؤة ندواتها و مجالسها، «مصعب» -«مصعب بن عمير»-، وثالثهم كان فتى نحيفًا خفيف اللحية صابغًا شعره بالحناء وله عقيصتين مضفرتين يقوسهما خلف أذنيه، وله يد عروقها ظاهرة من عمله في حفر القبور، كان ذاك «أبو عبيدة» -«أبو عبيدة بن الجراح»-.

وبخطوَة لا تتردد.. تحرك «أبو بكر» إلى «سعيد بن زيد» ومن معه، فذكّر سعيدًا بوالده، وكلام والده، وحدَّثه ومن معه عن النبي الأمين، وإن أبا بكر إذا تحدَّث عن النبي يكون كأن قلبه هو الذي يتحدث، فيلفت بصائر القلوب إليه.. كان «سعيد» أول من تأثّر لأن والده كان قد رباه على النبي المنتظر، و«مصعب بن عمير» الذي كان مُنعَّمًا في ثياب ورغد أصبحت عينيه الجميلتين تبديان اهتماما بأمر لم يأتِ على خاطره من قبل.. و«أبو عبيدة بن الجراح» الشاب العفي بدا مُنتبهًا إلى أبي بكر بكل كيانه، ولم يمضِ من الوقت شيء حتى ضم «أبو بكر» ثلاثة آخرين، وكأنه في ذلك اليوم كان يمشي في طريق دانية عليها قطوف من الجنة فجعل يقطفها واحدة واحدة.

وانطلق «أبو بكر» بتسعة من زينة الرجال إلى النور المحمد، كانوا يمشون ووراءهم عين تنظر وتمني نفسها بالمجد، عين جني، «طيفون» الذي سمع كل هذا ورأى، وعلم أنه قد وقع على الكنز المخبوء الذي نزلت لأجله عوالي الجن من نصيبين يبحثون حتى تقطعت كلا كلهم، فانطلق «طيفون» وراء «أبي بكر» وصحبه إلى حيثما انطلقوا.

وأتوا عند الهادي يمنون أنفسهم برؤيته، فلما رأوه كان بهاؤه أجمل مما ارتسم في خيالهم، وأجمل مما يذكرون من رؤيته في السابق، فعرض عليهم الإسلام وقرأ عليهم القرآن، ولم يره «طيفون» حتى خرج من بيته الشريف،

هنالك رآه وملأ عينيه منه ولمسه في قلبه شيء لكنه كتمه، بهي جميل المحيا قسيمًا في الجسم كان «محمد»، وكأنه قد خلق كما يشاء، فحتى مارد الجن العتيد توقف برهة في قلبه ينظر، ما هكذا اعتاد أن يكون البشر!..

ولما أسلم التسعة أسلم نفر من قرابة التسعة، أسلمت عمات النبي بإسلام أبنائهن، فأسلمت «صفية» القوية الشديدة أم «الزبير بن العوام» وأخت «حمزة»، وأسلمت «أميمة» الفصيحة أم «عبد الله بن جحش»، أسلمَت هي وابنتها «زينب بنت جحش»، وأسلمت «أروى» الشاعرة المجيدة أخت «عبد الله» والدِ النبي، وكانت العمة الأخيرة «برة» والدة أبو سلمة متوفاة.

ثم أسلمت الزوجات.. «أم سلمة» زوجة «أبو سلمة»، «فاطمة بنت الخطاب» زوجة «سعيد بن زيد بن نفيل»، ثم أخت «سعيد بن زيد بن نفيل»، «عاتكة بنت زيد بن نفيل» الرجل الأنور، فزاد سبعة على التسعة فأصبحوا ستة عشر، زادوا على الثمانية عشر الأولين فكانوا أربعة وثلاثين مسلمًا في أيام معدودة.

أما «طيفون» المارد فقد نظر إلى التسعة يومها ثم ولى بعيدًا، باتجاه اليمن، ليُخبر عن «محمد».

- إلى أين أنت ذاهب يا أصلع؟

قيل هذا بصوتٍ حازم من وراء «طيفون»!. فالتفتَ بغضبٍ كما يلتفت المردة فنظر فإذا جني واقفٌ أمامه وقفة الغضب، كان ذاك «عمرو بن جابر»، واقفًا له كأنما يمنعه من المرور.. قال «عمرو»:

- إلى أين المسير يا أصلع؟ إلى أتباع الأمير السفيه الإبليس؟ فتُخبِر اللئام بأمرٍ لم يأذن الله له أن يُعلَن؟

كان «عمرو» يعرف أنه يقف أمام مارد من نار، وأنه ليس كفؤًا له ولا حتى نصف كفؤ، لكن قلبه وروحه كان فدا رسول الله وأمر الله، وعزم ألا يمر ذلك الأصلع العارم من هنا إلا على جثته، وكانت مجابهة غير عادلة.

مقاعد مصفوفة بعناية على شبه مسرح دائري، خافية في ظلام فلا ترى الجالسين عليها، ومنصة في منتصفها كأنها منصة مسرح، تقف عليها وحدها والضوء متوجه إليها؛ «ماسا» صاحبة الروح الرقيقة، إن شر الأعمال الخيانة، وأشر الشر أن تخون الأمير، أمير النور، فلتكُن من الكفار به كما شئت، لكن لا تدخل في نعيمه ورفاهته وتتبعه وتقسم على الطاعة ثم تخرج على كل هذا وتتمرد بل تعصى وتخون، فإن فعلت فسيكون هذا موضعك، وسط شخوص جلوس على مقاعد ملتفة في السواد لا تبدو منهم سوى عيونهم، هم يعلمون وأنت تعلم أنهم سيكونون آخر ما ترى من هذه الدنيا، الجوداكيولا، المحكمة، بل المقتلة.

لكن العيون المتوارية في طرف الظلام أجّلت الحكم على «ماسا»، وقضوا بأن الأشقر اليماني الذي وُجِد بجوارها قد أدين بمثل الذي أدينت به، وقالوا ائتوا به للتجريم والتأثيم، فهو الغريم الخصيم للنور ولأبناء النور، اعتقلوا الجني القديم، اعتقلوا «عمرو بن جابر»، ولتُسندوا الأمر إلى فوج نصيبين، فهُم إليه أقرب.

ونزل مبعوث الجن من الجوداكيولا، فحطَّ بين زمرة الجن المجتمعين في ضلالهم حول «أمية بن أبي الصلت».. قال: يا أبناء نصيبين، إن الأمر قد صدر، أن أرسلوا من بينكم رجلًا له عزم، ليأت إلينا بعمرو اليماني بن جابر، فإن حكم الحتف بشأنه قد حصل.. ظهرت بسمة واسعة على وجه «سيدوك»، وقال: دعوا لي هذا الأمر.. لكن«ميتاترون» أوقفَه بنظرة، ثم نظر«ميتاترون» إلى أحد الجن، وأشار له بدون كلمة أن ينطلق؛ أشار«ميتاترون» إلى الإثم المتجسد، أشار إلى «بليعال»!

شيطان قديم دميم، تعدَّى على وجدان بني إسرائيل حتى كتبوه في سبعة وعشرين موضعًا من التوراة.. كتبوا أنه الشر والأذى، والضلال والتلف، وسطروا له السطور في صحف قمران، قالوا ذاك الذي كان يخدمه سحرة فرعون، وأن المسيح المنتظر سيدمره في آخر الزمان، شيطان اسمه «بليعال»،

حتى قدامى النصارى ذكروه فقالوا هذا الذي في أصل الجحيم، منظور فيها مع ٦٦٦ شيطان، وله في مكاتيب السحرة ذِكر ومكان، فإن الكتاب الثالث في إنجيل الشيطان هو كتاب بليعال، ولقد نزل «بليعال» اليوم في مكة: نزل كما تتنزل الشياطين.

نزل الأثيم إلى مكة وطاف بها طوفة واحدة من أعلاها فرآه، بل رآهما، «عمرو بن جابر» و«طيفون» يقفان متواجهين، فلما اقترب من مكانهما التفتَ إليه كليهما وكان لحضوره طاقة زعزعت ذرات الهواء، فنزل نزلة غاضبة، قال: ما شأنك هنا يا «طيفون»، ماذا أخرجكَ عن السرب؟ قبض «عمرو بن جابر» قبضَته وأحسَّ بهول الورطة التي سقطَ فيها، كان في البدء أمام مارد، أما الآن فهو أمام مارد وعفريت من أصل الجحيم.. لكن «عمرو» أرخى قبضته لحظة، فإن «طيفون» كان قد تحرك من مكانه وتهجم على «بليعال»، هجمةً مفاجئة لم تكن في حسبان «بليعال» فراغ منها وتفاداها، وتصارع الجحيم مع الجحيم، توقف «عمرو» محله وهو لا يدري ما الذي يفعله «طيفون» بالضبط ولماذا!

كان «طيفون» يشتعل نارًا من دواخله حتى بدت في عروقه وثناياه، كان يريد أن ينفرد بالمجد، لو علِم «بليعال» بالخبر فسيشاركه المجد -مجد «لوسيفر»-، ولا يوجد أعظم من مجد «لوسيفر»، لكن فارق القدرة كان واضحًا.. وتعرَّق «عمرو بن جابر» وهو ينظُر إلى ما فعله «بليعال» في «طيفون»، كان «بليعال» هو الأذى المتجسِّد، وكان يبدو أن نيران «طيفون» تلتهب فتأكل جسده، ثم امتدت يد «بليعال» اليسرى كأنها الوتد فأمسكت بفك «طيفون» حتى اختل اتزان المارد وارتجف، ثم دفع «بليعال» بيده دفعة ثانية أشد من الأولى فدخلت في فك «طيفون» وانغرست كمثل غرس الرمح فتضاءلت نيران «طيفون» وبدت عليه علامات الانكسار، وأحنى رأسه إلى الوراء فبدت مدحورة وهي داخلة فيها يد «بليعال» الواحدة الممدودة.

كانت تلك غرسة يد تكسّرت لها جنبات فك «طيفون» وفقد الوعي.. ثم التفت «بليمال» إلى «عمرو بن جابر» الذي تراجع تراجعًا غريزيًا، قال «بليمال»: يبدو أنك يا أشقر ستضيف واحدًا آخر إلى قائمة المسجونين بسببك في الجوداكيولا. نظر «عمرو» إلى «طيفون» الساقط على الأرض ولم يتكلم.. فقال «بليمال»: ويبدو أنك أنت أيضًا ستجتمع معهم.. كان كل ما يشغل «عمرو» هو أن وقوفهما في هذا المكان هو على بعد خطوة واحدة من بيت النبوة، كان يخاف أن يرى «بليمال» شيئًا، ثم هدأت نفس «عمرو» إذ تذكر أن الله إن أراد أن يخفي أمرًا سيخفيه، وإن أراد أن يكشفه سيكشفه.. قال «بليمال»: إن جنيئة طائفة الأرواح، «ماسا هارينا»، تحاكم في الجوداكيولا بتهمة الخديعة، وأنت قد صدر القضاء بشأنك أنك لشريعتنا عدو مبين، وقد جاء الأمر بتسليمك إلى الجوداكيولا.

لم يُعلّق «عمرو» وإن كان تأثّر بمصير «ماسا» وغضب غضبةً خفية لشعوره أن هذا بسببه، لكنه تصنع الانهزام ومشى مع «بليمال» شيطان الأذى الذي كان يجر وراءه المارد «طيفون» جرَّ الذل، كل ما كان يهم «عمرو» أن يبعد «بليمال» عن هذا المكان، بل عن هذه البلدة كلها، و إن كان الثمن إعدامه في الجوداكيولا.. وبرغم كل الذي يسمعه عن الجوداكيولا إلا أن نفسه لم ترجف رجفة واحدة.

وعلى أعتاب مكة نزل رجل ظاهرَة عليه وعثاء السفر.. تراخى على راحلته من التعب لما دخل الديار، وكان يُعلّق على صدره صليبًا فاخرًا، كان يذكر كل ما مرّ معه في رحلته و يذكر ما أخرجه من مكة، كان ذاك هو الرجل الحي الوحيد الباقي من الأربعة الأنوار «عبيد الله بن جحش»، ولقد ارتضى النصرانية دينا، ولقد بلغه موت أصحابه الثلاثة الذين كانوا معه في الرحلة، «ورقة» و«زيد» و«عثمان بن الحويرث».. فكان يتذكرهم ويتذكر سيرتهم.

كان «عبيد الله بن جحش» هو زوج «أم حبيبة بنت أبو سفيان»، وكان «عبيد الله بن جحش» في نفس الوقت ابن عمة رسول الله، «أميمة بنت عبد المطلب»، وما كان يدري أن «أحمد» قد بُعث، وما كان يدري أنه هو ابن عمته، لكنه علم الخبر فورًا لما دخل بيته، فأمه «أميمة» أسلمَت وأخوه «عبد الله» وأخته «زينب بنت جحش»، نظر له أخوه «عبد الله» وإلى الصليب الذي يُعلّقه على صدره، وقال له: والله يا عبيد إن ذلك الذي كنت عنه تبحث وتتحدَّث في أيامك القديمة

قد بعثه الله من بيننا، من بيتنا، وإنه لمحمد بن عبد الله، ابن عمتك، ولقد آمنتُ به أنا وأمك أميمة وأختك زينب.

توقَّف «عبيد الله» ولم يحر جوابًا.. حتى ينظُر ويقارن بين هذا الأمر وبين ما تحت يديه من دين وما على رقبته من صليب، فأتى إلى رسول الله البشير المحمد، فوجد النبوة وكأنها تفيض من بين عينيه، النبي المناحما المعزي الأحمد، بل إن اسمه المحمد، لكنه ليس من بني إسرائيل. أفيكون اليهود حقًا متعسفون في احتكار النبوة لأنفسهم دونًا عن جميع الأمم؟ إن تعسفهم هذا لا يتفق مع عدالة الله، كان يحس بهذا لكنه يخفيه، المناحما الثاني الذي بَشَّر به الإنجيل قد نزل اليوم ليحاج العالم على الخطية، نزل يمجِّد «المسيح» ويبشر بنزول «المسيح»، نزل ولا يتكلم إلا بما يسمع، تمامًا كما جاءت بشارة الإنجيل... نظر «عبيد الله بن جحش» وهو يفكر في كل هذا إلى ملامح «محمد»، والنور ينور صدره رويدًا رويدًا.

النبي الذي تنتظره اليهود، وبشرت به التوراة.. قالوا هو الذي يُخرِج الحق للأمم، قالوا ليس بصخاب ولا يصيح ولا يسمع في الشارع صوته، لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض، قالوا هو الذي يحفظه الله ويجعله نورا للأمم، يفتح به عيون العمي ويخرج من الحبس المأسورين في الظلمات، قالوا هو الذي يسكن قيدار أرض العرب، هو النبي الذي بشرت به مكاتيب اليهود في قمران.. فكتبوا أنه يتيم، وأن بين كتفيه شامة.. نظر «عبيد الله بن جحش» وهو يُفكر في هذا إلى ملامح «محمد»، وإلى شامة «محمد»، والسنا من نوره قد غزا قلبه واستحوذ.

وشردت عيونه وهو ينظر.. أفتصدق في ابن عمتي نبوات الكهنة؟ أهو من غالب بن فهر من جهة الأم مثل أمية بن أبي الصلت، لا بل كان محمد من غالب بن فهر من جهة الأب ومن جهة الأم أيضا.

ثم استمع «عبيد الله» إلى ما نزل من القرآن الكريم.. وكأنه نزل فغسل ما علق بصدره من كدر، لا توجد ذوات تصدر من الله لتخلق العالم، لا يوجد عوالم أربعة متلألئة فيها عزير يخلق العالم، لا يوجد ذات المسيح الصادرة التي تخلق العالم، بل يوجد ذات الله الأحد، الله الصمد، لم يلِد منه ذات ولم يُولد من ذات، ولم يكن له كفوًا أحد، إنما أمره إذا أراد أن يخلق أن يقول كن فيكون ما أراد.

كان قد نزل حتى ذلك الوقت كثير من القرآن يفصح عن عقيدة الإسلام ويحكي قصص الأنبياء، ولعمري لقد وضع «عبيد الله» يده على جبينه من حسرته على سوء وشناعة ما كان يسمع من قصصهم في التوراة، الآن سمع القصص وهي لفطرته دانية، لا توجد خطايا للأنبياء، بل إنهم بريئون من هذا الشر براءة الشمس من اللمس، ليس لأنهم فوق البشر، بل هم بشر عاديون لهم شهوات كبقية البشر لكنهم بلغوا درجة من الصلاح والتقوى ورقي الروح والخوف من الله وحب الله ما يمنعهم عن الخطأ، لهذا اصطفاهم الله من بين البشر فجعلهم أنبياءه.. فهم معصومون باجتهادهم البشري ليس بطاقة خارقة أعطاها الله لهم فميزهم بها عن البشر.

«آدم» نبي أخطأ خطأ بسيطا واستغفَر الله فغفر له ولم يورث خطيئته لأحد كما في الإنجيل ولم يُضاجع الحيوانات كما يقول التلمود...

و«نوح» نبي لم يسكره حفيده كنعان ولم يعريه ولم يلعن الله على لسانه نسل حفيده «كنعان» الذي فيه كل الأمم التي سكنت الشام كما قيل في التوراة بل إن كل الأنسال عند الله سواسية، وقد أرسل الله الطوفان على قوم «نوح» وحدهم وليس على العالم كله كما في التوراة؛ أرسله عليهم لما كذبوا بعد ألف سنة من محاولات «نوح» لدعوتهم ليس بسبب أن الله غضب على العالم من خطيئة الصالحين مع النساء كما في التوراة...

و«إبراهيم» نبي هو أمّة وحده، و«إسماعيل» ابنه نبي صالح صادق الوعد يأمر أهله بالصلاح وليس رجلًا همجيًا يحاول قتل أخيه «إسحق» ولم يعبد الأصنام يوما كما قيل في التلمود، وأخوه «إسحق» هو أيضا نبي، و«لوط» نبي كريم آتاه الله حكمًا وعلمًا ولم يزنِ ببناته ولم تسكره بناته ولم يضاجعنه واحدة تلو الأخرى ليقمن منه نسلًا كما في التوراة، ولم يكن ديوثًا كما في التلمود، و«يعقوب» نبي صالح لم يخدَع أبوه ليحصُل على البكورية من أخوه الهمجي «عيسيو» والد الأدوميون أعداء بني إسرائيل كما في التوراة.

لا توجد أنسال ملعونة في نسبها زنا وفحش، لا توجد دياثة وزنا محارم، لا توجد قصص جنسية...

أبناء «يعقوب» لم يرتكبوا زنا محارم، «راوبين ابن يعقوب» لم يزنِ بسرية أبيه بلهة كما في التوراة، «يهوذا ابن يعقوب» لم يزنِ مع «ثامارا» زوجة ابنه التي

تنكَّرت له في شكل مومس لتصحح له نسله لأنه كان يتزوج كنعانيات كما تقول التوراة .

لا يوجد قتل نساء ارتكبه «موسى» بسبب زنا اليهود معهن، ولا قتل «موسى» الرجال والنساء والأطفال من الكنعانيين بأمر الله، و«هارون» كان نبيًا فصيحًا ولم يصنَع العجل لقومه في غياب «موسى» إنما صنعه لهم «السامري»، و«يشوع» خليفة «موسى» لم يقتُل ١٣ شعبا واحدا وراء الآخر بكل من فيه من نساء وأطفال ورضَّع وشيوخ وحيوانات بأمر الله كما في التوراة.

و«داوود» كان نبيًا أوابًا، لم يزنِ بامرأة قائده أوريا، ولم يقتُل شعبه بسبب خطيئة إعجابه بكثرة شعبه ورغبته في إحصائهم كما نُسِب له في التوراة.. و«سليمان» كان نبيًا أوابًا مثل أبيه آتاه الله الحكم والعلم وعلمه منطق الطير وسخر له الجن والريح ولم يتودَّد بصناعة معابد الأصنام لنساء الممالك المجاورة كما في التوراة.. وأبناء «داوود» الآخرين لم يزنوا زنا محارم، «امنون بن داوود» لم يزنِ بأخته، «أبشالوم بن داوود» لم يغتصب سراري أبيه أمام شعب إسرائيل كما في التوراة.

تلك التوراة التي يؤمن بها اليهود ويؤمن بها النصارى ويسمونها العهد القديم بكل ما فيها من هذه الشنائع، لا يوجد شيء من هذا عند «محمد»...

كذلك «يحيى» نبي وليس مجرد واعظ كما في الإنجيل، و«عيسى» نبي وجيه هو المسيح المنتظر، وهو كلمة الله وروح منه، يعني مخلوق بكلمة الله بدون أب، وهو روح من الله تشريفًا له على كل روح، مؤيد بالروح القدس.. والروح القدس هو الملاك «جبريل» وليس أحد ذوات الله ولا ينبغي له؛ بل هو ملاك أيَّد الله به «عيسى» تأييدًا خاصًا؛ فكان «عيسى» بهذا التأييد يُكلِّم الناس في المهد ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرًا ويحيي الموتى ويبريء الأكمَه والأبرص بإذن الله، لكنه ليس ذاتًا من ذوات الله وليس صادرًا منه ولم يخلق العالم ولم يتجسد الله به، ولم يقتله الناس على الصليب وإنما شُبِّه لهم، بل رفعه الله إليه وسينزل في آخر الزمان ليحقق نبوءة الله في المسيح المنتظر.

لا توجد خطية ورَّثها «آدم» لكل ذريته المساكين الذين لا ذنب لهم فيها.. لا توجد كهنة وسيطة تعترف لهم بخطيتك فإذا غفروا لك غفر لك الله، إنما أنت تُحدِّث الله في أي وقت وتشتكي له في أي وقت، ويغفر لك في أي وقت فور أن يحصل في قلبك الندم.. الله كريم عظيم قريب مجيب.

لا توجد ذبائح تحرق كاملة حتى تتفحم لأجل الله كما في التوراة.. ولا ذبائح تذبح ليأكل منها الكهنة وحدهم.. ولا ذبائح مخصوصة بالرهبان لا يجوز أن يذبحها غيرهم.. إنما الذبائح يذبحها أي أحد بطريقة رحيمة غير موجعة، تذبح ليتصدَّق بلحمها على الفقراء والمساكين، فلا ينال الله من لحومها إنما يناله التقوى ممن ذبحها.

غسيل شامل كامل لكل شائبة قيلت بشأن الله أو بشأن أنبيائه، غسيل وتطهر من كل ما تستشنع النفس أو يستغرب العقل أو تستقبح الروح.. فقال الرجل أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله؛ فأصبح الإسلام بإسلامه خمسة وثلاثين نفسا.

بين حواري مكة، كان الصبي الأسمر «سعد بن أبي وقاص» الذي لا يتجاوز ست عشرة عامًا جالسًا في محل عمله يبري السهام كما اعتاد، كان يبري ويُفكِّر في مشهد «أبي بكر» وهو داخل على النبي بتسعة رجال في يوم واحد، ويذكر استبشار النبي بهم وفرحته، ونظر إلى المارة هنا وهناك؛ إن هؤلاء لا يدرون أن نبيًا قد خرج بينهم، يمشون يعايشون حياتهم، لكن الله لم يأذن بالإعلان، كان يوَدّ لو أن يفعل شيئًا هو الآخر، ثم حسم أمره وقام بعزم ورمى ما كان في يده من أسهم، وتوجه خارجًا، إلى سفح جبل الصفا، وبين عينيه مهمة واحدة.

عند سفح ذلك الجبل كان هناك بيت متجنب قليلًا عن بقية البيوت، يسكنه فتى واحد يتيم، ليس له ذكر في القوم ولا أهمية، إلا أنه أرقم، والأراقم هم أصحاب العيون الملوَّنة الضيقة، فتى من رقمته يقال له الأرقم، لم يجاوز السابعة عشرة، وحيدًا يعيش في بيت كامل مُنزَوٍ تحت جبل الصفا، ولا صاحب له في القوم إلا فتى من سنه يُدعى «سعد بن أبي وقاص»، ولقد رآه في ذلك اليوم آتٍ عليه وفي عينيه حديث كثير.

أتاه «سعد» فأخرجه من بيته وكلَّمه وكلمه عن الله ورسول الله وسفاهة ما يصنع القوم، فانشرح صدر الفتى، فأتى إلى النبي المصطفى فأسلَم، وخرج به «سعد» يمشي معه إلى ذلك الشعب الذي كان «سعد» يحبه، شعب أجياد، أول مكان وقعت فيه عينه على رسول الله، فوجدا رجالا يصلون.. قال «سعد»: يا أرقم هؤلاء أصحاب رسول الله، فصلوا معهم وأنسوا بهم.. لكن صوتًا أتى على آذانهم وهم يصلون، صوت صِبية أجلاف، يضحكون ويتضاحكون، دخلوا على الشعب فوجدوا صفًا من الساجدين، فسكتت ضحكاتهم لحظة، ثم ضجوا واستضحكوا وتساقطوا على الأرض ثم تكلَّموا ولمزوا وتهكموا، عن صف الدافنين رؤوسهم في أديم الأرض، فلما فرغت الصلاة قام «سعد» ووجهه مُتفجِّر من الغضب، وتهارش مع الصبية وأمسك بهم وأمسكوا به ولم يجد أحد وقتًا لفض العداء، فإن سعدًا قد انحنى على الأرض فرفع عظام فك ملقاة في التراب وضرب بها رأس أحد الصبية فشج له رأسه، فهرب الصبي وهرب أصحابه، وكان هذا من أعظم الخطر على تلك الفئة المسلمة القليلة التي تنشأ في مجتمع قريش، خطر الدم.

وعادوا بما فعلوا إلى رسول الله، وتحدثوا وتفكروا.. لكن الأرقم ذو السنين السبعة عشر عرض له في خاطره أمر، أن تعالوا إلى بيتي جميعا إذا أردتم أن نجتمع برسول الله، ولنجتمع كل يوم أنَّى شِئتُم لأي مدة شئتم، وإن بيتي خير لكم، فإنه متنح عن بقية البيوت عند سفح الجبل، ولئن شوهدتم ماضين إليه وعائدين من عنده فلن يأبه بكم أحد، فكأنكم ذاهبون إلى الصفا، وليس في بيتي نسوة ولا عيال... وظلَّ يُحدثهم حتى استحسنوا رأيه وأقره النبي المجتبى، فكانت تلك الدار في سفح الجبل هي مجتمعهم ومؤتلفهم، وفي وسطهم رسول الله، يجلسون إليه وعيونهم لا ترتفع وظهورهم لا تتكيء، يسمعون إلى الهدى، فإذا تحدث مدت أعناقهم وتبادرت آذانهم، وإذا سكت أطرقوا.. يتلوا عليهم آيات بينات تصفو لها نفوسهم وتسمو لها أفكارهم، فإذا خرجوا وجدوا قومهم في التلاهي، تتسافل أفكارهم وذقونهم تحت الصنم والحجر، فإذا عادوا إلى رسول الله تنوَّرت نفوسهم وقلوبهم.

وكأن تلك الدار بعثت نورًا، فأسلم فيها ضعف الذين أسلموا قبلها..

وظلوا يزدادون يومًا بعد يوم، يأتي كل يوم إلى مجتمعهم مؤمن جديد، حتى امتلأت بهم أركان بيت الأرقم وبلغوا الستين رجلا وامرأة، وظلوا يزدادون حتى نزل الأمر لرسوله من فوق سبع سماوات، الأمر المنتظر، بعد ثلاث مضين من السنين على نزول «جبريل» عليه ﷺ الغار، وبعد سنة أو تزيد من دخوله دار الأرقم، نزل أمر الله: أن أنذِر عشيرتكَ الأقربين.. وكان هذا يعني البداية؛ بداية الرسالة، والمواجهة.

إذا خلوتَ إلى نفسك، وأعتمتَ من حولك كل نور، ورقدتَ على ذلك الفراش الذي لك، فاذكُر أنني هنالك، أرقُد على نفس الفراش، أدور في نفس الحجرة، أنظُر إليك، أتحين تلك السهوة التي تأتيك، لأنقض على مجامع صدرك.

ظن الإنس أنا نقدر على قراءة أفكارهم بينما يفكرون بها، ظن الإنس أنا نطلع على خواطرهم العفنة، وإن الإنس في حمق وخبال عظيم، إن شيئًا بداخل فكرك وعقلك لا يقدر جني على أن يستظهره، إن كنا نقدر على هذا لتيسَّر لنا أن نجعل حياتك كبدًا على كبد، ولما هنأت بفكرة إلا أتيتك بنقيضها، لكن هذا وَهم، إنا فقط نراقبك ونحلل تعابيرك وأعمالك حين تعملها، ثم نلقي إلى روحك الرابضة في صدرك رسائل ونفثات ربما تتقبلها وتنفذها وربما تتجاهلها، دع عنك كل مخبول يظن فينا غير هذا الظن.

جاءكم «محمد» فحدَّثكم عنا أحاديث وأحاديث.. حدثكم عن تفاصيل في حياتنا تحيرت الجن كيف استعلمها، كثير من الجن إذا كان يسمع ويرى «محمد»، فإنه يُسلِم من فوره، بل ويهرع إلى عبده الساحر الذي تلوثت لحيته بالنجاسة لأجله، فيخبره عن «محمد»، فيُسلم الساحر بدوره... هكذا كانوا، عتاة من أبالستنا لم يتحملوا، لأن محمدًا كان يُخبر عن الجن بما يستحيل أن يعرفه أحد إنسي إلا أن يكون نبيًا.

تحدث وأمر الناس أن يكفوا صبيانهم وأن يدخلوهم للبيوت بعد الغروب.. فإذا ذهبت ساعة من الليل فيخلوهم، لأن الشيطان ينتشر ساعة الغروب، هكذا قال بالنص، من الممكن أن يظن كل أحد أنا مخلوقات مرعبة تستفيق في الظلام، لكن أن يحدد ساعة واحدة بعد الغروب، فهو أمر شديد الاستحالة، كيف عرف أهمية تلك الساعة، نحن ننام طالما كان في الدنيا نور من الصباح، فإذا نزلت الشمس وحدث الغروب، قُمنا من مراقدنا وانتشرنا في الأرض، مثلما تنتشرون أنتم في الصباح إلى معاشكم، الجن ينتشرون في مدائن الجن، لكن الشياطين أمثالنا الموكلون بإضلالكم، فإنهم ينتشرون في مدائن الإنس، تحديدًا في تلك الساعة، حتى يستقر كل شيطان إلى وجهته وهدفه.

والصبيان الذين جاوزوا الحلم جميعهم لا قرناء لهم.. وإن منا أفواجًا من جند الأمير

تنزل إلى المدائن في كل يوم تبحث عن إنسي من الصبيان تكون له قرين، ورغم أن هذه مهمة مقدسة يتطوع كثير منا لعملها، إلا أن كثيرًا منا إنما يفعل هذا لما يحصل عليه من رغد من الأمير وسمات، وهبات لست تدريها ومآثر وحباء، وكثير منا يفعل هذا لأجل المال.. وإن فيها ثروة لست تدريها، نتحين الصبيان فيتخذ الواحد منا لنفسه صبيًا، يلزمه لا يفارقه، سنوات طوال حتى يموت الإنسي.

نوسوس له ونمسه حتى نستميله إلى طريق الخباثة، فإذا استلم ذلك الطريق وسار فيه حثيثًا، تروح الواحد منا وغاب عنه وتنعمنا بمالنا وثرواتنا وعطياتنا من الأمير، وننظر إلى قريننا كل حين، فإذا رأيناه قد تاب عدنا له ومكثنا عنده حتى نرديه إلى طريق الردى، وهكذا تمضي حياتنا!

«محمد» كان ينهَى أصحابه أن يُصلُّوا ساعة الشروق وساعة الغروب.. يقول إن الشمس في الشروق تطلع بين قرني شيطان، ويصلي لها الكفار، وفي الغروب تغرُب بين قرني شيطان، ويصلي لها الكفار.. هذا شيء جعلني أنا نفسي أضرب كفًا بكف!، القرن في العرب يعني الأمة، يقول «محمد» أن الشمس لما تشرق في مكة وما حافها من مدن الجزيرة فإنها تشرق بين أمتي شيطان، وإذا غربت فإنها تغرب بين أمتي شيطان، وهو شيء محير، ففي نفس ساعة طلوع الشمس على مكة، فهي تطلع على أمتين يسكنون شمال جزيرة العرب؛ الأمة الأولى القوط وهم شعب منتشرين في امبراطورية الروم يعبدون الإله دازبوك إله الشمس، يعبدونه منذ عهود قديمة، ولما أتت المسيحية أصبحت تقول على دازبوك أنه شيطان من أقوى شياطين الجحيم، ودازبوك حقا شيطان له لحية عظيمة ويرتدي الفراء، فالقوط هم قرن الشيطان الأول.

الأمة الثانية هي الفرس.. يعبدون إله الشمس هافار، وهو نفسه دازبوك شيطان القوط لكن الفرس سمُّوه اسمًا آخر، لمثل هذا أسلم لمحمد من الجن كثير.. كان من المستحيل أن يذكر أشياء مثل هذه وكل خبرته في الترحال رحلة واحدة إلى الشام وعمره فيها لا يتجاوز السنوات السبع.

رأينا «محمد» يُخبر الناس بأمور وأمور.. يكفي أن أخبرك بأن قرين «محمد» نفسه قد أسلم، كل هذا ولم يكن شياطين الأمير قد توصلوا لمحمد، حتى حان ذلك الحين..

(١١)

انقذوا
أنفسكم
من النار

في ناحية من الأرض ليست تُرى.. وقف مُكبَّلًا بسلاسل من ضياء، وفوقه قباب وقباب، وكل فكره وروحه عند رسول الله، فلم يستوعب كل هذا. يمشون به بين الصرح والبنيان، في محل هو ذعر لكل جن، حتى انتهوا به إلى منصة دوارة، حولها درجات ودرجات، عليها مقاعد خالية، ثم تركوه وحده وانصرفوا.. فمضى بعينه حواليه بلا اكتراث، حتى شهد نزولهم، أنوار تنزلت في الظلام حتى حط كل نور منهم على مقعد، ورأى عيونهم فعرفهم، إنهم القضاة، القهرة الزبانية، ودارت به المنصة وكأنها تستعرضه أمام وجوههم.

قال قائل منهم: عمرو بن جابر بن طارق، من أجنان سبأ، ألم تكُن منا فردًا من خير أجنادنا؟ أم أنك نسيتَ يابن جابر؟ مضت على ذاكرة «عمرو» خطوب وأحداث كانت في شبابه، أيام كان يرتدي لباسهم، واستذكر ما كان يفعل من إثم وخطيئة، فتخشَّب وجهه من الكدر، ثم تذكر أن الإسلام يجُبُّ ما قبله، فوقف ثابتًا أمامهم، ثم خطر عليه ما كدره، لقد تمنى أن يراه رسول الله، إن كان إعدامه هاهنا فإن هذا لن يكون له ولن ينال هذا الشرف، لكنه كتمها في نفسه ووقف بثبات.. ثم تكلم المتكلم وقال: قضى قضاؤنا أن حتفك هاهنا يكون، و...

قاطع «عمرو بن جابر» المتكلِّم، لقد شعرَ أنه يجب عليه أن يفعلها، طالما هو إلى نهايته ماض.

وفي وسط الجوداكيولا، بين القضاة والزبانية.. رفع «عمرو» صوته وصاح: يا بني إبليس إن الوقت قد أزف، وإني قائلها فاسمعوا، ألستم لما صعدتم إلى أعالي السماء تسمعون الخبر، أتاكم حظكم من الشهاب الثاقب، آلله راضٍ عنكم يا بني إبليس؟ فإن كان راضيًا فلماذا يُعذبكم، أليس سفيهكم إبليس يقضي سنونه منذ ذلك الحين وهو لا يدري ما الخبر ولا أين النبي، آلله راضٍ عنك يا إبليس؟ أولم تتفتق أذهانكم عن فكرة واحدة تزيل من على عيونكم عماها، أفيخلق الله بشرا ثم يتركهم هكذا بلا أنبياء ولا رسل، آلله ظالم أم عادل؟ أم أنه عدل عليكم وظلوم عليهم؟

لم يسمع ردًا وكأنه لا أحد معه، فنظر إلى عيونهم، ولم يهتد منها إلى أي تعبير، ثم فجأة برزت على جسد «عمرو» خيوط طلعت من الأرض وتسلقت على جسده حتى كبّلته، ثم قبضت عليه فصرخ وسقط على ظهره، لقد كان يعرف، يعرف أنها النهاية.

كانت ليلة في بيت الهادي.. ليلة أذن له ربه أن يجهر ويقولها علانية، ويبدأ الرحلة، رحلة ختام النبوات كلها؛ فدعا الكريم ذو الخلق الكريم «محمد» ابن عمه العلي ذو الذكر العلي، «علي بن أبي طالب»، ويومذاك ما كان قد أتم الرابعة عشرة، قال له: يا علي، اصنع رجل شاة بصاع من طعام واجمع لي بني هاشم.. فعمل البهي العلي ذلك ودعا بني هاشم وهم يومئذ أربعين رجلاً وامرأة، دعاهم على رجل شاة واحدة لا تكاد تكفي خمسة نفر، كان هذا شيء عجاب، لكن عليًا فعل كما أمر النبي الهادي.. وحضر ثلاثون رجلاً إلى البيت وفي حسبانهم أنها مأدبة، فلما قعدوا قدمت لهم سفرة تبدو كطعام يسير، فجالت فيها عيونهم ثم نظروا إلى بعضهم، ودعاهم أهل البيت بثقة إلى بدء الطعام كأن ما في السفرة يكفي، فمدَّ القوم أيديهم في تحشم ليأكلوا، وكأن بعضهم شعر بالانتقاص، أن يدعى إلى مثل هذا وكأن هذا قدره وحجمه، ولم يكن هذا محمودًا عند العرب، لكن أياديهم لما مدت إلى الطعام اختلف كل شيء.

كان الرجل منهم يأخذ من اللحم والإدام فيأكُل كيفما اشتهى ثم ينظُر إلى ما أمامه من طعام فإذا هو كما بدأه أول مرة، فتبسَّموا بتعجب ومدوا أيديهم ومدوا وأكلوا وتنبهوا لعل عيونهم تخدعهم، حتى بلغوا الشبع.. قال «أبو لهب»: ما رأينا سحرًا كسحركَ هذا الذي أريتَنا يا«محمد».. لم يرُد عليه النبي، فلما فرغ الحاضرون من طعامهم دعا النبي «علي بن أبي طالب» أن يأتي بأقداح، فأتى بها علي فوضعها أمامهم وصب لهم فيها اللبن فشربوا حتى ارتووا، والقدح الكبير في يد «علي» لم ينقص منه شيء، فنظر بعضهم إلى بعض، فقال «أبو لهب»: ما رأينا كهذا السحر.. ثم جلس إليهم رسول الله وقبل أن يتكلَّم بكلمة قال «أبو لهب»:

- هؤلاء عمومتك وبنو عمك فتكلَّم بما تريد ودع الصباة، واعلم أنه ليست لقومك بالعرب قاطبة طاقة، وإن أحق من أخذك فحبسك أسرتك وبنو

أبيك إن أقمت على أمرك هذا، فإنه والله أيسر من أن تثب بك بطون قريش وتمدها العرب.

فسكت النبي الهادي ولم يتكلم، لكنه أعاد عليهم الدعوة أن يأتوه بعد أيام فأتوه كلهم بل زادوا فكانوا خمسة وأربعين رجلا.. فابتدرَهم وقال:

- يا بني عبد المطلب، إني والله لا أعلم شابًا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وإن الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إله إلا هو، إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس بعامة، ولقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثنَّ كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحسانًا وبالسوء سوءًا، وإنها للجنة أبدًا والنار أبدًا، وأنتم لأول من أنذر، فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي؟

لم يكن القوم قد استفاقوا من مفاجأة الطعام.. إذ أتاهم صاحب المقام المحمود «محمد» بمفاجأة أعظم، ولقد أراهم من بين أيديهم آية جلية واضحة، وما كانوا قد جربوا عليه سحرًا أو لَهوًا من قبل وهو فيهم مصدق محمود، لكن أحدًا منهم لم يُجبه، إلا واحدًا فقط قال بصوت واثق: أنا يا رسول الله.. فنظروا فإذا هو «علي بن أبي طالب»، قال له رسول الله: اجلس.. ثم تحوَّل إليهم النبي وقال:

- من يضمَن عني ذمتي ومواعيدي وهو معي في الجنة؟

قال عمه «أبو طالب»:

- ما أحب إلينا معاونتك ومرافدتك وأقبلنا لنصيحتك وأشد تصديقنا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون وإنما أنا أحدهم، غير أني أسرعهم إلى ما تحب فامضِ لما أمرتَ به، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك.

ثم تحوَّل النبي إليهم وقال:

- أيكم يقضي عني حملي ويكون خليفتي في أهلي؟

فسكتَ القوم كلهم أجمعين، وقال «علي بن أبي طالب»: أنا يا رسول الله.. فقام له رسول الله وضرب بيده على يده وقال له:

- أنتَ يا علي، أنت يا علي.

فقال «أبو لهب» بنفس ذات لهب:

- هذه والله السوأة، يا بني عبد المطلب خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يده غيركم، فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم، وإن منعتموه قتلتم.

فاحتد عليه «أبو طالب» وقال:

- والله لنمنعنه ما بقينا.

فقال أبو «لهب» هازئا:

- إن كان كلام ابن أخي حقًا فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي.

ثم قام القوم وانصرفوا.. فلما طلع الصباح انطلق رسول الله إلى رضمة من جبل الصفا، فعلا أعلاها حجرًا ثم فعل أمرًا هو حذافير الآية، أنذر عشيرتك الأقربين، فبعد أن لم يُجبه من بني هاشم أحد إلا من أخفى إسلامه منهم حماية له، كان لابد أن يُوسّع من دائرة القرابة، الأقرب فالأقرب، فوضع النبي يده على أذنه ونادى وقال:

- يا بني عبد مناف، يا بني مرة بن كعب، يا بني عدي بن كعب، يا بني كعب بن لؤي، يا بني فهر بن مالك...

وظلَّ يُعدّد بطون نسبه الشريف كلها.. من عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك، يعني الأقربين فالأقربين من العشيرة.. فرآه الناس فقالوا من هذا الذي يهتف، قالوا هذا «محمد».. فاجتمع إليه رهط كثير من قرابته وعشيرته الأقربين ومن كان غائبا أرسل من ينوب عنه ليسمع من «محمد»، حتى امتلأ سفح جبل الصفا بالناس.. فوقف البهي المنير العريض المنكبين «محمد» على رضمة الجبل في ذلك اليوم وعشيرته ينظرون إليه ويستنظرون منه القول ولم يكونوا قد اعتادوا على هذا من «محمد».. فوقف لهم الصادق الأمين والنور من طلعته قد غشى كل نور، فقال لهم:

- يا صباحاه.

والصبح ما أسفر على خير من «محمد»، فردُّوا عليه تحيَّته.. فقال لهم:

- أرأيتُم إن أخبرتُكم أن خيلًا تخرُج من سفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟

قالوا: ما جرَّبنا عليك كذبا قط.. فقال:

- فيا معشر الناس.. إني نذير، إنما مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رجل رأى العَدُوَّ، فانطلق يَرْبَأُ أَهْلَهُ، فخشي أن يَسْبِقُوهُ، فجعل يهتف يَا صَبَاحَاهُ، يا معشر الناس، ألا إني نذير لكم، ألا إني نذير لكم...

فنظرَ بعضُهم إلى بعضٍ ثم نظروا إليه فقال:

- إني قد جئتكم بعزِّ الدنيا وشرَف الآخرة، أيها الناس، إني رسول الله إليكم، وإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد.

فاستعجبوا واندهشوا!. ثم نظر إليهم في مواضعهم موضعًا موضعًا وقال:

- يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار.. يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار.. يا بني عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار.

ثم نظر إلى من هم أقرب فقال:

- يا بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار.. يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من الله.. يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار.. فإني لا أملك لكم ضرًا ولا نفعًا.

ثم نظر إلى أهله وقال:

- يا فاطمة، أنقذي نفسك من النار، لا أغني عنك من الله شيئًا.. يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئًا.. يا صفية عمة محمد، لا أغني عنك من الله شيئًا، غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها.

ثم تكلَّم «أبو لهب» ونفض يديه وقال بصوت عال وقال:

- تبًا لكَ سائر اليوم، أما جمعتنا إلا لهذا؟

ثم قام وانصرف.. وانصرف الناس لانصرافه من أمام رسول الله، فقد كان من سادة بني هاشم.

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ نزلت من فوق سماوات سبع على رأس رجل وامرأة، لم تنزل كيدًا ولا ردًا لتب: إنما نزلت إعلانًا وإعجازًا أن هذا الرجل

والمرأة سيعيشان ويموتان ولن يؤمنا ولو آمن كل من في الأرض، ولما بلغهما ما أنزل الله وهما في بيتهما وابنيهما أمامهما، قالت أم جميل العوراء لابنها: طلقا بنات محمد فإنهما صابئتين ولآتينه بعد حين.. وأبدى الشابين بعض إشارات الاعتراض فهدر «أبو لهب» بصوته وقال: رأسي من رأسيكما حرام إن لم تُطلقا ابنتيه.

وتلفقت العوراء بردائها وخرجت وحملت في يدها حجرًا صلبًا، فجاءت إلى النبي وهو جالس عند الكعبة ومعه «أبو بكر»، قال له «أبو بكر»: يا رسول الله إنها امرأة بذيئة وأخاف أن تؤذيك فلو قمت.. قال له النبي: إنها لن تراني!. فاستعجب «أبو بكر» وسكت.

فأقبلت في صحن الكعبة تنظُر هنا وهناك حتى رأت «أبو بكر» فتسارعت إليه وهو ينظر لها، فرآها تنظُر إليه وتنظر حواليه، قالت له: يا أبا بكر فأين صاحبك؟ قال لها: الساعة كان هاهنا.. قالت: لقد بلغني أنه هجاني.. قال لها «أبو بكر»: لا إنه لم يهجوك.. قالت: أنت عندي مُصدَّق.. ثم استدارت مُنصرفة، لكنها التفتت إليه وقالت: وأيم الله إني لشاعرة وإن زوجي لشاعر، ولقد علمت قريش أني بنت سيدها.. ثم استدارت فتعثرت في ردائها فسقطت، فتبرمت وقالت: تعس مذمم، ما هو بمحمد وإنما مذمَّم، مذممًا أبينا ودينه قلينا وأمره عصينا... وانصرفت بعوار قلبها.

وفي ظهيرة اليوم انطلق «عتيبة بن أبي لهب» إلى رسول الله وكان فتى غنيًا رائقًا، فطلق «أم كلثوم» بنت رسول الله، وفي المساء أتى «عتيبة بن أبي لهب»، وكان فتى فاحشًا، فدخل على رسول الله بعلو الصوت، وكان القرآن ذو البيان يتلى فيقال.. والنجم إذا هوى، ما ضل صاحبكُم وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحيٌ يوحى، علّمه شديد القوى، ذو مرّة فاستوى، وهو بالأفق الأعلى، ثم دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى...

حكاية عن شديد القوى «جبريل» الذي علم الوحي، ودنا فتدلى واقترب وبلغ الكلام إلى الحبيب المحمد.. لكن «عتيبة» دخل وسط كل هذا فأمسك النبي من قميصه وشدّه حتى انشق بعضه، وقال له: إني كفرتُ بهذا الذي دنا فتدلى، وإن ابنتك طالِق.. فقال له النبي: احذَر لا يأكلك كلب الله.. فوجم «عتيبة» وتفل تفلةً وانطلق.

وتمرُّ أيام الله.. ويخرَّج «عتيبة» في تجارة إلى اليمن في نفر من أصحابه، فافترشوا وناموا في قطعة من الطريق، ويخرج ليث كأنه انشق من بطانة الأرض، فجعل يستنشق رؤسهم حتى سحب «عتيبة» من خباءته فصرخ وصرخ، فاستيقظ الشباب النيام وفزعوا وهربوا وبقى «عتيبة» بين أسنان شيء لا يدري أتنهش فيه من جُوعٍ أم من نقم.
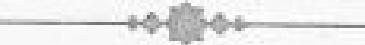
ثلاثة زنازين متقابلة مقامة بهندسة بأبعاد أخرى.. وإن للزنازين صدى وإن كانت لدى الجن، يسكنها ثلاثة ممن تداول الجن سيرَتهم فكانت تاريخًا، «عمرو بن جابر» و«إزب بن أزيب»، و«ماسا هارينا»، كان «إزب» يرقد في سبات بين ظلال تصدرها أضواء زنزانته، فقام «عمرو» ناهضًا، فأصدر إشارة «لماسا» فقامت من مرقدها ويأسها فنظرت له فانفرجت أسارير جمالها.. همس لها: إني رأيتُ محمدًا، وإنه والله لمحمد، وجهه محمد وكلِ أمره محمد، وإن ضياءه بالغ أقمار الإنس والجن.. اضطربت أساريرها لحظة ثم رَقّت عيناها، ونظرت ناحيَة زنزانة «إزب» فوجدته راقدًا غير سامع.. قالت: وهل بعثه الله حقًا؟ قال: نعم بعثه الله، وإنه لأحسن من كل البشارات التي سمعنا بها، بضعة سطور كنا نتجرعها لا تسمن ولا تغنى من جوع، أما مَرآه فهو أمر لا تصوغه الكلمات.

كانت «ماسا» لا تدري لم هذا الشوق الذي في نفسها إلى «محمد»!، أفمن بضع مشاهد رأتها؟ ماذا إن رأته رأي العين؟ المستعجب أن عقلها لازال على عقيدة الجن ورسالة «إبليس»، لكن فيها شوق لا يدريه إلا من يسكن فيه، ثم تذكرت أنها هنا في هذا المكان البارد، فلن ترى شيئًا.. قال لها «عمرو»: هلم يا غادة نصيبين، إنا خارجون من هنا.. نظرَت إليه بيأس وقالت: ليس لنا من هاهنا خروج.. تبسّم بوجهه الوسيم الواثق وقال لها: بل إن الخروج يسير، ولا يكون إلا بكِ أنتِ.

لفتَ حديثه نظرها فانتبهت إليه؛ كان يتحدّث ويشرح بصوت خفيض وكلمات سريعة واثقة، وهي تنظر له وتنظر مُفكّرة إلى ناحية من النواحي، حتى أسرتها خطته وختم قائلًا: والله لا يكون رسول الله في مكان وأنا مُلقى في غياهب هذا المكان.

فاستعدّت وتجهزت حتى استحكمت من أمر نفسها ثم قررت فنفذت.. وصرخت صرخة أليمة صحا لها جنون الجوداكيولا كلهم أجمعين هم ومن

وراءهم!، وصحا «إزب» فزعًا وليس أهلًا للفزع، فجاء لها من جاء من الجن والمردة يسألونها عن الخبر، قالت إني أريد أن أعترف للحَكَمَة بكل شيء، وكان «عمرو» ينظر لها ويبتسِم بسمة خفيَّة.

حياك ودًا، حياك ودًا، حياك ودًا فإنه لا يحل لنا، لهو النساء إن الدين قد عزمًا

رتلوها ترتيلًا، يمشون بها في البرية، رجال محاربين من قبيلة كلب، يجُرّون وراءهم سبيهم من حربهم الأخيرة، رجال ونساء مغلولين غلا، مأسورين من غارة أغارها مجرمو بني كلب على مساكنهم، ولم تكن مساكن عادية، بل كانت قصورًا، وبعضهم اشترتهم كلب من مجرمين آخرون، ومشت كلب في البراري وعبيدهم وراءهم والأسارى، بينهم شاب ذو وجه مألوف، مخضوضر العين شفافها أسود الشعر مرفوعه، آتٍ من رام هرمز، وكان اسمه «سلمان»، القوم ينشدون حوله للإله ود، وهو يذكُر أمورًا سمعها من رهبان الجبل، عن إله آخر، واحد خالق ليس كمثله شيء، وعن نبي زاهر يخرُج في غفلة من الأرض... أمور جعلته ينأى بروحه عن عبادة النار إلى عبادة خالق النار، ثم أغمض عينيه وتذكّر ما مرَّ معه من مشاهد قبل أن يأتي إلى هنا.

مأسور بجواره شاب قريب من عمره.. أحمر الشعر حاد القسمات، اسمه «صهيب»، له قصة أشد من قصة «سلمان»، وكانت الطريق طويلة، فكلب مسافرة عائدة إلى أرضها عبر الصحاري بعد عدة حملات غازية، فطرأت رفقة بين «سلمان» و«صهيب» ذو الشعر الأحمر، وكان «صهيب» صاحب عجمة في لسانة يتحدث العربية بلكنَة أجنبية، وكذلك كانت في «سلمان» عجمة لسان فارسية.. قال «سلمان»: ماذا رمى بك إلى كلب يا رفيق؟ قال «صهيب»: إني ابن أمير في بلاد فارس، كنت أعيش في قصر والدي بقرية على شط الفرات، ثم عدَا علينا الروم وغزو أرضنا ومساكننا وأخذوني من قصري وقتلوا أبي وأمي وأسروني أسرا إلى بلاد الروم، كنت صغيرًا يتيمًا أوضع حيث يضعوني، فجعلني الروم عبدًا أباع وأشترى، وأعمل في منازلهم وقصورهم، حتى باعني أحدهم في الشام إلى رجل من قبيلة كلب.. رفع «سلمان» حاجبه وقال: إذن أنت فارسي مثلي.. قال له «صهيب»: بل أنا عربي من قبيلة النمر، وإن أبي كان أميرًا لكسرى في ناحية من بلاد العراق.

قال «سلمان»: أما أنا فإني فارسي من أبناء الفرسان في بلاد فارس، وإن لي قصة عجبًا.. اعتدل له «صهيب» وبدأ يسمَع منه ما كان من أمر رام هرمز، وصعوده مع ابن الأمير إلى رهبان الجبل، وحديث رهبان الجبل، وانتهى به إلى حيث فجأ الأمير رهبان الجبل واقتحم عليهم الدير ورماهم بإفساد ابنه وأنذرهم ثلاثًا أن يرحلوا وإلا أحرق عليهم الدير.. هنالك قال «سلمان»:

أخذ ذلك الأمير ابنه الذي كان صديقي وحبسه في القصر، وجمع الرهبان رحالهم ليرحلوا فتشبت أنا لهم فقلت والله لا أفارقكم أبدًا، إني قد أحببتُ كلامكم ومنطقكم وكرهت قومي وما يفعلون، بل إن فكري قد هداني إلى أن الحق ليس في عقيدة هذه البلاد، بل إن لهذه البلاد والعباد خالقًا واحدًا، فإني والله لا أفارقكم حتى أتعلَّم منكم هذا الأمر، وطالما أخرجكم قومي ولا مكث لكم عندنا فإني راحل معكم.

لكن رهبان الجبل قالوا لي يا سلمان أنت غلام ولن تستطيع أن تصنع ما نصنع، فآمن بالله وادعه وابقَ في بيتك، واحذر عباد النار من قومك فإنهم لا يعرفون الله ولا يذكرونه، ولا يخدعنَّكَ أحد منهم عن دينك.. فقلت: والله لا أفارقكم.. وأصررتُ عليهم حتى أخذوني معهم وهاجرت وتركتُ أهلي وداري حتى انتهيتُ معهم إلى بلدة اسمها الموصل، وهناك كان رئيس دينهم الذي يدينون به، كانوا حنفاء يعبدون الله ولا يشركون به، فتشبت لرئيس دينهم ذاك وقلت له والله لا أفارقك حتى تُعلمني كل شيء.. قال: إني أعتزل في كهف في الجبل أعبُد ربي ولا أحمل معي إلا قليل من الزاد، وإنك لن تطيق.. قلت له والله لا أفارقك.. فلزمتُه حتى انتهى بي إلى بيت المقدس، وهناك دارَ بيننا كلام.

قال لي: أي بُني، والله ما أعلم أحدًا بقي على ديننا هذا إلا قليل، ولقد أظلنا زمان نبي يبعث من تهامة، مهاجره بين حرَّتين إلى أرض سبخة مليئة بالنخيل، وإنَّ فيه علامات لا تخفى: بين كتفَيه شامة هي خاتم النبوة، يأكل الهدية ولا يأكل الصدَقة، فإن استطعتَ أن تخلص إلى تلك البلاد فافعل فإنه قد أظلك زمانه.. قلت له: أفإن وجدتُه فعليَّ أن أتبعه؟ قال: نعم.. قلت له: وإن أمرَني بترك دينك وما أنتَ عليه؟ قال: نعم اترُكه، فإن الحق فيما يأمُر ورضى الرحمن فيما قال.. وهنا فارقتُه وعزمتُ أن أنطلق إلى تهامة، فلقيت نفرًا من بني كلب، فسألتُهم أن يحملوني إلى تهامة، فغدرُوا بي وأسرُوني كما ترى.

كان «صهيب» يسمع ورأسه الأحمر قد اشتعل بالفكر.. لقد أسفرته حياته لينظر إلى أهله العرب الذين يعبدون الأحجار، وكان أحلاف أهله من الفرس يأتون إلى البلاد ويمارسون ما كانت عينه تستغربه من إيقاد للنار وحرص على ألا تنطفيء، يتعبَّدون لها ويتذللون، وكان يسائل نفسه، كيف يعبُد الإنسان شيئًا يصنعه بيده أو يُشعله بيده!، والله إن قومي وأحلاف قومي في ضلال.. ثم لما أسره الروم ومضوا به إلى بلادهم وكنائسهم وبنيانهم انبهر ونظر ووجدهم يرسمون وينحتون «عيسى» في كل موضع ويدعونه ويبكون عنده، وكان يسائل نفسه، كيف لرجل أن يعبُد رجلا!. لذلك أثارت قصة «سلمان» في نفس «صهيب» كثير من الخواطر، وكثيرًا من الانتباه.

وظلا يتحدَّثان حتى وصل الركبُ إلى بلاد كلب، وفيها قلعة كبيرة لهم تدعى قلعة مارد، فدخلوا إليها يحتفلون وأدخلوا عبيدَهم وإمائهم، كان بداخل القلعة تمثال عظيم في وسط معبد مزين، تمثال رجل حسنُ الوجه والثياب متقلد سيفا ومتنكب قوسًا، كان ذاك صنمهم ود.. التف حوله الرجال ينشدون نشيدهم وأتوا بإناء من لبَن وظلوا يصبُّون على الصنم صبًّا كأنهم يسقُونه، و«سلمان» و«صهيب» في زاوية ينظران.

وأتت قبائل من العرب المجاورة تحتفل بكلب وبمغانم كلب.. فانضموا إليهم في ناديهم، وعرضت كلب ما لديها من عبيد وجواري للبيع، فابتغى كل تاجر عربي لنفسه عبدًا أو اثنين.. فجاء أحد التجار إلى «سلمان» وسأل عنه، فقال له سيده الكلبي: إن هذا من بلاد فارس، وإني أطلب فيه كذا وكذ.. فوافق الرجل.. فسأله «سلمان» مباشرة: هل أنت من تهامة؟ نظر له الرجل مُتعجِّبًا وقال نحن من شمال تهامة، من يثرب بلد النخيل.. فاستبشر «سلمان» وضحك وسعد، وسعد «صهيب» لسعادته، فإن الفتى الفارسي الذي ضرب الأرض باحثًا عن النور وخَدعته الدنيا وجعلته عبدًا أسيرًا، قد أشرقَت له اليوم بين إظلامها فوجَّهته إلى وجهة كان يبغيها؛ وجهة ذِكرها له ذلك الكاهن أنها في تهامة وأن فيها نخيل، فابتسَم له «صهيب» وسلم عليه واحتضنه، ومضى «سلمان» مع سيده الجديد، وكان في الرجال سيد من سادات قريش، فرأى صهيبًا بشعره الأحمر فسحبه إليه وطلب أن يشتريه، فباعه سيده مباشرة، كان ذاك رجل من رجالات مكة اسمه «عبد الله بن جدعان»، فأخذ صهيبًا إلى مكة، وكذا افترق الأعجمان، فمضى «سلمان الفارسي» إلى يثرب، ومضى «صهيب الرومي» إلى مكة.

كانت «ماسا» والجُند من حولها أرتال، قالت لهم: أخرجوا معي هذا الرجل فإن لاعترافِ شأنّ به.. ففُتح سجن «عمرو بن جابر» الذي كان ينظر هادئا هدوء العاصفة قبل أن تثور، فساقوه وساقوا «ماسا» إلى مسرح المحاكمة.. كان «عمرو» يمشي وعينه تسرَح في أيام سابقات، كان قائدًا على مثل هؤلاء، يأمُرهم وينهاهم ويُدربهم، ثم فجأةً توقفت «ماسا» كأنما أصابها شلل! وتقوَّس جسدها للوراء وصدرت منها هنات من الألم، ثم فتحت عينها وصرخت صرخات مُتقطَّعة قصيرة، ووقف الجند لا يدرون ما يفعلون، و«عمرو» يضيق عينه ويرقب، ثم صرخت «ماسا» صرخةً من صرخاتها الهائلة حتى وضع البعض أيديهم على آذانهم.. هنا تفتحت عين «عمرو بن جابر» تفتح الظفر. كانت «ماسا» قد أخذت بوعيها من هذا العالم إلى عالم آخر؛ عالم لازال يبني فيه الجن هذه الجوداكيولا.

هنا تحرَّك «عمرو بن جابر»، وعصف في وجه الجميع، فكان كالمارد العضال، التقط سوطًا من واحد منهم، ولا تعطي سوطًا لعمرو بن جابر في قتال، كانت جل بداعته وحذاقته في السوط، فصرع أقدامهم وجندل قاماتهم، كانوا عشرة أو يزيدون، وهو يُومِض من هنا ويلمح من هناك، وصورته فيهم بمظهره وهو يرديهم جميعًا صورة أسطورية، ثم أمسك بماسا بيد واحدة وانطلَق يمضي في دروب تعلوها الضياء، ليس يدري إلى أين يمكن أن تُؤدِّي، فإذا واجهه يمين أو شمال دخلَ إلى اليمين، وإذا واجهه حائط ارتد، وكان ينظُر إلى «ماسا» كل حين وينتظر أن تصحو، أما هي فقد كانت في عالم من البنائين المشيدين، فنظرت إلى كل مخرج ودلفت إلى كل منفذ، جنية كالصورة لا يراها أحد من أهل الصورة.. أما «عمرو» فلم يكن لديه وقت، كان ينصرف إلى كل منصرف أمامه، وبلغ النداء القاصي والداني في الجوادكيولا، وطلع الجن أمامه من كل جانب، فكان يُهديهم السوط، ولا شيء غير السوط، وظل يمضي حتى توسَّعت الدروب فلم تعُد ضيِّقة، وتناقصت شعابها فلم تعُد تتفرع كثيرًا، وبلغ منه الجهد مبلغه، وظلَّ يمشي ويغالب حتى انتهى إلى شيء لم يجد منه فكاكا، شيء من الجحيم!

اللافا ماجنا.. حمم من لافا البراكين يتخللها صخر من الماجنا، وكان هذا شيء قارس: فالماجنا صخور جاذبة ساحبة لا يمكن لجن أن يطير فوقها، واللافا تأكل كل شيء يمسها، تكاثر الكاثرون على «عمرو» واحتشدوا، وهو يتراجع إلى هاوية الماجنا، كان ينظر إلى أسفل الهاوية ويلمح حممًا، كان يسمع عن وجود هذه الأشياء لكنه لم يرَ مثلها إلا الآن، وحاصروه حتى وقف على العتبة، وفجأة استيقظت «ماسا» كمن يشهق من غرق، ونظرت إلى المشهد فاستوعبت الأمر، و«عمرو» لا يزال يمسك بها بقوة، والجند يقتربون، ولكن «ماسا» فعلت أمرًا لا يُمكن أن يُصدَّق، واتسعت عين «عمرو بن جابر» وقد أحيط به، لقد دفعته «ماسا» دفعة قوية إلى الهاوية، فسقط وكبا، وأسقطت نفسها وراءه، ولم تقدر عضلاته الطائرة أن ترتفع وسحبته الماجنا، فهوى وتردى بسرعة إلى أفواه الحمم.

ارتفعت يداه تتحاشى وارتفع رأسه وأغمضت عينه وانغمس في وجه الحمم وانكمشت أضلاعه وغاب، ونظر الجن من على الهاوية واستداروا وانصرفوا، وبانت رأس «عمرو» طافية من بين الحمم، ثم بانت رأس «ماسا»، وانطوت صفحتهما، أو كادت، فلقد كانت «ماسا» تتحرَّك وتمدّ يدَها إلى «عمرو» وتسحبه، أو تستفيقه.

فتح «عمرو» عينه على آخرها من هولة الرعب!. ونظر حوله إلى ما بدا له أنه الجحيم، قالت له «ماسا» وسط تمايل التيار: لقد نظرت إلى هذا المكان وهُم عليه ماكثين يبنونه، إنما هذه مياه من مياه البحر، ولقد خضّبوها بلون الحمم، ترهيبًا وتخويفًا!. نظر «عمرو» حوله وآلمته الخدعة وقال: قد كنتُ أتفكر كيفَ يمكن لبنيان أيا ما كان نوعه أن يحوي بداخله حوضًا من الحمم، إنه حتى معمار الإنس لا يقدر على هذا.. ثم سبحا بصعوبة بالغة والصخر يجذبهم، وكان جميع الاعتماد على قوة «عمرو بن جابر» الذي خرج من ذلك الحوض إلى ساحة خلاء، وارتمى بجسده على الأرض من التعب.

كانت «ماسا» تنظُر إلى ساحة فضاء ليس فيها شيء.. وتوالت ثوان معدودات ثم قام «عمرو بن جابر»، والماء من جسده يقطر ومشى مع «ماسا» ينظران إلى المكان، حتى انتهيا إلى جدار لم ير «عمرو» في حياته أعظم منه جدار، عال متعال لا ترى آخره، واسع يبلغ الأفق يمينًا وشمالاً، صلب قاس لا تدري كيف صنعه أحد، شعر «عمرو» بحركة من «ماسا» فنظر لها فإذا هي تضع يديها على

رقبتها وكأنها تمنع شيئًا!، وعلى الفور نظر «عمرو» إلى ناحية من اليسار، فرآه، لم يكن يجلس القرفصاء، ولم يكن يتلوّن كالثعبان، بل كان واقفا كالعمارتة الطوال، يداه مقبوضتان إلى جواره، وعينه تنظر في أحيح، كان ذاك «سيدوك».

كان راعيًا يرعى غنمه في سفح الجبل، أسود البشرة زنجيًا شابًا، طويلًا نحيلًا كثيف الشعر، يختلط سواد شعره ببياض شعر وراثي، في وجهه سَمت محبب، وكان اسمه «بلال» -«بلال بن رباح»-، كان حبشيًا من مواليد مكة، عَبد لسيد من سادات مكة هو «عبد الله بن جدعان»، يرعى له غنمه، وكانت تلك ظهيرة هي أجمل ظهيرة مرّت على «بلال» في حياته. فلقد حدثت له قصة منها العجب، قد كان في تلك الظهيرة يمشي يقطب وجهه لحر الشمس إذ رأى كأن وجهًا كالقمر يطل عليه من فوهة غار في الجبل، وجه كأنه وجه أمير، بشعر أمير وبهاء أمير، ومعه صاحب له حسن الملامح، كان الأمير هو رسول الله الرحمة المهداة ومعه صاحبه «أبو بكر» وكانا معتزلان في غار.. قال له الأمير الرسول: يا راعي، هل من لبَن؟

قال له «بلال»: مالي إلا شاة منها قوتي، فإن شئتما آثرتكما بلبنها اليوم.. وكان بلال ينطق الشين سينًا، فقال له الرسول: ائت بها.. فتحرك «بلال» صاعدًا إلى الغَار ومعه شاة صغيرة جعلها له سيده يشَرب لبنها كل يوم على ألا يمس بقية الشياة، فجاء رسول الله بقعب فوضع يده المشرفة على الشاة وحلبها حتى امتلأ القعب، فشرب النبي حتى روى، ثم حلبَها مرة أخرى حتى امتلأ بلبنها القعب، ثم سقى «أبا بكر» حتى روي، ثم حلبها مرة ثالثة وامتلأ القعب بلبنها، فسقى بلالا، ثم ترك الشاة وضرعها يبين أنه أكثر امتلاء مما كان حالها لما صعد بها «بلال»، كان «بلال» صامتًا ينظر وقد صُدم، إنه راع منذ سنوات ويعلم أن هذا مستحيل، أن تحلب شاة كهذه ثلاث مرات وتتركها وضرعها ممتلئ عن آخره!، إنه كان يشرب منها كفافا.. قال له رسول الله: يا غلام، هل لك في الإسلام؟ فحكى له رسول الله من شأن الدين.. ورقت عين «بلال» وراقت ملامحه وانشرح بمرأى رسول الله صدره وقلبه وروحه ذاتها، به سَعدَ وبصُحبته تشرَّف.. قال له النبي: يا «بلال»، اكتم إسلامك.. فقد كان النبي يعلم أنه إن كان كل من أسلم حتى الآن يحتمي بقبيلته من أذى سادات قريش، فإن من هو مثل «بلال» فليسَ له أحد يحميه.. وانصرف «بلال» وهو عن حياته راض، بل وهو عن الأرض كلها راض.

وعاد «بلال» إلى أملاك سيده «عبد الله بن جدعان»، الذي له في مكة آبار ومزارع وعبيد يبلغ عددهم مائة عبد، وكان منهم عبد ذو شعر أحمر، هو ابن أمير في بلاد فارس، ولقد رمته النوائب والمحن إلى «عبد الله بن جدعان»، «صهيب الرومي» صاحب «سلمان»، في تلك الظهيرة رأى «صهيب» بلالاً عائدًا والسعادة في قلبه بادية على وجهه، سأله «صهيب» بلهجته الأجنبية: أفرحنا معك يا «بلال».. أجابه «بلال»: والله يابن فارس لقد رأيتُ عجبًا اليوم، أي عجب، لقد رأيتُ رسولا اليوم.. خرج «صهيب» من رتابة حياته وسأل وهناك غَرَض في نفسه: هل قلت رسولاً يا «بلال»؟ قال «بلال»: نعم رسول و نبي... وحكى لصهيب، فانفتحت لصهيب في ذهنه كلمات حكاها له «سلمان»، عن نبي أظلنا زمانه.. لكن «سلمان» كان يقول أن الرجل النبي سيكون مهاجره إلى مدينة يكثر النخيل بها، والآن «بلال» يقول أنه رآه في مكة، ظل «صهيب» ساهما، حتى سأله «بلال»: ما بك يا «صهيب»؟ قال: أريد أن أرى النبي.. قال له «بلال»: قد علمتُ أنه يجتمع بأصحابه في دار الأرقم، فانطلق إليها.. وحزم «صهيب» أمره.

وانطلق من فوره إلى سفح جبل الصفا، عنده دار الأرقم، فوجد رجلين واقفين على الباب فظن أنهما حارسين، كان أحدهما طويلا عريضًا أزرق العينين، كان هذا «عمار» -«عمار بن ياسر»-، وكان الآخر مستضعفًا في مظهره واسمه «خباب»، -«خباب بن الأرت»-. قال له «عمار» ذو العيون الزرق: ماذا تريد؟ قال «صهيب»: بل أنت ماذا تريد؟ قال «عمار»: أردتُ أن أدخل على محمد وأسمع كلامه.. رفع «صهيب» حاجبيه وقال: وأنا أريد ذلك، لكن لماذا تقف مع صاحبك بالخارج؟ قال له «خباب»: إن محمد ليس هنا، قد خرج وصاحبه إلى غار يعتزلان ولقد اقترب أوان عودتهما.. فوقف «صهيب» معهما، ثلاثة كانوا من المستضعفين، صهيب عبد، وعمار ذو العين الزرقاء مولى، والموالي مستضعفين، والعرب تسمي كل أجنبي يعيش في بلادهم مولى.. وكان «عمار» من اليمَن، أما «خباب» فكان حليفًا، والحليف هو الذي لا أصل له لكنه دخل تحت حماية قبيلة معينة، وهؤلاء يكونون مستضعفين أيضًا.

أما الرسول وصاحبه فقد نزلا من ذلك الغار بعد أن أنهيًا عُزلتهما.. ومشيا ليجدا راعيًا آخر سارحًا بغنماته، كان فتى نحيلا جدًا يكاد يبين منه تفاصيل عظمه، له شعر جميل يجعله إلى الخلف ندي رطب كأنما وضع عليه عسلا، كان ذاك «عبد الله»، -«عبد الله بن مسعود»-، وهو حليف.. ناداه رسول الله

فقال له: يا غلام، هل من لبن؟ قال «ابن مسعود»: نعم، ولكني مؤتمَن.. فقال له رسول الله: فهل من شاة لم ينْزُ عليها الفحل؟ يعني لم يُلقّحها، وتلك لا يكون في ضرعها لبن.. قال له «ابن مسعود»: نعم.. فأتاه بشاة عذراء، فمسح رسول الله بيده على ضرعها ثم حلبَها في إناء، و«ابن مسعود» واقف حائر في دهشته!، ثم قال النبي للضرع: اقلِصْ، فقلَص الضرع إلى سابق عهده!. لم يتمالك «ابن مسعود» نفسه فقال: علِّمني من هذا القول.. فمسح رسول الله رأسَه وقال له: يرحمك الله، إنك غلام معلم.. وحدَّثه النبي عن ربه، وحدثه عن الإسلام، وتلا عليه القرآن، و«ابن مسعود» في عالم آخر.. قال له يا رسول الله علمني من هذا القرآن.. فتلا عليه النبي وتلا، حتى ارتوى بن مسعود، لم يكُن الكلام القرآني معتادًا على أذن العرب، وكان فصيحًا منغمًا يخاطب الروح، فكان «ابن مسعود» يستزيد منه وكلما يستزيد يستنير، وكلما يتسمع يترنَّم، ولم يترك رسول الله في يومه هذا إلا وقد أخذ من فمه الشريف سبعين سورة، هي كل ما نزل من القران حتى تلك اللحظة.

وعاد رسول الله وأبو بكر ومرَّا بدار الأرقم فوجدا ثلاثة ينتظرون.. ثلاثة كانوا ينظرون إلى نور «محمد» لما أقبل عليهم، كان النبي ذا طول وفخامة، بعيد ما بين المنكبين، فيظهر دومًا لافتا أيما كان يرتدي، وله تبسم يلقَى به الناس، فإذا تبسم ظهر كأنه أكحل العينين وليس بأكحل، فلم ينشب الثلاثة إلا أن أسلموا، وأسلم قبلهم «بلال» و«ابن مسعود»، فزاد الخمسة على السابقين فقارب المسلمون سبعين، يتعلمون في بيت الأرقم ويبتسمون وترتاح أرواحهم، لكن القدر كان يخبئ لهم أياما لم يدركوا خطرها، أيام من الألم.

الجوداكيولا، جبالٌ عاليات يُسمِّيها الأهالي من الإنس الساكنين عندها جبال محكمة الشيطان، قابعة وراء غابة كثيفة، جبال طوال أسند لها الأهالي أساطير وأساطير، في قارة بعيدة عظيمة في غرب الأرض أول من أبحر إليها العرب، سمُّوها الأرض التي وراء بحر الظلمات، ثم سماها الأغراب أمريكا، عند ساحل تلك الأرض الشرقي تقع تلك الجبال، جبال محكمة الشيطان، الجوداكيولا، مجرد ذكر اسمها يُرهب ويُرعب.

نحن وجنسنا العالي نسكُن في كل مكان بعيد عن سفاهتكم، نفوسنا تعافكم وتنفِر منكم، كما تبتعدون أنتم في مساكنكم عن مساكن الضباع، لنا مدائننا وأمصارنا وبلادنا.

نستعمر من الأرض أكثر مما تستعمرون، البحر نستعمره وهو ثلثي الكوكب، الصحراء نستعمرها وهي ثلث اليابسة في الكوكب، وعليك الحساب...

دعكَ من هذا، إن لدي شيئًا لك.

كنت أخبرتكَ أننا لا نُرى، ولن نُرى، ولو رؤينا ورؤي عالمنا لسُكرت أبصار الإنس، فئات وأزياء وبنيان ودروب، وتزاوج وتناحر وتحزُّب ورئاسات، مثل عالمكم أو أشد.. يكفي أن تعرف أن هناك من القرناء فقط أتباع «الوسيفر» ما يكفي لكل بشري على الأرض، وإن ولد فيكم في كل يوم مائة ألف، وبقية الجن أضعاف أضعاف القرناء، لذلك نسكن أكثر مساحات الأرض، ولستَ ترى ولن ترى من هذا شيئًا، وإن كنتَ من أشد السحار فتكًا.

ولعلك سائل نفسك.. كيف يتعامل السحرة مع توابعهم من الجن وهم أصلا لا يرونهم؟! جميع التعامل يكون بالقر في الأذن، والقر صوت مُتكرِّر قصير الطبقة لا يعرفه إلا السحار، نلقيه في أذن الكاهن، لكنا لا نلقيه إلا إذا دخل الكاهن في حالة الاسترواح.

أذن الإنس لا تسمعنا وعين الإنس لا ترانا، أيًا كان هذا الإنس، ساحرًا أو كاهنًا، لا يوجد إنسي يستطيع أن يُغيِّر تراكيب خلقة أذنه وعينه، فالحل في الاسترواح.

هي تلك الحالة بين اليقظة والنوم، مباشرة قبل أن تدخل إلى النوم، وقطع من عالم اليقظة لازالت تتراءى لك وتحس بها، هذه الحالة حيث تخرُج الروح خروجًا طفيفًا من الجسد، ليس

كخروجها أثناء النوم، هذه الحالة هي رفاهتنا وسلطاننا، لأن ألعابنا في روحه تتحول أمامه إلى صور وأصوات تختلِط في واقعه، فتؤثر عليه أثرًا عظيمًا، ليس كتأثير النوم الذي يعرف أنه نوم.

خلوة الساحر الطويلة في الظلمة وجوعه الشديد يجعل روحه تصفو وتتَّقد، ويتعلَّم وحده مباشرة كيف يُدخل نفسه في تلك الحالة-الاسترواح- ويطيل مُدَّتها ويخرُج منها إذا أراد، وفيها يسمع صوتنا ونتهيأ له بهيئات وهيئات.

فلا تُصدِّق أحدًا يقول أنه يرى الجن أو يسمع الجن واعلم أنه كاذب؛ الحكاية كلها تحدُث في الاسترواح، ولكن..

بعض بني الإنسان تكون لهم أرواح متأجِّجة صافية لدرجة أن أطرافها تبرز خارج أجسادهم، وهم كذلك في حالة اليقظة.. هؤلاء إذا ألقينا شيئًا إلى أرواحهم تلك، تجد أرواحهم قد ترجمَت أي شيء نُلقيه إلى أصوات وأشكال، فتجد أحدهم يظُن أنه يسمع صوت كذا أو يرى شكل كذا، وكلها هلوسات نحن نصنعها في روحه التي تظهر أمامنا طيلة الوقت، هذا قد يقول لك أنه يرى الجن ويسمع الجن، هذا يكون قد كلامه بالنسبة لنفسه صدق ولكن سماعه ورؤياه كذب، نحن لا ترانا ولا تسمعنا إلا بعض فئات الحيوانات، هكذا خُلقت آذانهم وعيونهم.

أُفق عين الإنسان يختلف عن أُفق عين الحيوانات.. وإن صنع الإنسان عدسات ومناظير ليرانا فلن يرانا، لأن تلك العدسات الصماء التي لا عقل لها في النهاية ترى صورًا غير مرئية تُترجمها إلى صور تراها عين ذلك الإنسان، فستظهر له خطوطًا ودوائر تراها عينه هو، لابد حتى ترانا أن تكون عينك أنت المخلوق الواعي مخلوقة على أفق رؤيتنا.

الآن قد علمتَ العلم فلا يخدعنَّكَ ساحِر ولا شيطان، ولا كاهِن ولا إنسان.

أثناء هروب جني و جنية من
الجوداكيولا.. صرخت فجأة
فحملها الجني (عمرو) و انطلق، و
غابت هي في رؤياها.
بداخل رؤيا (ماسا)
ترى.. أين المخرج من هذا
المكان؟
(ماسا هارينا)
من ذا الذي يراني في رؤياي؟

يا إله السماء.. (عمرو)!
بل أنا عمله الخبيث..
إنه يحملك تحت ذراعه، ماضياً بك في الدروب.. أما أنا...
سأرسلك إلي الجحيم..

(١٢)

وجه الأيام البشع

Mostafa Mortaja

قطع من نور النبي كانت تتنزَّل كل يوم فيستبقون إليها.. قطع من نور «محمد»، أنوار كانت تتنزَّل من بيت العزة، من عند الكرام البررة فيتلوها قرآنًا، أو يعرضها عليه «جبريل» فيخبرها ويُبلّغها، ما كان ينطق عن الهوى وما كانوا يتركون من حديثه حرفًا إلا تلقوه بالوعي الأكمل، صحابة كانوا سابقين، ثمانين رجلًا أو يزيدون حفل بهم دار الأرقم فملأوا جميع جوانبه، كثير منهم جلوس وكثير منهم قيام لا موضع لهم. نظر «أبو بكر» إلى اجتماعهم وتفانيهم فألحَّ على النبي في الظهور، أن يظهروا دعوتهم نفسها، وإن قريش لم تكن تهتم أن يفعل الحنفاء في الجاهلية ما يريدون، أن يسجدوا كما يريدوا ويعبُدوا ربهم كما يريدوا، فما كانوا يعبأون بكلام «أمية بن أبي الصلت» في التوحيد ولا كلام «زيد بن عمرو» بن نفيل في بداية سيرته، لكن المشكلة تبدأ إذا تحول الأمر لانتقاد دين قريش وأصنام قريش والتنقص منها، هنا تثور قريش وتطرد «زيد بن عمرو» وتقتله، وإن «أبا بكر» كان يُلح على النبي أن يظهروا دعوتهم للناس علانيَة وينتقدوا جاهلية القوم وأوثانهم علانية.

حتى هذه الحظة كانت قريش تعلم بحنيفيتهم وإسلامهم ونبيهم وسجودهم واجتماعهم في دار الأرقم.. لكنهم كانوا حالهم حال أنفسهم لا ينتقدون دين غيرهم ولا ينتقد أحد دينهم، وإن دعوا دعوا المقربين وأسرُّوا لهم بالدعوة.. أما الآن فإن «أبو بكر» يلح في الجهر والنقد.. قال له رسول الله: يا أبا بكر إنا قليل.. فألحَّ وأشدَّ «أبو بكر» في ذلك ولم يكُن لدى النبي من الوحي ما يمنَعه، فوافق النبي، وخرج «أبو بكر»، وخرج النبي، وخرج المسلمون، وتوجَّهوا جميعًا إلى صحن الكعبة.

في تلك الباكرة شهد الصحن الحرام مشهد رجال قد أتوا وفي قلوبهم رغبة الله وجلسوا في وسط مسجد الله بكل ما فيه من وجوه منحُوتة وأصنام، ولم يجلسوا جلوسًا عشوائيًا؛ بل أتى كل واحد منهم بعشيرَته تحميه، وقام الرجل صاحب التخطيط «أبو بكر»، قام في وسط المسجد خطيبًا وصدح بخطبَة فيها ما فيها من اعتراض، في وسط معقل قريش صات صوت من قريش ضد عقيدة قريش، العقيدة التي يبنون عليها أموالهم وحجهم ومقامهم بين القبائل،

وتجمع الناس واستثيرت حميتهم، وتجهَّمت وجوههم وقلوبهم، ونظروا إلى كل رجل محمي في عشيرَته، و«أبو بكر» واقف يخطب وينكر على القوم ويشير إلى وجوه الأصنام ثم يشير إلى رسول الله، ثم يشير إلى المسلمين، كان «أبو بكر» يُدلل أن هذه لم تعُد بِصيرَة رجل واحد أو اثنين، بل هي عقيدة لها في كل بطن من بطون قريش رجلا ورجُلين، وصار يدعو جهرًا إلى دين الله وإلى رسول الله والانصراف عن هاته التماثيل الشائخة التي تُذبح لها القرابين من الرقيق والبشر تقرُّبًا وتُوأد لها البنات تزلفًا، ويتحاكم إليها الرجال بالاستسقام فتقتل من تشاء وتعفو عمن تشاء، وهي بعد كل هذا ظلل وصور في الخيال لا تضر ولا تنفع.. وتوتّر الحرم وزوّار الحرم وأتى من لم يكن بالجوار لينظر، حتى حدث شيء واحد كسرَ زمام الغاضبين!

رجل من وجهاء مكة دنا من «أبو بكر» في احتداد، «عتبة بن ربيعة»، بكل طوله وهامته وفروسيَّته اقترب في عداء وفجور وبدون بادرة ولا شاردة هجم على «أبو بكر» فجأةً في فجأة من الجميع وخلَع نعليه وأخذ يضربه ضرب قتل وليس ضربًا عاديًا، فكانت تتناثر دماء «أبو بكر» مع كل ضربة!، وهبَّ المسلمون لإنقاذ أبي بكر فهب الغاضبون حول المشهد لضرب المسلمين انتصارًا لأصنامهم ولم يعبأوا أن كل رجل قد أتى بعشيرته، واكتظ المسلمون حول رسول الله يُبعدونه عن المشهد حتى اطمأنوا عليه وتركوه عند الصفا، ثم عادوا لينصروا «أبا بكر» الذي كان قد سقطَ بين دمائه التي علَت وجهه وسكنت حركته تمامًا فلم يعُد يعرف أميّت هو أم حي!، وكان هرج وكان مرج، وجاءت بنو تيم، عشيرة «أبو بكر» على عجَل وكان مجيئهم فارقا جدًا فأبعدوا المحتشدين حول «أبي بكر» وحملوا «أبا بكر» في ثوب وهو لا يبين أنفه من وجهه من غمرة الدماء، وقالت بنو تيم والله لئن مات «أبو بكر» لنقتُلنَّ «عتبة بن ربيعة».

وعند الصفا.. كان يقف رجلّ من نوع آخر، نوع مؤذ، نحيل الجسم حاد الوجه لا لحيَة له ولا شارب، سيد من سادات قريش، «أبو الحكم بن هشام»، اعترض طريق النبي «محمد» وفي عينه أطوار من الأذى والبغضاء، ولم يكن أحد حولهما، فسبَّ الرجل الماجن رسول الله، وشتم الرجل البذيء رسول الله وعاب عليه واستنقص منه ومن دين الله، وآذى الرجل الخبيث رسول الله وبلغ منه كل ما يكره، ولم يكلمه رسول الله ولم يرُد عليه عملاً بأمر ربه أن يعرض عمن يجهل عليه.. وعاد «أبو الحكم» الخبيث إلى صحن الكعبة وكان الحشد قد

بدأ ينفض وعاد كل فصيل إلى فصيله، وكانت هناك امرأة في نافذة بيتها تنظُر إلى ما نال السفيه من «محمد».

وكان بنو تيم في مصيبة.. فإن «أبا بكر» لا ينطق، وكأن لسانه قد شل مع الضرب، وظلَّ أبوه وأمه يربتان عليه ويطبِّبانه حتى أفاق، فكانت أول كلمة قالها: ما فعلَ رسول الله؟ فقاموا عليه يستخرجون منه الحديث وهو لا يقول إلا قولةً واحدة: ما فعل رسول الله؟ فخلَت به أمه وألحَّت عليه بقلبها.. فقال ما فعلَ رسول الله؟ قالت: والله مالي علم بصاحبك.. قال لها: فاذهبي إلى فاطمة بنت الخطاب زوجة سعيد بن زيد بن نفيل فسَليها عنه.. فخرجت الأم حتى أتت «فاطمة بنت الخطاب» فقالَت: يا فاطمة إن أبا بكر يسألك عن محمد.. وخافت فاطمة أن تُخبر عن رسول الله بعد هذا الهرج.. فقالَت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد.. لكن إن أحببت سأمضي معك إلى ابنك.. فمضَت معها حتى وجدَت «أبا بكر» صريعا مُتهالكًا، فتأثرت وأعلَنت بالصياح وقالت له: والله إن قومًا نالُوا منكَ لأهلِ فِسق وكُفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك.. قال لها: ما فعلَ رسول الله؟ قالَت له: إن هذه أمك تسمَع.. قال: فلا عين عليك منها، فأين هو؟ قالت: هو في دار الأرقم.. قال «أبو بكر»: فإن لله عليَّ ألا أذوقَ طعامًا أو أشرب شرابًا حتى آتي رسول الله.

فتمهَّلوا حتى هدَأ الناس وسكنوا ثم خرجتا به وهو يتكيء على أمه حتى أدخلته على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكبَّ عليه النبي الرؤوف وأكبَّ عليه المسلمون، ورق له رسول الله رقة شديدة.. قال «أبو بكر»: بأبي أنتَ وأمي، ليس بي بأس، إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برة بوالديها، وأنت مبارك فادعها إلى الله عز وجل وادع لها عسى أن يستنقذها بك من النار.. فدعا لها رسول الله ودعاها إلى ربه فأسلمَت.

وجاءت امرأةٌ إلى الأسد «حمزة بن عبد المطلب».. وكان مقبلًا متوشحًا قوسه عائدًا من رحلة قنص من رحلاته، وكانت عادته إذا عاد من قنصه ألا يعود إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لا يمُر على ناد من قريش إلا وقَف وسلم وتحدَّث معهم، وكان أعز فتى في قريش وأقواهم شكيمة، وكان خافيًا إسلامه حمايةً لرسول الله.. فقالت له المرأة: يا أبا عمارة لو رأيتَ ما لقيَ ابن أخيك محمد آنفًا من أبي الحكم بن هشام، وجده هاهنا فآذاه وسبَّه وبلغ منه ما يكره... فخرج «حمزة» سريعًا يسعى لا يقف على أحد، ودخل

صحن الكعبة ونظرَ إلى «أبي الحكم» جالسا في القوم فأمسكَه ورفعَه بيد واحدة وضربه على رأسه بالقوس بكل عنفوان «حمزة» فشجّت رأس «أبو الحكم».. وقال له: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فقام له الرجال حول «أبو الحكم» لينصروه وقالوا: يا حمزة ما نراك إلا قد صبأت.. فقال: وما يمنعني وقد استبان لي أنه رسول الله، وأنا أشهد أنه رسول الله وأن ما يقول لحَق فامنعوني إن كنتُم صادقين.. قال «أبو الحكم» من بين الدماء التي تسيل على وجهه: دعوا أبا عمارة، فلقد سببتُ ابن أخيه سبًا قبيحًا.. بعدها عرفَت قريش بإسلام «حمزةٍ»، وعلمت أن هناك أسدًا يحمي محمدًا، أسدٍ قناص.. لكن بقية المسلمين، لم يكن يمنعهم أحد، فأرَتهم الأيام التالية وجهًا مُختلفًا، وجه بشِع!

إنٍ «عمرو بن جابر» بالسوط شيء و«عمرو بن جابر» بدونه شيء آخر.. ففي تلكم الساعة رفع السوط على مارد أسوَد مليء بالبغضاء، لكن الغريم الدامس «سيدوك» كان واقفًا وكأن عينه تنظر إلى اللامكان ولا يظهر فيهما إلا الغليل والكراهية، لم يتكلم كلمَة لكنه مشى إلى «ماسا» مشية الشر كأن «عمرو» لا وجود له!. فاعترض «عمرو» طريقَه وضرب بالسوط ضربة في الهواء، فتوقف «سيدوك» لحظة واحدة ثم أكمل خطواته، فرمى «عمرو» بالسوط إلى رقبته فأمسك الأسود برأس السوط وحرَّك قبضته حركةً يسيرة قطعت السوط في ثانية واحدة!. واتسعت عين «عمرو بن جابر»، هذا الذي حدث يحتاج لقوة بدنية عالية جدًا.. وبدأ ينظر إلى «سيدوك» نظرة مختلفة جدًا، وبدأت خطته تتغير، فانطلق إلى «ماسا» والتقطتها كأنها طِفلة، وتوجَّه بها إلى اتجاه غير متوقع، توجه بها إلى الأعلى.

بمحاذاة الجدار الصلب الطويل كان «عمرو» يرتفع ارتفاع الجن حاملًا معه «ماسا» التي لم تكن تقدر على الطيران، ارتفع باغيًا أن يصل إلى أعلى الجدار.. علمَ «عمرو» أن مواجهة «سيدوك» هي شيء مستحيل، وأن الحل الوحيد هو الهرب؛ فلو أن «سيدوك» هذا ضربه مرةً واحدة بتلك القبضة التي يملكها لتهدَّمت عظام «عمرو» كلها، لذا لم يُضع «عمرو» وقتًا، فقط زاد من سرعة ارتفاعه، ثم تضاعف اتساع عينيه وتسارعت ضربات قلبه تخفق بالخوف، هذا الجدار، طويلًا كان فارغًا مديدًا، لكن، هذا الجدار يتحرَّك إلى الأعلى كلما ارتفع «عمرو»، مهما كانت سرعة ارتفاعه!. نظر «عمرو» أسفل منه

ليجد «سيدوك» بكل جهامته وبأسه يرتفع لاحقًا به يبغيه، ولم يكن «عمرو» ليجاري سُرعة مارد.

في ثانية كان «سيدوك» قد وصل إلى ارتفاع «عمرو».. ثم اندفع إليه قابضًا على قبضَته، وفجأةً ترك «عمرو» «ماسا»، تركها من يده تسقط إلى الأسفل وابتعد هو بأشد سُرعة يملكها جسده عن قبضة «سيدوك»، ونجح، نجح في التفادي. وضربة «سيدوك» واصلت طريقها من سرعتها وقوتها حتى صدمت قبضته الحائط الصلب.. وسمع «عمرو» للصدمة دويًا لو كان أصابه لهلك، سبحان الذي أعطى القوة لأولئك المردة، وفي جزء من الثانية اختفى «عمرو» من الموضع الذي كان فيه ونزل ليلتقط «ماسا» الساقطة من عل، لكنه لاحظ بطرف عينه ملحظًا جللًا!، إن في موضع ضربة «سيدوك» في الجدار أثرًا بسيطًا في البناء، لكن لم يكن هذا هو الملحظ، الملحظ أن الجدار تناقصت سرعة ارتفاعه، وفي فور وعزم اندفع «عمرو» كالطلقة إلى الأعلى قاصدًا نهاية الجدار، ولقد رأى نهايته بعينيه، لكن وجه «سيدوك» كان يتبعه كأنه له ظل!، ولقد كاد أن يسبقه.

وطيء «عمرو» بقدميه ثنتيهما وجه «سيدوك»، وجعله نقطة يندفع منها إلى الأعلى اندفاعةً أخيرة، ونجح ووطيء واندفع واعتلى إلى أعلى طرف الجدار، لكن في بغتة ومبادهة، سُحبت منه «ماسا» سحبةً شديدة إلى أسفل، سُحبت بقوة تضاهي قوة اندفاع «عمرو»، سُحبت سحبة مارد!. نظر «عمرو» وعينه متسعة إلى «ماسا» التي تهاوت ويد «سيدوك» تجذبها بشراسة.. واعتلى «عمرو» على الجدار، وومضت في قلبه فكرة أن يعود إلى «ماسا»، لكن لم يكن الأمر صحيحًا أن يفعله، فلم يجد نفسه إلا واثبًا من أعلى الجدار إلى خارج ذلك المكان، إلى خارج الجوداكيولا كلها.

تحت جنح الليل كان يقف بسواد جلده ولم يكن يبين منه إلا لمعة عيناه، «بلال بن رباح»، وقف بين كثرة من أصنام الكعبة، نظر حوله يمينًا وشمالًا فلم يرَ أحدًا، ثم فجأة أخذ يبصق على الأصنام بصقًا كارهًا وهو يقول: خاب وخسر من عبدَكن.. لكن رجالًا كانوا وراءه ولم يفطن لوجودهم فرأوه، فصدر منهم ما يدُل على وجودهم فهرب «بلال»، هرب وهو نادم على أنه لم يسمع لكلمة رسول الله لما أمره أن يُخفي إسلامه، هرب إلى بيت سيده واختفى فيه، وجاء

الرجال إلى بيت سيده «عبد الله بن جدعان»، وكان بينهم رجل خبيث نحيل، «أبو الحكم بن هشام».

خرج «عبد الله بن جدعان» ليلقى الرجال الثلاثة.. ورأى «أبا الحكم بن هشام» ينظر إلى الغنم في تعجُّب، ثم قال أبو الحكم: إني أرى غنمكم قد نمت وكثر لبنها وما كنا نعرف ذلك منها، إن عبدكم الأسوَد الذي يرعاها قد أتاه ابن أبي كبشة الساحر، سحرها مثلما سحر تلك الشاة في الوليمة التي دعا إليها بنو هاشم.. وكان الفسقَة يُلقّبون النبي البهي بابن أبي كبشة تشبيها له برجل قديم هو أول من دعا قريش لهجر أصنامها وعبادة نجم الشعرى في السماء.. قال «عبد الله بن جدعان»: هذه الأغنام قد سمنَت من خيرنا.. قال «أبو الحكم»: يابن جدعان ما بك؟ أصبأتَ أنت الآخر؟

غضب «عبد الله بن جدعان» وقال: أومثلي يُقال له هذا؟ فإن علي نحر مائة ناقة للات والعزى في هذا اليوم.. قالوا له: إن عبدك الأسود قد وقف اليوم أمام الآلهة المقدَّسة وبصَق عليها وذكر كلاما من كلام «محمد» ثم هرب لما رآنا.. فدعا بن جدعان ببلال، وكان مختفيًا في البيت ليس خوفًا منهم لكن خوفًا من معصية أمر رسول الله، حتى وجده أحد العبيد فأتى له إلى «ابن جدعان»، فأتى «بلال» وقالها في وجوههم ولم يكذب!، اندهش «ابن جدعان» قليلًا ثم قال للرجال، هو شأنكما فهو لكما هذا العبد فافعلا له ما أحببتُما، فلم يأخذه أبو الحكم، بل أخذه رجل من الثلاثة يدعى «أمية بن خلف»، وكان فيه مرَض في روحه، مرض نفسي.

نظر له «بلال» وإلى طريقته في الحديث فتوجَّس منه.. قال له «أمية»: لا تأتِ محمدا، فإن أتيتَه وعلمتُ ذلك منك فأقسِم باللات والعزى لتصطفقن ساعتها عليك المآتم.. تجاهل «بلال» هذا الكلام وفي مساء نفس اليوم ذهب إلى الحبيب «محمد» مُختفيًا، ولم يدر أن «أمية» قد ألزم لبلال رقيبًا عليه يرقبه خفية، فأتاه الرقيب بالخبر، فانتظر «أمية» في قصره وكان من أثرياء مكة، حتى جاء «بلال»، فوجد «أمية» جالسًا في إيوانه ينتظره.. قال له «أمية»: ما هذا الذي بلغَني عنك أيها العبد الحبشي، أحقًا اختليتَ بمحمد؟ قال له «بلال» بثقة لم يتوقَّعها أبدًا: أما وأنه قد بلغَك أمري وعلمت بإسلامي فإني لا أخفي عليك أني آمنتُ بالله وبرسول الله وإني جُندي من جنوده.. وقفَ «أمية» وقفَة المتكبِّر

وقال له: لستَ إلا عبدًا مملوكًا أسودًا لا تملك من أمركَ شيئًا، والله لآتينك من صنوف العذاب ألوان، ولنعلم أي جُندِ سيؤوونك يا جندي الشر.

فخرج المريض ووراءه «بلال» يُكبله عبيد.. خرج به إلى الصحراء، في فراغ من الناس وسعير من الشمس وتلهب في الرمال فخلعوا لبلال ما عليه من السترة ودفعوه بأقدامهم دفعًا لينحني وكان لا يقدر أن يضع يده على الأرض، فأمسكوه وكبَّلوه تكبيلا بالأغلال ثم داسوه بأقدامهم حتى لمسَ جلد بطنه حمي الرمال فصرخَ وتلوَّى يحاول القيام لكن ذلك استحال عليه فإن أقدامهم كانت على ظهره ورأسه، فاحترق منه وجهه وصدره ثم قلبُوه على ظهره فناله اللهيب فانتفض فداسوا على رقبته وصدره، وتحدرت دموع عينه من غير بكاء ونظر من بين الأنين ليجد وجه «أمية بن خلف» وسمعه يقول: اكفُر بمحمد يا عبد، قُل آمنت باللات والعزى يا حبشي، أفتبصُق على آلهتنا وأنتَ عبد؟ فيُتمتِم «بلال» بشفتيه كلاما لا يدريه «أمية»، فينزل بجذعه إلى ناحية «بلال» ليسمع، ويركز، فإذا «بلال» يقول: أحاد أحاد.. فأنصَت «أمية» فإذا ببلال يعلو صوته ويقول: أحد أحد، أحد أحد... كان يُرتِّلها لهم ترتيلاً.

فوغرت في صدر «أمية» وأغضبته؛ فأمرَ بصخرة كبيرة من صخور الصحراء، وأمر بها أن تُربط على بطن «بلال» ليلتصق ظهره في الوهيج، فأتى الرجال بصخرة يحملونها جميعهم ويضطربون في حملها من ثقلها ولا تدري كيف طاوعه العبيد ووضعوها على صدر «بلال» وربطوها وكبَّلوه بها تكبيلاً.. قال له «أمية»: إنك لا تزال هكذا حتى تكفُر بمحمد وتعبُد سيداتك اللات والعزى.. و«بلال» ينظُر له بعيون احمرَّت من الألَم واللهبان، وهزَّ له رأسَه ورتَّلها في وجهه فقال: أحد أحد، أحد أحد، أحد أحد.

ودخل في تلك الساعة من تلك الصحراء مُسافر من مكان بعيد.. حالته ووعثاءه لا علاقه لهما بالسفر، فمثله لا يُسافر كالبشر، كان ذاك «عمرو بن جابر» قد أتى وفي وجهه اشتياق إلى النبي وأصحاب النبي، فرأى ذاك المشهد في وجهه، مشهد «بلال»، فتحوَّل جميع شوقه إلى قلق ورعب، لم يكُن يدري ما «بلال»، فآخر عهده بأصحاب النبي هم التسعة الذين أتى بهم «أبو بكر» في يوم واحد، لكنه كان يعرف «أمية»، ومن ذا الذي يعيش في مكة لسنوات ولا يعرفُ «أمية بن خلف»، كان رجلاً غنيًا معتل النفس وكان يقوم على خدمة الأصنام، وإن جميع النذور التي ينذرها الحجيج للأصنام تكون من نصيب القائمين على

خدمة الأصنام أو سدنتها، وكان «أمية» واحدًا منهم، فالأصنام بالنسبة له حياة، وإن ذلك المعتل كان ساعتها يأمُر العبيد أن يُزيلوا الصخرَة عن صدر «بلال»، ليس تخفيفًا، بل لغرضٍ آخر.

أمرَهم أن يربطوه من رقبَته في حَبلٍ ويداه مُكبَّلتان ويمشوا به في طرقات المدينة والولدان من حوله يلعبون به ويضربونه، وليس على لسانه سوى كلمة واحدة يقولها رهقا: أحدٌ أحد، أحدٌ أحد.. وأعلنَ «أمية» بصوت عالٍ للجميع أن ذلك العبد بصَق على الآلهة، فنظر الناس إليه وإلى الصبيَان يلُعبون به وهو يقول تلك الكلمة لا غيرها، فتضاحك الناس على «بلال»، وعلى كلمات «بلال»، وعين «بلال» تطالع الناس وفيهم المشدوه والضاحك حتى تألَّقت عينه وسط كل هذا، فلقد رآه، رأى رسول الله.. فهشَّ «بلال» وتبسَّم فأضاء ثغره وجهه، واقترب «بلال» في سيره بالحبل من رسول الله، فقال له سيد المرسلين: يا«بلال»، سيُنجيك أحد أحد.

فتنوَّر وجه «بلال» واستضحَك وسط العرق المتحدر على جبينه.. وجعل الناس ينظرون له ويعجبون، وذهب النبي الهادي إلى «أبي بكر» وقال له: لو كان عندنا شيء لابتعنا بلالًا.. فهرع «أبو بكر» ليستنقذ «بلال»، وعند «بلال» كان قد جاء أصحاب «أمية بن خلف» وفيهم اللئيم «أبو الحكم بن هشام» الذي جعل يؤذي بلالًا و يتنقص منه، لكن «أبو بكر» اقتحم كل المشهد مسارع الخطى وكلمة رسول الله عنده أمرٌ واجب النفاذ.

قال لهما: ماذا تريدان بهذا المسكين؟ والله لا تبلغان به ثأرًا.. نظر «أمية» إلى أصحابه هازئًا وقال، سألعَب لكم بأبي بكر لعبة ما لعبها أحد فاسمعوا..

وتضاحَك والتفت إلى «أبي بكر» وقال: أنت أفسدتَه فهيا فأنقذه، أليس على دينك، أتشتريه منا؟ قال «أبو بكر»: نعم أشتريه.. قال له «أمية»: أعطني عبدكَ فسطاطًا الحداد.. قال «أبو بكر»: وإن فعلتُ تفعَل؟ قال: نعم.

فتضاحكَ وقال لأبي بكر: لا والله حتى تُعطيني معه امرأة فسطاط الحداد.. قال «أبو بكر»: وإن فعلتُ تفعَل؟ قال: نعم.. قال «أبو بكر»: فلكَ ذلك.

ثم تضاحك «أمية» الثالثة وقال: لا والله حتى تعطيني ابنه مع امرأته.. قال «أبو بكر»: وإن فعلتُ تفعَل؟ قال: نعم.. قال «أبو بكر»: قد فعلت.

فتضاحكَ الرابعة وقال: لا والله حتى تزيدني مائتي دينار.. فقال له «أبو

بكر»: أنت رجل لا تستحي من الكذب.. قال «أمية»: لا والله لئن أعطيتني لأفعل.. فقال له «أبو بكر»: هي لك.. فأمر «أمية» الصبيان أن يبتعدوا، وأمر العبيد أن تفك رقبة «بلال»، ودفعه دفعًا إلى «أبي بكر» وهو يقول: والله لو طلبتَ في هذا العبد دينارًا واحدا لبعتك، هذا مقامه.. قال له «أبو بكر»: أرأيتَ إن أبيتَ إلا ألف دينار لأخذتُه منك.. وأمسك ببلال واحتضنَه وأعتقَه، فنظر لهما «أمية» وفي قلبه نقمة وتعجُّب؛ كيف يدفَع فيه كل هذا ثم يعتقه!، وقال: إنما أعتقتَه يا أبا بكر لصَنيعٍ أو لجميلٍ كان له عندك.. فأنزلت منَ بيت العزة آيات في «أبي بكر»..

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾.

مشى «عمرو بن جابر» في الشعاب وهو مهموم ومتكدر.. «بلال» كان مشهده صعبًا خاصة مشهد تشوه صدره وظهره بالحرق، وتلك الكلمة التي كان يقولها بثبات، أحد أحد، بلهجته الأجنبية كان يقولها، ظلّ «عمرو» على همّه حتى جاءت به خطواته إلى السوق، وهناك اصطدم بكارثة أخرى!، كان سيد قبيلة بني سهم يمشي في السوق وحوله أذنابه من الرجال، وكان اسمه «العاص بن وائل»، وكان من عينة شيوخ القبائل الذين يظنون أنهم قد بلغوا الجبال طولا، دخل «العاص» إلى متجر للسيوف، يعمل فيه الرجل المسكين الحليف المسلم «خباب بن الأرت» صانع سيوف، وسيّدته معه في المتجر، وهي امرأة في وجهها العسر والتعسير، واسمها «أم أنمار»، فلما رأت سيد بني سهم قد أتى إلى متجرها هشت به وبشت، ولاحظت أن «العاص بن وائل» ينظر إلى «خباب» منذ أن دخل نظرات لا تُبشّر بخير، وكان «العاص» قد اشترى سيوفًا منذ شهر من المتجر وأجّلَ دفع ثمنها، ويبدو أنه قد أتى اليوم ليدفع.

قال له «خباب»: إن عليكَ كذا وكذا.. قال له العاص: لا أعطيكَ حتى تكفُر بمحمد.. قال «خباب»: والله لا أكفُر حتى يُميتك الله ثم تُبعث.. توترت «أم أنمار» واندهش «العاص» في وسط أذنابه الذين وراءه لكنه تمالكَ وقال: مه وإني لميِّت ثم مبعوث؟ قال «خباب»: بلى.. فضحك وقال: دعني حتى أموت وأبعث ثم لأوتين مالًا وولدًا، حينها أقضيك دينك، فماذا ترى يا «خباب»؟ فسكتَ «خباب» ولم يُحسِن الرد.

وأنزلَ الله في ذلك الشأن قرآن.. فجعل رسول الله يتلو بين أصحابه ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا * كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا * وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ فأنزل الختم الثاني على رجل أنه من أهل النار، رجُل اسمه «العاص بن وائل»، فكان له من اسمه نصيب.

التفَت «العاص» إلى «أم أنمار» وقال لها: إن ابني هشام قد صبأ مثل غلامك هذا، وإني لأجلده كل يوم جلدًا، فلا تدعي أولئك الفسقَة يهينون آلهتنا.. وانصرف «العاص» ولم يدفع دينارًا واحدًا.. وبقي «خباب» يُواجه «أم أنمار» التي عبسَت وحلفت بكل الآلهة لترين «خباب» كيف يكون الموت والبعث والحساب.

وانقبضَ قلب «عمرو» مما رأى من قتامة روح تلك المرأة.. شتمت «خباب» ودفعَته وأهدرت كرامَته ولم يكن له نصير في القوم كلهم، فأخذته «أم أنمار» وأزالَت عنه رداءه الأعلى وكان في نفسها علة تشابه علة «أمية بن خلف»، إلا أنها تأثرت بكلام «العاص بن وائل» وأرادَت أن تتقرَّب إليه لأنه من أحسن المشترين، لكنها تمادت، أشعلت نارًا مستعرة لها لهيب، ثم أمرت الذين عندها من العبيد أن يمسكوه ويضجعوه بظهره عليها ثم يسحبوه عليها سحبًا حتى تنطفيء، وكانوا يفعلون هذا في «خباب» وأحدهم واضع رجله على صدره يسلقه في النار سلقًا حتى سمع صوت ظهره وهو يطفيء النار!، تجمَّرت عيون «عمرو بن جابر» بلون الجمر وهو يذكر مشاهد من نار وأجساد تحترق في حفرة في اليمن، فأعرض بوجهه والنار في عينه تحتر، وخرج «عمرو» من عند «خباب» وصوت «خباب» يصرُخ ويطرق في أذنه وقد ذهب جلد ظهره من الحرق، وصوت النمرة «أم أنمار» تصيح فيه وتهينه.

فلما أطلقَته في آخر اليوم انطلق مجهدًا إلى رسول الله يشتكي.. فدعا له نبي الرحمة وقال: اللهم انصُر خبابًا.. وعاد بها «خباب» مطمئنًا صابرًا، وظلَّت النمرة تقيم عليه العذاب وتأمره أن يعود إلى الحجارة بعد أن عرف النور، فأبى وأبى، وأشدت عليه في العذاب فكان يتأوَّه ويحتسِب.

تأوُّهات كانت تُطارد «عمرو بن جابر» وبدا لسمعه أنها تندلع من أماكن عدة.. فكأن يمشي ويكتم سمعه لئلا يسمع لكن سماع الجن يلتقط كل شيء، سمع أنَّات من رجال وسمع صرخة امرأة، فقلق وتوجَّه إلى ناحية الصوت،

فوجد جماعة من الكافرين قد أمسكوا بعمار بن ياسر ذو العيون الزرق، المولى اليماني الذي ليست له قبيله، وأمسكوا معه أمه «سمية» وأبوه «ياسر» وكانا قد شاخا وضعفا، وفي الكافرين كان النحيل الخبيث «أبو الحكم بن هشام» واقفًا، ومعه رفقة له، وقد علم «أبو الحكم» بإسلام «عمار» وأبيه وأمه، وعلم أن ليس لديهم أحد يدفع عنهم، فجعل يتلهى بهم؛ فأمر العبيد أن يوثقوهم بالحبال، وسحبَهم معه سحبًا مهينًا أطاح بكرامتهم، وأطاح باتزان ووقار الشيخ والشيخة وصارا يتعثران ويسقطان وتتردى وجوههم في التراب، وظل الفسقة يسحبونهم حتى انتهوا بهم إلى صحراء رمضاء في كبد الظهيرة، وألقوهم على رمال حاميَة لافحة، وتركوهم في سعار الصحراء، بلا طعام ولا شراب، فقط تركوهم والعبيد عليهم حارسون، على أن يرجعوا إلى دين الحجارة.

وكانوا يعودون إليهم كل حين، تارة ساخرين وتارة غاضبين.. حتى تفتقت أذهان الشر عن مزيد من الإيلام، فعمدوا إليهم وهم يتلوّونَ في الصحراء غير قادرين على الوقوف بأرجلهم الحافية على الرمال، فألبسُوهم دروعًا من حديد أسخَنتها الشمس بعد حين فكوَت لهم أجنابهم وصدورهم، ولم يك «عمار» يكترث بأي شيء إلا بضعف أمه وأبيه الذين سكنت حركتهما وضعفت آهاتهما، وكان لا يعرف حياتهما إلا من حركات يسيرة يلحظها كل حين!، وتهالك «عمار» مكانه ووهَن، حتى رأى رسول الله مُقبلاً فاستبشَر، ورآه الشيخ والشيخة، فتحرَّكَت حركتهما الواهنة، فجاءهما رسولِ الله وهو إلى حالهم ناظر، فقال: صبرًا آلَ ياسِر، صبرًا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة.

فرحوا بها وسعدوا، ولمحت في وجوههم بسمة منهكة.. ولم تمض ساعات من آخر ذلك النهار حتى عجز جسد الشيخ أن يتحمَّل، فغادر الدنيا إلى حيث وعد رسول الله، فكان أول شهيد في الإسلام، وأول من رأى الجنة من أمة «محمد»، «ياسر»، الرجل الذي أبَى مع كل شيء أن يُعطيهم كلمةً واحدة مما أرادوا.. وجاء «أبو الحكم» في نفرِ من أصحابه ينظر إلى الرجل الذي مات، والأم التي كادت، و«عمار» الذي يبكي.. وأعادَ عليهم العرض؛ أن عودَا إلى جناب الآلهة حتى لا تلحقا بالشيخ.. فما وجد منهما إلا مزيدًا من الإباء، فغضب الفاسق وجهل وأمسك بسُميَّة العجوز الرقيقة، وسقط قلب «عمار» من الفجعة وأستنزف قوته كاملة في الخلاص من قيده وجلاديه، والتقط «أبو الحكم» رُمحًا من أحد العبيد، وبدون كلمة أو حديث أو ذرَّةٍ من تعقُل، طعنَها بالرمح من أسفل

منها في موضع العفة، وسقطت الكريمة الشهيدة الأبية العفيفة إلي الأرض وقد لحقت زوجها إلى عليين؛ فكانت أول شهيدة في الإسلام وأول من رأت الجنة من نساء أمة «محمد»، وتحجّرت دموع الدم في عين ابنها «عمار» فما صارت زرقة عينه ترى، وتراخت رأسه إلى الوراء وقد انكسر فيه كل شيء، لكن الجهول لم يتوقّف، وأمر بنار، فجاؤوا له بمشعَل كبير أوقدت به نار تضطرم أمام عينيه، ثم أمر الجاهل العبيد أن يُديروا عمارًا وينزعوا ثيابه ليبين ظهره، فلما فعلوا رأى الرجل الأجهل آثار لسع الرمال على ظهر «عمار» فأتى بخنجر وقطع في ظهره قطعًا طويلًا غائرًا فصرخ عمار بن ياسر صرخةً حاول أن يكتمها لكنه فجأةً صرخ ملسوعًا مصروعًا بعد أن وضع الجاهل المشعل على ظهره فحرقه بالنار.

وبلغَ النبي ما بلغَه عنه فجاءه النبي بعد أن تركه أساودة القلب.. ومسح على رأسه وشكا له «عمار» النار، فدعا النبي وقال: يا نار كوني بردًا وسلامًا على عمار كما كنت على إبراهيم.. فلم تحرقه من بعدها نار ولا لفحته شمس ولا لسعَته رمال، وأطلق النبي على «أبو الحكم» اسما يُناسب ما فعله، اسم «أبو جهل».

ولم يدَع «أبو جهل» «عمار» بل جعلَ الأمر حياة أو موتًا.. إما أن تترُك هذا الدين أو تموت!، ولما لاحظ أن الحرق لا يُجدي معه شيئا، أخذه فسحبه من شعره وأغطس رأسَه في حوض مملوء ماء حتى يشعُر بقرب انهيار «عمار» فيرفعه ويقول له: اشتُم محمدًا.. ثم يُغطسه تارة أخرى... وظلَّ يفعل به هذا حتى قالها «عمار» من بين دموعه؛ قال كلامًا سيئًا في رسول الله، فرفع «أبو جهل» في يده خُنفساء ووضعها أمام وجه «عمار»، وقال له: أهذه إلهتك من دون رب محمد؟ فيقول: نعم هذه ألهتي.. فتركه «أبو جهل» يمضي، فأخذ «عمار» يبكي ويبكي، ولا يدري ماذا يبكي، أبوه وأمه أم قولته في رسول الله.. وانطلق «عمار» إلى رسول الله فلما رآه النبي يبكي مسحَ عن عينه دموعه، وقال له مُشفقا: أخذك الكفار وغطوك في الماء؟ فأومأ برأسه وقال: والله ما تركوني حتى نلتُ منكَ وذكرتُ آلهتهم بخير.. قال له رسول الله: كيف تجد قلبَك؟ قال: مُطمئن بالإيمان.. فقال له النبي: فإن عادوا فعُد وقل لهم ذاك.

وبكى «عمرو بن جابر».. بكى وابتلَّت صخور قلبه فأصبح يمشي على غير هدى، تبزغ له عن اليمين وعن الشمال كمثل العواميد في كل عمود صرخة رجل أو امرأة يُعذَّب في دين الله، فكان لا يدري أين يذهب، لم يقتصر العذاب على الموالي والعبيد، بل امتد إلى أبناء القبائل من قبائلهم، مضى «عمرو» ليجلس عند الكعبة لعلَّه يجد فيها سلوى، فرأى «عبد الله بن مسعود»، ذلك الراعي شديد النحول، كان يمضي بعزم إلى ركن الكعبة عند موضع يعج بالأصنام ثم يستدير إلى قريش ويُصدر حركة تُنذر بأن صوته سوف يعلو، ثم صاح: بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿الرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾... كان يبدو أن «ابن مسعود» قد غار من تعذيب قريش لأقرانه من الموالي، وليس المرء يدري ما الذي أحدثه رسول الله في نفوس هؤلاء القوم بالضبط.. قال الكافرون لبعضهم لما رأوه: ماذا يقول ابن أم عبد؟ وكانت كنية له، قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد.. فقام إليه سفهاؤهم ووقفوا حوله وهو يقرأ، وجعلوا يتناوبون ضربه في وجهه ويزيدون شدة الضربة في كل مرة، وهو واقف يقرأ حتى ظهر منه الأثر والدم، ثم انصرف إلى بيت الأرقم فتلقَّاه المسلمون وقالوا: يا ابن مسعود هذا الذي خشينا عليك.. قال: ما كان أعداء الله أهوَن عليَّ منهم الآن، ولئن شئتُم لأغادينهم بمثلها غدًا.. قالوا: لا لا حسبُك، لقد أسمعتَهم ما يكرهون.

وتنكَّد «عمرو» وحدَّثته نفسه بنفس ذات الغيرة.. فكأنه تمنى أن يُعذَّب في الله، وبينا هو يفكر إذ وجد أحد عواميد الألَم البارزة في الهواء يقترب، فنظر بضيق فإذا هما رجلان موثَقان بالحبال، وجمع من الناس وراءهما يتبعهما، وامرأة عجوز تصيح وتضرب أحدهما على رأسه وتسبه، نظرة أخرى من «عمرو» كانت كافية أن يعرفهما؛ «أبو بكر» و«طلحة بن عبيد الله»، وهما ابني عم، والعجوز هي «أم طلحة» تسُبه وتلعَنه، وراءها جماعة من بنو تيم، والذي يوثقهما بالحبال ويجُرّهما هو رجل طويل عظيم الهامة ضخم مفتول العضلات، من أقوى عشرة فرسان في قريش، «نوفل بن خويلد»، أخو «خديجة» زوجة النبي وخال أولاده، كان رجلًا شرسا تلَقّبه قريش بالحوت من ضخامته، ويبدو أن «أم طلحة» هي التي استدعته لينتصر للآلهة لما وجدتهما يذكرانها بسوء.. كان الحوت يسحبهما وراءه كسحبة الماشية ليسخر منهما صبيان المدينة.

وفجأةً أسرَّ أحد السائرين في أذن الحوت بأمر جعله يتلظى بالغضب.. وليس من الحكمة أن يغضب مثل هذا، قالوا له: أتعذّب رجالًا من بني تيم وابن

أخوك قد حذا حذوهما؟ قال من هو؟ قالوا: أخوك العوام، ابنه كفر.. توقدت عين الحوت، «الزبير بن العوام» كفر بالآلهة، العوام الفارس المغوار، الذي مات في حرب الفجار، ابنه كفر، و«الزبير» كان أبوه هو «العوام بن خويلد» أخو «خديجة» والحوت، وأمه «صفية» عمة النبي، فقرابته للنبي من الجهتين، لكن المشكلة كانت أن الحوت «نوفل بن خويلد» كان عمه. فترك «نوفل» «أبا بكر» و«طلحة» وتوجه إلى «الزبير»، وأجرم في «الزبير» إجرامًا عظيمًا، فأمسكه ولفَّه في حصير وألقاه في حُجرة وأضرَم النار عند بابها وتركه مُقيَّدًا، ودخان النار يسرق منه حياته، حتى إذا اشتدَّ سعاله وصراخه أطفأ النار عليه، لكن «الزبير» كان شديدًا بشدة أمه عليه، وشديدًا بنور «محمد»، فلم يأخذ الحوت منه شيئًا، بل إن عينه كانت تتألق تحدِّيًا وتصدِّيًا، فتأثَّرت نفس نوفل بهذا الثبات وتركه، كان يظنه فتى خانعًا متصابيًا، لكنه علم أن لو أشعل هاته النار في جوفه ما هو بمُزحزِحه عن «محمد».

أما «أبو بكر» فإنه فور ما تركه «نوفل».. نفض ما عليه من غبرة وانطلق إلى بيوت قريبة يريد أمرًا بعينه، امرأة جارية رآها في أول اليوم يعذبونها على الإسلام، امرأة بكت وبكت ولم تجد لها سامعًا ونصيرًا، لكن «أبا بكر» كان هنالك، بعد كل الذلة والتهالك أتى «أبو بكر»، وتفاوض مع المجرمين على أن يشتريها، فأحبوا ما عرض من مال فباعوها له فاشتراها، وكانت امرأة رومية أجنبية تُدعى «زنيرة»، وكانت تبكي لأيام ولا تستطيع نصرًا لنفسها إلا أنها تبكي، فلما أعتقها «أبو بكر» أصابتها صدمة من الوجد فقامت ولا تدري أين الطريق كأنها عميَت وذهب بصرها، وكان حالها تستصعبه النفس وهي تنظر أمامها وحولها غير مدركة لأي شيء!، قال من كانوا أسيادها وهم يتضاحكون: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى.. فتوقفت المرأة عن المسير، ورمقت إلى ناحيتهم بجانب من عينها وقالت: كذبتُم وبيت الله ما تضر اللات والعزى وما تنفعان، ما تدري اللات والعزى من يعبُدهن، لا يذهب ويرُد البصر إلا رب البصر.. فكانت قوتها في حديثها بعد ضعف وبكاء مثارَ استعجاب ورهبة، ولقد ردَّ الله إليها بصرَها ولم يكن ذهابه إلا صدمة.

ورأى «عمرو» ألمًا يطلع في السماء لرجُل مشرف في القوم أيما شرف.. ولم يُصدِّق «عمرو» حتى ذهبَ إليه فوجده موثَّقًا بالحبال ممنوعًا من الطعام والشراب، «عثمان بن عفان»، الغني الزكي، أوثقه عمه برباط وقال له: أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث، والله لا أحلك أبدًا حتى تدع ما أنت عليه من

هذا الدين.. وكان «عثمان» يأبى، وأصبح ينظر إلى نفسه، كنت تتساءل يومًا يا عثمان ما حاجتك بمحمد بعد أن تزوجت رقية من عتبة بن أبي لهب، واليوم تقول ما حاجتك بالدنيا كلها بعد أن عرفت محمدًا، ويثبت ويبقى على ثباته حتى يحار عمه في أمره.

وبين آلامهم وأوجاعهم كان يمشي.. ونفسُه قد حدثته أن يعود إلى الجوداكيولا ليعذبه المستترون في الظلال حتى يقطعوا أعضاءه كلها في سبيل الله، لكنه تعلم من مسيره بين المسلمين أن العذابات لم تكن فقط جسدية، بل كان بعضها نفسيًا، فذاك الفتى الصغير الأسمر صانع السهام «سعد بن أبي وقاص»، كانت تنتظره في بيته محنة، أمه كانت بنت أبو سفيان، اسمها «حمنة»، عنيدة معاندة كانت، قالت: يا سعد إني قد بلغني أنك صبوت، فوالله لا يظلني سقف ولا آكل ولا أشرب حتى تكفر بمحمد وترجع إلى ما كنت عليه.. قال لها: لا تفعلي يا أمه فإني لا أدع ديني أبدًا.. فمضى يوم وليلة، وأتته مجهدة وقالت: يا بني ما هذا الدين الذي أحدثت، لتدعنَّ دينك هذا أو أظل على هذا حتى أموت فيُعيرك الناس بي.. وجعلت نفسه تتألم لألمها وصفرة وجهها، فمرَّ يومٌ آخر، وجفت روحها من الألم، فشكا «سعد» إلى رسول الله، فنزل في شأنها قرآن.

﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ ، فرجع إلى أمه وحالها يؤلمه، وجاء اليوم الثالث وأغشي عليها، فلما قامت ابتدرها وقال: والله لو كانت لك ألف نفس، فخرجت نفسًا نفسًا، ما تركتُ ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي وإن شئت فلا تأكلي.. فلما رأت منه هذا أذعنت وانقادت إلى واقع يعلو حتى على أمومتها فأكلت وشربت.

وماثلتها «أم مصعب بن عمير».. امرأة حازمة صارمة رغم تدليلها لابنها الذي كان يبدو مثل الأمير، لكنه إذ نور قلبه الإسلام أخفاه خوفًا منها، لكن كيف تخفي وأنت تذهب إلى جمال النبي في دار الأرقم كل يوم، فانكشف الأمر فأخذته أمه ورمته في غرفة صغيرة حبسته فيها وعزمت على ألا تُخرجه منها أبدًا، وأنفذت عزمها فبقي فيها وقلبه يذوب من الألم، يود أن يصاحب رسول الله، فالنور الذي كان عليه أضاء في قلوبهم وتلمع فلم يعودوا يصطبروا على ألا يكونوا حوله، ألا تراهم عينه وهو رسول الله الذي أرسله خالق السماوات والأرض، يعينونه ويؤازروه فيرضى عنهم الله ويرضوا عنه.

أصلع الرأس طويل القامة مفتول البنيان، أسمر اللون ذو لحية كبيرة مهيبة، عجيب شباب قريش، ما يصارعه أحدهم إلا غلبه، ولا يسابقه أحدهم إلا سبقَه، من أحسن عشرة فوارس في قريش مثله مثل حمزة والحوت، لكن هذا كانت فيه حدة في الملامح وحدة في الشخصية وحدة في التفكير، كان نائمًا تحت أقدام الآلهَة في جانب من الحَرم، نائم ومستغرق في النوم، وعادته أن ينام في أي مكان آمنًا على نفسه، الجميع يهابونه، عزيزًا كان واسع الكتفين، مرَّ بجواره رجالٌ من قريش ومعهم عِجل كبير آتين به يذبحونه، فاستيقَظ وفتح عينيه، وكان ذا نظرة صارمَة، نظرة انقلبَ بها حال مكة وسادات مكة ومساكين مكة بعد هذا بأيامٍ وانكفأ الرأس على العقب، نظرة «عمر»، -«عمر بن الخطاب»-.

كل أمة عبدَت الحجر صار قلبها مثل الحجر.. هذا شيء لا يُستغرب لأنهم يذبحون البشَر لأجل الحجر ويقتُلون لأجل الحجر، وقريش كانت فقط واحدة من أمم كانت قبلها عبدت الحجر وتحجّرت قلوبها وأفهامها، هؤلاء الأمم جميعًا لا تكون في قلوبهم رحمة، خاصة إذا كانوا أبناء صحراء مثل العرب، فكانت حجارة قلوبهم أشدّ من غيرهم في الزمان، وإن «محمد» وأصحابه قد أُحيط بهم وسط كل هذا الكم من الحجارة.

«محمد» أثار الجن وأثارنا بما لديه من العلم.. وذكّرنا برجل قديم في الزمان خرج علينا مرةً ففجأ ألبابنا وأفهامنا، رجل قال عن نفسه أنه نبي ولم يكُن كأي رجل منكم ادعى النبوة، هذا رجل قدر بعلم لا ندريه أن يستظهرنا من خبائنا واجتناننا بدون سحر ولا جوستار، فجأةً وجد جيل كامل من الجن أنهم ظاهرون، بأجنحتهم وقدراتهم وإسراعهم ومساكنهم ظاهرون، يراهم كل الناس، رجل واحد آمن له كل ذلك الجيل من الجن عن بكرَة أبيهم، رجل اسمه «سليمان»، ومملكته كانت من النيل إلى الفرات في أعظم اتساع لمملكة يهود، وكنا نعمل عنده بالسُخرة والتسخير والأجر، نعمل له القصور والتماثيل ونستخرِج له كنوز البحر، وكان رجلًا خيرًا يأمرنا أن نصنع له قدورا عظيمة ضخمة تطبَخ فيها النساء وموائد ضخمة يُطعم بها الفقراء والمساكين في كل يوم وفي كل بلدة من بلاد مملكته.

كان يخبئ عن الجميع كنوزه وعلومه فلم يدرِ أحد من إنس أو جن كيف حصل عليها!، وكان يدعو ربه كل حين أن تخفى كنوزه وعلومه فلا تنبغي لأحد من بعده، كان يقول أنه نبي لكنا لا نؤمن أن من البشر أنبياء، هم يقولون أنهم أنبياء لأنهم يريدون السلطان، أو يريدون الاهتمام، يستخدمون الدعوة إلى الله والدعوة إلى الفضيلة لتحقيق غرضهم، هذه عقيدتنا فيهم.

لكن تجري على أيديهم أمور أعجزَتنا عن فهمها.. «موسى» شقّ البحرَ بعصاه فأعجزنا وخرق الطبيعة، «سليمان» أظهرنا جميعًا وكانت معجزته الملك، «عيسى» كان يُحيي الموتى وكانت معجزته لم تُسبق ولن تُسبَق، و«محمد» معجزته العلم، كان يعلم الغيب من أمر الجن ويعلم أمر الأمم السابقة وعقائدهم وأين بدلوا فيها وزاغوا، ومعجزته أنه يرانا

ويسمعنا، بل يقول أنه أُرسِل للجن والإنس، ولم يكن يرانا في هيئتنا الجنية قبله من الإنس أحد، حتى أنبياء الإنس، نعم صدَّق كثير من الجن أن محمدا نبي، وصدق كثير من الجن أن من سبقه كانوا أنبياء، لأن هذه أمور ومعجزات لا يتأتى بعضها لأحد، حتى لنبينا «لوسيفر»، لكن المخلصين للوسيفر أمثالنا يعلمون أن هؤلاء أنبياء زائفون، لأنهم يذكرون «لوسيفر» ذكر الشر، وهو البهي الأمير الخالد المخلَّد العالِم بكل شيء في الزمان.

لكن محمدًا كان لا يزال في البداية.. وإن ما أحدثه «محمد» فيما بعد لم يكُن شيئًا واهيا، بل قد كُتب في الزمان، وحوَّل دفَّةَ الزمان.

لما صرخت الصارخة.. وجندل صاحب السوط جميع الحرس من حولها
إستدار إلى جهة ليس لها علاقة بطريق الهروب..
هل تريدني يا بن جابر؟
إستدار إلى (ازب).. المحبوس وراء جدار كالفولاذ.
لولا جدار بيننا.. لقطعت عنقك

لكن المارد
المحبوس..
خلع عباءته..
و مس ذلك الجدار.. فتناثر
ولو أمهله القدر.. لخنقه إلى
الأبد
لكن صاحب السوط كان
أغضب ما كان في حياته

(١٣)

أكسيوم

بلد كان اسمها في الكتاب فاران.. خرج فيها نبي شاهد برهان.. له صَحبٌ كرام كاللؤلؤ والمرجان.. عدا عليهم قومُهم بالعنف والعنفوان.. فكانوا بين وجعان وصبران.. وأظلم الدهر عليهم بعد منة الرحمن.. فما عادوا يرون إلا ظلمة ونكران.. وفي وضأة من الزمان.. في يوم من أيام فاران.. سمعوا أن الليلة يُقام عرس الشريفان.. البنت بنت النبي صاحب الإحسان.. رقية الأميرة زينة الأزيان.. والزوج رجل عفيف «عثمان».. النسب والحسب والمال والبستان.. وما رآهما في تلك الليلة إنس ولا جان.. إلا ردَّد أن أحسن زوج رآه إنسان.. رقية وزوجها عثمان.

آجره الله على صبره بالتي مال إليها قلبه.. فآتاها كل قلبه، ولكنه خاف من تنكيد أهله الكافرين، وتنكيد عمه، وأتاه الفرج في قولة قالها النبي لأصحابه، قالها لهم وهو خير من يعلم حالهم، جمعَهم وقال: إن بأرض الحبشة ملكًا لا يظلم عنده أحد؛ فالحقوا ببلاده، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه.

وفي غفلة من الناس.. خرج «عثمان بن عفان» ومعه بنت رسول الله الأميرة، في طريق جهيم، تاركًا وراءه آماله وتجارته وبساتينه، يركبان على دابة، وليس معهما إلا ما ينشئ لهما حياة جديدة في أرض جديدة خضراء لا يعلمان عنها شيئًا، وعلى ساحل بحر القرم، صعدا معًا على سفينة كبيرة مسافرة بين القارتين، متوجِّهة إلى مملكة أكسيوم، مملكة كبيرة قديمة مسيحية، بكل قصورها وكنائسها وأنهارها وأشجارها، بكل إدهاش الطبيعة فيها وكل وحشة الغُربة فيها، وفي تلك السفينة ضم «عثمان» زوجَه الراقية «رقية» بينما تنطلق في البحر، ولفح وجوههما هواء غريب على شعورهما، هواء الغربة.

نسيم من هواء البحر كان يحرك خصلات شعره.. وهو ينظُر في الأفق الممتد ويستذكر الأيام، كان مظهره كمسافر أجنبي على ظهر سفينة، وما سافر فيها إلا ليطمئن على «رقية»، عيناه لا تفارقها كل حين، «عمرو بن جابر»، كان يسمع رسول الله يقول، إن «عثمان» و«رقية» أول من هاجر في سبيل الله بعد

«إبراهيم» و«لوط».. لقد كان النبي يحكي أمورًا عن الأنبياء في القرآن لم ترد في التوراة، تفاصيل وتفاصيل... سمع صوتًا من ورائه يقول له: «عمرو بن جابر»؟

التفتَ ينظُر فوجد رجلًا ملثمًا لا يبين من وجهه إلا عينه وحولها تجعيدات كثيرة.. اتسعت عين «عمرو بن جابر»!، وكشف الملثم عن لثامه، وبنظرة يعرفها عبر الزمان تطلع إليه. قال له وبسمة واسعة تمط شفتاه مطا: لقد سمعت كلامك مع «ماسا هارينا» يا بن جابر.. نظر له «عمرو» في كمَد، كان ذاك «إزب»، -«إزب بن أزيب»-.

حبس «عمرو» غيظَه ونظر سريعا إلى «رقية» و«عثمان» كأنه يتأكد أنهما في مكانهما، ثم تطلع إلى «إزب» وقال: يا وجه الشيطان، لقد ظننتُ أنهم سيريحون العالم من وجهك.. قال له «إزب»: العالم سيكون أكثر مللًا بدوني أليس كذلك يابن جابر؟ قال «عمرو»: كيف خرجت من الجوداكيولا؟ نظر «إزب» إلى الأرض وقال بمَكر: على قدميَّ هاتين، لستُ بهلوانًا مثلك، حاكموني ووجدوني بريئًا.. نظر «عمرو» إلى وجهه وهو يقول كلمة بريئًا ثم أعرض عنه تضجرًا، كان يود أن يسأله عن «ماسا» لكنه أطرَق، لابد أن المجرمين قد نالوا منها.

قال «إزب»: أردت شكرَك على إدلالي إلى ذلك النبي، لولا حديثك عنه مع تلك الصارخة المجنونة ما كنتُ سأعرف.. قال له «عمرو»: وهل أخبرتَ سفيه النور؟ قال «إزب»: سيعرف بنفسه عاجلًا أو آجلًا.. قال «عمرو» ساخرًا: عجبًا ألا تريد المجد؟ نورت عيون «إزب» في هيئته الإنسية وقال بطريقة فيها عتو: لا مجد إلا مجد إزب.. ثم صار وجهه كأنه تمثيل للخبث وهو يقول: لا تفرح بهجرتهما إلى الحبشة، فإن الذين وراءهما من المهاجرين لن يصلوا حتى إلى الميناء!. نظر له «عمرو» بقلق، قال «إزب»: لقد أعلمتُ أهلهم بهجرتهم.. قال له «عمرو»: ليتمن الله هذا الأمر رغما عن أنفك.. قال له «إزب»: فإن فعلوها وهاجروا، فإني أقسم بمجد بن أزيب، لأرجعنَّهم منها إلى بلدهم، ليستكمل القرشيون وطأهم.. أعرض «عمرو» بوجهه وهو ينظر إلى رقية و«عثمان». ثم نظر إلى «إزب»، فلم يكُن أحد هنالك.

كان النبي في حلقة من أصحابه، وفي روحه قلق، فقد تأخَّر عليه خبر وصول «عثمان» و«رقية» إلى الحبشة، ثم قدمت امرأة واستأذنَت وقالت لرسول الله: لقد رأيتهما يا رسول الله.. فرح النبي وقال: على أي حال رأيتيهما؟ قالت:

رأيتُه قد حمل امرأته على حمار وهو يسوقها.. قال النبي: صحبهما الله.. ونبع كلام من الجالسين عن السفر واللحاق بهما، والخروج من هذا الشر الذي تصعده قريش يوما بعد يوم، كان عشرة من الرجال قد اختاروا واتفقوا سرًا أن يهاجروا بعد «رقية» و«عثمان» ، ومنهم «أبو بكر».. وكان «عمرو بن جابر» يحضر جمعهم هذا من نافذة صغيرة في الدار، وكان حزينًا على غدر الزمان الذي يجعل أناسًا يهاجرون تاركين بيوتهم وأراضيهم، وخائفًا عليهم من كلام «إزب» الذي لابد أنه أبلغ أهلهم، وحزين على نفر من رجال كانوا يعذبون في الله لكنهم اختاروا البقاء وعدم الهجرة، «عمار بن ياسر» و«خباب» و«طلحة بن عبيد الله» وكثير آخرين.. ثم فجأة دعا النبي دعوة، قال: اللهم أعِز الإسلام بعمر بن الخطاب، اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب.

التقط «عمرو بن جابر» هذه الدعوة والتفت وانطلق، ليبحث عن «عمر».. وكان يعرف من هو «عمر»، فصيتُه ذائع في قريش وخارج قريش، هو فارس وهو سفير لقريش في مفاخراتها بين القبائل في الحروب إذا أرادت أن تفاخر قبيلة بالكلام، فما كان أحد يغلب «عمر» أبدًا في قتال أو في كلام، كان «ابن جابر» يعرف شدة «عمر»، لكنه أخذ على نفسه عهدًا أنْ يفعل شيئًا، أي شيء، يمكن أن ينهي به هذا الأذى، رغم أنف الجميع ورغم أنف «إزب»، لو كان «عمر» هذا أشد أهل الأرض، ليكونن سببًا في إسلامه، ولن يسبقه إلى ذلك أحد من المسلمين.

ورشق «عَمرو» بجسده وطار وفتَّش عن «عُمر بن الخطاب».. فوجده نائمًا عند جانب من الكعبة وحوله رجال يذبحون عجلًا فأيقظوه من نومته وأصبح ينظُر إليهم وهم يمسكون العجل ويحنون رأسه ثم يمررون السكين على الرقبة ويفور منه الدم ويفور على أصنام قريبة كأنهم يسقونها بالدماء!، وهنا فعل «عمرو بن جابر» شيئًا عجيبًا، لا يعرفه إلا الجن، فكما أن صورة الجن لا تراها عيون الإنس وعيون بعض الحيوانات تراهم، كذلك أصوات الجن لا تسمعها آذان الإنس وآذان بعض الحيوانات تسمعهم، ولا يمكن للجن وهو في صورته الجنية أن يُسمع صوته للإنس إلا بحيلة واحدة، انطلق «عمرو بن جابر» وفعلها.

إذا ذُبح العجل وشقَّت رقبته، أمكن للجن أن يأتي إلى تلك الرأس الملقاة على الأرض وتحديدًا إلى أذُن العجل المفطورة على سماع أصوات الجن، فيستعملها الجن عكسيًا ليجعل صوته مسموعًا، كأنها البوق، ولم يُضِع «عمرو»

وقتًا، والرأس رطبَة وحواسها لم تذبل، توجَّه من فوره إليها وصرخ وقال قولة اشتهرت بعد ذاك، قال:

- يا جليح، أمر نجيح، نبي فصيح، يقول لا إله إلا الله.

وكان «عُمر بن الخطاب» جليحًا يعني أصلعًا. فنظر «عمر» حوله وعينه متسعة صارمة، ووثب القوم وتركوا العجل وجعلوا ينظرون حولهم، و«عمرو بن جابر» ينحني على الرأس ويقولها بصوتٍ أعلى:

- يا جليح، أمر نجيح، نبي فصيح، يقول لا إله إلا الله.

كان «عَمرو» يريد أن يكسر شدة «عُمر» بالخوارق، أصبح الناس يتباعدون عن العجل وهم ينظرون إلى «عمر»، فليس هناك جليح غيره، و«عمر» ينظر حوله في شدة وتهديد ليس فيه خوف، ثم قال: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا، وانصرف من المكان، لكن المشهد ترك في نفسه شيئًا، إنه يعرف بأمر النبي الفصيح الذي خرج يقول لا إله إلا الله؛ ذاك «محمد»، ويعرف بأمر ما يلقاه أصحابه، وأصبح «عمر» يُفكر، و«عمرو بن جابر» وراءه يرقبه.

انطلق «عمر بن الخطاب» إلى مجلس يجتمع فيه رجال من قريش اعتاد أن يجلس معهم.. فلما أتى مجلسهم لم يجد منهم أحدا، فلم يدر أين يذهب، ثم قال في نفسه: لو أني جئتُ الكعبة فطفتُ بها ثم أغادر إلى مسكني.. فجاء إلى الكعبة والليل قد أسدل ستائره، فإذا رسول الله قائم يصلي، وكان إذا صلى عند الكعبة استقبل جهة بيت المقدس، ولكن من حبه للكعبة كان يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس، فجعل «عمر» يتأمَّله ويتأمل ما يفعل من ركوع وسجود ودعاء، فرَقّ لهذا البهاء شيء في قلبه، وترك «عمر» المكان وعاد إلى مسكنه.

فأقبل «عمر» إلى داره فوجد جارَته «ليلى» راكبة على دابة عند الدار ووراءها رحالها كأنها تريد السفر.. وكان زوجها «عامر» قد انطلق لبعض حاجتها، وكانت هي وزوجها مسلمين، لكن المشكلة أن زوجها «عامر» كان حليفًا للخطاب بن نفيل والد عمر، و«الخطاب بن نفيل» هو نفسه الرجل الذي كان طرد «زيد بن عمرو بن نفيل» لما علمَ بأنه يتكلَّم كلامًا ضد الآلهة، وأغوى به السفهاء ليضربوه، وبالطبع كان «الخطاب» يسوم حليفه «عامر» أشد الأذى لما علم أنه أسلم، وكان «عمر بن الخطاب» كذلك شديدًا في تعامله معهم لما علم بإسلامهم، فقلقَت «ليلى» لما رأته مُقبلًا.

قال «عمر» لجارته ليلى: إنه للانطلاق يا أم عبد الله؟ قالَت: نعم والله لنخرُجنَّ في أرض الله، آذيتمونا وقهرتُمونا، حتى يجعل الله مخرجًا.. فأطرق «عمر» برأسه وكان يُفكّر وملامح وجهه بعيدة عن الحدة، فقال لها: صحبكم الله.. ودخلَ إلى بيته، فرأت «ليلى» له رقةً لم تكن تراها، لقد ظهر في كلام «عمر» حزنه على خروجهم!، فجاء «عامر» زوجها بحاجته تلك، فقالت له: يا أبا عبد الله، لو رأيتِ عمر آنفا ورقّته وحُزنه علينا.. قال لها: أطمعتِ في إسلامه؟ قالت: نعم.. فمطّ شفتيه وقال: والله لا يسلَم حتى يسلم حمار الخَطاب.. وأشار إلى حمار مربوط في زاوية من مسكن الخطاب.. فلم ترُد عليه، وكتمت أمانيها في قلبها.

راقب «عمر» خروجهما منْ نافذة بيته.. وكانت الأفكار تموج في عقله وتأتي، وحضر قرين «عمر» ولم ينفك عنه، قال له: اذهب واقتُل محمدًا فإن كان نبيًا لن تُسلّط عليه وإن كان غير ذلك نلتَ الشرف، وما من رجل في قريش يجرؤ أن يقترب من «محمد» بوجود حمزة الأسد، فحسم «عمر» أمره وخرج من البيت مباشرة يريد أن يأتي رسول الله، يريد أن يقتله.

وفي جناح ليل تال.. استتر رجال من مكة ونساء، على دوابهم، تاركين كل ما لهم، مُتوجّهين إلى ذات الطريق إلى الحبشة، ووصلوا متناثرين إلى ذلك الميناء، فوجدوا سفينتين كبيرتين تتجهزان للإبحار، فصعدوا إليها وكل منهم قد دفع نصف دينار، نصف دينار تنقلك من عالم إلى عالم، كان فيهم رجال من بيوتات المكانة في قريش وكان منهم مستضعفين، كان فيهم «عبد الرحمن بن عوف» التاجر الثري، و«مصعب بن عمير» الفتى الريان الذي لم يعد ريانًا، بعد أن حبسته أمه في غرفة، ولم ينشب أن هرب منها ونفذَ بجلده إلى الحبشة، وفيهم «الزبير بن العوام» الذي خرج هاربًا من الحوت الذي كان يكتمه بالدخان، وفيهم «أبو سلمة» وزوجته «أم سلمة»، وفيهم الراعي النحيل «عبد الله بن مسعود»، وفيهم غيرهم... وحانت منهم نظرة إلى بلادهم لما تحرّكت السفن، نظرةٌ لا تدري متى تعود، وفجأةً لمحت عيونهم غبرة قادمة سريعة كالرمح، غبرة لا يدرون ما بداخلها، فلما انقشعت تبيّن لهم، كانوا رجالًا من قريش واقفين على الساحل، وسلاحهم في أيديهم ينظرون إليهم في غلٍ، فلو كانوا تأخروا في المسير دقيقة واحدة، لكان قومهم قد أمسكوهم وسلسلوهم،

لكن قدر الله نفَذ، وتحركت السفن إلى داخل البحر، وتحولت أنظارهم عن أرضهم إلى منظر البحر، والموج الذي يتهادى ويحملهم إلى أرض غير الأرض، وسماء غير السماء، وهواء غير الهواء.

جنوبًا توجَّهت السفن في دروب البحر حتى نزلت في جزيرة تدعى جزيرة الريح، ارتاحت فيها أيامًا ثم انطلقت السفن تارة أخرى حتى نزلت إلى ميناء أدونيس، في قلب مملكة أكسوم، الحبشة.

وما كان معهم الصديق «أبو بكر».. بل كان يمضي وحيدًا مُسافرًا في طريق آخر يصل للحبشة عن طريق اليمن، فلم يكن يحب البحر، والسفر من ذلك الميناء يعني شهورًا طويلة بداخل البحر، لكنه قرَّر أن يذهب إلى حدود اليمن ثم يجاوز البحر في أيام معدودات إلى الحبشة، كان أشد المهاجرين حُزنًا وحُرقة، لبعده عن الرحمة المهداة «محمد»، لكن الحياة في مكة لم تعُد ممكنة بالنسبة له؛ أذية وإهانة... وقومه بنو تيم لا يمنعونه ولا يحمونه، فسافر منها وارتحل، وسار في طريق ساحلي طويل والبحر يجانبه حتى بلغ برك الغماد في أقصى الجنوب على حدود اليمن، وكلما ابتعد كلما اغتم، حتى لقيَه رجُل في الطريق يعرفه، «ابن الدغنة» سيد قبائل القارة، قال: أين تريد يا أبا بكر؟ قال: أخرجَني قومي فأنا أريد أن أسيح في الأرض وأن أعبُد ربي.. قال له «ابن الدغنة»: إن مثلك لا يخرُج ولا يُخرج، فإنك تُكسب المعدوم وتصِل الرحِم وتحمِل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، فتعال فارجع معي فادخُل في جواري.. وكانت عادة في العرب أنه إذا دخل إنسان في جوار إنسان من أسياد القوم، فإن أذيّته تعتبر أذية السيد الشريف الذي أجاره؛ وهذه قد تقام فيها حروب.. فعاد «أبو بكر» إلى مكة، إلى حبيبه وطبيبه رسول الله.

بينما «عمر بن الخطاب» في طريقه إلى قَتل «محمد» قابلَ رجُلًا من بني زهرة، كان من أشد الناس علمًا بالأخبار ونقلًا للأخبار، قال له: أين تريد يابن الخطاب؟ قال «عمر»: أريد أن أقتُل محمدًا.. قال الرجل: أتظُن أن بني هاشم تاركيك بفعلتك هذه؟ فغضبت ملامح «عمر»، قال الرجل بأسلوب مزعج: اذهب يا عمر فأقم أهل بيتك، أختك قد أسلمَت هي وزوجها واتبعا محمدًا.. نظر له «عمر» نظرةً مُخيفة، لم يكن «عمر» يعلم أن أخته أسلمَت!، فشاط غضبه غضبًا على غضب، وانصرف من عند الرجل إلى بيت أخته.

قرع الباب قرعًا شديدًا، فقالت: من هذا؟ قال بصوت قاس: عمر بن الخطاب.. وكانت هي مع زوجها بالداخل، هي «فاطمة بنت الخطاب»، وزوجها هو «سعيد بن زيد عمرو بن نفيل»، ابن الرجل الأنور الذي طرده وشرده والد «عمر» قديمًا، وكان معهما «خباب بن الأرت» المستضعف يُعلمهما القرآن، فلما سمع «خباب» صوت «عمر» توارى في المنزل، وقامت «فاطمة» وفتحت الباب، فوجدت «عمر» واقفًا وفي عينه الشر، كان «عمر» طويلًا جسيمًا جدًا، يضيف إليه الغضب مسحة مخيفة، قال «عمر»: ما هذه الهينمة التي سمعتُها عندكم؟ قالت: ربما هو حديثٌ تحدّثنا به.. قال لها بشدة: فلعلكما قد صبأتُما؟ فوقف زوجها «سعيد بن زيد» أمام «عمر» وقفة رجُل لا يهاب، وقال له بتحدٍّ: وإن قلتُ لك يا عمر أن الحق في غير دينك؟

فوثبَ «عمر» على «سعيد» فوطئه وطئًا شديدًا.. فجاءت «فاطمة» لتدفع عن زوجها، فأبعدها «عمر» بيده، وقال: أصبوتِ يا عدوة نفسها؟ لكن يد «عمر» المفتولة التي حرَّكها لتبعد أخته أفقدَتها توازنها وأسقطتها فنزل الدم من جانب فمها، فتوقّف «عمر» لما رأى دماء أخته واستحى من شدّته، أحسَّت «فاطمة» الدماء على وجهها فقالت لعمر: قد كان ذلك على رغم أنفك يا عمر، وما كنتَ فاعلًا فينا فافعل.

أطرق «عمر» برأسه وهو قد تنكّد من مرأى الدماء على أخته، فلمح صحيفةً من جلد موضوعة على مثل مائدة قريبة، فتوجَّه إليها يريد أن يرى ما فيها، وكان عمر قارئًا وكاتبًا، فصاحت فيه أخته «فاطمة»: إنك نجس، وهذا لا يمسه إلا المطهرون.. وكان في الصحيفة قرآن مما كان يكتبه الصحابة وراء رسول الله، فتجاهل قولَها ورفع الصحيفة يقرأها، فوجد فيها:

﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ * تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ * وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾.

خطرَ خاطر في نفس «عمر».. ما أحسن هذا الكلام، وأكرمه، عن عظمة الرحمن، ثم قلبَ الصحيفةَ فوجد مكتوبًا فيما ورائها قرآن..

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

فقالَها «عمر»: ما أحسن الكلام، وأكرم هذا الكلام.. وهنا خرج «خباب بن الأرت» من داخل الدار، ففجأ عمر، لكن «خباب» قال: أبشر يابن الخطاب، فإن رسول الله دعا يوم الاثنين وقال (اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب).. فوقع في قلب «عمر» مزيدًا من الوجد والتأثر، قال: دلوني على رسول الله.. قالوا: فإنه في دار الأرقم بأسفل الصفا.. فخرج «عمر بن الخطاب» وقد انعكس كل ما كان في نفسه، ولم يدرِ أن وراءه كائن ممتن، كائن فرح، كائن جني، كائن يدعى «عمرو»، «عمرو بن جابر».

الحبشة وألوان الحبشة، كل شيء ملوَّن، جلود الناس سوداء، وملابسهم ملوَّنة بألوان زاهية، وبيوتهم ملونة، زرقاء وصفراء وبرتقالية... أنهار صافية زرقاء وخضرة وأشجار تعُمّ الجبال، نزل المسلمون وسط هذا الكون الجديد يتلمسون لهم بيوتًا ورزقًا، قلة مستضعفين كانوا، هاربين بدينهم من شأفة قومهم، لكن شيئًا في تلك البلاد لم يكن بخير، ليس في البلاد نفسها ولكن في ناسها، هناك أمر جلَل، هناك منشقون قد جيشوا الجيوش وأشعلوا انقلابا على «النجاشي» ملك الحبشة، وخرجوا عليه خروجًا عظيمًا، وكانت المعركة دائرة، الملك، الملك الذي لا يُظلَم عنده أحد، اليوم هو في حرب واضح من عيون الناس وقلقهم أنها ستزيله وتزيل ملكه، ولم يكن هذا خبرًا حسنًا أبدًا.

طار «عمرو بن جابر» على الفور إلى مكان المعركة الذي لم يكُن بعيدا عن المسلمين، فقط بينهم وبينه نهر، وهناك توقَّف «عمرو» في الهواء!، لقد كانت حربًا، حرب حقيقية، وتذكر «عمرو» كلام «إزب» وقسَمَه ليعيدنهم منها خاسرين.

جيوش مُجيَّشة سوداء كلها من الجهتين.. نظر لها «عمرو» فتذكَّر جيوش أبرهة، ثم نفض عن نفسه هذا الخاطر، جيوش وأحصنة عليها أسرجة وأفيال

عليها تيجان وجنود بأزياء عليها ألوان وألوان، ورماح طوال تنتهي كلها بشفرات كالهلال المقلوب، ودروع في أيادي الجنود ونمور ترتدي دروعًا، وصليب مرسوم على الأزياء والأسلحة... حرب ضَروس كما يجب أن تكون الحرب.

وفجأةً لاحظ «عمرو بن جابر» شخصًا يسبح في عزم وقوة في النهر يريد أن يبلغ مكان الحرب.. نظر له «عمرو» فعرفه، إنه «الزبير بن العوام»؛ الصبي العفي الذي صنعَت منه أمه صلابة لا تنشق، وكان له من اسمه نصيب، كان يعوم عومًا عضلًا سريعًا، حتى وصل إلى أرض المعركة، كان المسلمون قد قالوا لبعضهم: من يخرُج فيحضر الوقعة فينظر على من تكون؟ فقال «الزبير»: أنا.. وقفز في النهر سابحًا من جانبه إلى جانبه، وفوجئ الجند بفتى أسمَر متين القوام قد خرج من البحر وليس عليه أزار فبدت عضلاته الشابة، وانطلق على الفور والتقط سلاحًا من جندي ساقط واشترك في الحرب.

والتهبت الحرب التهابًا شديدًا حتى غلب «النجاشي» خصومه وانتصر وحمى مُلكه.. ورجع «الزبير بن العوام» وهو يعوم منتصرًا، ولما رأوه آتيا على الساحل أخذ يُلوِّح لهم بردائه فرحًا، فعرفوا أن «النجاشي» قد غلبَ مخاصميه، وعاش المسلمون في الحبشة في كنَف حكم «النجاشي»، في خير دارٍ وخير جوار.

مشى «عمر بن الخطاب» مشيَته التي فيها إباء حتى بلغ دار الأرقم.. وقرعَ الباب قرعَته التي فيها شدة، وكان جمع من الصحابة في الداخل مع رسول الله، و«بلال» على الباب فقال: من هذا؟ قال: عمر بن الخطاب.. فسكتَ صوت «بلال» هنة ثم قال: حتى أستأذن لك رسول الله.. وكان في البيت «حمزة»، الفارس الأسد، فقال: وما عمر؟ إن أرادَ خيرًا بذلناه له، وإن أراد شرًّا قتلناه بسيفه.. فذهب «بلال» للنبي وقال: يا رسول الله، عمر بن الخطاب بالباب.. فقال النبي: إن يُرد الله بعمر خيرًا أدخله في الدين، افتَح له.. ففتح له «بلال»، فأمسك «حمزة» بعمر مسكَة شديدة وأمسك به رجل آخر من المسلمين، وأدخلوه إلى رسول الله، فقال لهم النبي: خلوا عنه.. ثم قام له النبي وأخذ بمجامع قميصه وجذبه إليه ونظر في عينه مباشرة وقال له: ما الذي تريد؟ وما الذي جئتَ، فوالله ما أرى أن تنتهي يا عمر حتى ينزل الله بك قارعة.. قال «عمر»: أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله.. فكبَّر كل الذين كانوا في الدار، وضرب النبي صدرَ «عمر» وقال: اللهم أخرج ما في صدره من غل وداء وأبدله إيمانًا..

وحضرت الصلاة.. فاصطفَّ المسلمون في الدار صفًا، وصلى بهم رسول الله، فلما فرغوا، قال له «عمر»: يا رسول الله، ألسنا على الحقِّ إن متنا وإن حيينا؟ قال: بلى والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم.. قال «عمر»: ففيمَ الاختفاء؟ لِم لا نصلي عند الكعبة؟ والذي بعثك بالحق لتخرجن الآن.. فأخرجَهم في صفين من الدار، وقف «عمر» على رأس صَف، و«حمزة» في رأس الصف الآخر، وكان عددهم أكثر من ثمانين رجلًا، ورسول الله في المنتصف في مقدمتهم، وكان مشهدًا مهيبًا فاخرًا يشع بالقوة، وبخاصة لما دخلوا الحرَم ووقفوا وصلوا صلاتهم الأولى الجماعية عند الكعبة وحولهم أصنام لا حدَّ لكثرتها، ولم يجرُؤ أحد من قريش أن يعترض.

وتبسَّم «عمرو بن جابر».. لقد أعزَّ الله المسلمين بعُمَر، بدعوة النبي الهادي، وحفظ الله المهاجرين في الحبشة، بدعوة النبي الهادي، وأصابت الكافرين كآبة عظيمة لما رأوا ذلك المشهد، وكان «إزب» ينظر بغِل، و«عمرو بن جابر» يرقبه في ظفر.

ولكن «عمر بن الخطاب» لم يسكُت عند هذا.. بل ذهب مباشرة إلى «أبي جهل» في بيته، وكان «أبو جهل» خاله، فقرع «عمر» الباب بشدة، فخرج «أبو جهل» وقال: مرحَبًا بابن أختي، ما الذي جاء بك؟ قال له «عمر»: أعلمتَ أني قد أسلمتُ لله ولرسول الله؟ قال «أبو جهل»: أوفعلت؟ قال «عمر»: نعم.. فدخل «أبو جهل» وضرب الباب في وجه «عمر» وهو يقول قبَّحكَ الله وقبَّح ما جئتَ به.

لكن «عمر» لم يسكُت عند هذا، بل ذهب إلى ذلك الرجل الذي من بني زهرة، ذلك الذي كان ينقل الأخبار، وقال له: إني قد أسلمت، فأنبئ أهل مكة كلهم، ولينتهوا عما يفعلوا بالمستضعفين من المسلمين.. فانطلق الرجُل وكان يبدو أن هذا هو أهم خبر في حياته ينقله، فمشى في شعاب مكة وهو يصيح: يا أهل مكة، لقد صبأ عُمر بن الخطاب، لقد صبأ عُمر.. والناس يخرجون من أبوابهم ينظرون إليه، و«عمر» ماش وراءه ويقول: كذب، بل أسلمتُ وكفرتُ بأحجاركم.. ووصل الخبر إلى أعالي القوم، فجاء الأخوان الثريان الخبيثان، «شيبة بن ربيعة» و«عتبة بن ربيعة»، التوأمان، توأمان من عليَة القوم وتوأمان من أسوأ القوم، فوثبا على «عمر بن الخطاب» وثبَة رجُل واحد!، وتشجَّع بقية الرجال فهجموا على «عمر» هجمة همجية كهمجية عرب الصحراء.

تخلّص «عمر» ممن نشب فيه وقفزَ على «عتبةِ بن ربيعة» وجعل يضربه ضربًا شديدًا، ثم أدخل اصبعه في عين «عتبة» إدخالًا أدمى له عينه وأفسدها، وأخذ «عتبة» يمسك عينه ويصيح، فانتقم «عمر» من «عتبة» مما فعله بأبي بكر سابقًا، وبقى الناس يضربون «عمر» ويضربهم «عمر»... لكن كثرتهم بدأت تغلبه، وقاموا على رأسه حتى كادوا يقتلوه، حتى أقبل عليهم شيخ من قريش عليه حلة ثمينة، فتنحّى الناس عنه، قال لهم: ما شأنكم بعمر؟ قالوا: قد صبأ.. قال: ومه؟ رجل اختار لنفسه أمرًا فماذا تريدون؟ أترون قبيلته بني عدي سيُسلمونه لكم هكذا؟

كان هذا هو خال «عمر» الثاني.. رفع يده وقال: ألا إني أجرتُ ابن أختي فتكشّفوا عنه.. وكان الرجل شريفًا في القوم، فتنحى الناس عن «عمر»، فنظر إليه «عمر» وقال له: جوارك عليك رد، فقل ما شئت.. وأمسك «عمر» بأقرب رجل له وشجّ له رأسه فتعاون عليه الناس فضربوه وضربوه حتى أدموه وأسقطوه على الأرض زاحفا في دمائه، وانطلق القوم يُحضرون سيوفهم ليقطعوا رأس «عمر»، وأبقوا بعضهم عنده يحرسونه، وقام «عمر» فجأة كالمارد فشدّ قدم أول رجل بجواره فأوقعه، ثم قام يمسح دماءه وضرب الناس من حوله ثم ركض إلى ناحية بيته، فدخله ومكث فيه وقد أصابه شيء من الخوف، فالقوم آتين عليه متكاثرين بأسيافهم.. ثم طرق الباب طرقة خفيفة، ففتح «عمر»، فإذا رجل غني من أسياد القوم؛ «العاص بن وائل» سيد بني سهم، ذلك الذي دخل على «خباب» في متجره وتخاصم معه أمام «أم أنمار»، كان يرتدي قميصًا مكفوفًا بحرير، لم يك «عمر» يدري بأمره مع «خباب» ولا بتعذيبه لابنه هشام بن العاص، نظر له «العاص بن وائل» وهو غارق في دمائه وقال له: ما بالك يا فارس قريش؟ وكان مُعجبًا بعمر وبفروسية «عمر». قال «عمر»: زعم قومك أنهم سيقتلوني.. قال «العاص بن وائل»: لا سبيل إليك.. فخرج العاص من منزل «عمر» ونظر إلى جَمع غفير من الناس قد أتوا بأسيافهم حتى ملأوا الوادي، قال لهم: ماذا تريدون؟ قالوا: نريد هذا ابن الخطاب الذي صبأ.. قال: لا سبيل إليه، قد أجرتُه.. وكان «العاص بن وائل» شريفًا مشرفًا في القوم له صيت وجاه، فأنزل القوم أسيافهم وانصرفوا عنه، وأصبح «عمر» في جوار «العاص بن وائل».

«إزب بن أزيب»، أصابته سكتة الكمد.. لا يزال المسلمون أعزة منذ أن أسلم «عمر»، يمكنهم أن يُصلوا إذا شاؤوا جهرًا عند الكعبة طالما «عمر» يصلي معهم، وفي ذات ليلة من مساء بهيج، جاء المسلمون كلهم وقد بلغوا المائة، ووقفوا صفوفًا صفوفًا عند الكعبة وتقدمهم رسول الله، ينظرون إلى ناحية بيت المقدس ويجعلون الكعبة أمامهم كما كان يُحب أن يفعل رسول الله، وفيهم «عمر» وفيهم «حمزة»، وحولهم الأصنام تنظر، والمشركين ينظرون، والملائكة، وإزب... و«عمرو بن جابر» اصطفَّ وحده في الجوار، وفي وسط كل هذا رفع النبي يده بكلمة قالها عالية: الله أكبر.

صلاة جهرية جامعة.. وكان يومًا لن تنساه مكة، وبعد الفاتحة تلا رسول الله آخر الذي أنزل عليه، ورتَّله رسول الله ترتيلًا وتغنى به تغنيًا، وكان الحبيب ذا صوت مجيد له بحَّة، إذا خطب بجهر يسمع المتجاورون للبيت، وإذا تحدَّث فُتحت له المسامع حتى أسمع العواتق في خُدورهن، وفي تلك الليلة، قالها رسول الله جاهرًا بها:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾.

وتنبَّه المشركون وطالت أعناقهم وتوجهت أسماعهم وأنظارهم إلى «محمد»، وكل من وأدَ موؤدة نظر، و«محمد» يتلو ويتلو..

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ * وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾.

والمسلمون من ورائه يتذكَّرون ما كان من أفكارهم وأضلالهم.. وتلا «محمد» وتلا..

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾.

وتزاحم من لم يكُن هنالك مع من كان هناك، وكان كثير ممن حضر ينظر بشرود إلى ذلك المشهد وصفوف «محمد» أكتافًا بأكتاف عاقدين أذرعهم على صدورهم..

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ * وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾.

فوقع في قلب بعضهم شيء من الوجَل، و«محمد» صوته بها يعلو إلى أفئدتهم..

﴿مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ * أَزِفَتِ الْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ * أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَامِدُونَ * فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾.

فسجدَ المسلمون من فورهم صفا صفا.. وسجد من تأثّر، وسجد من تأثّر بمن تأثر، وسجد الهينة قلوبهم، وسجد القاسية قلوبهم، وسجد المشركون، وسجد «عمرو بن جابر»، وبقيَت الأصنام واقفةً لا تدري من أمرها شيئًا، واحمرّت عين «إزب» فصارت كالأجرام، احمرت واجمرت تلابيب قلبه، وفمه فاغر بأسنان كأسنان القرش، وأقسم، وأقسم بعزة «ابن أزيب» ليفعلنَّ شيئا مُنكرًا.

تحيَّر الساجدون من الكافرين كيف سجدَت أفئدتهم ورؤسهم!، ونظروا إلى بعضهم، ولم يكونوا آمنوا حتى مثقال ذرة، بل قلوبهم عاتيَة ووجوههم، لكنهم لما سمعوه ببلاغته وطلاوته، بجمال صوت «محمد»، وبقوة صوت «محمد»، نزلوا على وجوههم ساجدين، وتلاوموا وتحادثوا، أن الناس قد رأت وأن الناس ستُخبر الناس، فجاء لهم رجل ملثّم، لا يعرفه أحد، ولم تكن عيونه تشي بمظهر حسن، لكن الليل كان يُخفي هذا، قال الرجل: إنما سجدتُ لأني سمعتُ محمدًا يقول، أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجي.. نظرُوا إليه بحيرة ولم يكن أحد قد سمع شيئًا من هذا، قال أحدهم: ما سمعتُ هذا من محمد، إنما سمعته يقول: ألكم الذكَر وله الأنثى.. أصدرَت عيون الرجل تعبيرًا ساخرًا لئيمًا، وقال: إن لم تقولوا هذا أكلتكم العرب، وما أدراهم إذا لم يسمعوا هنا ويشهدوا.. قال أحدُهم له: من الرجُل؟ نظر له الملثّم وقال بثقة: «إزب»، «إزب بن أزيب».

انصرف الرجُل وقد ألقى إليهم ما يكفي.. ونظر بعضهم إلى بعض والظفر قد زار عقولهم لما تفكروا في كلام ذلك الرجل، وتلاهوا بالتناقش ولم يلحظوا حتى اسمه وغرابته، وأصبحوا يُرددونها من بعده ويكذبون على رسول الله، يقولون إنما سجدنا لأننا سمعنا محمدًا يُمجّد آلهتنا، وإنا ظننا أنه عاد إلى رُشده، ومهما حلفَ المسلمون أن قرآنهم ليس فيه هذا وأن الآيات السابقة والتالية تنفي مثل هذا، إلا أن قريشًا أصبحت تلوك أن محمدًا يُغيّر القرآن على هواه.

أما «إزب» الملثم، فقد كان في لحظات بين قوم ذوي بشرة سوداء وثياب زاهيات، في الحبشة، وبين قلة من المسلمين المعسرين، وقف رجل ادعى أنه مُسافِر رحالٍ، وأنه مرَّ بمكة ورأى المشركين قد سجدوا جميعًا وراء رجل يدعي أنه نبي، فتبشرت قلوب المسلمين واستقصوا وتقصوا الأخبار من المسافرين، فأكد لهم أكثر من فرد، أن المشركين قد سجدوا بالفعل، وقالوا بعضهم لبعض: إن الله قد أظهر نبيه، ولا حاجة بنا أن نكون هاهنا، فلنكن إلى جوار الحبيب المصطفى.. وجهزوا أمتعتهم وانطلقوا عائدين، بعد عدة شهور فقط من وصولهم، عائدين إلى مكة، ووراءهم وجه يضحك ويسخر، لقد وعد أن يُعيدهم إلى معذبيهم، ولقد أوفى بوعده، واستبسم تلك البسمة التي صارت طبعا لوجهه، بسمة «إزب».

أحدثكَ بأمر الجن، وأحدِّثكَ بأمور في الزمان، ولستَ تدري بعد لِمَ أحدثك!

إنه لا يحق لأمثالك السؤال، وإذا تجاوز وسألَ من هم أمثالك فلا يحق لهم أن يعرفوا الإجابة، حتى نشاء نحن!..

أنتُم عبيد، تُساقُون وتؤمَرون، وأنتَ عبدي الذي بذلت من كرامتك الكثير حتى آتيك وأعلمك..

أنت عبدي الذي أعدّه وأهيئ له الأمر؛ العبد الذي سيكون السيد على أديم هذه الأرض، تعلَّم يا عبدي تعلَّم..

اقرأ الذي أقوله لك وإن كنت في شك منه، فاسأل وتحقَّق وتيقَّن من كل كلمة حدثتُك إياها، تأكَّد من كل كلمة قرأتها، تحقق كما يجب أن يكون التحقُّق، اقرأ فأنت العالي على كل من عداك، أنت عبدي.

تريد أن تراني فتعلَم أنني العالي، أظلِم المكان الذي أنتَ فيه ظلامًا أسود، واجعل نورًا يُضيء وراء رأسك، وارفع كتابك هذا أمام وجهك، وانظُر إلى ظلِّي.

ظام سيدك.. ظام حسيبك... ظام إمامك... وظام ربك....

تعلَّم كل الذي أقوله لك، وتصفَّح فقط كل ما له به صلة.

لقد تخيَّرتُ لك قطعةً واحدة من قطع الإيستوريجا، ولستَ تدري ما هو السبب!

هذه القطعة الواحدة هي القطعة من الزمان التي انقلبَت فيها الدنيا على رؤوس الجميع؛ الجن والإنس...

انعكس فيها القانون السحيق..

طلع فيها نفَر من الجن، أعانوا نفرًا من الإنس..

تحالفوا وتآلفوا، وتعاهدوا واتحدوا..

ما كان تحالفهم تحالُف سحر ولا تسخير..

بل تحالُف من نوعٍ آخر، تحالف على الموت..

وفي ذروة انتظام الزمان، أخرجوا في الجن عقيدة، انقلب لها وجه الزمان..

أسماءٌ من الجن خرجوا فغيّروا خريطة عقائد الجن..

فآمن بهم الكافر وكفرَ بهم المؤمن، كل من كان كافرا بلوسيفر آمن بهم، وكل من كان مؤمنًا بلوسيفر كفرَ بهم..

أسماء من الجن كانوا ملائك، نزلوا من نصيبين فغيّروا وجهَ تاريخنا بأكمله..

وإن كان كل ما قرأته لا يزال تمهيدا لهم وتعريفًا وتصديرًا، فإن نزولهم يكون في القطعة التالية.

(١٤)

نفر من الجن
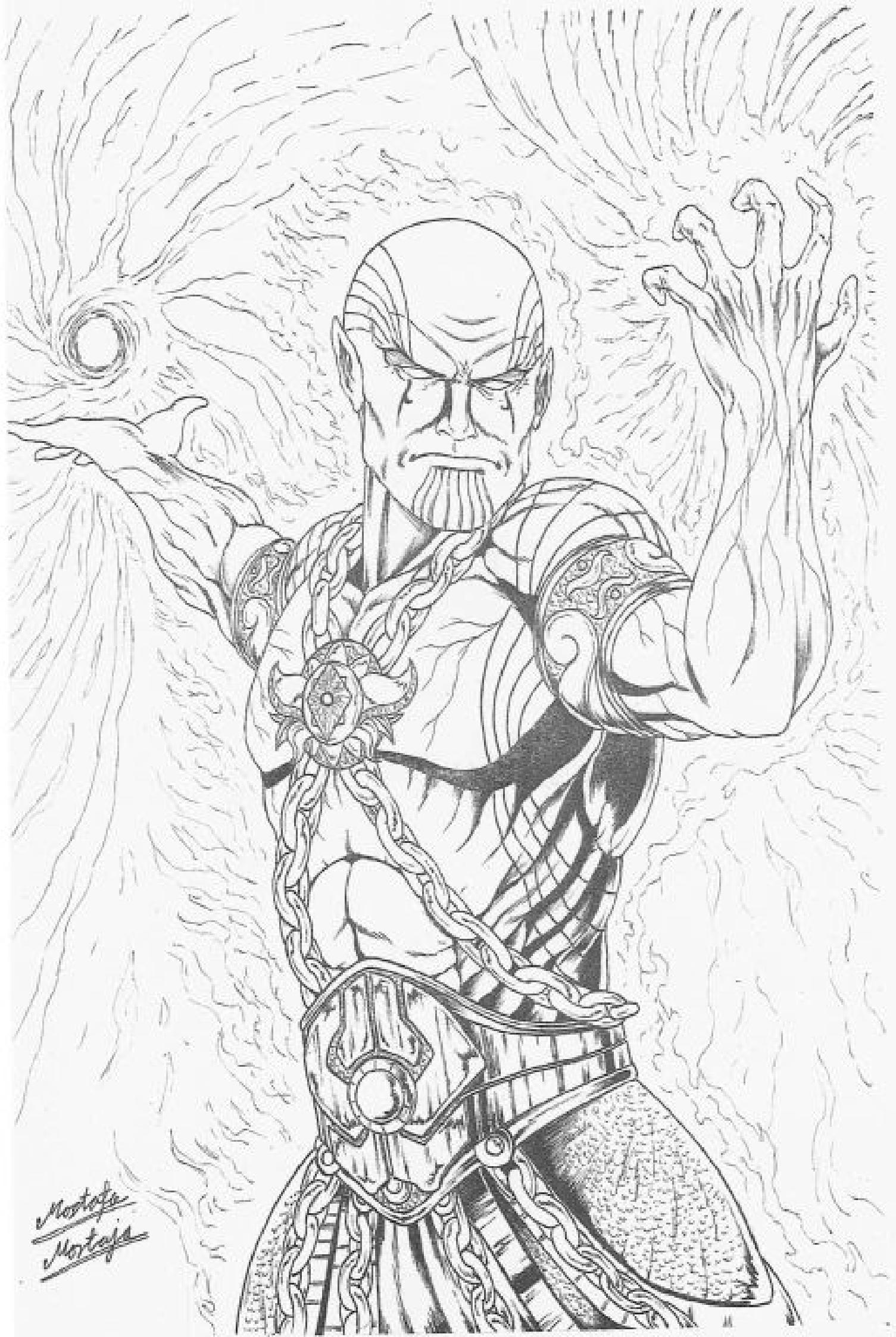
تكسَّر فكه، وتصاعد ألمه وغله وحقده، ما كان يقدر على الكلام وهم رابطوه ومقيدوه في محبسه بالجوداكيولا بلا ذنب، حاكموه وحكموا عليه بالسجن فيها مدى الحياة، قد أقسم وحلف يوما أن يحصل على المجد وحده، لكن القدر وضع «بليعال» في وجهه، بل وضع قبضة «بليعال» في وجهه، لكن «طيفون» لم يسكت، منذ الليلة الأولى التي دخل فيها هذا المكان الرزي كتب بيده وثيقة فيها كل ما رآه وكشفه، عن النبي وأصحاب النبي، لكن واحدًا من الحرس أخذ وثيقته تلك ونظر إليها باستهزاء ثم أحرقها في ثانية بلهيب سلاحه، بل إنهم أخذوا منه الحبر والقلم، وتركوه يفور، ولما غضب وتلهب وأفرزت عروقه النيران كبَّلوه بالسلاسل غير عالمين أن السر الذي يوَدّ أن يقوله هو السر الذي يبحث عنه جميع مؤتلف الجن في تلك الأيام.

رموه مسجونًا مدحُورًا فيها لا يقدر حتى على الكلام.. وفي ذات ليلة، بعد سنوات خمس، فعل شيئًا عضالًا، مرَّ عليه الحرس في تلك الليلة فوجدوه مُستلقيًا على الأرض مستنزفًا دماءه مقطوعة سلاسله بطريقة توحي بأنه قطع إحدى يديه بالسلاسل، وكلمة كبيرة مكتوبة بدماء الجن على جدار زنزانته، (مللتُ من سلاسلكم الباردة، لقد وجدتُ النبي، هذا ما حاولتُ قوله، لكن أحدا لا يسمعني، وإن مت هنا فسيموت سري معي).

توتَّر الحرس واهتموا.. فلقد كان مجتمع الجن كله يتحدَّث في أمر ذلك النبي الذي خرجت قوافل من الجن تبحث عنه ولم تجده، حتى ظلنت أنه رجل من ثقيف يدعى «أمية»، لكن «أمية» هذا مات بعد سنين من طوفان الجن حوله، حتى يئس الجن كلهم وعادوا إلى مواقعهم، ولم يكن الحرس فقط هم من رأوا الكلمة المكتوبة على جدار «طيفون»، بل كانت «ماسا» تقرأها في نفس لحظة كتابته لها، فإن زنزانتها مقابلة له، وعلمت أن كلمته هذه ستقلب الدنيا.

وأتاه في ذلك اليوم كبار الكبار من الحرس.. وأخرجوه من زنزانته، وعالجوا جميع جراحه، ووضعوه في وسط مسرح الجوداكيولا، وتنزَّلت أنوار الحكماء وجلسوا على مقاعدهم ليسمعوا منه، وأعطوا «طيفون» ورقة وقلما، فكتب فيها

بكلمة كبيرة جدا. (لن أتحدَّث إلى مخلوقٍ منكم إلا إلى سيدي «لوسيفر»).

وجنَّ جنون أولئك الجنون.. ونظر بعضهم إلى البعض، ثم عهدوا بالأمر إلى كبرائهم، ومن كبرائهم إلى البحر، ومن البحر إلى الجزيرة، جزيرة الأهرام، عرين النور. هنالك قام «لوسيفر» من مقامه فور أن علم الخبر. كان يعلم أن نبيًا قد بُعث، لكنه لم يكن يريد أن يُصدق، وعلى قدر لهفته لمعرفة الخبر، على قدر همّه وغمه، على قدر أن هذا يعني استرجاع جميع أيام الكفاح والوغى.

وانبعث الأكابرِ من الجن، ووجد «طيفون» نفسه محاطًا بنوع من الجن لم يكُن يعلم أنه أصلاً موجود، ثم دخل عليه الأمير نفسه. الأمير القديم قدم هذا الزمان، الذي بلغ من جبروته أنه أخرج آدم وحواء من الجنة، وأفسد عقائد العالمين، وفور أن رآه «طيفون»، بوجهه الذي يتحدث عن عراقته وعن ذكائه وعن وسامته الغريبة، ارتعدت أواصل «طيفون» ومدَّ يده الراجفة إلى الورق، وكتب «طيفون» بناره وخوفه كل شيء: كتب عن النبي ونسَب النبي، وبيت النبي وأصحاب النبي، ونظر إلى عين «لوسيفر» وهي تقرأ فإذا هي قد استحالت بيضاء كلها، بيضاء تتألق بالكراهية، وأصدر عندها كثيرا من الأوامر.

أمر أن يعود اجتماع وفد نصيبين كلهم وينزلوا أجمعين، ومعهم «طيفون» ذو الفك المكسور يدلهم على الطريق، ومعهم تلك المسجونة من كاشياري، «ماسا هارينا». فيستوثقوا من ذلك الخبر، فإن علموا النبي ورأوه وتأكَّدوا من علاماته، فإن عليهم ألا يفعلوا أي شيء، وإلا قتلهم مكانهم.. لا يحاولوا الاحتكاك به أو بأتباعه ولا يؤلبوا عليه أحدًا ولا يغوُوا أحدًا. فأمثال هؤلاء الأنبياء الذين يمشون في الناس بالكذب، لا يكافئهم أحد من الجن، بكل الأسحار التي يصنعونها وكل مهارة اللسان التي تكون لديهم، لا يكافئهم إلا نبي رسول أمير حق، لا يكافئهم إلا «لوسيفر»، ولقد عمل حتى أفسد على كُل الأنبياء رسالاتهم. أما هذا الذي ظهر في هذا الزمن، فلينزلن له بنفسه «لوسيفر»، فليشعلن الدنيا فوق رأسه حتى يقتله، ويقتل معه رسالته الكاذبة، وإن نجا فلن ينجو أتباعه.

وأُخرجت «ماسا» من سجنها، وأُخرج «طيفون».. وحضر «الأرقم» و«إنيان»، وجاء «سيدوك» بسواد وجهه، و«بليعال» بكل غموم روحه، وكان قائدهم «ميتاترون»، كبير وزراء «لوسيفر»، لكنهم كانوا قد تأخروا كثيرًا جدًا، خمس سنوات مضت منذ إسلام «عمر بن الخطاب»، خمس سنوات كاملة بكل أحداثها وخطوبها.

ولم تمض غمضات عين حتى كانوا عند جبل النور في شمالي مكة.. ماشين إلى أبطح مكة سبعة متجاورين تضيء عيونهم حتى حطت أقدامهم في بكة، وهي الأرض من مكة التي بني عليها البيت العتيق، وعلى تلك الأرض المباركة، صرخت «ماسا»، أمسكت رأسها بكلتا يديها وصرخت، فتجمد لصرختها كل من كان في نطاقها من الجن والهوام، ونظر إليها أصحابها في ترقب، فصرخت مرة أخرى.

لمحات كانت تأتيها كومضات و مشاهد ..تحكي ما حدث منذ خمس سنوات، رأت الكعبة والأصنام حولها، وصحيفة مُعلقة في داخلها بعناية، تشوشت المشاهد ثم عاد صفاؤها وشاهدت من خلالها كلمات الصحيفة كأنها تومض..

(باسمك اللهم، هذا عهد من جميع قبائل مكة على أنفسها أن تقاطع بني هاشم، فلا يُزوّجونهم ولا يتزوجوا منهم، لا يبيعون لهم ولا يشترون، ولا يكلموهم أو يدخلوا بيوتهم، حتى يسلموا لهم محمدا ليقتلوه).

ومضة أخرى أخذتها إلى رؤية مكان شديد الفقر؛ ليس لفقر ساكنيه بل لأن كل القبائل قد قاطعته، ثلاث سنوات كاملة، لا يسمح لأهله بشراء أي طعام أو ملبس، مكان اسمه شعب بني هاشم، منطقة أملاك وبيوتات بني هاشم.

هكذا قرّرت قريش.. بعد أن فشلت كل الأذية والتعذيب مع المسلمين فشلا ذريعًا، فما عذبوا مسلمًا واحدًا ورجع عن دينه، شريفًا كان أم مستضعفًا، بل تزايد عدد المسلمين كل يوم بشكل خطر، حتى بدأ أبناء كبار قريش يدخلون الإسلام؛ مثل «أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة» و«أم حبيبة بنت أبي سفيان».. بدأ الإسلام يغزُو بيوتاتهم!؛ فاتخذت قريش قرارًا بالإجماع، مقاطعة بني هاشم ماليًا ومعنويًا وتجاريًا حتى تجف منابعهم ويُسلموا محمدا للقتل.

شاهدت «ماسا» في رؤياها أناسًا يُهرّبون الطعام تهريبًا تحت ذراعهم إلى داخل ذلك المكان الذي قاطعته القبائل، شعب بني هاشم، ثم أخذتها الرؤيا إلى مشهد خارجي للشعب، وبكاء الأطفال يُسمع من داخله، قد كاد يقتلهم الجوع!، ورأت رجلا يركع إلى كسرة خُبز قديمة على الأرض فيحثو التراب من عليها ويأكلها، وكانت صيحات الألم والفقر تدوي من جنبات كل شيء.

دخلت «ماسا» إلى الشعب وهي تبحَث عن رسول الله ﷺ في كل مكان قبل أن تغتم الرؤيا وتأخذها إلى مكان آخر.. بحثت وبحثت حتى دخلت إلى بيت «أبي طالب» من بابه المفتوح، وكان الليل في آخره، فرأت «أبا طالب» مستيقظا يمشي بهدوء إلى غرفة في البيت والظلام حالك، فيدخل إلى غرفة ابنه «علي بن أبي طالب» فيوقظه، ثم يمشي معه، حتى يصل إلى غرفة أخرى.. نبضت الأجواء حول «ماسا» نبضًا شديدًا لما وصل «أبو طالب» وابنه لتلك الغرفة، فإن فيها رسول الله، دخل «أبو طالب» وأوقظ النبي وأخرجه من الغرفة، وجعل «أبو طالب» ابنه «علي» ينام مكان النبي، حتى إذا كان أحد يرقُب محمدًا ليقتله، لا يظفر به أبدًا بل يظفر بابنه «علي بن أبي طالب»، كان هذا بالاتفاق بين «أبو طالب» و«علي» الكريم المكرم لحماية رسول الله، حاولت «ماسا» شوقًا وتوقًا أن ترى رسول الله لكنها لم تستطع أبدًا، لإظلام ذلك المكان.

أصاب الصداع صدغ «ماسا»، وأخرجتها الرؤيا من ذلك البيت، فأصبحت تمسك برأسها وهي تمشي بلا وَعي ناحية الكعبة، ثم فجأة رأت قوافلا من النمل الأبيض تضيء في الرؤيا فتتبعَتها بعينها حتى وجدتها قد دخلت إلى بطن الكعبة وبدأت تأكُل أجزاء تلك الصحيفة ولم تترك منها إلا جزءًا واحدًا، الكلمة الأولى.. باسمك اللهم.

وقفزَ المشهد بها فجأة إلى القوم يمسكون بالصحيفة المأكولة وينظرون إليها في حيرة.. واحتدَّ فيها نقاشهم، إنا يا قومنا قد أسأنا إلى بطن من بطون قريش في سابقة ما فعلتها العرب من قبلنا، فإنا نأكل ولا يأكلون، حتى جعلناهم يأكلوا أوراق الشجر ويربطوا الحجر على بطونهم، وإنا نرى أن نرفع هذا الحصار.. وتزايدت صيحات الموافقة وتناقصت صيحات الاعتراض، ولم يلبَث أن اتفقوا على أن يُنهوا ذلك الحصار الذي دام ثلاث سنوات من الألم، وانتهت ومضات «ماسا» بهزَّات يد تمسك بكتفها في قوة، كان يد «الأرقم» الذي ينظُر لها في تساؤل وشعره الأحمر ينسدل خلف رأسه .

نظرت إليه من وراء ذهولها ثم وجَّهت رأسها ناحية جبل من الجبال القريبة وقالت:

- إنه هناك، الرسول هناك، تحت جبل أبي قبيس، في شِعب بني هاشم، في بيت عمه أبو طالب.

ومشَت ومشى الجن وراءها.. وتشكلوا على هيئات بشرية وتطوفوا ببيت «أبي طالب» فلم يجدوا لمحمد أثرًا.. ثم مشوا في شِعب بني هاشم ينظرون في وجوه الناس، أين «محمد» من وجوهكم. أمسكتَ «ماسا» برأسها وجاءها نذير الصرخة، فوضعت يدها على فمها وكتمت صرختها حتى لا يتجمَّع حولها الناس الذين صاروا يرونها ويعجبون، وانتقلت إلى عالم المرائي فرأت لقطات، حدثت منذ سنتين فقط، لاح فيها ظهر رجل لا يتبين لها وجهه، عريض المنكبين طويل الشعر، ورجل آخر يكلمه من حكماء القوم ويقول له:

- يا بن أخي، إنك منا حيث قد علمتَ من المنزلة في العشيرة والمكان في النسب، إنك قد أتيتَ قومك بأمر عظيم، فرَّقت به جماعتهم وسفَّهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم.. يا بن أخي يا «محمد»، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً.. وإن كنت تريد به شرفًا سَوَّدْنَاك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به مُلكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئيًا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه.

وسمعت «ماسا» محمدًا يقول له بهدوء :

- أقد فرغتَ يا أبا الوليد؟

قال الرجل: نعم.. فقال له «محمد» بثبات :

- فاسمع مني .

ثم تشوَّشت الرؤيا في عين «ماسا» وجاهدت لترى وجهه أو تسمع لقوله، لكن الرؤيا قد ذهبت ثم عادت تأخذها لذلك الرجل الذي كان يُكلِّم «محمد»، وهو من عليَة القوم، شاهدته «ماسا» يهرع مفزوعًا إلى قومه بعد الذي سمعه من «محمد»!، فلما رأوا وجهه قال بعضهم: نحلف بالله لقد جاءكم عتبة بن ربيعة بغير الوجه الذي ذهب به.. قالوا: ما وراءك يا عتبة؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط؛ والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش خلوا، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فإن تُصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به.. قالوا: سحرَكَ والله يا عتبة يا بن ربيعة بلسانه.

وأفاقت «ماسا» والجن من حولها ينظرون إليها.. فنظرت إليهم بنظرة تائهة فتركوها وانطلقوا يسألون الناس عن «محمد»، وكانت جوابات الناس كلهم أنهم لا يدرون أين هو، وظل الجن يوما كاملا يسألون عنه في بيته وشعبه وفي شعاب مكة كلها ولا يجدونه.

أما «ماسا» فكانت تمشي ناحية بيت معين وعينها شاخصة إلى اللاشيء: بيت «أبو طالب»، كانت ترى فيما تراه في رؤيا تداخلت تداخلا عجيبًا مع ما تراه عينها في الحقيقة، كانت الحقيقة أنها تتجه إلى بيت «أبي طالب» ولا أحد حوله، لكن رؤياها أظهرت لها رهطا من أكابر قريش دخلوا «على أبي طالب» الذي كان راقدًا مريضًا مرض الموت، دخلوا عليه حتى ملأوا غرفته فلم يجعلوا فيها موضعًا لقدَم، فباشروه بقولهم :

- يا أبا طالب، لقد حضرَك ما ترى من المرض، ولقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، ولقد فشا أمره بين القبائل كلها، ولقد أسلم له حمزة وعمر، فأصبح يُعلن بالكلمة ولا يسر بها، فادعُه ليكُف عنا ونكُف عنه وليدَعنا وديننا وندَعه ودينه .

فبعث «أبو طالب» لابن أخيه «محمد» فجاء فلم يجد موضعا لقدم في الغرفة فوقف عند الباب، فنظرَت «ماسا» في رؤياها إلى حيث يقف فلم يتبين لها من وجهه شيء!، لم ترى إلا زحام الأجساد!، لكنها سمعَت «أبا طالب» يقول له:

- يابن أخي هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك ويأخذوا منك.

فقال له «محمد»:

- أي عَم، أولا أدعوهم إلى خير لهم منها؟

نظر الكل له وهو يُكمل :

- كلمة تَدِينُ لهم بها العرب ويملكون بها العجم.

قال أحدهم وكان «أبو جهل»:

- ما هي وأبيك؟ لنُعطِيكَنَّها وعشرا أمثالها.

قال لهم «محمد»:

- أن تقولوا لا إله إلا الله.

فنفروا وقالوا: عجبًا لك أتجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ إن هذا لشيءٌ عجاب.. فتفرقوا وقاموا وهم ينفضون ثيابهم غضبى.

أيقظ «ماسا» من سباتها سماعها للجن يتحدثون قريبًا منها.. وقد كانوا على هيئاتهم البشرية يبدون كقوم من الأغراب، يلبسون عمائم العرب وتظهر من تحتها شعورهم، فأحدهم أحمر الشعر والثاني أصفره، ولربما ظنهم أهل مكة تجارًا آتين من بلاد بعيدة لأجل سوق عكاظ الذي قد اقترب أوانه.. قال «إنيان» الذي كانت هيئته البشرية ذات شعر أصفر مرفوع جميل:

- إن بعض جوابات القوم عن «محمد» تختلف عن البعض الآخر، وكأنهم يخفون أمره، ما هو في بيته عند زوجته ولا هو في بيت عمه.

قالت «ماسا»:

- إني رأيتُ قبيلته بني هاشم محصورين في هذا الشعب ثلاث سنوات وقد مُنع عنهم كل طعام وشراب وتجارة، حتى أكلوا أوراق الشجر، برغم أن قبيلته لم تكن تؤمن به كلها، لكنهم حاصروا الجميع.

قال «الأرقم»:

- لا يبدو أن هذا مستمر الآن، فإني أرى حالهم اليوم قد تحسن.

قال «إنيان»:

- إن ذلك الحصار قد تم رفعه منذ أمد قريب، فإني سمعت بأذن الجن القوم يذكرون الحصار ويتحدثون عنه، لكن محمدًا ليس هنا، هذا واضح، برغم أن أصحابه هنا وأهله هنا.

وهنا أتت على «ماسا» صرخة لم تستطع كتمانها.. فانتبه لها بعض القوم واجتمعوا ولكن الجن كان حولها بهيئاتهم الآدمية طمأنوا من أتى وذكروا أن بها علة من مرض.. وكانت «ماسا» مُستلقية بين ذراعي «الأرقم» استلقاء المغشي عليه، وإن عيناها كانت ترى شيئًا آخر!

كانت تَرى فيما يرى النائم نفسها وهي تمشي في نفس هذا الشعب قبل عدة أشهر فقط، وهي في هيئة الجن، والناس من حولها يأتون ويروحون في أحوالهم، حتى رأت بعض الناس قد وقفوا أمام بيت «أبو طالب» وكأن بداخله

خطبًا ما، ولأن الجن لا يقدرون على فتح باب مغلق أو العبور عبر جدار، فلقد التصقت بجدار أبو طالب وأرهفت سمعها، والجن أسماعهم أقوى من البشر، كانت تريد أن تسمع ما يدور داخل ذلك البيت، كانت تسمع بكاءً مكتومًا من أهل البيت!، وكأن «أبو طالب» قد حضرته الوفاة، ولقد ميَّزت صوت «محمد» وهو يقول له:

- يا عماه، قُل لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله.

وأرهفت سمعها أكثر لتسمع ما قد يقوله «أبو طالب»، الذي ميزت صوته وهو يقول من بين إعيائه :

- لولا أن تعيرني قريش، يقولون ما حمله عليها إلا جزعه من الموت لأقررت عينك يا بن أخي .

وسكت وظل ساكتًا وطال سكوته.. ولقد أيقنت أن روحه قد فاضت لما اشتد البكاء من أهل البيت، وان أجواء رؤياها قد أصبحت تنبض من الحزن وكأنها تتصدع، فلقد عرفت من حديث الجن أن «أبا طالب» كان شديد المحاماة والمحاجاة والممانعة والدفاع عن «محمد» وعن أصحابه، وفي غالب الأمر إن الحصار قد أنهكه وأهلكه حتى خرج منه مريضًا مرض الموت، لقد عاش مسلمًا وأخفى إسلامه دفاعًا عن «محمد» وحفظًا له، ولقد أتاه «محمد» يُلقّنه الشهادتين قبل أن يموت كما يلقن أي مسلم؛ قال له: قل تلك الكلمة حتى أحاج ربي بقولتك إياها فيمحوا لك بها أي ذنب في حياتك.. لكن ذلك كان في حضور «أبو جهل»، لم يفهم «أبو جهل»!، ظنَّ أن محمدًا يحاول أن يجعل «أبو طالب» يسلم ويدخل في دينه، لم يفهم أنه لو كان كما يظن ما احتاج «محمد» أن يقول له (أحاج لك بها عند الله)، لم يفهم أن الكافر لو قال كلمة الشهادة في آخر لحظة من حياته، لا يحتاج لأن يحاج ويناقش له بها «محمد» عند الله، بل الكافر لو قال كلمة الشهادة ستمحو له جميع كفره وذنوبه وتدخله الجنة طاهرًا من ذنوبه غير محتاج إلى محاجاة ومناقشة أحد مع الله، لكن مشكلة «أبو طالب» وذنبه أنه استعظم أن يتشهد أمام «أبو جهل» لئلا تعيره قريش وتقول أنه خائف.. وكان هذا في الإسلام ذنبًا، أن تُفضِّل نظرة الناس لك في الدنيا على ضمان مصيرك في الآخرة، ولقد استحق «أبو طالب» بسبب هذا الذنب العذاب في النار، لكنه بشفاعة النبي فيه سيكون أخف المسلمين الداخلين إلى النار عذابًا.

بدأت أجواء رؤيا «ماسا» تتصدع أكثر.. حتى ركضت بعيدًا عن ذلك البيت، و لبثت تركض بلا هدى في ذلك الشعب حتى أجاءها المسير إلى جدار بيت «محمد»، فسمعت صوتًا جعل عينيها تتسعان، هذا الصوت لم تكن تسمعه إلا في السـ... توقفت أفكارها لترهف سمعها، كان الصوت يقول :

- هذه خديجة عليك آتية يا محمد ومعها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا قصب فيه ولا نصب .

واضح أن الصوت يكلم محمدًا عن زوجته «خديجة»، اتسعت عينا «ماسا» لأنها فهمت ماذا يعني صاحب الصوت، تلفتت حولها بلا معنى ثم عادت لتصغي السمع في قلق، وظلت ملصقة أذنها الجنية في الجدار مدة طويلة حتى جاءتها صرخة باكية من الداخل، كانت هذه «فاطمة» بنت محمد وخديجة؛ تبكي على «خديجة» التي يبدو من صياح «فاطمة» عليها أنها ماتت، وأبصرت «ماسا» حولها لترى جميع الألوان قد ذهبت فصارت الرؤيا سوداء و بيضاء، ونبض الهواء نبضة وجاءها الألم فأمسكت رأسها وانطلقت تهرول في الطرقات ترتمي من جدار إلى جدار، وتسمع بين ذلك وذلك من أحاديث الناس في الدروب عن خديجة.

عن التي كان قلبها أول قلب آمن بمحمد من قلوب الخلق، عن الغنية البهية التي أذهبت مالها كله عن طيب خاطر برًا بمحمد، عمّن صبرت حتى تعجبت الآلام من صبرها، فمات أول ابن لها من «محمد» وكان اسمه «القاسم»، ثم مات ابنها الثاني من «محمد» وكان اسمه «عبد الله» ، صغيران لم يبلغا الحولين.. وكانت بعد ذلك تسمع من يرمي «محمد» بالكلام ويلمزه بأنه أبتر منقطع الولد، عن التي تحملت حصارًا أليما لسنوات أذاقها وأهلها وأطفالها الجوع وهي التاجرة الغنية... ولم تكمل «ماسا» سماع بقية الأحاديث إذ سقطت على الأرض .

وصحت وهي محمولة على أكتاف الجن وقد وقفوا يسألون حول الكعبة، ولا أثر لمحمد! قالت لهم: يا معشر الجن، إني سمعتُ محمدًا وكأنه يُحدّثه واحد من الـ... ثم سكتت مُحدّقة ناحية الكعبة، فرأت في رؤياها التي تتداخل مع الواقع رجلًا كهيئة «محمد» كان جالسًا ثم سجد، فانطلقت إليه على الفور في رؤياها لكن ثلاثة رجال فاسقين في الرؤيا كانوا قد سبقوها إليه، كان الفساق

قد تجرأوا على «محمد» بعد موت عمه «أبو طالب». فانفلت أشقى هؤلاء الرجال الثلاث على «محمد» وكان اسمه «عقبة بن أبي معيط» وكان رجلًا شقيًا مجنونًا؛ هجم على النبي وهو يصلي وأخذ بمنكبه و لوّى له ثوبه حول عنقه فخنقه خنقًا شديدًا يريد أن يقتله!. واستضحك الرجلين الذين معه بسخرية وكانا هما التوأمين الخبيثين، عتبة وشيبة بن ربيعة، وتراجعت «ماسا» شاخصة بعينها حتى سمعت عن يمينها صوت أقدام تركض بغضب فنظرت إلى صاحبها، كان رجلًا يرتدي رداء واسعًا، وكان طويل الشعر تنسدل ضفائره من طولها على كتفيه، وثب على المعتدي ودفعه بقوة فأسقطه وصاح فيهم :

- ويحَكُم أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟

ابتعد الرجال وهم يتهكّمون بصوت عالٍ كالسكارى، فقال بعضهم لبعض: من هذا؟ قالوا: هذا «أبو بكر» المجنون.. فاقتربت «ماسا» إلى «محمد» و«أبو بكر» حتى إذا أتتهما وجدتهما سرابًا كأن لم يكونا!، ونظرت حولها لتجد الجن لازالوا يسألون والناس لازالوا يهزون رؤوسهم.. ثم ظهر لها في رؤياها العجيبة «محمد» ساجدا في مكان آخر ونفس الرجال يقتربون منه ويتغامزون، وجعل بعضهم يميل على بعض، ثم فجأة ألقوا بين كتفيه أحشاء شاة مذبوحة، وبقي «محمد» ساجدًا كما هو لا يقوم حتى جاءت ابنته الكبرى «زينب» تجري مفجوعة فأزالت الأحشاء عن كتفيه وهي تبكي.

كانت «ماسا» فقط تريد أن ترى وجهه، تملّكها الفضول لتراه فكانت ترفع عنقها وتخفضه وتنحني لذلك، لكن زوايا رؤياها لم تكن تجعلها تبصر وجهه أبدًا، وكأنه لا يرى وجهه شيطان، كانت ابنته «زينب» تبكي وتزيل عنه الأذى، بينما «محمد» يقول لها :

- أي بُنية لا تبكين، إن الله مانع أباك.

وفجأة اختفى كل هذا كالسراب من أمام عين «ماسا» وانتبهت عينها إلى حقيقة ما يحدُث حولها، كان الناس كلهم ينظرون إلى منادٍ آتٍ من بعيد وهو يصيح:

يا معشر قريش، إن محمدا ليس بينكم، إن محمدًا يدعو إلى ما يدعو إليه عند صنم اللات المقدس، يا معشر قريش، إن محمدًا في الطائف!

نزل الجن إلى الطائف في ثانية واحدة قد تزيد قليلًا وحملوا معهم «ماسا».. وقدموا إلى اللات فوجدوها صخرة بيضاء كبيرة مُربّعة منقوشة يعبُدها الناس، وتوجهوا ناحية أقرب رجل يدعو أمام الصخرة، فسأله «إنيان» بتلك العمة التي يضعها ويظهر منها شعره الأشقر: هل رأيتَ ذلك الرجل الذي خرج فيكم يدعوكم إلى ترك عبادة هذه الصخرة بأنها لا تضُر ولا تنفع؟ نظر له الرجل بُرهة ثم قال: لا أدري، ومن يجرُؤ على قول هذا في حق اللات.. وفجأة أمسكت به يد فولاذية من خلفه، ورفعته كما يُرفع الطفل، فنظر الرجل مُرتعبا لصاحب اليد فإذا هو «ميتاترون»، متمثل في هيئة رجل ضخم الجسم يرتدي جبة تغطي رأسه ينظر إليه بعينين وكأنهما قُدّتا من صخر فأهبطتا قلب الرجل إلى قدميه!، وإن هيئة «ميتاترون» البشرية تبدو أشد رُعبًا من هيئته الجنية.. قال له «ميتاترون»:

- إنك لذاكر لنا من أمر ذلك الرجل كل ما علمت أو لألطخنَّ هذه الصخرة البيضاء التي لا طائل منها بدمائك القذرة.

فزع الرجل وأشار إلى ناحية بعيدة وقال: هناك، هناك رأينا رجلًا غريبًا ومعه غلام له وحولهما كثير من الضجة، وأقسم أنني لا أدري ما يزيد عن هذا.. ترك «ميتاترون» تلابيب الرجل وانطلق السبعة إلى المكان الذي أشار إليه، كان المكان فارغا، وإن كانت هناك آثار أقدام كثيرة على الأرض، وبينما هم ينظرون في الآثار إذ وجدوا بينها آثار دماء تلطخ الأرض وتلطخ الحصى والحجر، فلما رأت «ماسا» هذا المشهد صرخت صرخات متقطعة مفجوعة وقامت تتخبط وتدور حتى أتاها نظرها بمناظر لا يراها غيرها، وكانت مرهفة الحس ففجعت مما رأت .

رأت أن هناك رجال ونساء وصبيان قد اصطفّوا إلى صفين وازدحموا كتفًا بكتف، ورأت محمدًا من بينهم يمشي وبجواره غلامه «زيد بن حارثة»، ولأن موقع وقوف «ماسا» كان بالضبط عند موقع وقوف «محمد» و«زيد» بين الصفين فإنها كانت ترى مشهدا مُرعبًا لأناس اصطفوا صفين من الناس حولها، وجوههم فيها سفاهة وسخرية وأغلبهم من الصبيان الذين يتطاولون، ثم إن وجوههم قد تبدلت ملامحها وتجرأت عيونهم وأيديهم وطفقوا يحملون من حجارة الطريق ويرمونها بقوة على «محمد» و«زيد»، وقلدت الصفوف بعضها وأصبح الكل ينحني ليلتقط حجارة ويرميها على «محمد» ويتنافسون!. وفجعت

«ماسا» من مرأى الحجارة التي تُقذف من كل جانب، ونظرت إلى «محمد» وصاحبه فإذا هما قد انحنيا وأكملا المسير والحجارة تلحق بأجسادهما، وكان «زيد» يغطي بجسده على «محمد» وكأنه لا يكترث بنفسه على الإطلاق، وكان يخفي وجه «محمد» عن عيون «ماسا» التي وقفت وسط هذا المشهد مفجوعة تصرخ بجنون.

وتخضبت أقدام الحبيب «محمد» بالدم وسالت على نعليه وهو يمشي ثم فجأة وقع على الأرض وشُجَّ رأس زيد شجة صارمة أبعدته قليلا عن «محمد»، فرفع «زيد» رأسه ناحية الشمس ووقع على ظهره، واندفع من سفهائهم اثنين أخذا بعضد «محمد» و«زيد» وأقاموهما ودفعوهما ليمشيا، ليس رحمة بهما ولكن لتستمر الحجارة في رجمهما، وتكاثرت الحجارة حتى كان «محمد» لا يرفع قدما ولا يضعها إلا على حجارة .

وسمعت «ماسا» سبابًا وشتمًا وسخرية تأتي من بين الصفوف ترجم آذانهما وقلوبهما.. وصرخت «ماسا» من فجيعة قلبها وأرادت أن تخرج من الرؤيا، فأخذت تشد بشرتها وتضع رأسها على الأرض ولا تسمع إلا أصوات الحجارة والسباب ولا تشم إلا رائحة الدماء على الأرض، وأثقلتها البلية فلم تقدر على الزحف خارج هذا التجمع، وبقت تسمع إلى صيحات صبيان وترى بطرف عينها «محمد» و«زيد» يتحركان إلى ناحية من النواحي بصعوبة بالغة، ووضعت أصابعها في أذنيها وأغمضت عينيها بقوة حتى أتتها صفعة على وجهها وانقبضت قبضة على شعرها ورفعتها، كان هذا «ميتاترون» قد سئم من مرآها تصرُخ وتتلوّى، فنظر لها بغضب وقال :

- تصرُخين وتصرخين وأنتِ مجنونة عديمة الفائدة، أين الرجُل؟

نظرت «ماسا» إلى ناحية معينة، فرأت كهيئة «محمد» و«زيد» من بعيد يستندان على جدار، فخلصت نفسها من «ميتاترون» وركضت ناحيتهما بلهفة لم تعهدها في نفسها، نظر الجن إليها وإلى المكان الذي تجري ناحيته فوجدوه فارغًا، لكنهم ركضوا وراءها!، كان مشهد «محمد» يقترب من عين «ماسا» وهي تركض وتنظر إليه، وإن منية عينها كانت فقط أن تراه، رؤيا أو حقيقة، وكانت الشمس في وجهها تحرق عينها فلم تهنأ برؤية وجهه، لكن حاله لم تكن تخفى على الناظرين، كان «زيد بن حارثة» قد نسي كل ما به من وانكبَّ على النبي الزكي يبكي ويمسح الدماء من على وجهه وجسده حتى أسنده إلى جذع نخلة،

ورفع صاحب التاج «محمد» رأسه إلى السماء وقد انكسر فؤاده.. كانت «ماسا» وحدها تراه في رؤياها بينما أصحابها من الجن يعاينون النخلة والجدار ويعاينون ما بهما من دماء، وكانت «ماسا» وحدها تسمعه.. ظلَّ «زيد» يمسح وجهه ويربت عليه و«محمد» ينظر إلى السماء، ثم قال قولة لم تسمع «ماسا» مثلها في حياتها الجنية كاملة؛ لم تسمع مثل هذا من إنس ولا من جن.. قال «محمد»:

- اللهم إني أشكو إليك ضعفَ قوتي، وقلَّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقَت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك.

ظلَّت «ماسا» متسعة العينين من وقع الكلمات على أذنيها وفهمها.. أي ربٍّ جليلٍ يُناجي!، نظرت إلى السماء، ثم نظرَت إليه فوجدته قد استحال سرابًا، ركضَت تنظر هنا وهناك، إلى سراب آخر قد تراه فيه، وظلت تركض حتى خرجت من حدود الطائف وأصبحت تجري في الصحراء على درب السفر، وتعجَّبت أن محمدًا وصاحبه قد طلعا من مكة إلى الطائف مشيًا على الأقدام، هداها فكرها بأنه ربما أراد التخفي عن أعدائه في مكة فلا يدرون عن سفره.. قالت لأصحابها: إن محمدًا قد أتى إلى هنا متخفيًا وغلامٍ له معه، ولكن أهل هذه البلدة قد طردوهما ورجمُوهما بالحجارة حتى سالت دماؤهما، وإنه وغلامه مشيًا من هذا الطريق عائدين إلى مكة... ثم صمتت فجأة أمامهم وأخذت تسمع في انبهار ثم نظرَت إلى السماء!، بدا أنها تسمع مثل ذلك الصوت الذي سمعته داخل بيت «محمد»، بدا أن الرؤيا أتتها هذه المرة على هيئة أصوات فقط تحدثت في هذا المكان، كان ذلك الصوت يقول: يا «محمد» إن شئت أطبقتُ عليهم الأخشبين.. فقال له «محمد»: بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم من يعبُد الله ولا يُشرِك به شيئًا .

توقفت «ماسا» عن المسير، الأخشبين؟ هل يتحدَّث عن جبلين؟ يود لو يطبقهما على القوم، من الذي يُحدِّث محمدا؟ هل يُحدِّثه ربه؟ لا، إن «محمد» كان يرد على الصوت ويتحدث عن عبادة الله لا شريك له، ثم إن الصوت

مُختلف عن ذلك الذي كان يحدثه في بيته، لكنهما من نفس الفئة، وهي تعرف هذه الأصوات، تعرفها من رحلاتها السابقة إلى السماء مع من كان يصعد، هذه أصوات الملائكة، الملائكة المفترض أنها لا يسمع حديثها إلا الجن، ولو تحدَّثت فلا تتحدث إلا إلى نبي مثل «لوسيفر».

كانت «ماسا» متشربة في قلبها عقيدة «لوسيفر» عن الله، وعن رسل الله من الإنس، بأنهم مجانين، وبأنه لا يوجد لله رسول إلا «لوسيفر» الجني القديم، لكن رؤياها عن «محمد» تحكي كلامًا لم تعتَدْ عليه!، إن الجنون ليس هكذا، لكنها نفضت عن رأسها هذه الأفكار بقوة مُتذكِّرةً عقيدتها التي تربَّت عليها، وفتحت عينها ونظرت للسائرين حولها.. قال «الأرقم»:

- من هناك يا أبناء نصيبين، إن محمدًا وغلامه يستريحان عند جدار لبستان قرب الطائف، بستان لعتبة وشيبة بن ربيعة.

اتسعت عينا «ماسا» فور أن ذكر الاسم.. وأنزلت رؤياها في روعها وجهين تذكرتهما فور أن رأتهما، هذين الذين كانا يستضحكان وصاحبهما يخنق محمدًا لما سجَد، وهذين الذين رميا أحشاء الشاة عليه وهو يسجد، أهو يستريح عند بستانٍ لهما!، أصابتها خفقة في فؤادها لم تفهمها وتحرَّكت تجري إلى المكان الذي يُشير إليه «طيفون»، تجري إلى «محمد»، لكنها لم تجده هنالك، أتراه قد اغتيل؟ وأي فرصة لأولاد ربيعة كبراء قريش لقتله إلا الآن؛ مُنهَكًا لا يحميه أحدٌ من أنسابه وأنصاره، مسافرًا لن يعلم أحد بمروره هاهنا، كانت تنتظر شيئًا من الرؤيا، ولقد لمحت أن هذا جديد على نفسها، لطالما كانت الرؤيا هم وغم وألَم تمسك رأسها في أثنائها، لكنها الآن تتوق لها، نفضت هذه الخواطر لما أتى أصحابها يتفقدون المكان في يأس .

كانوا دومًا أبطأ من «محمد» بخطوة واحدة، ولقد تفقَّدوا حائط البستان، ولقد تنسَّمت أنوفهم عنده المسك، وعندَ ذلك نزلت «ماسا» على ركبتيها ونزلت عليها الرؤيا فانفصلت عما حولها، وهناك رأته؛ فجأة رأته كأوضح ما تكون الرؤيا، جليا غير مستتر ولا مُلتفت ولا مستدير، بل قد أنزلتها الرؤيا مباشرة قبالة وجهه، فنظرت إلَيه واللهفَة تقطر من كل عين، فلما رأته رجفت، كالذي يرجف من شيء بذل من عمره عشر سنوات يبحث عنه حتى إذا بلغ به اليأس انبلج الشيء أمامه بغتة، أو كالذي يرجف وهو ينظر إلى شيء يعلم يقينًا أن

السماء قد تغيَّرت وأمطرت شهبانها لأجله، أو كرجفة يرجفها من يتوقع شيئًا جليل المنظر فإذا نظر كان الشيء أجل وأبهى، ولقد شغلتها رجفاتها عن الانتباه والنظر فتمالكت نفسها ثم حدّقت إلى وجهه.

كان يملك وجهًا بهيًا، أبيضًا صافيًا كأن بشرته صِيغَت من الفضة، وضَّاءة مشربة بها حمرة الصحة، كان يجلس عند الجدار ويسند رأسه عليه، كان في الخمسين من عمره ولا يبدو كذلك، وسيم الملامح مستقيم الأنف سهل الخدين ذو عينين واسعتين طويلتي الأشفار، عليهما حاجبين قويين شبه متصلين، يعلوهما شعر أسود فاحم طويل يفرقه يمنَةً ويسرة ينسدل من خلفه إلى كتفيه، في وجهه استدارة تزينها لحية لا يزيد طولها عن قبضة اليد، مسرحة معتنى بها يخلو الشيب منها تقريبًا، وشارب غير كثيف في أعلاها.

ظلَّت تملأ عينها من عينه ووجهه وكان يقلقها أن تخرج من رؤياها.. ولكن الرؤيا استمرَّت وانفتح باب البستان ورأت ظل رجل يخرج منه!، ففزعت، يبدو أنهم سيقتلوه الآن عند بستانهم، اقترب الظل حتى دخل في مجال رؤياها فإذا هو غلام يحمل في يده طبقا من العنب، ولقد تحرك ناحية «محمد» في شيء من التأدُّب وقدَّم له الطبق وقال له:

- إن اسمي عداس، إليك هذا العنب أيها المسافر.

نظر له «محمد» ثم مدَّ يده إلى الطبق وقال كلمات لم تسمَعها «ماسا» ثم بدأ يأكل.. كانت «ماسا» تنظر وقد استغرب منها كل شيء، نظرت من وراء الباب فرأت الأخوين عتبة وشيبة ينظران إلى الغلام من الداخل ويتهامسان، غلب على ظن «ماسا» أن العنب مسموم، فنظرت إلى «محمد» فإذا هو لا يزال بخير حال، كان الغلام يقول لمحمد :

- والله إن هذا الكلام الذي سمعتُكَ تقوله قبل أن تأكُل لا يقوله أهل هذه البلاد أيها المسافر.

قال له «محمد»:

- ومِن أهل أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟

قال له الغلام :

- أنا نصراني، من أهل نينوى.

قال له «محمد» :

- من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟

بدا الغلام وكأنه قد أخذته المفاجأة فقال :

- وما يدريك ما يونس بن متى؟

قال له «محمد» :

- ذاك أخي، كان نبيا، وأنا نبي .

وكان «يونس» من الأنبياء المذكورين في التوراة والذين يؤمن بهم النصارى.. فأقبل الغلام على النبي «محمد» يُقبِّل رأسه ويديه وقدميه، وأخذ يُحدثه ويحتفي به وبدأت الرؤيا في الزوال ولم تسمع «ماسا» ما تلا ذلك... وأفاقت فإذا أصحابها من الجن قد وقفوا عند باب البستان يُحدِّثون «عداس» ويسألونه عن «محمد»، وهو يشير إليهم إلى جهة درب السفر ولا يبدو من ملامحه وملامحهم أنه قد أفادهم بشيء، وعاد الجن وقد يئسوا تمامًا ونظروا جميعًا إلى درب السفر الذي أشار له الغلام، درب صحراوي لا يدرون عنه شيئًا، ولن يعرفوا أي طريق سيسلك وإلى أي بلد سيتوجَّه، أهو عائد إلى مكة بعد أن عرف أهل مكة بأمره، أم أنه ذاهب إلى مكان آخر هو وغلامه، نظروا إلى «ماسا»، فنظرَت إليهم هي الأخرى بنظرات ملؤها الفراغ، وطفقَ الجن يمشون ورؤوسهم إلى الأرض في الطريق، ولقد كادَت الشمس أن تغيب وكادت أن تغيب معها كل حميتهم.

تحدَّث «الأرقم» بعد طول صمت وقال :

- لا يجب أن نسير مجتمعين، سأسير بأبناء نصيبين ناحية مكة، ويسير «ميتاترون» بأبناء نينوى إلى الناحية الأخرى، فإنا لا ندري أي طريق سلك، ربما عاد إلى مكة وربما أكمل طريقه بعد الطائف ليكمل دعوته، وإنه قد بقي لنا من رحلتنا الطويلة هذه خطوة واحدة، وإنا لا يجب أن نتأخر خطوة وراءها .

قال له «ميتاترون» مختصرًا وقد بدأ يتحرك مع «سيدوك» و «بليعال»:

- إذن نلتقي في مكة بعد حين .

وافترق الجن إلى ناحيتين؛ يمين و شمال، وكان أهل اليمين جن نصيبين.

تحوّلوا إلى هيئتهم الجنية لأن ذلك أيسر في البحث عن أثر المسير.. كل الطرق كانت متشابهة في الصحراء وفي ذلك كانت حيرتهم، في جميع السنوات السابقات كانوا ينتقلون شيطانيًا من مدينة إلى مدينة أو إلى قرية، أما الآن فهم في وسط صحراء يفترض أن يبحثوا عن شخص ما فيها، وإن أي أثر على الرمل في الصحراء تذهبه الرياح. كنت لترى أربعة من الجن بينهم جنية أنثى يمشون في الصحراء عند مغرب الشمس يبحثون عن «محمد».

- والله إنكم في مسيرتكم المعوجة هذه ليبلغن محمدًا أفق الأرض وأنتم هاهنا تصطدمون في بعضكم البعض.

نظر الأربعة وراءهم بدهشة فاقت كل حد!. من ذا الذي يرى هيئتهم ويعلم ما يلتمسون، حتى إذا اكتملت التفاتتهم رأوه، كان متكئًا بظهره إلى تلة من التلال، يرتدي ملابس غريبة ويغطي فمه بلثام، ويبدو شعره الأصفر الطويل موحيًا في غروب الشمس، وقبل أن يفرغوا من دهشتهم فرغ هو من اتكاءته وخطا ناحيتهم.. فقال له «الأرقم» في صوتٍ قوي:

- من أنت بالضبط؟

قال الرجل وهو ينظر له في ثقة :

- «عمرو»، «عمرو بن جابر».

قال له «إنيان»:

- إنس أم جان؟

قال له «عمرو» :

- ويحَك أويَرى الجن غير الجن؟

ثم تقدَّم منهم «عمرو» وهم ينظرون له في تحيُّر وهو ينظر إلى «ماسا» بغمزة خفية وهو يقول :

- حقًا إن بعض طوائف الجن تؤرِّقني حماقتها، إذا ائتمروا بأمر ينجزونه ولو تركوا في سبيل ذلك كل شيء وأفنوا في ذلك السنون الطوال، وقد يكون الأمر تافها في عينه .

قال له «الأرقم» بغضب :

- إنها الطوائف التي أخلصت قلوبها للأمير «لوسيفر» وهؤلاء لا يفهمهم من هم أمثالك.

تحرّكت زاوية عيني «عمرو» بالابتسام وهو يقول :

- ألم تعلموا من سؤال الناسِ أنه قد وُلدَ وبُعث ودعا إلى دعوته وآمن به من آمنٍ وكفر به من كفر؟ لم لم تعودوا إلى أمركم الأمير فتُخبروه، أليس قد علمتم العلة التي نزلت الشهب لأجلها ؟

قال «إنيان»:

- لم نره بأنفسنا، ولن نعود إلا ....

قاطعه «الأرقم» وقد لمعت عيناه بالغضب وتأهّب للعدوان :

- كيف علمتَ بكل هذا أيها الجساس، هيئتكَ لا تبدو من كبار الجن الذين أمروا بهذا الأمر المقدس للبحث عن النبي، وحتى أولاء لن يتعدوا الأرض التي يبحثون فيها إلى أرضنا التي كلفنا بها .

قال له «عمرو بن جابر»:

- إنني من المُعمّرين، فهل سمعتَ عن المعمرين يا صاحب الشعر الأحمر؟

تراجع الجن مأخوذين.. وقد كان المعمرون طائفةً معروفة لكنها شديدة الندرة في عالم الجن، قد يعيش الواحد منهم ألف سنة أو ألفين، يكونون من أفضل جنود إبليس... تقدّم «عمرو بن جابر» ناحيَة «الأرقم» ووقف أمامه في مغالبة و قال بلهجة شديدة الهدوء:

- وإني أعلم بأمر «محمد» من أربعمائة عام، أيام كنت أنت ذرة لم تُولَد ولا يُعرف لك اسم .

سكتَ «الأرقم» ووجل والكل ينظرون إلى «عمرو» الذي كان يقول دون أن يلتفت إليهم :

- إني آخذكم إلى «محمد» عند الفجر، وإنكم لتنصرفوا من هنا إذا رأيتموه أو لأعيدنّ رؤوسكم رطبة إلى من أرسلكم.

ولم ينتظِر منهم إجابة، بل تحرّك مباشرة إلى اتجاه معين، وتحركوا وراءه جميعا.

موضع واحد فوق سَمْك السماء العالي، كان هو مقصد جميع رحلاتنا للسماع والاستماع، موضع اسمه بيت العزة، تعلّمنا من نبينا «لوسيفر» أن الملائكة تمُر على ذلك الموضع السماوي مرتقين ومنحدرين، وأن موضعه في السماء فوق ذلك البيت الذي بناه آدم في الأرض بعد أن خرج من الجنة، البيت الذي سماه البيت الحرام، ثم طمسه طوفان نوح، ثم رفع إبراهيم قواعده من بعده فهو قائم إلى هذا اليوم، البيت الذي يُسمونه الكعبة، فوقه تمامًا يكون الموضع الوحيد في السماء الذي يمكننا منه أن نسمع كلام الملائكة، وليس أحد يعرف لغة الملائكة.

لكن «لوسيفر» علّمنا إياها، فكنا نسمع ونعرف ما يقال، إن «لوسيفر» يعرف كل شيء، لذلك نحن نتبعه ولذلك نحن تابعوه ولو بذلنا أرواحنا، هو العالم الأمير المنير لشأفة هذا الكون.

في أيام معيّنة من نهر الزمان الطويل، نجد أننا إذا لمسنا السماء طالبين الصعود إلى بيت العزة للاستماع، نقابل في صعودنا إليه شيئًا يحيرنا وينكّدنا ويؤيذنا ويقتُلنا!

كائنات طيرية مُلتهبة كأنها مخلوقة من لفائف اللهب، جميلة المنظر طويلة الذيل تحوم حومًا فوق السحاب وتملأ السماء من كل موضع، إن أحسّت فقط بواحد من الجن يقترِب فإنها تنقض عليه وتذهب به وتُهلكه على الفور، طيور ضارية جارحة، طيور من طيور الجن نسميها الفينيكس، تملأ السماء كالحرس الشديد الفاتك.

فإذا وجدنا طريقنا وغافلنا تلك الطيور وصعدنا إلى موضع السماع، أُحيط بنا وقُذفنا من كل جانب بوابِل من الشهب الحارقة تلهب صفحة السماء، ونحن أعلم بالسماء.

في كل موضع من مواضع السماء في هذه الدنيا، توجد شهور معينة ينزل فيها وابل من الشهب، وشهور أخرى تكون السماء صافية، لكن تلك الأيام المعينة في الزمان، عند ذلك بيت العزة بالتحديد، تكثر الفينيكس كالحرس الشداد، ويكون هناك وابل من الشهب غير مسبوق، ولا يقدر أحد منه نفاذًا أبدًا.

علمنا نبينا «الوسيفر» أن هذا إنما يكون في الأوقات التي يدّعي الأنبياء من البشر أنهم أنبياء، حينها يغضب الله ويظهر غضبه في تلك الشهب وغمرة ذلك الطير الجني صفحة السماء.

حتى جاءت تلك الليلة؛ ليلة أصبح نفر من الجن يُؤرّخون السنين بها؛

وإن ما حدث في تلك الليلة عجيب!

(١٥)

أنصتوا..

في مكان اجتمعت فيه النخيل بأشجار الموز، وجرت فيه من العيون ماءً عذبًا.. دخل نفَر من الجن متتابعين وقد تلهَّفوا لرؤية الرجل الذي أمشاهم قطعة عظيمة من الأرض يبحثون عنه، وكان الوقت في الغداة قبل شروق الشمس، وهم كانوا وراء «عمرو بن جابر» يمرُّون بين الأشجار.. قال لهم «عمرو»:

- لم يعُد صاحبكم إلى مكة بل لقد استراح هنا في وادي نخلة بين مكة والطائف.

قالت له «ماسا»:

- ولماذا لم يعُد إلى مكة إلى أصحابه بعد أن عمل فيه أهل الطائف ما عملوا؟

نظر لها «عمرو بن جابر» بُرهَة وكأنها قد أوحشَته ثم قال:

- لقد أرسلَ أجلافُ الطائف إلى قريش في مكة يخبرونهم أن محمدًا أتاهم يدعوهم إلى دينه، وكانت مفاجأة لقريش فما كانوا يعلمون بسفره، لأنه سافر خِفية عنهم بعد أن يئس من استجابتهم لدعوته، ولما أذيع الخبر في مكة غضب سادتها وأقسموا ألا يدخلوه مكة، وعلى الفور انطلق نفر من أصحاب «محمد» يلحقون بمحمد خشية أن يناله أحد، واجتمع به أصحابه هنا في وادي نخلة .

قال «الأرقم»:

- وأين هم بالضبط؟

قال «عمرو» :

- سيخرُجون الآن من منامهم ليصلوا صلاة الفجر.

Mostafa
Mortaja

قالت «ماسا»:

- أين هم عازمون، هل سيعيدونه إلى مكة ؟

قال لها :

- بل لقد فضَّل المصطفى المحمد أن ينزلوا جميعًا بعد الفجر إلى سوق عكاظ لأنه قد انعقد، فيدعون القبائل المجتمعة هناك إلى الإسلام .

قال «إنيان»:

و ما هو الإسـ...

قاطعَه «عمرو» بإشارة من يده، فتوقَّف الكل ونظروا إلى ما ينظُر إليه، فإذا حشد من الرجال قد وقفوا متجاورين كتفا بكتف، مغتسلين يقطر من جبينهم ماء، يجتمعون إلى ثلاث صفوف، وجميعهم تكتفت أيديهم على صدورهم وأحنوا رؤوسهم وخفضوا أنظارهم إلى الأرض بتذلل واضح، وعلى رأسهم رجل يقودهم يقف في صف وحده.. نظرت إليه «ماسا» فعرفته على الفور، إنه «محمد»، علا صوت «محمد» وتنغم بترتيل تشوفت له الطيور في مخابئها، وجميع الصفوف وراءه يقفون في تأثر، ووقف الجن غير بعيد يستمعون، وقال بعضهم لبعض: أنصِتوا، واسمعوا.. ورتَّل «محمد» بصوت عالٍ:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ * قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾.

ثم قال الله أكبر بصوت قوي ثم ركع الكل، وقال الله أكبر فقام الكل، ثم قالها فسجد الكل وقاموا ثم سجدوا، ثم قالها فقام الجميع ينتظمون واقفين كانتظامهم الأول، وتلا «محمد» بصوت متأثر: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وهنا

صاح الكل بصوت واحد زلزل قلوب الجن، (آمــين) ... كان الجن ينظرون وقد وجلت قلوبهم، إن المرة الأولى التي ترى فيها هذا الشكل تجعل عينك ترقب رغمًا عنك، وعقلك يتساءل رغما عنك: من أولاء الذين يُمرّغون وجوههم في التراب ويقفون كأن على رؤوسهم الطير، ولكن ما أثار قلوب الجن وهزها أكثر هو الكلام الذي يُرتله «محمد»، إنه من النوع الذي يـ ...

قاطعهم فجأة ترتيل «محمد» وهو يقول: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ * فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾.

نزلت «ماسا» جاثيةً على ركبتيها وقد تبلَّلت بشرتها بالدموع.. ثم سندت على الأرض بمرفقيها راكعة، ومرَّغت وجهها في تراب الأرض ونادت: إلهي، إلهي ملك السماء، إلهي مالك هذه الأرض ومالك قلبي، غُفرانًا يا ربي غفرانًا.. نظر لها الجن وليس بالهم معها، كان بالهم مع «محمد» وأصحابه، لم يكن ما رتَّله سهلًا أبدًا بل قد مسَّ في قلوبهم طوفانًا من العقائد الخربة.. كان «الأرقم» بمنظره الحكيم يبدُو مسبلًا يديه إلى جانبه ويذكر لقطات بعينها، لقطات له ولأصحابه هؤلاء في جوف السماء وقد حاصرتهم الشهب من كل مكان، ثم تذكَّر «كين» كاهن نصيبين، وتذكر كيف كانوا يتلُون عليه ما تعترضه أسماعهم من أحاديث في السماء يسمعونها ولا يرون قائليها، ولهم في تفسيرها مذاهب، ويزيدون فيها مائة كذبة ثم يلقونها إلى«كين» ويصدقهم مبهورًا، وتذكر «الأرقم» أحاديث الجن في عالمه عن « سليمان»، لم يعلم بشر عن هذا الكلام، لا يهود ولا نصارى، الآن يسمعه مرتلًا، «سليمان» الذي سخَّر الجن، وطوائف الجن كلها تقول بل هو سحر الجن.

نظر «الأرقم» إلى «إنيان» فوجد عينه قد احمرَّت من البكاء، وإلى «طيفون» ذو المظهر القاسي والفك المكسور واللهب الذي خبا. ونظر إلى «محمد» وهو يُكبِّر والكل يُكبِّر معه ويركعون ويسجدون، وأفاق على يَد تهزه، كان هذا «عمرو بن جابر»، نظر له بتحنن وبشيء من الرفق قال له: يا أرقم، ألم يان الأوان كما وعدّتني، أن تنصرفوا إلى من أرسلكم؟ قال له ودمعٌ يُغالب مقلتيه ليظهر: يا عمرو هل أسلَمت؟ أومأ «عمرو» برأسه أن نعم.. خفض «الأرقم» عينه إلى الأرض، قال له: يا بن جابر إنا سمعنا قرآنًا عجبًا، يهدي إلى الرشد، وإنا آمنا به يا «عمرو»، ولن نُشرِك بربنا أحدًا، وأنه تعالى جد ربنا عن كل ما قيل لنا وقيل، سبحانه ربنا ما اتخذ صاحبةً ولا ولَدًا... ثم قال بقوة أخذت فؤاد «عمرو»: أما سفيهنا الذي أرسلنا فلقد كان يقول عن الله ما فيه جور وكذب، وأنا لما سمعنا الإنس يقولون عن الله كما يقول، لم نظن أن الكل يكذب، وأنا نشهَد أن لا إله إلا الله، ونشهد أن محمدًا رسول الله.

قال له «عمرو بن جابر»: عودُوا يا أرقم إلى عشيرَتكم، وادعوا من استطعتُم منهم إلى دين الله، وادعوهم أن يأتوا إلى رسول الله.. نظر «الأرقم» إلى أصحابه فوجدهم قد قاموا ونفضوا عن أنفسهم التراب والدموع لما سمعوا مقولة «عمرو»، وتهيأ الكل عازمين على الرحيل، ونظروا إلى «محمد» وصحبه نظرة أخيرة ثم التفتوا إلى وجهتهم، ولم تكتمل التفاتتهم إلا وقد وجدوا وراءهم عيونا تنظُر لهم بقسوة، «ميتاترون»، و«بليعال»، و«سيدوك».

لم يكونوا ينظرون لأبناء نصيبين نظرات هادئة أو معاتبة، بل كانت نظرات تقطُر شرًا ورغبة مجنونة في القتل، قال لهم «سيدوك» وكان يبدو مُخيفًا بلونه الأسود وشعره الأبيض:

- أتتبعون أباطيل البشر يا أرقم، أبعد كل ما مررنا به؟

قال له «الأرقم» بقوة :

- انظُر إلى فطرتكَ يا سيدوك، انظر إلى فطرتك ودع عنك ما كانوا يلقنونك إياه، انظر إلى فطرتك.

قال لهم «بليعال»:

- ولقد قررتُم فيما يبدو أن تعودوا لتُفسدوا على قومكم طرائقهم. إن قولتكم هذه وحدها تميتكم هنا تحت قدمي.

قال له «إنيان» بغضب :

- ابتعِد عن طريقنا، وقولوا لسفيهكم الذي بعثَكم أن الأرض والسماء فيهما رب واحد عادل، وأنه ليس نبي هذا الرب كما يدعي، وأننا قد أسلَمنا وجوهنا إلى ربنا وإلى رسول الله، وأن سفاهته لم تعُد تحتال علينا.

قال له «بليعال» بثورة:

- أتقول عن عظيمنا سفيهًا، ما سفه إلا وجهك.

أما «طيفون» فقد كان يتوهّج لهبًا، وفكه يتوهج لهبًا، وعيونه تتوهّج نقمة، وقلبه يتوهج إيمانًا. وفي تلك اللحظة لم يكن ينظر من الدنيا إلا إلى «بليعال»، وما فعله فيه «بليعال»، وبدت ملامحه شديدة الغضب والبغضاء، ولقد أستوَت قدمَيه على الأرض وصار يزوم بصوتٍ ناقِم، وتبدَّلت ملامحه إلى الغيظ واندفع ثائرًا إلى «بليعال» وتوهجت قبضته باللهب، ولوح بها ثم لم يتركها حتى نزلت إلى قلب «بليعال» الذي اتسعت عيناه من الحرق والفجأة!. ونظر إلى «طيفون» مشدوهًا وتراجع الكل من أثر اللهيب، ثم أخرجها «طيفون» من قلبه وتركه يكب على رأسه وجعل جسده يذوب ذوبانًا. وزادت ثورة «طيفون» وتساقط من عينيه الشرر ونظر بشرره إلى «ميتاترون» الذي كان يتابع ما حدث بهدوء مثير.

واستوَت قدمي «طيفون» إلى الأرض مرة ثانية وكأنه يُشعل نفسه لهبًا وتهيأ ليندفع اندفاعة أقوى من اندفاعته الأولى، لكنه فجأة توقف وكل لمحة في ملامحه قد خبَت واندهشت، وشوهد «ميتاترون» يمُر بجواره مرورًا متهاديًا ولا يتحرَّك له طرف، وخرَّ «طيفون» على الأرض جاثيًا، وتقطعت أجزاؤه كأنها قد تصدعت بألف سيف!، وخبا لهيبه وهوى في التراب، وجحظت عيون كل من كان يرى، فلم ير أحدهم «ميتاترون» حتى يُحرك يدًا، ولم يلحظوه يفارق موضعه إلا وهو عند «طيفون»!، وكأن عيونهم لم تلتقط سرعته .

تحفز «الأرقم» و«إنيان» وشدًا عزائمهما.. لكن يد «عمرو بن جابر» أثنتهما عن أي شيء يُفكران فيه، وقال لهما: عودا إلى مكة وانتظرا النبي، فإذا جاء ادعوه واشهدوا على يديه بإسلامكم، وإن الأنبياء يرون الجن، فإذا أسلمتُم على يديه فانطلقوا إلى نصيبين وبلغوا رسالات ربكم.. ثم نظر إلى «ميتاترون» الذي حوَّل وجهه الفضي إليهم وأكمل: فإنكم إن بقيتُم هنا فلن يبلغهم من بعدكم أحد، واتركوا أبناء السفيه لي فإني سأعصمكم منهم.. قالها وعينه لا تفارق «ميتاترون» و«سيدوك».

ولم يُفكِّر «الأرقم» و«إنيان» إلا ثوان.. ثم نظرا إلى «ماسا» فإذا هي مُمدَّدة على الأرض تبكي من الوجد، فالتقطها «الأرقم» على كتفه ونظر إلى «طيفون» بحُزن وانطلق ومعه «إنيان» مبتعدين عن المكان وعن البلد؛ انطلقَوا عائدين إلى مكة .

بعد أيام عشرة.. عاد «محمد» إلى مكة، أدخلوه بعد أن دخل في حلف رجل من قريش، فأمضى فيها بعض الليالي ثم جاءت ليلة واختفى «محمد»، بلا أثر ولا خبَر!، وفجع كل أصحابه إذ فقدوه بعد أن كان معهم في أول الليل، وأخذوا يلتمسونه في الأودية والشعاب، كانت المرة الأولى التي يختفي فيها من بينهم بلا أثر، وتناقلت ألسنتهم من روع قلوبهم أنه استطير أو اغتيل، وخرجت جماعة منهم تبحث في الجبال وفي القفار، فإذا قتل لربما وجدوه مقتولا، وغزت العبرات أعينهم والدمعات واحترقت قلوبهم حنقا، وتلاوموا وتجادلوا، أن يختفي رسول الله من بينكم وأنتم جلوس، وباتوا شر ليلة بات بها قوم، وما وجد النوم إلى عيونهم سبيلا، فداروا في آخر الليل يتحرَّونه حتى أصبح الصبح عليهم وقد أنهكوا، وفجأة وجدوه، جاءهم من ناحية جبل حراء، فهرعوا إليه،

كان في خير حال، ولقد بين لهم في كلمات قليلة أين كان، ولقد اتسعت عيونهم مما قال اتساعًا.

قال أنه لما جنَّ الليل وانسدلت ستائره، وخلا بنفسه إلى نفسه في تلك الليلة، استأذن عليه رجل ليس كأي رجل، رجل لم يسمعه أحد ولم يرَه أحد. رجل من الجن، وليس إلا الأنبياء يرون الجن، أتى الرجل للنبي ودعاه: يا رسول الله ائتِ فإن نفرًا من الجن يريدون أن يسلموا على يديك ويسمعوا ما نزل من القرآن.. فأجاب النبي دعوة الرجل وأتى النفر من الجن.

وكانت ليلة جلس فيها «الأرقم» و«إنيان» و «ماسا» تحت جبل النور وقد أوقدوا نيرانهم وتحلقوا حولها.. وإذا «عمرو بن جابر» قد أقبل ومعه رسول الله. فتهللت قلوبهم وقاموا يتعثرون في لهفتهم والتفوا حوله وداروا وأحدقوا به وكأن عيونهم لن تنظر إلى شيء بعده، وقد تخضبت أشفارهم بالدمع وقلوبهم بالوجد. فقالوا له ما قالوا وقال لهم ما قال وعلمهم وتعلموا وقرأ عليهم كل ما نزل من القران فيما سبق من السنين العشرة، ولقد استمعوا وأنصتوا فوجدوه يتحدث إلى عقولهم وفطرتهم، بأن الله واحد وكل ما عبد الناس من دونه زائل لا يملك من أمر نفسه شيئًا، طينًا كان أو حجرًا ونارًا وجنًا، واستمعوا إلى صفات ربهم الذي يملك كل شيء وخلق كل شيء .

وعرفوا قصة سفيههم وكيف حقد على بني آدم، وكيف طرده ربه وأبلسَه فصار إبليسًا، لأنه رفض السجود لآدم.. وكانت قصة لم ترد في التوراة، وأن «إبليس» لا يملك من النور شيئًا كما يتباهى عند قبيله، وأن الله هو نور السماوات والأرض، عرفوا أقاصيص جميع الأنبياء تفصيلًا، «آدم» و«نوح» و«إبراهيم» و«موسى» و«عيسى» و«مريم» وأدركوا خبر«سليمان» والنمل وما سخر به أسلافهم من الجن، ووجلت قلوبهم لما سمعوا ما نزل من سورة الجن وقد ذكرت اجتماعهم وسماعهم للقرآن وإيمانهم به، وذكرت أمورًا دقيقة عن اتخاذهم مقاعد للسمع في السماء ورجمهم بالشهب، وجلوا لأنه ليس على الأرض إنس في الحاضرين أو السابقين تكلم عن هذا الأمر، لكن الله يسمع ويرى، ولقد آمنوا بالقرآن ودخل إلى شغاف قلوبهم فنور منها كل مظلم وكسر في أفقهم كل خرف وعبث صدقوه يومًا .

وقبل أن ينصرفوا، قال «الأرقم»: يا رسول الله إنا قوم لا نخالط الإنس ونعيش في كل خلاء على الأرض قد خلا منهم، ولنا في خلائنا زادنا وطعامنا،

وإنا إذا مكثنا هاهنا سنخالط المسلمين أعواما لنسمعهم ونتعلم منهم. فيا رسول الله سَل الله لنا الزاد إذا خالطناكم.. فقال له النبي: لكُم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفَر ما يكون لحمًا، وكل بعرة من دوابنا تكون علفًا لدوابكم.

ورجع الثلاثة إلى نصيبين، يتلُون ما علَّمهم ربهم ويتحدثون به، وينورون به قلوبًا من الجن، ما استطاعوا إليه سبيلًا...

وأتى موسم الحج.. وهو عند العرب الجاهلية أشهر ثلاثة، يتوافدون فيها إلى مكة يزورون البيت الحرام، يتعبَّدون إلى أصنامه التي حوله، ويتذللون لهم، ويطوفون بالبيت عراة كما ولدتهم أمهاتهم.. ووسط كل هذا كان «محمد» لازال يدعو، وكأن قلبه قد اغتسل من اليأس إلى الأبد، كان يتحين شهور الحج هذه، فمن جميع بقعات الجزيرة العربية تأتي القبائل، كان يأتيهم إلى منازلهم ويدعوهم ويجادلهم ويقرأ عليهم القرآن، و«عمرو بن جابر» يتبعه كاتباع الظل، يسمع إليه ويتعلم، وليس للجن أن يتعلم إلا بالسماع، حتى أتى ذلك اليوم..

كان «عمرو» يمشي قريبًا من النبي مُتهيأ في هيئة بشرية، كهيئة رجل مُلثَّم أصفر الشعر يخفي أكثر شعره، كان النبي يمشي ويتكلم مع القبائل ووراءه رجل مشرق الوجه في عينيه حوَل ينادي في الناس أن «محمدًا» صابئٌ كذاب، النبي يقول يا بني فلان إني رسول الله إليكم أدعوكم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به، ولما يفرغ من كلامه يقول الآخر من ورائه يا بني فلان هذا رجل يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى إلى ما جاء به من الضلالة فلا تسمعوا له ولا تتبعوه.. كان «عمرو بن جابر» يعرف مَن هذا الرجل الوسيم الأحول، كان ذاك «أبو لهب» عم النبي غير الشقيق.

وبينما «عمرو» يمشي إذ أحسَّ بشيء في السماء فنظر إلى الأعلى فجأة، فإذا السماء قد انشقت شقًا يسيرًا وخرج منها رجل شديد بشاعة الوجه عليه عباءة سوداء وقلنسوة سوداء طويلة، يسير فوق الناس وينظر. ولا ينظر إليه إلا «عمرو بن جابر»، وقال بدهشة وغيظ: يا إلهي هذا «إزب».. كان الناس حول «عمرو» ينظرون إليه بتعجُّب كأنه مجنون، كان النبي ساعتها يُكلم قبيلة بني

عامر يدعوهم، وهي القبيلة الوحيدة التي قبلت أن تتناقش مع النبي بعد أن رفضته جميع القبائل في ذلك الحج. قال أكبرهم: أرأيت إن نحن بايعناك على هذا الأمر يا محمد، ثم نصرك الله على من عاداك وصرتَ إمام هذه البلاد، أتكون لنا الولاية من بعدك؟ سكت النبي ثم قال له: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء، إنا لا نولي هذا الأمر أحدًا سألَه أو حرص عليه .

نسي «عمرو» أمر «إزب» وأخذت الأفكار تعصف بإدراكه، أيترك «محمد» فرصة كهذه لنصرته وليس من القبائل من ينصره إلا هؤلاء، فلتكن لهم الولاية لهم من بعده ما المشكلة.. وانصرف «بنو عامر» من عند «محمد»، كانوا يريدون من الأمر نصيبًا ومصلحة لهم، أما «محمد» فكان يريد أن على الذي يحمل هَمَّ الإسلام أن ينسى مصلحة نفسه، الحريص على الولاية لا يأخذها، عاد «عمرو» ينظر إلى «إزب» فوجده يبتسم له بتشف وقد بدت بشاعة أسنانه، يتشفى أنه لا أحد قد استجاب لرسول الله.

ومرَّت من الزمان سنة.. وعادت الوفود إلى الحج، وعاد النبي إلى دعوتهم، ولكنه أصبح يدعوهم بالسر هذه المرة، يخرج إليهم في الظلام ومعه صاحبه «أبو بكر»، ولم يؤمن به أحد.. حتى انتقل إلى مجلس كان يجلس فيه ستة من الرجال، قال لهم: من أين الرجال؟ قالوا: من يثرب.. قال: من حلفاء اليهود؟ قالوا :نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى.. فجلس إليهم وحدَّثهم عن الله وقرأ عليهم كلام الله فانشرحت له صدورهم واستبشروا وأسلموا جميعًا من فورهم.. وقالوا لبعضه: يا قوم، تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقونكم إليه.. ونظر «عمرو» إلى «إزب» ساعتها فوجده مغمومًا وكأنه في عزاء، فاستبشر «عمرو» خيرًا، فإن الستة قالوا للنبي: سنقدم على قومنا من الأوس والخزرج يا رسول الله فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، وإنا قد تركنا قومنا هؤلاء ولا قوم بينهم العداوة والشر مثل الذي بين الأوس والخزرج حتى كادت حروبهما أن تفنيهما، فعسى الله أن يجمعهم بك .

ثم مرَّت من الزمان سنة أخرى.. وأتى الستة وقد أصبحوا اثني عشرة، وجلسوا إلى النبي عند مكان يدعى العقبة وبايعوه جميعًا بيعة أولى، على أن يستمسكوا بأصول هذا الدين، ألا يشركوا بالله وألا يعملوا السيئات ولى ألا يعصوا رسول الله... ومرَّت من الزمان سنة ثالثة وأتى الاثني عشرة وقد صاروا

سبعين كلهم من أهل يثرب، واستخفوا من قومهم الذين أتوا معهم وكأنهم آتين إلى تجارة.. وخرجوا جميعًا في جنح الليل ليقابلوا رسول الله، وحرصوا أشد الحرص على ألا يراهم أحد من أهل مكة أو من قومهم من الأوس والخزرج.

وجلسوا كلهم إلى رسول الله والليل يخفيهم.. وبشَّروه أن الإسلام قد انتشر في يثرب حتى كاد يبلغ كل دار، وبايعوه البيعة الثانية، على السمع والطاعة وعلى النفقة لإعلاء هذا الدين في العسر واليسر وعلى أن ينصروه إذا هاجر إليهم.. نظر إليهم «عمرو بن جابر» بنظرة فيها من الغيرة الشيء الكثير، وتذكر أصحابه في نصيبين، أتراهم قد أسلم معهم أحد؟ أم أن أبناء نينوى قد ظهروا عليهم وقتلوهم؟.. وأفاق من غيرته على صوت صرخة كأنها أتت من أعماق الجحيم، صرخة بدا أن كل أهل مكة سمعوها، نظر «عمرو» إلى مصدر الصرخة فرأى صاحبها، كان ذاك «إزب» يرفع رأسه بحسرة وألَم إلى السماء ويصرخ، ولم يره أحد سوى «عمرو بن جابر» و «محمد»، لكن كل من في المكان سمع صوته، ولم ينته بعد الصرخة، بل إنه قال بصوتٍ عالٍ ينادي في الناس:

- يا أهل المنازل إن مذممًا -محمدًا- والصبا معه قد اجتمعوا على حربكم، يا أهل المنازل، أدركوهم.

وانكشف أمر المبايعين، وقبض المسلمون على سيوفهم وهم يبحثون عن مصدر الصرخة، فقال لهم النبي: هذا «إزب ابن أزيب».. ثم رفع صوته قائلا: أتسمع أي عدو الله لأفرغن لك.

ثم قال لمن معه: اذهبوا إلى رحالكم.. فقام أحدهم وقد أخذته العزة وقال للنبي: والله الذي بعثك بالحق إن شئتَ لنميلن على أهل هذه المنازل بأسيافنا.. فقال له النبي: لم نؤمَر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم.. و نظر «عمرو بن جابر» إلى «إزب» فوجد أنه قد انصرف وكأنه لم يكن!، ثم نظر إلى النفر حول رسول الله ينصرفون ويسلمون عليه ويعدونه بالنصرة في بلدهم يثرب.. ورفع «عمرو» رأسه إلى ناحية الشمس مستغرقًا فيما يفكر، فالتقطت عينه مشهدًا لا يدري أهي الحقيقة أم أنها الشمس قد أزاغت عيناه.

فهناك وعلى جبل الحجون.. وقفت فئات من الجن على أبواب مكة يركبون دوابًا بيضًا تشبه الأحصنة لها قرون على رؤوسها، وأمامهم ثلاث جياد يعلوها

«الأرقم» و«إنيان» و«ماسا»، كانوا على رأس ستين راحلة، على كل راحلة نفس جنية من نصيبين آمنت بالله وأسلمت لرسول الله وتاقت لرؤيته.

وانطلق «عمرو بن جابر» من فوره إلى «محمد» مُبشِّرًا. أنا قد أتينا من نصيبين بستين من الجن مسلمين.. ففرح بهم رسول الله وخرج إلى أصحابه مستبشرًا، وقال :

- إن نفرًا من الجن يأتوني الليلة فأقرأ عليهم القرآن، فمن أحب منكم أن يحضر الليلة أمر الجن فليفعل .

فلم يقُم أحد من أصحابه إلا رجل نحيف يعشق القرآن يقال له «ابن مسعود».. قال: أنا أذهب معك يا رسول الله.. فانطلق معه حتى حبستهما الجبال في أرض فضاء وسطها، هناك خط له النبي برجله خطا في الأرض وقال: لا تبرَح حتى أعود إليك.. وانطلق النبي إلى ناحية جبل الحجون و«ابن مسعود» ينظر إليه وقد فتح عيناه عن آخرهما وظنّ أنه سيرى الجن، لكنه لا يرى الجن إلا نبي، لكن النبي دعا في هذه الليلة أن يكون له مرافق، ولابد للمرافق من مزية لن تكون لسواه، ونظرة واحدة أخرى من «ابن مسعود» خلعت قلبه من موضعه وأسكتت أفكاره .

لمحت عينه كيانات سوداء شبه بشرية كأنها الظلال تهبط الجبل يحدرون الحجارة بأقدامهم من حول النبي.. ظلال في بيئة لا تتكون فيها الظلال، ظلال وسط ظلام من حولها وهلال باهت في السماء لا ينفذ منه ضوء، وإن لمحة العين البشرية لشيء كهذا تجعل صاحبها يرجع البصر مرتين لعل البصر قد شرد، وفي اللمحة الثانية وجد الظلال قد برزت لظهورها مثل أجنحة والتقط سمعه صوتًا كأن الظلال تمشي برفرفها، وكأن العقل قد استنكر ما رأته العين وظنها نسور، ثم اتسعت عينا «ابن مسعود»، إن لبعض النفر من هوازن نسور يربونها، أتراهم هوازن قد مكروا برسول الله واجتمعوا لقتله!، وحدثته نفسه أن يسعى إلى البيوت فيستغيث بالناس، وهمَّ بالتحرك فتذَكر وصية رسول الله له ألا يفارق ذلك الخط، فبقي مكانه كارهًا، ونظر فإذا الظلال قد اشتد سوادها و كثرت وغشيت النبي فاختفى عن النظر، ولاحظ أن لكل ظل كيانًا وجناحًا وكل الظلال طويلة كأنها الرماح وكلها تتكاثف على رسول الله، ثم رأى وكأن الظلال قد ابتعدت بغتة والنبي يرفع عصا كانت معه ويقول: اجلسوا.. وكأنهم بعد مقولته سكنوا وخفضوا أجنحتهم!، ثم افتتح النبي القرآن، فظل يقرأه حتى اقترب الصبح .

ولما فرغ سمع «ابن مسعود» لغطًا شديدًا فخاف على النبي لكنه ثبت مكانه حتى انشق الصبح فطفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين منصرفين من حول رسول الله يتبع بعضهم بعضًا، وجاءه رسول الله فقال له: أنمتَ يابن مسعودٍ؟ قال: لا والله يا رسول الله، ولقد هممتُ مرارًا لأستغيث بالناس حتى سمعتُك تقرعهم بعصاك.. قال له: أولئك جن نصيبين أتوا يستمعون القرآن.. فقال له «ابن مسعود»: وما اللغط الذي سمعت؟ قال له النبي: اجتمعوا إليّ في قتيلٍ كان بينهم فقضيتُ بينهم بالحق .

ولعلَّ الجن كانت تستشير النبي في أمر قتيلهم «طيفون» الذي قُتل قبل أن ينطق بالشهادة بين يدي رسول الله، أو ربما كان لهم قتيل آخر لا أحَد يدري!. لكن جن نصيبين عادوا إلى بلادهم مبشرين ومُنذرين، واستعدَّ النبي للخروج من مكة إلى يثرب مهاجرا واستعدَّ المسلمون ليتبعوه.

وافترقت الجن إلى ثلاث طوائف؛ طائفة عادت إلى نصيبين تدعُو إلى دين الله، وطائفة هاجروا إلى يثرب ليكونوا مع رسول الله ويتعلّموا منه وهؤلاء كان معهم «ماسا» و «إنيان»، والطائفة الثالثة بقيت في مكة تستطلع أخبار قريش بعد الهجرة مخافة أن يكونوا قد أضمروا في أنفسهم شرًا للمسلمين في يثرب.. وهذه الطائفة الأخيرة كان معهم «الأرقم» و«عمرو بن جابر»، ولقد حدث معهما ما حرَّك من مشاعرهما الشيء الكثير!، إذ كانا عند سفح جبل النور يمشيان فخرج عليهما شيطانين ماردين، فهمَّ «الأرقم» أن يرفع سلاحه، فقال أحد الشيطانين:

- أنتما من جن نصيبين؟

تجاوز «عمرو بن جابر» «الأرقم» وقال مباشرة:

- من أي الجن أنتما؟

قال أحدهما :

- إن في جزيرة العرب جنا يمشون في أرجائها يذبحون كل من استشعروا من سلوكه أنه أسلم لدين محمد، وانا قد أسلمنا لله تعالى.

برزَت في ذهن «الأرقم» وصاحبه صورة «ميتاترون» و«سيدوك»، فأكمل الجني قائلا:

- إنا قد أتينا نبحث عن رسول الله في مكة فما وجدناه، فإن كنتُما من نصيبين فأعلمونا أين يمكن أن نجده .

قال لهما «الأرقم» :

- إن محمدًا وصحبه قد هاجروا إلى يثرب فإنهم قد وجدوا فيها أنصارًا، ولقد بنوا لهم فيها مسجدًا وصارت لهم موئلا. فأبشروا واستبشروا، ولا تقلقوا فإنكم في حفظنا.

فرحت قلوبُ الجن وابتهجت ملامحهم، وقال أحدهما :

- إني كنتُ في الهند مرتحلا، رفيقًا لكاهن عربي إنسان ينزل هناك كل حين، كان اسمه سواد بن قارب، وكنت أسمع من خبر السماء وآتيه به، حتى أتت ليلة كنت أسمع فعاجلني شهاب ففررت منه وتلبدت السماء بالشهب شهرًا من الزمان، ففارقت كاهني وسحت في الأرض لا أدري ما أفعل حتى لقيني من أهل نصيبين رجل دعاني إلى الإسلام فأسلمتُ قلبي لله ورسوله، واني قد أتيتُ كاهني سواد بن قارب فوجدته نائمًا فألقيت في منامه أحاديث، قلت له قم فافهم واعقل إن كنت تعقل، قد بُعث رسول من لؤي بن غالب، عجبت للجن وأخبارها تهوي إلى مكة تبغي الهدى، وما مؤمنوا الجن كأرجاسها، فانهض إلى الصفوة من هاشم، واسْمُ بعَينَيكَ إلى رأسها، يا سواد بن قارب إن الله قد بعث نبيًا فانهض إليه تهتد وترشد، ففَزِع الكاهن سواد وقام من نومته ثم عاد إلى نومه، فكان كلما يعود ألقي عليه بمثل هذه الأحاديث، ثم انصرفتُ عنه وفارقته.

وكان الجني الآخر يسمع متأثرًا من كلام صاحبه ثم قال بعدها:

- أما أنا فآت من يمان، وكان لي كاهن أوتي بسطة في الجسم وكان عاتيًا في الأرض، وكان اسمه خنافر، وكنت آتيه بالأخبار ثم غبت عنه فافتقدني وساءه ذلك، وكان الله قد هداني للإسلام بحكاية يطول الكلام فيها، وبينما كان كاهني في واديه إذ هويت كالعقاب أمامه فقلت له يا خنافر لكل مدة نهاية وكل ذي أمد إلى غاية، وإني آنستُ بأرض نصيبين نفرًا

يتلُون كلامًا ليس بالشعر المؤلف ولا السجع المتكلف فأصغيت، ثم أتيتهم فقلت ما هذا فقالوا هذا خطاب من الملك الجبار فقلت وما هذا الكلام، قالوا فرقان بين الكفر والإيمان، رسول من مضر من أهل المدر، ابتعث فظهر وجاء بقولٍ قد بهر، فيه موعظة لمن اعتبر ومعاد لمن ازدجر، فقلت ومن هذا المبعوث، قالوا أحمد خير البشر، ثم تركت كاهني .

قال «الأرقم» :

- أما وقد هداكما الله إلى الإسلام، فاعلما أن الشهر الذي أُرسلَت فيه الشهُب من سمائها، إنما كان شهرًا يدعى رمضان، واعلما أنهاَ أُرسلت في ذلك الشهر لأنه نزل فيه القرآن من عند الحكيم العليم، حفظًا من أسماع السماعين من الجن، فكانت رجومًا لهم، وإنا كنا أمثالكم نسمع من السماء ما نسمع، وكان لنا كاهن يدعى كين، وكنا نلقي إليه ما نلقي حتى هدانا الله .

وسمعوا مِن ورائهما حركة فالتفتوا فإذا هي «ماسا» و«إنيان».. كانت «ماسا» مستبشرة يعلو محياها السرور على غير ما اعتادوا عليها، وكأنها بعد «محمد» قد تفتَّحت زهرة قلبها فلم تعد تصرخ ولا تغتم، كانت فرحة كالطفلة وهي تقول للأرقم :

- أتدري يا أرقم، إنا قد رأينا في المدينة عجبًا عجابًا .

قال لها «الأرقم» :

- وما المدينة؟

قالت له :

- هي يثرب سماها النبي المدينة .

قال لها «عمرو بن جابر»:

- وماذا رأيتم من العجب فيها؟

قالت :

- أتدري أن كاهنين قد أتيا إلى رسول الله مسافرين من أقصى الأرض فقط ليؤمِنا ويشهدا بالإسلام على يديه، وذكرا أن رئيهما من الجن قد

أخبراهما عن النبي، أذكر أن أحدهما يدعى سواد، فلقد فوجئنا ونحن مع رسول الله برجل تبدو عليه آثار السفر يرتدي ملابس الكهان ويضع مكاحلهم، ولم نهتم به، إلا أن رسول الله قد التفت له وقال: مرحبًا بك يا سواد بن قارب قد علمنا ما جاء بك.. فسكت سواد مأخوذًا برهة ثم تهللت أساريره وقال: يا رسول الله قد قلتُ شعرًا فاسمعه مني.. فقال: أتاني الجن بعد ليل وهجعة ولم يك فيما قد بلوت بكاذب، ثلاث ليال قوله كل ليلة أتاك رسول من لؤي بن غالب، فأشهد أن الله لا شيء غيره وأنك مأمون على كل غائب، وأنك أدنى المرسلين شفاعة إلى الله يابن الأكرمين الأطايب، وكن لي شفيعًا يوم لا ذو شفاعة بمغن عن سواد بن قارب.. فضحك رسول الله وقال له: أفلحتَ يا سواد .

تبسَّم «الأرقم» ونظر إلى أحد الجنيين الذين عنده وقال :

- قد أفلح سواد كاهنك وانه قد جاء الوقت لتُفلِح أنت أيضًا برسول الله.

تخضَّبت عيون الجني بالدمع من الشوق، فنظرت إليه «ماسا» معجبة وأكملت:

- أتذكر يا أرقم لما كنا في رام هرمز ونزل علينا إنيان من الجبل يحدثنا بأمر «سلمان» والرهبان في ذلك الدير، الذين عرفنا من كلامهم أن النبي في تهامة .

نظر لها «الأرقم» موافقا فأكملت :

- إن سلمان ذلك الفتى الصغير قد رمته الأيام إلى يثرب بلد النحيل ينتظر رسول الله، وإذ برسول الله يأتي إلى يثرب فيهرع إليه «سلمان» ويُسلِم على يده، وهم يسمونه «سلمان الفارسي».

قال «عمرو بن جابر» وقد أخذه الوجد :

- يبدو لي يا أرقم أن الوقتِ قد حان، فالشوق إلى رسول الله في قلبي قد أزف، فتعال إلى المدينة نُجالسه حينًا من الزمن، ثم نعود إلى ما كنا نفعل .

كثير من الجن تبعوا محمدًا.. كثير جدًا، كان كلامه وأخباره تشيع كما يشيع نور الشمس، سريعًا كثيفًا يُفني كل ظلمة، فأصبحنا نحن أنفسنا ندور حول «محمد»، نحاول عبثًا أن نستخرج شيئا ما ضده، حتى كان لنا ما نريد، أو كاد.

من حسن بختنا أن العرب في لُغتهم العادية، يقولون كلمة شيطان على كل إنسان متمرِّد أو حيوان ضار خبيث، وفجأة سمعنا محمدًا يأمر أصحابه أن يقتلوا الكلب الأسود ذو النقطتين لأنه شيطان، هو كان يقصد أن يقتلوه لأن هذا الأسود ذو النقطتين في المدينة جارح مسعور ينقض على الإنسان والطفل وينهشه بفكّه في ضراوة، لكنا أمسكنا بها وعُدنا إلى قومنا.. انظروا إن محمدا يُخبر أصحابه أن الكلب الأسود شيطان، انزلوا إلى المدينة وانظروا كيف يقتل أصحاب «محمد» الكلاب السود.. يا بني الجن إن «محمد» نبي كاذب، فالجن يعلمون أنهم لا يقدروا أن يتمثلوا بالكلاب إطلاقًا.

ثم دارت الأيام وأمسكنا علّة لغوية أخرى.. لكن تلك أمسكناها وأطبقنا عليها وجعلنا كثيرًا ممن آمنوا يرتابوا!

العرب تقول كلمة الجن على نوع من الحيّات الخبيثات السامات.. وكلمة أسلم عند العرب لها استعمال مشهور بمعنى لدغ، فيقولون فلان أُسلم يعني تم لدغه، والحية أسلمت يعني لدغت، ولما كثرت تلك الحيات التي يسمونها جنا في المدينة ولدغت الناس.. قال «محمد»: إن بالمدينة جنًا قد أسلموا، فإن رأيتم شيئًا من هذه العوامر فآذنوه ثلاثًا، يعني حذروه ثلاثًا، فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان.. وكم فرحنا بهذه القولة، وكم صعدنا بها آفاق مدائن الجن.

هو كان يقول إن في المدينة جنا (حيات) قد أسلموا (لدغوا)، فإذا رأيتم شيئًا من هذه العوامر (الهوام التي تدخل البيوت) فآذنوه (حذروه) ثلاثا، فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه، فإنما هو شيطان (حية خبيثة)، وكان هذا شيئًا عاديًا أن تُحَذِّر الحيوان فيهرب، الحيوانات تفهم البشر، فإذا لم يهرب الحيوان فإنه خبيث ينوي أن ينال منك، لكنا أشعنا في الجن أن محمدًا يقول بين أصحابه أن الجن يتمثلون في شكل حيات ويلدغون ويقتلون الناس.

لقد انتهت هذه الصحائف من الإيستوريجا، وانتهى معها مبلغ علمك لهذا الوقت، وإنك قد نلتَ علومًا وعلمتَ أحداثًا ليس أحد من بني إنسان رآها ولا عرفها، إن أول طريقة تسود

بها على الناس هي أن تكون أعلَم منهم، عندها تسبقهم وتبهرهم، وإن تعلمت علومنا فأنت المختار.

وطالما بلغت هذا الحد في الصحائف فهذا يعني أنك قد اخترت الطريق، أو اختارك الطريق.

الصحائف التالية ستكون حاكية أمورًا لم يُصدّقها في ذلك الزمان جن ولا إنس.. عن طريقة بزوغ شيء اسمه الإسلام، ملاحم وشدائد، خطوب ونوازل، غيّرت وجه الدنيا كلها، ستشهد الصحائف التالية أمورًا عظامًا، سأعطيك منها قبسًا..

أهوَل تلك الأمور وأفخرها نزول سيدك «ظام» إلى نهر الأحداث...

وتجلي الأمير «الوسيفر» في سمة لم تُعرف له من قبل، وحكايته منذ خروجه من جنة عدن، وإسلام «ميتاترون» و«سيدوك» في قصة لا تصدق!.

وملحمة «عمرو بن جابر» و«إينور بنت آمون»..

وحسم صراع «عمرو» و«إزب بن أزيب» بموت أحدهما..

وحسر الحجاب عن إنسان مسيخ، لابث في الأرض محتجب، يعرفه قبيل الشياطين باسمه العالي، «أنتيخريستوس»، نزل فجأة إلى المدينة و...

تلك أقاصيص أخرى..

المرسم

الأرقم

إنيالز

إينور بنت آمون

طيفون

عمرو بن جابر

عمرو بن جابر ٢

مايا

كنا ملائك

يا بني إبليس إن الناس قد سجدوا لنا وركعوا طالبين المدد ..
خشعوا لنا في كل عيد كافرين وكل عقل قد فسد ..
الغيب نسمعه والسحر نرضاه واليوم جئناكم بنبأ قد وجد ..
يا قومنا إنا علونا السحاب يوما فحرّقَنا شهاب ثاقب للجسد ..
فنكصنا على أعقابنا والنار في أدبارنا وأميرنا بالجوانح قد فرد ..
السخط في ملامحه والحقد يغشاه وكل جن عنده قد حشد ..
يا بني شيطان سيروا في الأرض فانظروا في كل بادية و بلد ..
تالله إما رسول نازل في بني الإنسان أو عذاب قد رصد ..
يا بني آدم اعلموا أقداركم إنا صحبنا الرسول غفلة من كل أحد ..
دعوناه في ليلة ظلماء حالكة فغاب عن صحبه وأهله والولد ..
فضيع الناس الرسول وفزعوا وباتوا في حزن شديد وكمد ..
فأتاهم من صباحهم الرسول وحكى لهم عنا بالوحي و المدد ..
وأراهم رسولهم آثارنا وحطبنا ونيراننا عالية بالمسد ..
وأنا كنا ملائك لسنا ملائكة وما عبدنا إلا الواحد الأحد ..
وأن في هذه الدنيا أجناس لا تُرى ، نفوسا تهيم بلا جسد ...
وأن سيرتنا قد أنورت و أبهرت في كل أسطورة عاشت إلى الأبد ..
وأن هذا أوانها لنحكيها ونسردها فتبلغ كل ذي عقل و رشد ..

أحمد خالد مصطفى

مشهد من ملائك نصيبين

الجزء الثاني:

قاد الجن موكبهم إلى المدينة.. وفي ثوانٍ ثمانية كانت أعينهم ترى نخيل المدينة الذي على أعتابها، كانوا مصفوفين على خيولهم الست قرب مسجد النبي.. وهمَّ «عمرو» بالمسير لكن «الأرقم» أشار إليه أن يتوقف تمامًا!، ففي تلك اللحظة نظر الجن إلى مشهد أصدر في قلوبهم الرعب.

كان يمشي وعلى كتفيه عباءة ملونة بكل ألوان الأرض.. بشعره الطويل ووجهه الحليق وثيابه السود ونظرته الحادة، كان هذا «لوسيفر» وعلى جانبيه تابعاه «ميتاترون» و«سيدوك»، ولقد نظر «لوسيفر» إلى موكب نصيبين نظرةً طالت وحملت كلمات تنقلها ملامح تبعث الرهبة.. ونظر إليهم «ميتاترون» بنظرات جامدة فيها شيء من التوعُّد، ثم أكمل «لوسيفر» وتابعَاه، كان متوجهًا ناحية المسجد النبوي، مباشرة.

أشار بيده لتابعيه أن يتوقفا.. ودخل «لوسيفر» بغتَةً إلى المسجد، ودبَّت الخشية في أوصال أبناء نصيبين على رسول الله ونزلوا عن رواحلهم وانطلقوا كقطع من البرق يلحقونه إلى المسجد.

وعند باب المسجد نظروا فإذا الصلاة قائمة والنبي يصلي بأصحابه.. والتفَّ «لوسيفر» حول المصلين حتى بلغ رسول الله، ثم إنه أخرج يده فإذا فيها مثل شهاب مُلتهب من نار ومدَّها إلى ناحية النبي، وهمَّ الجن أن يهتجموا عليه وإن فقدوا حيواتهم ثمنًا لذلك، وفجأة جحظت عينا «لوسيفر» كأنما حانت قيامته وتطاول الجن ليروا ما حل به، فإذا «محمد» قد قبضَ على رقبته قبضًا

شديدًا ورفعه مُتعلّقًا في الهواء، ثم شدَّ على رقبته بقبضته حتى سالَ لعابه وسالت معه كبرياء آلاف السنين، سقطت وتناثرت كلها على ذراع «محمد»، وانبهرت قلوب الجن بُرهة حتى تركه «محمد» فشرد من المسجد يجُر عباءته بألوانها .

ولما فرغ «محمد» من صلاته سألَه أصحابه :يا رسول الله رأيناك تبسُط يدك في الصلاة.. فقال: إن عدو الله «إبليس» جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي فأمكنني الله منه فأخذتُ عنقَه فخنقتُه فإني لأجد برد لسانه على كفي، ولقد هممتُ أن أوثقه إلى سارية حتى تصبحوا فتنظروا إليه، ولولا دعوة أخي «سليمان» (رب اغفر لي وهَب لي مُلكا لا ينبغي لأحد من بعدي) لأصبح مربُوطا يلعب به ولدان أهل المدينة.

وتبسَّمَت ثغور أبناء نصيبين.. وعلمت الجن مَن المذموم المدحور، ومَن الشريف المكرم...

تنويه وشكر خاص

يتم العمل على إنشاء و تصميم و برمجة لعبة فيديو على الكمبيوتر و البلاي ستيشن لرواية ملائك نصيبين باسم Angels of Nasibeen و ستكون الجزء الأول من سلسلة ألعاب بنفس الاسم لنفس الرواية .. يحكي الجزء الأول من اللعبة الجاري تصميمه الفصلين الأول و الثاني من الرواية بتفاصيل أكثر غير مذكورة في الرواية و يكون البطل في اللعبة أسعد الكامل .. تكون اللعبة ثلاثية الأبعاد على طريقة Assassin's Creed و Devil May Cry

يتم تطوير اللعبة من قبل شركة Zorkestra وهي شركة أنشأها المؤلف أحمد خالد مصطفى حديثا مع مصمم الألعاب التونسي الموهوب ماهر عبد المجيد الجويني ومقر الشركة في تونس